صيحة

في سبيل العربية

مقالات من أجل نهضة العربية وثقافتها

للدكتور محمود محمد الطناحي

(١٣٥٥-١٤١٩هـ = ١٩٣٥-١٩٩٩م)

تحرير وتعليق

أحمد عبد الرحيم

تقديم

د. حسن الشافعي

رئيس مجمع اللغة العربية المصري

مكتبة لسان العرب

أروقة

صيحة في سبيل العربية

مقالات من أجل نهضة العربية وثقافتها

للدكتور محمود محمد الطناحي
(١٣٥٥-١٤١٩هـ = ١٩٣٥-١٩٩٩م)

تحرير وتعليق
أحمد عبد الرحيم

تقديم
د. حسن الشافعي
رئيس مجمع اللغة العربية المصري

أروقة
للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

□ **صيحة في سبيل العربية**
مقالات من أجل نهضة العربية وثقافتها
تأليف : الدكتور محمود محمد الطناحي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٣٢ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٩٧/ ١/ ٢٠١٤)

مكتبة لسان العرب

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

لمراسلة المحرِّر :
araaheem@gmail.com
facebook.com /araaheem

فاتحة

الحمد لله رب العالمين. والصلاةُ والسلامُ، الأتَـمَّـانِ الأكْملانِ، على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأكرم.. وعلى آله وصحبه.

اللهمَّ إن علمَك بأحوالنا الخاصَّة والعامَّة مُغْنٍ عن سؤالنا.. وأنت العليمُ الحليم، اللطيفُ الخبير، الـبَـرُّ الرحيم، الـجَـوَادُ الكريم..

فاللهمَّ يا حيُّ يا قيوم، يا حَـنَّانُ يا مَنَّان.. أعطِنا أفضلَ ما تُعطي السائلين.

اللهمَّ أعطِنا من خير ما سألناك، ومن خير ما لم نسألْك، ومن خير ما سألك سيدُنا محمدٌ ـ ﷺ ـ وعبادُك الصالحون.

اللهمَّ أعِذْنا من شر ما استعذنا بك منه، ومن شر ما لم نستعذْ بك منه، ومن شر ما استعاذ بك منه سيدُنا محمدٌ ـ ﷺ ـ وعبادُك الصالحون.

اللهمَّ إنا نسألك رحمةً من عندكَ تَهدي بها قلوبَنا، وتجمعُ بها أمورنَا، وتَلُمُّ بها شَعْثَنا، وتُصلِحُ بها غائبَنا، وتَرفعُ بها شاهِدَنا، وتزكِّي بها أعمالَنا، وتُلهمُنا بها رُشْدَنا، وتَـرُدُّ بها أُلْفتَنا، وتَعصِمُنا بها من كل سوء.

اللهمَّ عَجِّلْ فرَجَنا التامَّ الشامل، وانهضْ بنا لمعالي الأمور وخَيْرَي الدنيا والآخرة.

اللهمَّ أتِـمَّ لمصر وللمصريين بالخير والأمن والرخاء.. ولسائر بلادنا العربية والإسلامية.

اللهمَّ احقنْ دماءنا، وصُنْ أعراضَنا، وآمِنْ رَوْعَنا، وانْـزِعْ من بيننا كلَّ حِقدٍ وبغضاءَ وظُلم، واحفظْ ديارَنا وبلادَنا من كل مكروهٍ وسوء.

اللهمَّ عجِّلْ بالفَرَجِ التامّ، والأمنِ العامّ، والرخاءِ الذي لا يستثني مخلوقاً من خَلْقك.

اللهمَّ ارزقنا تمامَ العافية ودوامَها، ويسِّرْ لنا بالخير جميعَ أمورنا، واشْفِنا وعافِنا، واشرحْ صدورَنا، ونَـوِّرْ قلوبَنا، واغفرْ ذنوبَنا، واستُرْ عيوبَنا، وسُلَّ سخائمَ نفوسنا، ووَفِّقْنا لما تحبُّ وترضَى من معالي الأخلاق والأعمال.

اللهمَّ دَبِّـرْ لنا.. فإنا لا نُحسِن التدبير، واكْلَأْنا كَلاءةَ الطفلِ: لا يدري ما يُراد به ولا ما يريد.

والحمد لله رب العالمين.

والصلاةُ والسلامُ، الأتَـمَّـانِ الأكْملانِ، على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأكرم، وعلى آله وصحبه.

تقديم(١)

د. حسن الشافعي

رئيس مجمع اللغة العربية المصري

ذكرياتٌ مع الطناحي

من «معهد القاهرة الديني».. إلى «مجمَع اللغة»

كان «معهد القاهرة الديني» في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، وهو أكبر صَرْح أزهري للدراسة دون الجامعية، منارةً كبرى للعلم والفن والوطنية، يموج بأكثر من أربعة آلاف طالب، لكثيرٍ منهم إسهام في الحياة الأدبية والدينية والفكرية.

ترى الدكتور محمود الربيعى (أستاذ النقد فيما بعد) وفى صحبته الشاعر السودانى

---

(١) تحمَّس شيخُنا الجليل حسن الشافعي (أمتع الله بطول بقائه، ونفع بعظيم عطائه، وتقبل منه سائر عمله بقبولٍ حسَن)، فور أن أخبرتُه بمشروع هذا الكتاب، لكتابة كلمةٍ عن صديقه وزميله القديم محمود الطناحي ـ رحمه الله ـ ، يؤدِّي بها رغبةً قديمةً في الكتابة عنه، حيث حال سفرُ شيخنا (كما ذكر، هو نفسُه، في هذه الكلمة) عن أن يكون في وداع صديقه الحبيب.

وإذْ تُرهقُ شيخَنا التزاماتُه وأعمالُه الكثيرة (في المَجْمَع، وكلية «دار العلوم»، و«هيئة كبار العلماء»، ودروسه بالجامع الأزهر.. وغيرها داخلَ مصر وخارجَها)؛ فلم يتهيَّأ له أن يقرأ الكتاب بعد فراغي منه، على رغبته في هذا كما أخبرني. لذا.. جاءت كلمتُه خالصةً عن ذكرياته مع الطناحي ورفاقهما منذ بدايات مرحلة الطلَب في «معهد القاهرة الديني»، وحتى رحيل الطناحي ـ رحمه الله ـ.

وأنبِّه هنا إلى أن جميع حواشي هذا التصدير هي من صُنْع المحرِّر.

محيى الدين فارس الذي تطالعك إبداعاتُه الشعريةُ في المجلة الأدبية الأولى بالقاهرة حينئذٍ.. مجلة الرسالة.

وتلقَى الشيخ محمد فتحي عبدالمنعم.. «أيقونة» الأزهر (وبعد ذلك: المتحدث الحجة في الشؤون الإسلامية، في باريس.. في معاهدها العلمية وملتقياتها الأدبية).

وقد يظهر الشيخ عبدالمنعم النمر، الذي رافق محمد أنور السادات (فيما بعد: رئيس جمهورية مصر العربية) في المعتقلات الإنجليزية أوائلَ الأربعينيات، أو الشيخ أحمد الشَّرَباصي صَنَّاجة[1] الدعاة في الأربعينيات والخمسينيات على الشُّرْفَة المعهودة بالمعهد منبراً للخِطابة.. فيجتمع عليها الشباب متجاوبين مع خطاب الحرية والوطنية.

وقد يظهر في هذا المقام الشيخ أحمد حسن الباقوري (فيما بعد: وزير الأوقاف، ومدير جامعة الأزهر) بمظهره الوسيم وفِكره الخلَّاب، فيمتلك نواصيَ القلوب بقدر ما هو متمكن من ناصية اللغة والبيان.

وقد يتسرب إلى هذا الموقع شاعرٌ ـ أو متشاعرٌ ـ كفيفٌ ظريفٌ، يصرخ شاكياً:

قولوا لشيخ المعهدِ   القِرْشُ فَرَّ من اليدِ
هاتِ «الجِرايةَ»[2] بالعَجَلْ   من قبل أن يأتيْ الأجلْ!

---

(١) الصَّنْج: آلةٌ موسيقيةٌ وَتَرية. وقيل هذه الوَتَرية آلةٌ عَجَمية، أما الصَّنْجُ العربي؛ فهو الذي يكون في الدُّفوف ونحوه. وأُطْلِق على الشاعر الأعشَى (أعشَى بني قَيْس) «صَنَّاجة العرب»؛ لجودة شعره.

(٢) «الجِراية»: رزق أهل الأزهر الشريف الجاري المنتظم. وكانت في الأصل عبارةً عن الخبز.. يُصَرف يوميًّا للطلبة والمشايخ «المجاورين» (أي المنقطعين لطلب العلم الشريف) في المعاهد الأزهرية تلك الفترة، وقبلها.. منذ زمانٍ طويل. وكان الغالب أن تكون «الجِراية» هذه من الأوقاف المرصودة للأزهر الشريف وطلبته وعلمائه، تُصرَف لكلٍّ بحسَب ترتيبه و«أقدميته» في المجاوَرة. ثم استبدل بالخبز نقودٌ (بتعبير شيخنا لي: قروشٌ قليلة)، تُدفَع لمستحقِّي «الجِراية» من الطلاب أولَ كل سنةٍ دراسية، وَفْق نظامٍ محدَّد. وكان هذا كله قبل قانون تنظيم الأزهر المعروف بقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م.

ويهرب عندما يشعر بقُدوم «شيخ المعهد» (الذي غيروه إلى «المدير» الآن)، الذي يقف أمامنا مُتَّـكِئاً على عصاه، ويقول فى بساطة: «قولوا لهذا الإنسان: عُمْرِ الشَّقِيْ بَـقِيْ![1] وستأتيك الجِـرايةُ قبل حلول أجلك بإذن الله».. وتصلنا «الجِـرايةُ» في اليوم التالي، ويصبح الشاعر المكفوف علَامةً بارزةً في هذا المجال!

... ...

في هذه السنين، التي واكبتْ ثورةَ ١٩٥٢م، كان لكاتب هذه السطور حظُّ التعرف إلى الأخ والصديق محمود الطناحي، برغم أني كنتُ في السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية، وما يزال هو في المرحلة الابتدائية[2] (الإعدادية الآن). لكنه بظَرْفه[3] ولُطْفه وخَـفَّة روحه، وميوله الأدبية والفكرية، وعنايته الخاصة بالقرآن الكريم وقراءاته.. كان بارزاً.

وكان كاتب هذه السطور قد عرف طريقه إلى موقع الخِطابة، الذي سبق وصفُه، «زعيماً» لطلبة المعهد، كما كان يقال. وأذكر أنه بدا لطلبة المعهد ـ حينذاك ـ أن يحتفلوا

---

(١) مثَلٌ عامِّيٌّ، بالقافِ القاهريةِ المحالةِ همزةً. يراد به أن ثمة أجلًا باقياً للشَّقيِّ رغم شقاوته (الشقاوة هنا بالمعنى العامِّيِّ أيضاً، وهو «العَفْرَتة» والنشاط). وذكر أحمد تيمور (**الأمثال العامِّيَّة**، ص ٣٥٢) أنه يُنطَق أيضاً: «بِـقِـي».

(٢) كانت المرحلة الابتدائية أربع سنوات، يبدؤها الطالب (بعد مرحلة «الكُـتَّـاب».. حيث يُتمُّ حفظَ القرآن الكريم، ويتعلمُ مبادئ القراءة والكتابة، وقد يترقَّى أذكياءُ الأطفال لحفظ بعض مهمات المتون العلمية) من سن الرابعةَ عشْرةَ تقريباً. والمرحلة الثانوية خمس سنوات. بعدها: «الإجازة العالية» (= «الليسانس»)، فـ«إجازة التخصص» (= «الماجستير»)، فـ«العالِـمية» (= «الدكتوراه»).

(٣) الظَّرْف: الكِياسة والذكاء والبلاغة، واللُطف، وحُسْن الهيئة. فهي صفةٌ تجمع فضائلَ نفسيةً وبدنية. وقيل إن بين المعنيين، الماديِّ والمعنويّ، رابطةً.. حيث شُبِّه في الثاني بالأول. قال الـزَّبيدي في **التاج**: «قال شيخنا [أي محمد بن الطيب الفاسي]: وبعض المتشدقين يقولونه بالضم؛ للفرق بينه وبين الـظَّرْف الذي هو الوِعاء. وهو غلَطٌ محضٌ.. لا قائلَ به».

بذكرى ميلاد النبي ـ ﷺ ـ في «قاعة الإمام محمد عبده» الشهيرة[١]، وكانت حديثةَ البناء، لم تُستعمل كثيراً.

ولعدم ثقة الإدارة عادةً بتقدير الطلاب للمسؤولية.. ترددتْ «مشيخةُ المعهد».

ووقف كاتب هذه السطور في المِنَصَّة المعهودة، وقال كلاماً أحدث هِـزَّةً في الأوساط الإدارية ..كان منه: «أتُفتَحُ هذه القاعةُ للاحتفاء بمحمد علي باشا في العام الماضي.. ولا تُفتحُ اليومَ للاحتفاء بميلاد محمد ـ ﷺ ـ؟!».

وكانت الثورة قد جاءت برجلٍ ثَـوريٍّ شيخاً للأزهر، بترشيحٍ من المرحوم ـ بإذن الله ـ الأستاذ فتحي رضوان، وهو العالِم التونسي الذي هرب من حكم الإعدام على يد المحتلين الفرنسيين، الشيخ محمد الـخَضر[٢] حسين.. فاتصل الشيخ الإمام بـ«مشيخة المعهد» ليسمحوا لنا باستخدام القاعة، وطالبهم ـ لاستكمال الشكل ـ بأخذ تعهُّدٍ علينا بحمايتها. ووقَّعتُ للشيخ عبدالوهاب عبدالعزيز شيخ المعهد (وزميل والدي[٣] ـ رحمة الله عليه ـ في الدِّراسة، دون أن أخبره بذلك).

(١) تقع «قاعة الإمام محمد عبده» يمِيَن الداخل إلى مَجْمَع كليات الأزهر الأصلية (أصول الدين، اللغة العربية، الشريعة) الذي افتتحه سنة ١٩٣٣م الملك فؤاد بصحبة الإمام الأكبر الشيخ محمد الأحمدي الظواهري في فترة توليه «مشيخة الأزهر». وقد بُني هذا الـمَجْمَع ملاصقاً للجامع الأزهر، ومقابلاً لمسجد سيدنا الحسين ـ رضي الله عنه ـ، بمنطقة «الـدَّرَّاسة». وكانت هذه الكليات قد أُنشئت، أولَ إنشائها، بموجب قانون ٤٩ لسنة ١٩٣٠م.

(٢) هكذا أخبرني شيخُنا أن الشيخ الخَضِر ـ رحمه الله ـ كان يحرص على نُطْق اسمه، على عادة نطق إخواننا التونسيين. ونحن في مصر ننطقه غالباً: الـخِضْر، وأحياناً: الـخَضْر. والأول أفصح، والتالِيانِ واردانِ أيضاً.

(٣) مما حكاه لي مرةً أستاذنا الجليل حسن الشافعي عن والده (الشيخ الأزهري النقشبندي الصالح محمود عبداللطيف القاضي الشافعي) أنه دفعه إلى دراسة المذهب الحنفي، رجاءَ أن يكون قاضياً. فصار شيخُنا حنفيَّ المذهب، رغم أنه شافعيُّ اللقب العائلي! وقد بَـرَّ شيخُنا بأبيه غايةَ البرِّ.. ومن هذا أنه بنى معهداً أزهريًّا في بلدته، ووقفه على طلب العلم الأزهري الشريف صدقةً جاريةً لروح والده ـ رحمه الله وأحسن إليه في دار كرامته ـ.

وتمت الحفلةُ، وَقورةً قويةً، كما حكى لي فيما بعد، بعد عقودٍ من السنين، الأستاذ الدكتور محمود الربيعي (زميلي في «دار العلوم» وفي «مجمع اللغة العربية»). وحضرها كلٌّ من الشيخ الأكبر والشيخ محمد الغزالي. وأخرج الشيخ الـخَضِر مبلغاً من المال ليساهم في النفقات، كدَأْبه في كل نشاطٍ طُلَّابيٍّ يشهده. فاعتذر عنَّا لعدم قبوله الشيخُ محمد الغزالي، بلُطْفه وحَصافته قائلاً للشيخ الخَضِر بدُعابةٍ: إن هؤلاء يدفعون ولا يأخذون!

كان «الشيخ» محمود الطناحي يذكر ـ فيما بعد ـ حين اجتمعنا زميلينِ فى «ليسانس» كلية دار العلوم، مطلعَ الستينيات: «لقد كان ظهورُكَ على المنصة المعهودة مثيراً لغَيرة بعض الطلاب، وكان معنا منهم ـ يقول ـ مَنْ لا غَناءَ عنده، لكنه يحلِف مؤكِّداً: لَأعلونَّ هذه الشُّرْفة، ولَأَخطُبنَّ فيكم جميعاً في قوة، وأستخدمَ أيضاً في كلامي «لا غَـرْوَ» و«لا سيما»، ولَأُنسِينَّكم هذا الفتى الضئيلَ الحجمَ الذي تنصتون له وتُسمُّونه حسن الشافعي!».

وكان محمود الطناحي (الدكتور والأستاذ، فى مصر والسعودية، فيما بعد) لو روى كلاماً عاديًّا أو طُرْفةً متداولةً؛ أَسبغ عليها من رُوحه وأسلوبه في الـحَكْي، ووَسامته و ظَـرْفه وثقافته، ما لا يمكن لمثلي نقلُه في عباراتٍ جامدةٍ مكتوبة!

... ...

شاء الله أن أتخلَّف مجبَراً عن إكمال دراستي بالكليتين «أصول الدين» و«دار العلوم»[١]، وأن أعود لاستكمالها في مطلع الستينيات، وكان من أوائل مَن لقيتُهم من زملائي، لأُدخلَ نفسي في نسيج القاهرة (بعد ستِّ سنين) الزميل محمود الطناحي، وكان يعمل «مصحِّحاً» (وهي كلمةٌ متواضعةٌ، ذاتُ شأنٍ رفيع!) في «مكتبة الحلَبي»

---

(١) امتُحن شيخُنا بالسجن ستَّ سنواتٍ (١٩٥٤ ـ ١٩٦٠م) في محنة جماعة «الإخوان المسلمون» الأولى عهدَ الرئيس المصري الأسبق جمال عبدالناصر. ثم اعتقل بعد ذلك مرتين خلالَ سنتي ١٩٦٤م و١٩٦٦م.

خلف مسجد سيدنا الحسين ـ رضي الله عنه ـ، ومعه زميلٌ آخر هو الشيخ مصطفى عبدالواحد (أستاذ النقد الأدبي الآن بجامعة «أم القرى» في مكة المكرمة)، ومعهما مفتي ليبيا ـ فيما بعد ـ الشيخ طاهر الزاوي ـ رحمه الله ـ.

ثم انتقل الأستاذ الطناحي، ومعه زميله الدكتور عبدالفتاح الحلو (أحد كبار محققي النصوص، وقرين الطناحي وشريكه فى إخراج **طبقات الشافعية** للشيخ عبدالوهاب السبكي)، بحكم توجُّههما التحقيقي، وما زالا طالبين إلى «معهد المخطوطات» بـ«جامعة الدول العربية»، ومعهما زميلٌ سابقٌ لي هو الدكتور محمد مرسي الخولي[١]، والأستاذ الفلسطيني/ الأردني (فقيد عالم التحقيق في العام الماضي) الأستاذ عصام الشَّنْطي. ويرأس المجموعة الأستاذ محمد رشاد عبدالمطَّلب[٢]، وكان حينها بمثابة «السكرتير العام» لـ«معهد المخطوطات»، معاوناً لمديره آنذاك الأستاذ مختار الوكيل في تصريف الشؤون الإدارية، ومنسِّقاً بين المعهد وبين الدكتور طه حسين (مسؤول الجانب الثقافي في «جامعة الدول العربية» حينها).

في تلك الفترة توثقت صلتي بهذه المجموعة كلها؛ إذْ كنتُ أساعد أستاذي الدكتور مصطفى زيد (العائد لتوه من كلية الشريعة في دمشق بطربوشٍ طويل!) في

---

(١) رثاه الطناحي عند وفاته في مقال عنوانه «محمد مرسي الخولي.. والبنيانُ الذي تَهَدَّم»: جريدة **المدينة المنورة** (المملكة العربية السعودية)، ٢٠ جُمادى الآخِرة ١٤٠٢هـ/ ١٦ إبريل ١٩٨١م، العدد ٥٥٠٥ (وتجده في: مقالات **العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي: صَفَحَاتٌ في التُّراثِ والتَّراجمِ واللغَةِ والأَدَب**، دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ ـ ٢٠٠٢م، القسم الأول، ص ١٣١ : ١٣٥). وقصَّ فيه الطناحي بعض تفاصيل من تاريخ «معهد المخطوطات»، وعمله هو ومرسي الخولي وأصدقائهما فيه.

(٢) رثاه أيضاً الطناحي عند وفاته في مقال عنوانه «رشاد عبدالمطلب.. والديارُ التي خَلَتْ»: مجلة **الثقافة** (القاهرة)، يوليو ١٩٧٥م/ جُمادى الآخِرة ١٣٩٥ هـ (وتجده في **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٨٣ : ٨٩)، وقصَّ فيه أيضاً الطناحي طَرَفاً من تجربته مع رشاد عبدالمطلب في «معهد المخطوطات».

إعداد رسالته لـ«الدكتوراه» عن النَّسْخ فى القرآن الكريم[١]، وكان واسطة تعريفي به ومن لا يعرفني من المجموعة صديقي المرحوم ـ بإذن الله ـ الأستاذ سعيد عبده إسماعيل، وكان زميلي وزميلَ الطناحي في «معهد القاهرة الديني» ثم في «دار العلوم»، وبعد أن ناقش «الماجستير» (عن ابن تيمية وفكره) اختطفه الموت شابًّا واعداً قويَّ الشخصية! رحمه الله رحمةً واسعة.

وقد حكيتُ طرَفاً من هذا التاريخ، خلال الستينيات، في كلمة لي في تحية المرحوم ـ بإذن الله ـ الأستاذ عصام الشَّنْطي قبيل وفاته.

لكن الذي لم أذكره، في كلمتي المشار إليها، أنني وزملاءً لي تقدمنا إلى «الجامعة الأمريكية» أواخرَ عام ١٩٦٣، كاتب هذه السطور والدكتور ـ فيما بعد ـ علي عَشْري زايد والأستاذان الطناحي والحلو، والزميل الدكتور ـ فيما بعد ـ محمود شرف الدين، في مسابقة لمشروع فكر فيه الدكتور محمد النِّويْهي (أستاذ العربية بالجامعة الأمريكية في ذلك الحين)، لإعداد فريقٍ ممن لديهم استيعابٌ أو تهيُّؤٌ لاستيعاب التراث، ووصلهم بالثقافة الحديثة.

وقد لقيت الدكتور محمد النِّويْهي لأول مرة، وكان رجلاً جادًّا، فأخرج كتاباً من كتب الأدب التراثية، مفتوحاً على صفحةٍ يتوسَّطها هذا البيت من الشعر:

فغَدتْ كِلا الفَرْجينِ.. تَحسَبُ أنه مَوْلَى المخافةِ: خَلْفُها وأمامُها[٢]

ويبدو أنه قد أَعجب الرجلَ إنشادي البيتَ، ومعرفتي بالقافية المرفوعة على غير المعهود، وشرحي لموقف هذه الغزالة (التي حارتْ أيَّ الفَرْجينِ ـ مخرجِ الوادي أو

---

(١) صدرتْ، فيما بعد، كتاباً كبيراً في جزئين بعنوان **النسخ في القرآن لكريم: دراسةٌ تشريعيةٌ تاريخيةٌ نقدية**. وطُبع غير مرة.

(٢) البيت للَبيد بن ربيعة العامريّ، من معلَّقته.

مَدْخَلِه ـ تَسْلُك.. فربما كان الخطر عنده!).. فأفاض في أهداف المشروع في حماس. لكن المقادير شاءت أن أُعيَّن مع المرحوم ـ بإذن الله تعالى ـ علي عشْري زايد مُعيدَينِ في «دار العلوم»، ويمضي كلٌّ من الطناحي والحلو وشرف الدين في مواصلة الدراسة في «الجامعة الأمريكية»[(١)].

بهذا المزيج من الخِبْرات العملية والدراسات النظرية، في حلَقات الشيخ عامر عثمان ودروس تعليم القراءات وعلوم القرآن بالقاهرة، وفي «دار الكتب» ناسخاً وقارئاً، وفي «معهد المخطوطات» ممارساً ودارساً بما هَيَّأه من رِحْلاتٍ علمية في العالَمَينِ العربي والإسلامي، ومن «مكتبة الحلَبي» إلى المجامع المتخصصة والدوائر الشرقية والاستشراقية، ومن «دار العلوم» والمعرفة بالإنجليزية والاتصال بكتبها ورجالها، ومن زعماء العالم العربي الذين تهيّأ له الاتصالُ بهم، بعد شيوخه الذين كانوا من الطبقة الأولى عِلماً وفَـنًّا وتحقيقاً.. من جُلِّ هؤلاء، ومن خِبْراته في الغُرْبة بالخليج، ومن تكوينه النفسيِّ المتميز، والمقادير التي تحكمنا جميعاً وفي شِبَاكها نَجول وندور.. كان الأستاذُ المتميز، والمحقِّقُ الكبير، وشيخُ النحو في ثلاث جامعات: محمود الطناحي!

عملتُ معه حين كنتُ أشتغل بتحقيق **غاية المرام**[(٢)]، وأفدتُ من خِبْراته في «معهد المخطوطات» في الستينيات.

ثم حرَصتُ، عندما كنتُ وكيلاً لـكلية «دار العلوم»، أن أَرُدَّ الطائـرَ الشادي إلى

---

(١) المذكور في ترجمة الطناحي ـ رحمه الله ـ أنه عمل عقب تخرجه، عام ١٩٦٣م، معيداً بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، حتى عام ١٩٦٥م. وحين راجعتُ شيخنا فيما ذكره من أن الطناحي التحق بالجامعة الأمريكية دارساً.. أكّدها لي، وقال: درَس فيها ودرَّس، وظل بها نحو سنتين قبل أن ينتقل إلى «معهد المخطوطات».

(٢) كتاب **غاية المرام في علم الكلام**، لسيف الدين الآمديّ، حققه شيخُنا الشافعي، وصدر أولَ مرة سنة ١٩٧١م عن «المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية» بالقاهرة.

«دار العلوم» وقد نَضِج واستحكمتْ أدواتُه، وأخذ يملأ دنيا القاهرة ويشغل الناس.. وحال الحسَدُ وضَعفُ النفوس دون ذلك!

وعملنا بضعَ سنين في **موسوعة سفير للأطفال والشباب**، قبل أن أودِّعه عائداً إلى «إسلام آباد»[1] صيفَ ١٩٩٨؛ لِأُفاجَأ بعد عدة أشهر بالخبر الفاجع!

وكنتُ قد تعاهدتُ مع من يعرفون فضلَه أن ينضمَّ إلى كتيبة الـمَجْمَعيين، وكان خبيراً بمجمع القاهرة لسنواتٍ طِوال، وتأخر انتخابه عضواً.. ولكن الله تعالى آثره بجواره، وتركنا بعده نردد الذكرياتِ الحزينةَ، ونقول:

اللهم لا تحرِمْنا أجْرَهم، ولا تَفْتِنَّا بعدهم، واغفرْ لنا ولهم.

القاهرة في:
١٠/ ١٢/ ١٤٣٤هـ
١٧/ ١٠/ ٢٠١٣م

حسن الشافعي
رئيس مجمع اللغة العربية

(١) عمل شيخنا، ما بين سنتي ١٩٨١ و ٢٠٠٤م، في «الجامعة الإسلامية العالمية» بالعاصمة الباكستانية إسلام آباد: أستاذاً، وعميداً، ونائبَ رئيس، ورئيساً.

مقدمة التحـريـر

هذا الكتاب

(١)

قبل نحو اثنتي عشْرةَ سنةً، وفي مقال كتبتُه احتفاءً بإرث محمود الطناحي، قلتُ:

«... وفي بحثٍ ماتـعٍ جدًّا بعنوان «استثمار التراث في تدريس النحو العربي» (في **اللغة والأدب: دراساتٌ وبحوث**، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني) اهتم الطناحي برصد قضية ضعف الأجيال المتأخرة في اللغة العربية، وبخاصةٍ في قواعد النحو التي هي أبرز معالمها. وردَّها إلى أربعة أسباب مفصلة، وهي : هجر الكتاب «القديم»، وطغيان المناهج الغربية في الدرس، وما يتبع ذلك من جُرأةٍ على النحو وسُخْـرِيَةٍ بالنحاة، والاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق.. والرابع: إهمال جوانب ضرورية في تعليم النحو، كمَـلَـكة الحِفْظ، ومهارات الضَّبْط الصوتي. ثم جمع هذه الأربعة في سببٍ واحدٍ كُلِّيٍّ، هو نبذُ التراث والانسلاخُ منه، والـهُزْءُ برموزه، والسُّخْـرِيَةُ من أشياخه.

وهذا البحث جدير بأن يُضَمَّ إلى بحث آخر في الكتاب ذاته بعنوان «لغتُنا المعاصرة.. والثقة الغائبة»، بالإضافة إلى خمس مقالات أخرى (في مجلَّدي دار البشائر: **صفحاتٌ في التراث والتراجم واللغة والأدب: مقالاتُ العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي**) هي: «صيحةٌ من أجل اللغة العربية»، «الحفظ وأثره في ضبط قوانين العربية»، «الكتب الصفراء والحضارة العربية»، «البيان والطريق المهجور» (جزءان)،

«النحو العربي والحِمَى المستباح» (جزءان).. أقول : إن هذين البحثين و هذه المقالات الخمس (أو: السبع، تفصيلاً) جديرةٌ بنشرها في رسالة مستقلة، لتُطبعَ وتُعَمَّم على جامعاتنا وأهل الإعلام والصحافة وعموم المثقفين، لعلها تسهم (بما فيها من رؤيةٍ صائبة، وتحليلٍ رصين، وخُطُواتٍ عمليةٍ منهجية) في علاج هذا الانحدار المرعب الذي تهوي إليه ثقافتُنا وآدابُنا عبر الإعلام.. مكتوباً، ومرئيًّا، ومسموعاً!»[1].

وقد تقلَّبتْ معي هذه الأُمنيَّةُ عَقْداً كاملاً، أنتظر أن ألبِّيَها، أو مَن يلبِّيها من المهتمين. غير أن شيئاً من هذا أو ذاك لم يكن. حتى ظننتُ أنْ قد جاء الإبَّان، قبل سنتين تقريباً، وأثناء وجودي بالسودان الشقيق، حيث توجهتْ هِمَّتي إلى العمل على تحقيق هذه الأُمنيَّةِ إلى الواقع، فشَرعتُ في «صَفِّ» تلك المقالات والأبحاث المشار إليه في مقالتي القديمة، ثم عادتْ إلى نفسي ـ من جديدٍ ـ الصوارفُ الـمُلْهِيَة!

حتى كان هذا الوقتُ الذي أكتب فيه هذه الكلمة بعد فراغي ـ بفضل الله وتوفيقه ـ من تحرير المقالات والأبحاث وخدمتها والتعليق عليها بما فتح الله تعالى ويَسَّر. وجعلتُ لها عنواناً: **صَيْحةٌ في سبيل العربية: مقالاتٌ من أجل نهضة العربية للعلَّامة محمود محمد الطناحي** (وصدره قريب من عنوان أولى هذه المقالات المختارة).

والحمد لله أولاً وآخراً.

(٢)

وإحدى أهم خُلاصات هذا الكتاب: التنبيهُ إلى أن مصيبتَنا في لغتنا تتضاءل دونَها كلُّ مصيبة!

وهذا هو الخطر الماحقُ، كما يقول الطناحي في إحدى مقالاته هنا، الذي يجب

---

(١) بعد هذه الكلمة تجد المقال كاملاً.

أن نقف جميعاً أمامه: نَدْرُؤه ونَدفعُه. فإن القضية بهذه المثابة قد صارت دِيناً يُغتال، وشريعةً تُنْتَهك! ولابد أن يقول فيها كلُّ غيورٍ على دين الله ومستقبل الأمة كلمتَه، لا يَـتَـتعْتعُ ولا يتلجلج.. لا يُفزعه سُخْط الساخط، ولا يُخيفه غَضَبُ الغاضب. وقد قال سيدُنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ في الحديث الصحيح: «ألَا.. لا يَمْنعَنَّ رجلاً هَيبةُ الناسِ أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمه»(١).

... ...

وهذه الصيحةُ موجَّهةٌ، بصورةٍ أوَّليَّة، إلى أصحاب القرار والتخطيط والتوجيه والتنفيذ في مجالات التعليم والإعلام والتشريع..

فلا مستقبلَ للعربية ـ صحيحةً فاعلةً ـ دون تعليمٍ منهجيٍّ يحبِّبُها إلى أبنائها وحَمَلتها، ويُقرِّبها إليهم.

ولا حضورَ لها ـ جميلاً وقريباً من الناس ـ دون إعلامٍ وطنيٍّ يَعرف للعربية قيمتَها؛ فيراعيها، ويبثُّها في أنحاء العالم: مشرقةً، بسيطةً، ومعبِّرةً.. في جميع وسائط الإعلام: مَكتوباً، ومَرئيًّا، ومَسموعاً.

وهنا.. لا بدَّ من أن يكون لـمجامع اللغة العربية، ونحوها من مؤسسات الأمة الراشدة، السلطانُ لأن تَـقترح القوانينَ المُلْزِمةَ الجميعَ باحترام لغتهم وحضارتهم وثقافتهم.

ولا سبيلَ إلى شيءٍ من هذا.. إلا بإرادةٍ، سياسيةٍ وتشريعية، مِمَّن وَكَل الله ـ تعالى ـ إليهم أمورَ البلاد العربية.. فإن الله ـ تعالى ـ يَـزَعُ بالسلطان ما لا يَــزَعُ بالقرآن!

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به ـ سبحانه وتعالى ـ!

... ...

---

(١) سيأتي تخريجه في موضعه من كلام الطناحي، ص ٢٠٥.

ولا تعني هذه الدعوةُ إلى وجوب التدخل السياسي والتشريعي، حمايةً للُّغة، «الـحَجْرَ على الإبداع»، أو اتخاذَ التظاهر بالغَيْرة على «الثوابت» و«الـهُويَّة» مدخلاً لتمرير قوانينَ تُكَمِّم الأفواه وتعطِّل الحرياتِ السياسيةَ والاجتماعية.

بل الأمر هنا متوجِّهٌ إلى أهل التشريع والسياسة لسَنِّ ما يَلزَم من قوانينَ تُرسِّخ العربيةَ في نفوس الناشئة وألسنتها، من لَدُن نعومة أظفارهم وحتى يَشِبُّوا على الـطَّوْق.. حينها، لن يَلقَى الإسفافُ والاستهانةُ بـ«الثوابت» و«الـهُويَّة» إلا الإعراضَ المجتمعيَّ، والنَّبْذَ الأهليّ.. دون تسلُّط نظامٍ سياسيٍّ، وفرْضٍ لقوانينَ لا تُحترَم إلا إذا اقتنع بها الناس في دواخل نفوسهم، وتربَّوا عليها من قبلُ صغاراً. وعلى هذا فَـقِـسْ!

أما الاستبداد، وتكميم الأفـواه، وما إليهما من قبيح السياسات ورديء التصرفات؛ فكلُّ أولئك كان سَيِّئُه عند الله ـ تعالى ـ مكروهاً، وعند أحرار الناس مرفوضاً، وعلى الطغاة والمستبدين والمستغفلِين شعوبَهم نكالاً وخِـزْياً في الدنيا والآخرة.. مهما تكن مبرراتُ هذه السياسات، ودِيباجاتُ هذه التصرفات!

... ...

ودعاؤنا إلى الله تعالى ألَّا تكون هذه الصيحةُ ـ ومثيلاتُها ـ في وادٍ، ولا مصيرها إلى الرماد!

(٣)

وأود أن أذكر في هذه الكلمة الموجزة عملي في هذا الكتاب.. وهو ما أُجمله على هذا النحو..

ـ انتخابُ المقالات والأبحاث، و«صَفُّها» بالحاسوب.

ـ قراءتُها قراءةَ تدقيقٍ وتصحيحٍ طِباعي، ومقابلَتُها على الأصل المطبوع.

ـ تحريرُ النص (ولهذا مزيدُ تفصيلٍ آتٍ).

ـ التعليقُ، بما يفتح الله تعالى به، على بعض كلام الطناحي، بما أرجو أن يكون مفيداً ومكمِّلاً. ويدخل في هذا: الاستدراكُ، عند اللزوم، على الطناحي بنقدٍ أو تعقيب.

ـ صُنعُ عددٍ من الفهارس الفنية: للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأعلام، والأشعار والأَرْجاز، والأمثال، والكتب، والبُلْدان[١]. وأضفتُ فِهْرِساً خاصًّا بتعليقاتي واستدراكاتي، وآخرَ بالكلمات التي شرحتُها لُغويًّا.

... ...

وهذه معالـمُ في طريقةِ تحريري الكتابَ والتعليقِ عليه:

١. ضَبطتُ ما رأيتُ حُسْنَ ضَبْطِه، دون قاعدة معينة، سوى الرغبةِ في تحسين القراءة وتجويدها. مع التنبيه إلى أنني قد أضع ضَبْطين على الحرف إشارةً إلى ورودهما، والغالب أنني أختار ضَبطاً واحداً مما تعددت أوجهُ ضبطه. والأصل عندي ألَّا أُثبتَ ضَبْطاً إلا بعد مراجعةٍ، مهما ذاع وشاع. فلم أُثْبِتْ ضَبْطاً إلا وقد راجعتُه في **تاج العروس** (مرجعي الأول في هذا الباب) وفي غيره.

وقد اعتنيتُ عنايةً كبيرةً بجانب الضبط هذا لاهتمامي الشخصي به، ثم ضاعف اهتمامِيَ هذا عملي في خدمة تراث الطناحي الذي كثيراً ما لفت الانتباه إلى أن من «الجوانب الضرورية التي أُهملت: ضبط الأبنية من أسماءٍ وأفعال.. فقد أصبح التخليط شديداً في أبنية الأفعال، على وجه الخصوص. وقد بدأ الاستخفاف بمفردات اللغة، دِلالةً ونُطقاً...». ولذا أنفقتُ في ضبط بعض الأعلام وأسماء البُلْدان وقتاً غير قليل، وكثير من هذا الجهد لا يظهر أثرُه في النسخة النهائية، كما يعرفه كلُّ متصلٍ بالكتابة والتحقيق، وأشار إليه الطناحي ذاتُه في مواضع عديدة.

---

(١) أدركنا حينُ الطباعة، وضاق الوقت عن إنجاز هذه الفهارس الفنية. وأَعِدُ بإنجازها ـ بعون الله تعالى ـ في الطبعة التالية من هذا الكتاب ـ بإذن الله ـ.

ـ ومن المهم هنا التأكيد على أنني أتحمل ـ وحدي ـ عِبءَ هذا الضبط واجتهادي في بعض المواطن الـمُشْكِلة أو المحتَمِلة، دون أن يُنسَب إلى الطناحي شيءٌ من خطأٍ قد أكون وقعتُ فيه؛ إذ لا أصلَ خَطيًّا بحوزتي، إنما هو المطبوعُ من مطبوعٍ! ومن البَدَهيِّ لديَّ ألَّا أنسُب إلى كاتبٍ ينشر في صحفٍ ومجلاتٍ أية مسؤولية إزاء الضبط، الذي يتدخل فيه الطابعون والمصحِّحون والمحرِّرون!

ـ والشأن في «علامات التأثر» («الترقيم») كالشأن في أمر الضَّبْط.. سواءً بسواء. وقد اهتممتُ بها اهتماماً كبيراً؛ لِـمـا أومن به من تأثيرها الكبير في توجيه المعنى، لا سيما حينما تكون لكل علامةٍ دِلالتُها، دون وضعها اعتباطاً أو دون منهج!

٢. شرحتُ ما قد يَغمُض أو يُشكِل لُغويًّا. والغموض ـ كما هو معلوم ـ نِسبيٌّ، فقد يَغمُض على واحدٍ ما هو بَدَهيٌّ لدى آخر! واعتمادي الأساسي ـ لا: الوحيد ـ في هذا الشرح على **القاموس المحيط** وشرحه **تاج العروس** (نَشْرة الكويت)، دون التزامٍ بالتقيُّد بألفاظهما.

وما أختاره من تفسير هو ـ غالباً ـ بعضُ ما تعنيه المفرداتُ أو الأساليب.. كما لا يَخفَى، وإنما أتخير الأنسبَ للسياق.

وفي الغالب لا أذكر مصادري في شرح الكلمات وضبطها؛ اختصاراً وتخفيفاً.

٣. أضفتُ كثيراً من العناوين الجانبية أوائلَ الفقرات، وتصرَّفتُ ـ تصرُّفاً يسيراً ـ في بعض العناوين الموجودة أصلاً في المطبوع، وحذفت بعضَهَا لأنه غير دالٍّ. وقد جعلتُ إضافاتي أو تصرفاتي بين معكوفتين [ ]. وحذفتُ هذه المعكوفات من فِهْرِس الكتاب؛ لقلة نفعها فيه.

وقد سمحتُ لنفسي بهذا التصرف، المفيدِ في حُسْن القراءة وتَسلْسُلها؛ لأني أرجِّح أن عناوين مقالات **الهلال** ليست من صُنع الطناحي؛ لأنها ـ في كثيرٍ منها ـ غير

متَّسقةٍ وما يليها، كما أنها ليست كافية. بل هي من صنع محرِّري **الهلال**، على ما يعرفه كل متصل بعالم النشر في المجلات والصحف، ولي به خبرةٌ قديمة. والله أعلم.

٤ . لم أتدخل في متن الكتاب بشيءٍ، إلا في مواطنَ محدودةٍ جدًّا ومعدودةٍ؛ للزوم التدخل فيها.. وحينها جعلتُ تصرفي بين معكوفتين [ ] في المتن.

٥ . وثَّقتُ النقول، إلا ما وثَّقه الطناحي في المتن (في القسم الأول) أو في الحواشي (في القسم الثاني).

ـ وقد حافظتُ على طريقة الطناحي في تخريجه وتعليقه المتصلين بالنص (في القسم الأول)، دون أن يجعله في الحواشي، حيث كان ينشر مقالاته في الصحف والمجلات السَّيَّارة، وهي ـ غالباً ـ لا تَجعل حواشيَ.

وكذا في بَحْثَي القسم الثاني.. حافظتُ أيضاً على تخريجات الطناحي وتعليقاته كما هي في الحواشي.

ـ فما كان من حاشيةٍ في القسم الأول؛ فهو لي.. دون أن أجعله بين معكوفاتٍ، أو أنبِّهَ إلى نسبته لي.

وما كان من حاشيةٍ كاملةٍ لي في القسم الثاني؛ فقد جعلتُ في آخرها اسمي الأول بين معكوفتين هكذا: [أحمد].

وما كان من زيادةٍ لي في حاشيةٍ من حواشي الطناحي (وهي ليست إلا في القسم الثاني فقط)؛ فقد جعلتُها وَسْطَ كلام الطناحي أو آخِرَه (بحسَب المقتضِي) بين معكوفتين. وفي ختام تعليقي وضعتُ نقطةً يليها اسمي الأول، ثم أغلقت المعكوفة الثانية.

٦ . عزوتُ الأشعار إلى أصحابها، وأكملتُ أنصاف الأبيات.

٧. حيث جاء عنوانُ كتابٍ، أو ما في حكم العنوان[١]، أو اسمُ مجلةٍ أو جريدةٍ، في المتن أو الحواشي؛ فقد جعلتُ كلَّ هذا بحبرٍ ثقيلٍ تمييزاً. فكل ما هو ثقيلُ الحبر؛ فهو عنوانُ كتابٍ أو مجلةٍ أو جريدةٍ، إلا ما كان من حبرٍ ثقيلٍ في عنوانٍ جانبيٍّ.

٨. في التوثيق، راعيتُ هذا الترتيب في ذكر الكتب وبياناتها:

عنوان الكتاب (أو ما في حكمه.. بحبرٍ ثقيل)، فمؤلفه (أو ما في حكمه[٢])، فمحقِّقه (أو ما في حكمه[٣]. إن وُجد)، فناشره ومكان النشر، فرقم الطبعة وتاريخها، فرقم الجزء (إن وُجد) والصفحة. وإذا كانت الإحالة إلى عددٍ من الصفحات متتالية جعلتُ بين رقمي البداية والنهاية نقطتين.. إحداهما فوق الأخرى «:». ولا أذكر البياناتِ كاملةً إلا في أول ذكرٍ لها.

ـ وهذا مثالٌ:

أمالي ابن الشجري، هبةُ الله الحَسَني العلوي ابن الشجَري، تحقيق د. محمود الطناحي، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط١/ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م، ١/ ١٠٠ : ١٠٥.

ـ وهذه اختصاراتٌ استخدمتُها، حين مقتضيها، في توثيق الكتب:

ـ د. ن: دون ذكر ناشرٍ.

ـ د. ط: دون ذكر رقم الطبعة.

ـ د. ت: دون ذكر تاريخ النشر.

ـ د. ب: دون بيانات نشرٍ.

---

(١) عنوان الكتاب مثل: **الكتاب**. وما في حكمه مثل: **كتاب سيبويه**، و: **كتابه** (ويكون سيبويه مذكوراً قبلُ)، و: **شرح الألفية**. ونحو هذا.

(٢) كالجامع، أو المنتخِب.. مثلًا.

(٣) كالمترجم، أو الـمُراجِع.. ونحوهما.

٩. لم أتدخل، بالحذف أو التعديل، فيما تكرر من كلام الطناحي.. فقد كان ينقلُ بعض كلامه من مقالةٍ إلى بحثٍ، أو العكس. وقد يكون التَّكرارُ مفيداً لذاته أحياناً، ولاحتمال أن يقرأ القارئ أحد المقالين ـ أو البحثين ـ دون الآخر.

(٤)

وثمة كلمةٌ تتعلق بمراجِعي في القراءة والتحرير.

حيث أحب ألا أنسَى تقديم شكري وتقديري العظيمين إلى الجنود المجهولين الذين صنعوا «المكتبة الشاملة» «الإلكترونية»، وإلى صانعي «الموسوعة الشعرية» «الإلكترونية» (إصدار «المجمع الثقافي» في أبوظبي، عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة)، وإلى صانعي «الموسوعة الشعرية» «الإلكترونية» (إصدار «مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم» في دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة)، وإلى كل النبلاء الذين جعلوا من «شبكة المعلومات العالمية ـ إنترنت» ساحةً هائلةً ـ مُشْرَعةً لكل أحدٍ ـ للمعرفة والثقافة.. وجُلُّهم لا يكاد يَعلم بأعيانهم أحد، ولا يطلبون جزاءً ولا شكوراً من أحدٍ من الناس!

أعتقد أن هذه الجهودَ النبيلةَ قد جعلتْ المعرفةَ أقربَ، والتحقُّقَ منها أسهل.

وفيما يَخصُّني، على سبيل التمثيل: قَلَّصتْ هذه الوسائط الجهدَ والوقتَ المبذولينِ في عملي في هذا الكتاب (وغيره من أعمالي وكتاباتي) تقليصاً ملحوظاً.

ولستُ غافلاً ـ البتة ـ عن السلبيات الكثيرة المتصلة باستخدام هذه التقنيات «الإلكترونية». لكني أتحدث عن نفسي، وأؤدي شكراً أراه واجباً على شخصي.

هذا.. ويَهُمُّني التأكيدُ على أنني أستخدم هذه التقنيات استخدامَ الفِهْرِس والدليل، اللذين لم يخلُ عصرٌ ـ تقريباً ـ من شكلٍ لهما. فلم أُثبِتْ كتاباً (بالجزء ـ إن كان

ذا أجزاءٍ ـ والصفحة) إلا وقد رجعتُ إلى نسخته المطبوعة، بعد أن دَلَّتني إليه (في كثير من المواطن.. لا في كل تفصيلة) «الموسوعة الشعرية» أو «المكتبة الشاملة» أو ما إليهما. فليطمئنَّ مَن قد يظن أن مدحي إياهما يعني اعتمادي النهائيَّ عليهما!

أسأل الله تعالى أن يشكر لكل من ساهم (ولو بقدْرٍ ضئيل) في تقريب المعرفة وتسهيل العلم، وأن يهدينا لأفضل السُّبُل لشكره على ما أنعم علينا بأن نستخدمه كما ينبغي وفيما يُدنينا إليه، وأن يجعلنا من أهل مزيد فضله وإحسانه. كما أسأله تعالى ألا يجعلنا من المتكاسلين المتهاونين المدلِّسين!

(٥)

كما أود أن أذكر شيئاً حول عملي «التحريري»، في هذا الكتاب خاصةً..

وهو أنني لا أنتظر رضا الجميع عنه، وإن كان حصولُه ـ لو كان ممكناً ! ـ شيئاً طيباً !

فقد يرى بعضٌ فيما علَّقتُ تزيُّداً، وقد يرى فيه بعضٌ آخرُ نقصاً، وقد يكون لبعضٍ ثالثٍ ملاحظةٌ أو رأيٌ يخالف ما أدَّاني إليه اجتهادي.. وكل هذا مما لا بأس به؛ فرِضا الناس (أي: كلِّ الناس) غايةٌ لا تُدْرَك، ولا يطلبها عاقل لعلمه بعدم تحققها!

ولْأضربْ مثلاً واحداً فقط.. فلقد فَجِئني الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله بتوقُّفه في استخدام الطناحي «نوايا» جمعاً لـ«نية»، وأن الجمع الصحيح هو «نِيَّات». كانت المعلومة مفاجئةً لي تماماً؛ إذْ لا أنفكُّ أسمع «نوايا» من العلماء والمتحدثين وأستخدمها منذ نعومة أظفاري، حتى لقد زعم مجْمَعيٌّ أنه لا يُذكَر لـ«نية» جمعٌ سواها في اللغة المعاصرة![1].

---

(١) وقد كتبت حولها تعليقاً مسهَباً، تجده في موضعه عند تعليقي على استخدام الطناحي إياها. تجده في ص ٢٠٦: ٢٠٩.

قد تُصادف مفاجأتي هذه قارئاً ذا صلةٍ سابقةٍ بالمسألة، أو له رأيٌ مخالِفٌ؛ فيَفْجَؤه تفاجُئي، أو يسوؤه ـ لا سمح الله ـ!

فلمثل هذا القارئ الكريم، في مثل هذا الموضع المزعِجِه ـ لا سمح الله ـ، رجائي أن يتجاوز حاشيتي مهما طالت، ولْيَصْرِفْ عينَه وفؤادَه إلى كلام الطناحي في المتن، ولْيَهْنأْ به.. فقد بذلتُ في تحريره وضبطه ما لا يَحْسُن أن تُعكِّره عليه حاشيةٌ طائشةٌ لي!

وهذا مثالٌ فقط. وعليه.. تَفضَّلْ بالقياس.

... ...

وحَسْبي في عملي هذا أمرانِ:

أنني بذلتُ فيه غايةَ وُسْعي، واحتشدتُ له كما يليق بمُهِمِّ الأمور وعظيمها.. غير مُتَجـرِّءٍ بغَشامَة[1]، ولا مُتَهيِّب بمَهانَة!

وأنني أظنُّ أن الطناحي لو كان حيًّا ورأى اجتهادي في رعاية تراثه، كنحو ما اجتهد هو في رعاية تراث الأسلاف؛ لَسُرَّ واغتبط، مع ما يمكن أن يكون منه من تصويبِ لخطأٍ أو سهوٍ أو نسيانٍ.. هنا أو هناك.

وهذا الأخير، تصويبُ ما يمكن أن يكون مني من خطأٍ أو سهوٍ أو نسيانٍ، هو ما أرجوه وأتمناه من كل ناظرٍ أو ناظرةٍ في هذا الكتاب، ولهما من الله تعالى حُسْنُ المثوبة والجزاء، ومني عظيمُ الشكر والتقدير.

---

(١) غَشَامة: من فِصاح العامِّيَّة. ولم يوردها أحمد رضا في **قاموس رد العامِّيّ إلى الفصيح** (دار الرائد العربي/ بيروت، ط٢/ ١٩٨١م) رغم أنه ذكر عدة تصاريف من مادة «غشم». ولم يوردها مطلقاً هشام النحَّاس في **معجم فِصاح العامية** (مكتبة لبنان/ بيروت، ط١/ ١٩٧٧م).

وقد وجدتُ في شعر مِهْيار الدَّيْلَميّ (**ديوانه**، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط ١/ ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦م، ٢/ ٢٧٠):

وتَحطَّمتْ عَجْماءُ.. تركَبُ رأسَها غَشَّامـةٌ.. شيطانُها متعجـرِفُ!

ولن يزال الأمر على ما قال الكاتب البليغ في كلمته الصادقة الذائعة: «رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه، إلا قال في غَده: لو غُيِّر هذا؛ لكان أحسن! ولو زِيْد هذا؛ لكان أفضل! ولو تُرِك هذا؛ لكان أجمل! وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملة البشَر!»[1].

(٦)

وقد حَظِيتْ تجارِبُ هذا الكتاب بقراءة شاعرينِ كبيرين.. لئن تباين مَشْرَباهما؛ فلقد جمعهما حبُّ العربية بكل فنونها، وجودةُ ذَوْقها، وحُسْنُ البصر بها.. هما الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله والأستاذ عبدالمنعم رمضان. وقد تفضَّلا فدقَّقا القراءة كلمةً كلمةً، وتناقشتُ مع كلٍّ منهما حول قضايا الكتاب اللغوية والأدبية والفكرية، وأفاداني فوائدَ جَمَّةً، أنفذتُ جُلَّها، وتركتُ ما احتمل الخلافَ منها. ولا أشك في أن عملي كان سيخسَر كثيراً لولا تَفضُّلُهما هذا.

كما حَظِيَ الكتاب بتقديمٍ غالٍ من شيخي الدكتور حسن الشافعي، رئيس مجمَع اللغة العربية المصري، تحمَّس له فور علمه بمشروع الكتاب؛ وفاءً ومحبةً لصديقه القديم محمود الطناحي ـ رحمه الله ـ.. والشيءُ لا يُستغرَبُ من معدنه! فتَيْنِك ـ الوفاءُ والمحبةُ ـ شِيْمتانِ نبيلتانِ من شِيَم هذا الرجل العظيم، الذي لا نزال نحاول الاهتداءَ بسَمْته وحاله، مع الانتفاع بصافي علمه ودقيق تحقيقه.

ولا يفوتني التنبيه إلى أن هؤلاء الناقدين الكرامَ بَراءٌ من أي خطأٍ أو سَهْوٍ قد يوجدان.. فعلى المحـرِّر ـ وحده ـ الـتَّـبِعةُ في أيٍّ من هذا ـ لا سمح الله ـ.

---

(١) من كتابٍ أرسله القاضي عبدالرحيم البيساني إلى صديقه الكاتب البليغ العماد الأصفهاني، وقيل بالعكس (رحمهما الله).

فإلى هذا الـرَّهْط النبيل أتقدم بخالص شكر وتقديري، وصادق وُدِّي وامتناني.. ودعائي إلى الله ـ تعالى ـ أن يَجزيهم عني وعن العربية خير الجزاء وأوفاه في الدنيا والآخرة.

ولا أحسَب أنني مغالٍ إن اعتقدتُ أن تيسير الله ـ تعالى ـ مثل هذا الاحتفاء الكريم من هؤلاء الأفاضل ليس إلا من بركة الطناحي.. لا أزكِّيه على الله ـ تعالى ـ، بل أذكر ظواهر الأمور، والله يتولَّى السرائر.

رحم الله الطناحي رحمةً واسعةً، وأحسن إليه ـ بـمَنِّه وفضله ـ في دار كرامته، وألحقنا به على خير حالٍ.

والحمد لله أولاً وآخراً.

أحمد عبدالرحيم
القاهرة
الثلاثاء: ٨ من شهر الله المحرَّم ١٤٣٥هـ
١٢ من نوفمبر ٢٠١٣م
البريد الإلكتروني
araaheem@gmail.com
facebook.com/araaheem

محمود محمد الطناحي

إذْ يصيرُ الاشتغالُ بالتراث موقفاً حضاريًّا![(١)]

(١)

لم يكن محمود محمد الطناحي (١٣٥٤ ـ ١٤١٩ هـ/ ١٩٣٥ ـ ١٩٩٩م) مجرد «محقِّق» عُرِف بإخراج الكتب «القديمة»، والاهتمام بالتراث.. بل كان نَموذجاً للعالِـم المنتمي إلى حضارة أمته أشدَّ ما يكون الانتماء وأعمـقَـه. فقد كان ـ رحمه الله ـ يَصدُر في اشتغاله بالتراث عن موقفٍ حضاريٍّ أصيل، يرى إحياءَ التراث والاستفادةَ منه بدايةَ النهوض الحقيقي لأمـةٍ ممتدةٍ كأمتنا العربية العريقة، وكان يحارب الاعتقاد الساذَج بأن الاشتغال بالتراث مجردُ نَبْشٍ في القبور، ونوعٌ من الاهتمام بالرِّمَم والبِلَى .. كما يُشيع كثيرٌ ممن لا يَـقْـدُرون هذا الجانبَ الحيَّ من نسيج الحضارة حـقَّ قَـدْره!

وقد وَلَج الطناحي إلى هذا العمق الحضاري عن طريق تحقيق النصوص. ذلك..

---

(١) أصل هذا النص مقالٌ لي نشرتْه مجلة **الهلال** المصرية سنة ٢٠٠٢، بمناسبة صدور مقالات الطناحي وأبحاثه في أربعة مجلدات، كما تجد تفصيله في الأثناء. ثم أعيد نشرُه، خلال السنوات التالية، في عدد من المواقع «الإلكترونية». ثم ضُمِّن كتابي **شَذَرات: قضايا وشخصيات** (صدرت الطبعة الأولى منه عن منتدى النهضة والتواصل الحضاري/ الخرطوم ـ السودان، ١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣م). وهنا.. أجريتُ بعض التعديلات والإضافات اليسيرة، دون تغيير في صُلب مقال **الهلال** الأول.

أنه (تحقيقَ النصوص) إذا أُخذ بحقه ـ كما يقول «يدور في المكتبة العربية كلها؛ لأن المحقِّق في كل خُطوة يخطوها مع النص مطالَبٌ بتوثيق كل فِـقْرة، وتحرير كل قضية. بل إن المحقق الجادَّ قد يبذل جُهداً مُضنياً ـ لا يظهر في حاشية أو تعليق ـ، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتِّساقه».

وكان الطناحي ـ في تحقيقاته وكتاباته ـ نَموذجاً لهذا النمط العالي في الإتقان والتجويد اللازمين لكل محققٍ جادٍّ وكاتبٍ مجوِّد، لا يتخذ من التحقيق، ولا من الكتابة، مِهنةً أو مصدر رزق كيفما اتفق! وقد ظهر هذا جليًّا فيما أخرج من كُتبٍ محقَّقة، وما كَتب من كُتبٍ ومقالاتٍ وأبحاث.. ولعل أبرز ذلك عملُه المميَّز في كلٍّ من : **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابن الأثير (١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م)، و**طبقات الشافعية الكبرى** لابن السُّبكيّ (١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م، ثم الطبعة الثانية المحـرَّرة: ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م)، و**الفصول الخمسون** لابن مُعطِي (وهو رسالته للماجستير في كلية «دار العلوم»: ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م)، و**مَـنال الطالب في شرح طوال الغرائب** لابن الأثير، والذي حصل به على الجائزة الأولى في تحقيق التراث من «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة: ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣م)، و**أمالي ابن الشجريّ** (وجزء منها هو رسالته للدكتوراه في كلية «دار العلوم» أيضاً، ثم أخرجها كاملةً من بعد: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، و**كتاب الشعر** أو: **شرح الأبياتِ المُشْكِلةِ الإعراب** لأبي علـيٍّ الفارسيّ (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م)، بالإضافة إلى مشاركته في العمل الضخم لإخراج **تاج العروس** للمُـرْتضَى الزَّبيدي الذي شَرَعت فيه وزارة الإعلام بالكويت قبل نحو أربعين عاماً، واكتمل صدوره منذ بضعة عشر عاماً (١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م) في أربعين مجلداً كبيراً.. وقد شارك فيه الطناحي بتحقيق الجزء السادس (١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٦م) والجزء الثامن والعشرين (١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م)، وكان تحت يده جزءٌ ثالثٌ لم

يمهله أَجَلُه حتى يكملَه. هذا.. بالإضافة إلى عدد من التحقيقات الأخرى التي لا يتسع المقام لسردها، وعدد من الكتب المهمة التي صَبَّ فيها خلاصة تجربته وفكره، وأبرزها كتابه المهم **مَدْخلٌ إلى تاريخ نشر التراث العربي** (مكتبة الخانجي بالقاهرة، صدرت الطبعة الأولى في: ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤م)(١).

... ...

وقد كان الأمل معقوداً على الطناحي لِيَسُدَّ مَسَدَّ «شيخه الأكبر» أبي فِهْر محمود محمد شاكر ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ (١٣٢٧ ـ ١٤١٧ هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩٩٧م) في القيام على حِيـاطة العربية وخدمتها، حيث كان من الأقربَ (من بين عشراتٍ، بل مئاتٍ، من تلاميذ شاكر وأصدقائه المنتشرين في أنحاء العالم) إلى تَمَثُّل منهجه الشامل الذي عبر عنه بالعبارة المصرية اللطيفة «محمود شاكر خَـدِ البِيْعة على بعضها»! وقد كان المحمودان ـ رحمهما الله ـ ينظران إلى المكتبة العربية، في شتى فنونها ومجالاتها، على أنها كتابٌ واحد، وإلى العلوم العربية المتنوعة على أنها عِلمٌ واحد.. من غير تفريقٍ بين علومٍ شرعية، وأخرى عقلية، وثالثةٍ لِسانية؛ لأنها كلَّها تتضافر على نسج الشخصية المتميزة، والـهُـوية الحقيقية لنا ـ نحن.. العربَ والمسلمين ـ.

ولكن الأجل لم يمهل الطناحي؛ إذ بغته ـ في بعض تَـطوافه ـ حِـمامُـه، فرحل عنا في هدوء النَّسْمة العَـذْبة ورِقّـتها ـ كما كان في حياته ـ.. أنضجَ ما يكون، وأحوجَ ما تكون العربيةُ وأهلها إلى مثله!

توفي فجأةً صبيحـةَ ثلاثاء حـزين (٦/ ١٢/ ١٤١٩ هـ ـ ٢٣/ ٣/ ١٩٩٩م)، فلم يَـزَلْ عليه في القلب حُـزنٌ، وفي العين عليه دَمـعٌ.. رحمه الله رحمةً واسعة.

---

(١) في ترجمة الطناحي اللاحقة تفصيلٌ بتوثيق كل ما كتب وحقَّق.

(٢)

وفي عام ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢م صدرت أربع مجلدات كبيرة، حوت أبحاثَ الطناحي ومقالاتِه المتناثرةَ في المجلات والصحف المصرية والعربية، منذ الستينيات وحتى وفاته ـ رحمه الله ـ.. فعن «دار الغرب الإسلامي» (بيروت) صدر مجلدان بعنوان **في اللغة والأدب: دراساتٌ وبحوث**، غلب عليهما الطابَعُ العلميُّ «الأكاديمي»؛ إذ حَـوَيـا ما كتبه الطناحي من أبحاث ومقالات علمية دقيقة نقد فيها كتباً ومطبوعاتٍ نقداً علميًّا ضافياً، وبحث فيها مشكلاتٍ وقضايا في اللغة والأدب بحثاً وافياً.. وكثير منها نشر في المجلات العلمية المتخصصة والـمُحَكَّمة، أو قُدِّم إلى المؤتمرات والندوات العلمية البحثية.

وعن «دار البشائر الإسلامية» (بيروت) صدر مجلدان آخران تحت عنوان: **صفحاتٌ في التراث والتراجم واللغة والأدب: مقالاتُ العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي**، وقد غلبت عليهما صفةُ المقالة الصحفية الأدبية، التي اهتم بها الطناحي منذ بدايات شبابه، ودفع بها إلى عدد من المجلات والدوريات المهمة في مصر والعالم العربي وأهمها: **الهلال** المصرية، و**العربي** الكويتية، وجريدتا **الأهرام** المصرية، و**المدينة المنورة** السعودية .

وقد اهتم في هذه المقالات بالكتابة عن عدد من أبرز الأعلام المعاصرين، لا سيما مَن لقيهم وشافههم، متعلِّماً ومشاركاً.. مثل: أحمد محمد شاكر، وفؤاد سيد، ومحمد رشاد عبد المطلب، ومحمد مرسى الخولي (وكلهم من أعلام التحقيق)، والشاعر الناثر علي الجارم، والعالِـمة المحققة الأديبة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، وقارئ القرآن الفذ الشيخ مصطفى إسماعيل، والداعية المفسِّر الشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ المقرئ المجوِّد المسنِد الشيخ عامر عثمان، والموسيقي الذوَّاقة كمال النَّجْمي..

فضلاً عن شيخه أبي فِهْر محمود محمد شاكر الذي خصه وحده بسبع مقالات. كما اهتم بمراجعة عددٍ من الكتب التي رأى أن من الخير الإشارةَ إليها ونَقْدَها للفائدة العامة. هذا.. بالإضافة إلى عدد من المقالات المتنوعة في قضايا اللغة والأدب ومستقبل الثقافة العربية، وأحوال التعليم الجامعي في مصر والبلاد العربية، مشتبكاً في بعضها مع بعض من صدر عنهم ما يقتضي التعقيب أو الدَّحْض.

(٣)

وحيث تصعب في مقالة كهذه الإحاطةُ بمثل هذا النِّتاج الضخم، نظراً لتشعُّبه وضربه في كل مجال، وحيث هو حصيلةُ عمر إنسانٍ متعدد المواهب والجوانب كالطناحي.. فإنه يمكن الاكتفاء ـ مؤقتاً ـ بتكثيف الرؤية العامة للطناحي كما بدت في سائر إنتاجه، ولا سيما في هذه المجلدات الأخيرة، في نقاطٍ محدَّدة[١]..

أولاً : محورية اللغة في بناء النهضة

تمركزت حياة الطناحي ـ رحمه الله ـ على محور اللغة.. وهذا من منطلق إدراكه أن اللغة هي وِعاءُ الحضارة، وأن الاهتمام بها في كل مجال هو بداية النهضة الحقيقية لأية أمة.. فبسلامة اللغة تَسلَمُ للأمة ـ أية أمة ـ هُـويتُـها، وتمتاز شخصيتها. بل إن وجودَها الماديَّ ذاتَـه رَهْنٌ بحال اللغة فيها، وحال أهلها معها.. وفي هذا يقول القانونيُّ الـمَجْمَعيُّ الدكتور محمد سليم العوَّا ـ وكان من أخلَص أصدقاء الطناحي ـ : «كان الطناحي يعيش قضية اللغة وكأنها قضيتُه الشخصيةُ الوحيدة. وكان يتمثل تراثَها كلَّه، وإنتاجَ النابغين والنابهين على امتداد حياتها كلها، كتاباً واحداً متكاملاً، تزدان

(١) تجد هذه المعانى الأربعةَ كلَّها مبثوثةً في مادة هذا الكتاب الذي بين يديك، فضلًا عن سائر ما كتب الطناحي ـ رحمه الله ـ.

سطورُه بكل جديد صالح. لقد كانت هذه اللغة الشريفة[١] أهلَه وعشيرتَه وبيتَه، وتاريخَه الماضي، وعملَه الحاضر، وأملَه المستقبل.. كما كانت مرآةَ ثقافة الأمة، وعُنوانَ حضارتها، وسبيلَ الرقيِّ بتلك الثقافة وتجديد هذه الحضارة»[٢].

وفي بحثٍ ماتـع جدًّا بعنوان «استثمار التراث في تدريس النحو العربي» (في **اللغة والأدب: دراساتٌ وبحوث**، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني) اهتم الطناحي برصد قضية ضعف الأجيال المتأخرة في اللغة العربية، وبخاصةٍ في قواعد النحو التي هي أبرز معالمها. وردَّها إلى أربعة أسباب مفصلة، وهي: هجر الكتاب «القديم»، وطغيان المناهج الغربية في الدرس، وما يتبع ذلك من جُرأةٍ على النحو وسُخْـرِيَةٍ بالنحاة، والاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق.. والرابع: إهمال جوانب ضرورية في تعليم النحو، كمَـلَـكة الحِفْظ، ومهارات الضَّبْط الصوتي. ثم جمع هذه الأربعة في سببٍ واحدٍ كُلِّيٍّ، هو نبذُ التراث والانسلاخُ منه، والـهُزْءُ برموزه، والسُّخْـرِيَةُ من أشياخه.

---

(١) لا يعني وصفُ أحدٍ من علماء الأمة لغتَنا العربيةَ بـ«الشريفة» أن سواها من لغات الناس «عواهر» والعياذ بالله! كما استدرك عليَّ أحد أصدقائي. فأنا أفهم مثل هذا الوصف التبجيلي (الذي أحبه ولا أنكره، وإن ضاق به البعض أو لم يقتنع به) على أنه من باب «بيان الواقع»؛ إذ أن القيود/ الأوصاف في عِلْمنا «الشريف» على نوعين: للاحتراز والإخراج، كما في قولك مثلاً: بِعْني الثوبَ الطويلَ.. أي أنك لا تريد القصير. والنوع الآخر من القيود/ الأوصاف هو لبيان الواقع، كما في قول الله ـ تعالى ـ مثلاً: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، فلا يعني هذا القيدُ أنه قد يُسمَحُ لهنَّ البغاءُ إنْ هُنَّ لم يُرِدْنَ التحصُّن! ولكن جاء «القيد» هنا («إنْ أردنَ تحصُّناً») لبيان واقع أن ثمة إماءً يُـرِدنَ التحصُّن فعلاً؛ فيجب عدمُ إكراههن على البِغاء وجوباً أَوْلويًّا؛ إذْ لا يجوز الإكراه على البِغاء مطلقاً.. فكيف إذ توفرت دواعي الفضيلة وتأكَّدتْ؟!

والخلاصة أن المراد من وصف العربيةِ بـ«الشريفة» بيانُ واقع شرَفها. وأظهر شرَفٍ لها أنها وسِعتْ القرآنَ المجيد لفظاً ومعنًى. ولا يُقصد أبداً، بمثل هذا التبجيل للعربية، التنقُّصُ من لغةٍ غيرها. والله أعلم.

(٢) **محمود الطناحي: ذكرى لن تغيب**، جمع وإعداد د. محمد محمود الطناحي، دار المدني/ القاهرة، ط ١/ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

وهذا البحث جدير بأن يُضَمَّ إلى بحث آخر في الكتاب ذاته بعنوان «لغتُنا المعاصرة.. والثقة الغائبة»، بالإضافة إلى خمس مقالات أخرى (في مجلدي دار البشائر: **صفحاتٌ في التراث والتراجم واللغة والأدب: مقالاتُ العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي**) هي: «صيحةٌ من أجل اللغة العربية»، «الحفظ وأثره في ضبط قوانين العربية»، «الكتب الصفراء والحضارة العربية»، «البيان والطريق المهجور» (جزءان)، «النحو العربي والحِمَى المستباح» (جزءان).. أقول: إن هذين البحثين و هذه المقالات الخمس (أو: السبع تفصيلاً) جديرةٌ بنشرها في رسالة مستقلة، لتُطبعَ وتُعَمَّم على جامعاتنا وأهل الإعلام والصحافة وعموم المثقفين، لعلها تسهم (بما فيها من رؤيةٍ صائبة، وتحليلٍ رصين، وخُطُواتٍ عمليةٍ منهجية) في علاج هذا الانحدار المرعب الذي تهوي إليه ثقافتُنا وآدابُنا عبر الإعلام.. مكتوباً، ومرئيًّا، ومسموعاً!

ثانياً: كُلِّيَّةُ النظرة إلى التراث

كان الطناحي ـ كما سبق ـ ينظر إلى التراث على أنه شيءٌ واحد، من حيث وجوبُ العناية به: قراءةً وتحقيقاً، ثم نَقداً وتقويماً، ثم استفادةً وتمثُّلاً. وقد سبقت الإشارةُ إلى أنه استفاد هذه النظرةَ الشاملةَ من شيخه محمود شاكر الذي يقول فيه الطناحي: «إن المكتبة العربية كلها عند أبي فِهْر كتاب واحد.. فهو يقرأ **البخاري** كما يقرأ **الأغاني**، ويقرأ **كتاب سِيبَوَيْه** قراءتَه **المواقف** للإيجي.. وأبلغ ما يقال عنه بالتعبير المصري إنه: «خَدِ البِيْعة على بَعْضَها»!».

ومن أجل هذا.. كان الطناحي يهتم في عمله اهتماماً بليغاً بقضية «الفَهْرَسة»، حيث كان يردِّد دائماً: «الكتاب بلا فَهْرَسة.. كَنزٌ بلا مفتاح!»، وهي كلمة حكيمة سمعها ـ كما يقول ـ من شيخ حكيم من شيوخ التراث أوائلَ اشتغاله بالمخطوطات. وذلك أن كتب التراث ـ كما يقول الطناحي ـ متداخِلةُ الأسباب، متشابِكةُ الأطراف،

وقلَّما تجد كتاباً منها مَقصوراً على فنٍّ بعينه دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى، لدواعي الاستطراد والمناسبة. وهذا يؤدي ـ لا محالةَ ـ إلى أن تجد الشيء في غير مظانِّــه. ولذلك ـ كما يقول أيضاً ـ .. فإنه لن تستقيم لنا دراسة علم من العلوم على الوجه الـمَـرْضيِّ دون هذه الفَهْرَسة الكاشفة، التي تضمُّ النظيرَ إلى النظير، وتَـقْرُن[١] الشبيهَ بالشبيه، والتي تستخرج القضايا من غير مَظانِّـهـا. وهو حين يتحدث عن «ثقافة الـمُفَهْرِس» يقول: «.. ويخطئ كلَّ الخطأ من يظن أن فَهْرَسة الكتب عملٌ آلـيٌّ «مِيكانيكي».. إن عُدَّة الـمُفَهْرِس عظيمة، ومُهمَّته شاقَّة!».

وقد ذكرتُ قضية الفَهْرَسة مثالاً فقط ـ هنا ـ على هذه الرؤية الكُلِّية للمكتبة العربية.. ولعل نظرةً في فهارس عمله الأكبر **طبقات الشافعية الكبرى** (الذي شاركه فيـه صديقه وزميله المرحوم الدكتور عبدالفتاح الحلو[٢]) تُجلِّي هـذا الجـانبَ بوضوحٍ كامل.. إذ أنك[٣] تجد فيها إشاراتٍ وفوائدَ لا حصَر لها في فنونٍ متواشِجة، ومَظانَّ غيرِ متوقَّعة.. وهي الطريقة التي كان يتميز بها السيدان الجليلان عبدالسلام هارون ومحمود محمد شاكر، وإخوانُ هذا الطراز الفريد من الطبقة الأولى ممن خدموا المكتبة العربية بجليل أعمالهم.

ومما يتصل بهذا الجانب أيضاً أنك تجد الطناحي يتنقل في كتاباته بين الموضوعات والعلوم والفوائد، التي قد يُظَنُّ عدمُ اجتماعها في المقام الواحد، بما لا تعتاده كثيراً عند المعاصرين، وإن كان مألوفاً عند أمثال الجاحظ وابن قُتَيبة وأبي حَيَّان التوحيديِّ وأضرابهم.

---

(١) قَـرَن: يَـقْـرُن ويَـقْـرِن، من بابَيْ: كتب وضرب.

(٢) الدَّرْعمي المحقِّق (١٣٥٦ ـ ١٤١٤ هـ/ ١٩٣٧ ـ ١٩٩٤م). رحمه الله وأحسن إليه.

(٣) «إذ» ظرفُ زمان، وهي مبنيَّةٌ على السكون. وتأتي ـ فيما تأتي ـ للتعليل، ومن هنا.. أفتح همزة «أنَّ» بعدها، كما تُفتَح بعد لام التعليل.

فهو مثلاً حين يتحدث عن الشيخ المفسِّر محمد متولي الشعراوي وطريقته في أداء دروسه في تفسير القرآن المجيد، يذكر طرائفَ متعددةً ـ مما يتصل بذلك ـ عن قارئ القرآن الكريم الشيخ مصطفى إسماعيل والموسيقار محمد عبدالوهاب والمطربة أم كلثوم!

وهو حين يتحدث عن الناقد الموسيقي كمال النَّجْمي تَحسَبه يتحدث عن محمود شاكر أو عبدالسلام هارون.. دون مبالغة! فهو يقول فيه: «لقد عاش كمال النَّجْمي حياتَه كلَّها حارساً أميناً من حُرَّاس الفنِّ الراقي ـ كلمةً مقروءةً، ونَغْمةً مسموعةً ـ .. يجْلُوه ويذود عنه (...). والمصيبة تَعْظُم إذا كان الراحل يقف على ثَغْرٍ من ثُغور العلم لا يقوم أحدٌ مَقامه.. وما أكثر الثغورَ التي تسقط برحيل حرَّاسها!». وهذا مما يدل على سَعة النظر، وشمول الرؤية لدى الطناحي ـ رحمه الله ـ.

ثالثاً: الاحتفاء البليغ بطرق تلقي العلم

ويُبرز هذا الأمرُ دورَ «المشافَهة» في حياة الطناحي العلمية.. فسُنَّة العلم ـ لاسيما علمُ أمتنا الشريف ـ تلقِّيه من أفواه الأشياخ، والمزاحمةُ عليه بالرُّكَب. وهذا ما حرَصَ عليه الطناحي قديماً، ومن لَدُنْ نُعومة أظفاره.. وفي ذلك يقول عن نفسه: «واتت الباحثَ ظروفٌ حَسَنةٌ (بغير حولٍ منه ولا قوة.. وإنما هو فضل الله وحده)، حين اشتغل بالعلم منذ طَراءة الصِّبا وأوائل الشباب، حيث إنه التمس رزقه في نسخ المخطوطات العربية، فنسَخ آلاف الصفحات. ثم مضى في ذلك الطريق التراثي الطويل: ناسخاً ومُفَهْرِساً، وجامعاً لصور المخطوطات. ثم اشتغل بتحقيق النصوص ونشرها في كثير من فروع العربية: في اللغة والنحو، والتاريخ والتراجم الموسوعية. ثم تجمَّعتْ له من وراء ذلك خِبْراتٌ واسعةٌ، جاءته من مجالسة كبار أهل العلم..

فجالَسهم، وشافَههم، وتلقَّى عنهم.. وبعضُ ما تلقاه منهم لا يوجد في كتاب!».

ومن أجل ذلك تجده دائمَ الثناء على أساتذته هؤلاء، ومُكْثِراً مِن ذِكرهم بكل خير، وإسناد ما استفاده منهم إليهم، وكان يردد كثيراً «من بركة العِلْم نِسبْتُه إلى أهله». وأبرز هؤلاء الأشياخ هو أبوفِهْر محمود شاكر، الذي لازمه نحواً من أربعين عاماً.. ثم يأتي عددٌ من كبار أهل العلم والفضل كالأساتذة الكبار: عبدالسلام هـارون، ومحمد رشاد عبدالمطلب، وفؤاد سيد، ومحمد مرسى الخولي، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، وشيخ المقارئ فى زمانه الشيخ الجليل عامر عثمان.. فضلاً عن عشَراتٍ آخرين استفاد منهم، وكان دائم الثناء عليهم والتنويه بهم، حتى إنه كثيراً ما استفاض ـ في مقالاته ـ في تَعْدادِهم حتى بلغوا في أحد المواطن[1] قُرابةَ الثلاثين (من مصر والمغرب وتونس وسوريا والسعودية واليمن والعراق وتركيا)..

وهذه السُّنَّة الشريفة تكاد تَنْدَرِس الآن مع الأسف البليغ؛ إذ صار الطالب يَحسُو حَسَواتٍ من هنا أو هناك كيفما يتفق له، يقرأ ـ إذا قرأ ! ـ قراءةَ العَجْلان، ويفهم ما يقرأ ـ إذا فهم ! ـ على غير منهج، ثم يَبرُز بصدره، مصعِّـراً خَـدَّه، ليتجرَّأ على العلم وأهله قائلاً: هم رجالٌ ونحن رجال! «ولو بُعِث أحدُهم من مَرْقده، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلم؛ لألجمه العرَقُ؛ ولَصار لسانه مُضغةً لا تتلجلج بين فَكَّيه.. من الـهَيْبة وحدَها، لا مِن عِلمه الذي يستخفُّ به ويَهْـزَأ!» كما يقول أبوفهر. وهذا هو «وباء الاستهانة وقلة المبالاة» (كما سماه وشكا منه مُـرَّ الشكوى أبوفِهْر في مقدمة نسخته من **أسرار البلاغة**)، الذي أوصل ثقافتنا الحاضرة إلى طريقٍ مظلمة، حيث افتقدنا المنهج، وتشعَّبتْ بنا السُّـبُل.. وهذا حديثٌ طويل، ذو شُجونٍ وهموم، ليس مقامه الآن!

ومما يتصل أيضاً بهذا الـمَعْلَم في حياة الطناحي حرصُه على تدريس كتب العلم

(١) انظر مقال الطناحي «ثقافة الـمُفَهْرِس» في: **في اللغة والأدب: دراساتٌ وبحوث**، الجزء الثاني، وبالذات ص ٨١٠ منه.

الأصيلة في أبوابها، التي حفظت شخصية الأمة قروناً متطاولة، والتي هي جديرة بأن تؤدي هذا الدور الآن لو تجد لها في دُور العلم أنصاراً! إذ كان ـ رحمه الله ـ يُقرِئ طلبتَه في الجامعات التي درَّس فيها (في مصر وخارجَها) **شرح ابن عقيلٍ على الألفية وشذور الذهب** لابن هشامٍ في النحو والصرف، ويرفض أن يقرِّر عليهم «مذكِّرة» من صنعه، خشيةَ أن يصرفَهم بها عن وجه العلم الأصيل.. مع ملاحظة أنه لا وجه مطلقاً لمقارنةٍ بين تحقيقاته وتدقيقاته العلمية وبين كثير جدًّا مما تُسوَّد به «أوراق الجرائد» الحائلة، المسمَّاةُ «مُذكِّرات»، التي يُفرض عناءُ قراءتها في أروقة الجامعات، من غير مَردود علميٍّ حقيقيٍّ وبَـنَّاء!

رابعاً: القلقُ من حال التعليم الجامعي، والاهتمامُ الشديد بوجوب تقويم مسيرته

وهذا متصل بما سبق.. حيث حُـرِفت أجيالُ الأمة عن السبيل القويمة في الطلب والتحصيل، مما أوصلنا إلى هذا المستوى العلمي المتردِّي من الضعف والضآلة في جامعاتنا ومدارسنا، في مصر خاصةً والبلاد العربية عامةً، بل.. وفي مختلِف نواحي حياتنا.

وقد حذَّر ـ رحمه الله ـ من خطورة استمرار هذا الوضع المخجل، ودعا ـ في ثنايا كثير مما كتب ـ إلى وجوب المسارعة إلى التصحيح.. ولعل من اللافت أن آخر مقال كتبه (ونشر بُـعَـيد وفاته في مجلة **الهلال** المصرية: صَفَر ١٤٢١ هـ/ يونيو ١٩٩٩م).. كان في هذه القضية، وكان عنوانه «الرسائل الجامعية.. وساعةٌ ثم تنقضي!»، حيث رصد بعضاً من مظاهر الخلَل المعيب الذي شاب الحياة العلمية الأكاديمية، التي يُـفترض فيها الجِدُّ والإتقان.. وفي آخره وجه نداءً/ وصيةً إلى أهل العلم بقوله: «(...) فيا زملاءنا.. أعرف أن عندكم علماً كثيراً، ولكني أدعوكم أن تخرجوه إلى الناس ولا تَضِنُّوا

به. واعلموا أن ما تُؤجَرون عليه من المجلات الغنية وبرامج التلفزيون الخليجية إنما أخذتموه باسم الجامعة الضخم، وبالطَّـيْلَسان الجامعي الفَضفاض! فأنتم في الأصل معلِّمون.. فأعطوا الجامعة حقَّها عليكم، ثم أعيدوا للرسائل الجامعية بهاءها ووقارَها وشرفَها. أقول هذا.. وأستغفر الله لي ولكم»..

ورحمه الله.. فقد أعذر إذْ أنذر!

(٤)

وبعد..

فهذه إطلالةٌ سريعة مكثفة على ملامح الرؤية الحضارية في تناول التراث والتعامل معه كما تظهر لدى واحد من أبرز أعلامه المعاصرين.

وبقي أن أقول: إن بيان الطناحي في كل ما كتب «بيانٌ صافٍ مصفًّى، يَنحدر من سُلالةٍ عربيةٍ نقية، ويتدفق عُذوبةً ورِقَّـةً»، كما وصف هو بيانَ شيخه عبدالسلام هارون ـ رحمه الله ـ. كما أن أسلوبه يَنزِع كثيراً إلى أسلوب شيخه أبي فِهْر ـ رحمة الله عليهما ـ الراقي معنًى ومبنًى.

وأعتقد أن من الصعب جدًّا أن يتسلل إلى قارىء الطناحي المللُ أو الشعورُ بصعوبة الكلام، على دقَّته فيما يعرض من قضايا علمية؛ إذ أنه يتنقل ـ بسُهولة ولُطْفٍ ـ ما بين الفوائد والطرائف والمسائل العلمية، والسُّخْرِيَة و«النكتة اللي بِتُحْكُم» (كما نقول في عامِّـيَّتنا المصرية!).. كلُّ ذلك ببيانٍ عالٍ، وعقلٍ ذَكيٍّ، وإدراكٍ واعٍ، ورُوحٍ خفيفة.

... ...

ولا شكَّ في أن صدور هذين العملين الكبيرين، المحتفِي بهما هذا المقالُ، خيرُ

تكريم لعالمٍ نبيـلٍ كالطناحي.. إذ لولا ذلك؛ لاندرس اسمه، وضاع جهده في أَضابير[1] الصُّحُف والمجلات وغَيَاباتها! وقد يكفي ابنَـه (الأخَ الصديقَ العزيز د. محمد) فخراً وبِـرًّا بوالده أن قام على هذه المجلدات: جَمعاً وعِنايـةً، حتى خرجتْ إلى قراء العربية بعد فترةٍ وجيزة ـ نسبيًّا ـ من وفاة المرحوم الطناحي.. وهذا مما يُحمَد له ولناشِـرَيْـه؛ إذ أنه قيل قديماً: «كان الليث أفقه من مالكٍ.. إلا أنه ضَيَّعه أصحابُه!»[2].

والحمد لله أنْ لم يُضيَّعْ الطناحي..

فهل يَتدارك تلامذةُ غيره من العلماء وذووهم تراثَـهم حتى لا يضيع.. فيحملوا هم وِزْرَ ذلك؟!

* * *

(١) جمع «إضْبارة»: الـحُزمة من الصُّحُف. ومثلها: الإضْمامة، والجمع: أَضاميم.

(٢) نُسِب إلى الإمام الشافعي (رضي الله عنه، وعن الإمامين مالكٍ والليث): **البداية والنهاية**، ابن كثير، نشْرة د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجَر/ القاهرة، ط١/ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م، ١٣/ ٥٧٨.

ونُقِل: «... إلا أن أصحابه لم يقوموا به!»: **وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خِلِّكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر/ بيروت، ط ١/ ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، ٤/ ١٢٧.

الطناحي: الرحيلُ الهادئ![1]

خبرٌ ما صَكَّ أسماعَنا؛ ففزعنا فيه بآمالنا إلى مَظِنَّة الخطأ!

حتى إذا لم يَدَعْ لنا صِدْقُه أملاً؛ غَلبتْنا العَبْرَة، ومَلَكتْنا الحَسْرة!

... ...

كنا في رحاب الجامع الأزهر الشريف، ضُحى الثلاثاء: السادس من ذي الحجة ١٤١٩هـ، الثالث والعشرين مارس ١٩٩٩م ـ حين فَجِئنا[2] النَّعِيُّ: «انتقل إلى رحمة الله منذ ساعاتٍ قلائل.. محمود الطناحي».. فخَفَقتْ من الحزن قلوب، وفاضت من الرحمة عيون، وارتفعت إلى الله تعالى أَكُفٌّ في حَلْقة العلم تبتهل إلى الرحيم الوَدود أن يتغمد الفقيدَ بواسع رحمته، وأن يتقبل منه عملَه ونُصْحَه لدينه وأمته، وأن يُحْسِن الخَلَفَ فيه.

فيا لَه من ثلاثاءٍ حزين!

---

(١) كلمةٌ موجَزةٌ ألقيتُها في حفلِ تأبينٍ للطناحي ـ رحمه الله ـ، دعتْ إليه كلية الآداب بجامعة حُلوان (في القاهرة)، في إبريل ١٩٩٩م. وكان قد دعاني (وكنتُ حينها طالباً لا أزال في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف في القاهرة) إلى التحدث أمام هذا الحفل الأستاذ الدكتور عبدالحميد إبراهيم، رئيس قسم اللغة العربية بهذه الكلية حين ذاك، وكان من قبلُ عميداً لكلية الآداب بجامعة المنيا في صعيد مصر.. وهذه فرصةٌ طيبةٌ لأسجِّل شكري إياه، ودعائي إلى الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته وأن يكرمه بفضله في دار كرامته.

(٢) من بابَيْ «سَمِع» و«مَنَع».

فيـا يـومَ الثلاثـا.. كمْ كئيبٍ رماه الحزنُ فيكَ، وكم عَـميدِ!
فكـم سَخَّـنْتَ فينا من عيونٍ وكمْ أعْبَرْتَ فينا من خُدودِ![1]

ويا لله!

أهكذا يُقبَضُ العلماءُ في صمت؟!

أهكذا يَرحل الكرام بهدوء؟!

أهكذا تُطوَى الصفحاتُ العامرة، وتُختَمُ الصُّحُفُ الحافلة، ويُغيِّبُ الثَّرى الأَنْفُسَ الحبيبةَ الكريمة؟!

لقد أَذْكَرني رحيلُ أبي محمدٍ، الهادئُ السريعُ، أبياتاً رقيقةً معبِّرةً، قالها أعرابيٌّ [وهي تُنسَبُ إلى كَعب بن زُهَيْر] في صاحبٍ له مات فجأةً، في حينِ أمنٍ وسلامة، وكان نشيطاً لا يهدأ، رُحَلَةً لا يستقرُّ، عاملاً لا يَكِلُّ.. قال[2]:

---

(١) لأبي تمام.. يَرثي عمير بن الوليد. وهكذا وجدتُني قد كتبتُها يومَها. ورواية الديوان (**شرح ديوان أبي تمام**، أبوبكر الصُّولي، تحقيق د. خلَف رشيد نعمان، وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق، [سلسلة دراسات ـ رقم ١١٣، ط١/ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢م]، ٣/ ٢٦٨، ٢٦٩. وما بين المعكوفتين بياناتٌ خاصة بالجزء الثالث فقط، وللجزئين الأول والثاني بياناتٌ مختلفة، حتى في نوع السلسلة الصادرين عنها! وهذا من غرائب ما وجدت!):

فيا يـوم الثلاثاء.. اصطبحنـا غـداةً منـك هائـلةَ الـوُرودِ
ويا يـوم الثلاثاء.. اعتُمِدنـا بفَقدٍ فيـك للسَّنَـدِ الـعَميدِ
فكم أسخنتَ منا من عيونٍ وكم أعثرتَ فينا من جُدودِ!

ثم وجدتُ أن الرواية التي أثبتُّها واردةٌ عن بعض رواة شعر أبي تمام: **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي**، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف/ القاهرة، سلسلة «ذخائر العرب» ـ رقم ٥، ط ٥/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ٤/ ٥٨ (حاشية المحقِّق).

(٢) قطعةٌ حماسية، يُحتمَل (كما يقول عبدالسلام هارون) أنها لكعب بن زُهير: **شرح ديوان الحماسة**، أبوعلي المرزوقي، نشرة عبدالسلام هارون وأحمد أمين، تصوير دار الجيل/ بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، ص ٩٩٩.

في بعض تَطواف ابنِ طُعْمةَ آمناً لاقَى حِمَامَه
وصَـدا له مِن خلفِه يَغْـتَرُّه.. لا، بـل أَمامَه!
غُرَّ امـرؤٌ مَنَّـتْه نفسٌ أن تـدوم لـه السلامةْ!
هيهات! أعيـا الأوَّلين دواءُ دائكَ يا دِعامةْ!

... ...

الجمعُ الكريم..

بعد أقلَّ من عامين من رحيل شيخ العربية الأكبر في هذا القرن المؤذن بالانصرام.. الشيخ الجليل أبي فِهْر محمود محمد شاكر..

وبعد أشهرٍ معدودةٍ من رحيل الأستاذة الجليلة، فخر نساء هذا العصر، الدكتوره عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ»..

رحمهما الله، وأحسن إليهما، وبَرَّد مضجعهما..

أقول:

بعد هذا الرحيل المحزن فقدت الثقافة العربية الإسلامية ركناً مهمًّا من أركانها الثابتة، وعَلَماً من رجالاتها المبرِّزين..

ذاكم هو شيخُنا الحبيب أبو محمد محمود محمد الطناحي.. أفاض الله عليه شآبيبَ عفوه ورحمته.

ولستُ الآن بسبيل الحديث عن علمه وأعماله.. فتلك شِعابٌ ليس لمثلي أن يَلِجَ فيها..

وإنما أودُّ أن أعرض على حضراتكم في هذه العُجالة المتاحة بعضَ الملامح البارزة

في حياة الطناحي، التي أحسب أن التركيز عليها بعضٌ مما كان يهتم به فقيدُنا الحبيب..

وأول هذه الملامح، وأبرزها: التأكيدُ على قيمة اللغة في حياة الأمة..

فقد تَمحوَرتْ حياته ـ رحمه الله ـ على محور اللغة.. وهذا من منطلَق إيمانه بأن اللغة هي وِعاءُ الحضارة، وأن الاهتمام بها في كل مجال هو بداية النهضة الحقيقية لأية أمة.. فبسلامة اللغة تَسلَمُ للأمة ـ أيةِ أمةٍ ـ هُويتُها، وتمتاز شخصيتها. بل إن وجودَها الماديَّ ذاتَه رَهْنٌ بحال اللغة فيها، وحال أهلها معها. دَعْ عنك كونَ العربية هي مَجْلَى ظهور الكلام الإلهي الأسمَى، في القرآن العظيم. وهذا معنًى جديرٌ بحمل كل مسلمٍ صادقٍ على محبة هذه اللغة الشريفة، والعمل ـ بكل سبيل ـ على صيانتها ومراعاتها.. فهذا بابٌ من محبة الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ . وهذه خَلْفيَّةٌ مهمةٌ من خَلْفيَّات اهتمام الطناحي البليغ بالعربية وآدابها.

وثاني هذه الملامح: تعلُّقُ الفقيد بتراث أمته الخالد، تعلُّقاً وصل به إلى حدِّ العشق! وقد رَفَدتْ هذا الجانب من شخصيته صِلاتُه العميقةُ بأساتذة الجيل في هذا المجال، من أمثال الجِلَّة الكرام، الأساتذة المحققين: عبدالسلام هارون، والسيد أحمد صقر، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، ومحمد أبوالفضل إبراهيم.. وإخوانِ هذا الطِّراز الفريد ـ رحمهم الله أجمعين ـ. ثم يأتي بعد ذلك، بل وقبلَه، صُحبتُه الطويلةُ المثمرةُ للشيخ الأكبر الإمام الجليل أبي فِهْرٍ ـ طيَّب الله ثَراه ـ.

وثالثُها، أعني تلك الملامحَ المشارَ إليها: حِرْصُه الشديد على تأكيد اتصال الأجيال الناشئة بتراث سلَفها الـمُزْهِر. وأُلْمِعُ في هذا المجال إلْماعةً سريعةً إلى حرصِه على تدريس كتب العلم الأصيلة في أبوابها، التي حفظتْ شخصيةَ الأمة قروناً متطاولة، والتي هي جديرةٌ بأن تؤدي هذا الدور الآن لو تجد لها في دُور العلم أنصاراً!

ومما يتصل بهذا رَفْضُه ـ رحمة الله عليه ـ أن يقرِّر على تلامذته «مذكِّرة» من صُنْعه،

خشيةَ أن يصرفَهم بها عن وجه العلم الأصيل.. بالرغم من أنه لا وجه مطلقاً لمقارنةٍ بين تحقيقاته وتدقيقاته العلمية وبين كثيرٍ جدًّا مما تُسوَّد به «أوراقُ الجرائد» الحائلة، المسمَّاةُ «مُـذكِّرات»، التي يُفرض عناءُ قراءتها في أروقة الجامعات فَرْضاً، من غير مَردود علميٍّ حقيقيٍّ وبَـنَّاء!

ولْأَكُفَّ اللسانَ عن الخوض في هذا! ويكفيني الآن، ويكفيكم إن شاء الله تعالى، قولُ أبي الطيب ـ رحمه الله ـ :

وفي النفسِ حاجاتٌ، وفيك فَطانةٌ سُكوتي كلامٌ عندها وخِطابُ!

... ...

وثمة مَلْمحٌ رابعٌ متصلٌ بما سبق..

وهو دور «الـمُشافَهة» في حياة الطناحي العلمية.. فسُنَّة العلم، لا سيما علمُ أمتنا الشريف، تلقِّيه من أفواه الأشياخ، والمزاحمةُ عليه بالـرُّكَب. وهذا ما حرَص عليه فقيدُنا قديماً، ومن لَدُن نعومة أظفاره، في «معهد القاهرة الديني»، ثم في جميع أطوار حياته. ولعل فيما أشرتُ إليه آنفاً من توثُّق علائقه ـ رحمه الله ـ بكبار أساتذة الجيل من العلماء والمحققين ـ غُنْيةً عن إعادته.

وقد كان ـ رحمه الله ـ لا يَـمَلُّ من التأكيد على هذه القيمة الجليلة والسُّنَّة الشريفة من سُنَن أسلافنا، في لقاءاته العامَّة، وجلَساته الخاصَّة، وفي كل ما يكتب وينشر.. ما وجد إلى هذا سبيلاً.

ولَعَمْرُ الله.. إنه ما اختلَّتْ أحوالُنا الثقافيةُ والعلميةُ والدينيةُ إلا مُذْ «حُرِفتْ» أجيالُ الأمة عن هذه السبيل القويمة، التي تتأصَّل بها قِيَـمُ الثقافة والعلم والدين والحضارة، كما تأصَّلتْ وترامَتْ عبرَ قرونٍ طِوال!

وكان من نتيجة هذا «الـحَرْف» ما كان.. مما نَلْمُسُه ونُعايشُه الآن من مستوًى

مُتَرَدٍّ، وضعفٍ وضآلةٍ في جامعاتنا ومدارسنا، وفي مختلِف مَناحي الحياة.. ولكنْ لهذا حديثٌ آخرُ، ليس هذا المقامُ مَحِلَّه!

... ...

مستمعيَّ الكرام..

أرى مجالَ القول متسعاً.. ولكنَّ المقامَ كما ترون!

فكيف لي توفيةُ الطناحي حقَّه من القول الصادق؟!

أأذكرُ كرَمَ أخلاقه، وسَجاحةَ نفسه، وطِيبَ عُنْصره، ونُبْلَ شخصيته؟!

أم أذكرُ طَلاقةَ وجهه، وصفاءَ قلبه، وحُضورَ نُكتته، وتوقُّدَ أَلْمَعيته؟!

أم أذكرُ عِلْمَه المحقَّق، وتحقيقه المنمَّق، وبيانَه الـمُعْجِب، وأياديَه البيضاءَ على العلم وأهله؟!

ماذا آخُذُ من جوانب الرجل وأدَع؟!

كيف السبيل إلى الإفاضة في جوانبَ لا تَفي ببعضَها مجالسُ كاملةٌ، وصفحاتٌ متكاثرة؟!

إن أبا محمدٍ ممن صَدَقوا اللهَ ما عاهدوه عليه، من القيام على ثغور الأمة بالحِياطة والرِّعاية، وأخلصوا النُّصْح لله ورسوله وكتابه.. حتى «أَعْنَقتْ[1] للـمَنون رِحْلتُهم»[2]..

(١) أي أسرعتْ.

(٢) من مَرْثِيَـة أبي همَّام عبداللطيف عبدالحليم، يبكي فيها أبافِهْر ـ رحمه الله ـ . ألقاها أولَ مرةٍ في حفل تأبين أبي فِهْر الذي أقامه «المجلس الأعلى للثقافة» المصري بالقاهرة، في «أربعين» أبي فهر. ثم نُشِرتْ من بعدُ في مجلة العربي الكويتية: عدد ٤٦٩، ديسمبر ١٩٩٧م.

أحسبه كذلك.. ولا أزكِّيه على الله تعالى.. فهذا خبرٌ عن حالٍ، والله حَسيبُه.

وأمثالُ هؤلاء المجاهدين لا تُطوَى كُتبُهم بطَيِّ صفَحات حَيَواتهم..

وفيهم تصدُق مقالة الأديب الصادق.. الرافعي ـ عليه رحمة الله ـ:

«أعرف أنهم ماتوا، ولكني لم أشعر قَطُّ إلا أنهم قد غابوا. والحبيب الغائب لا يتغيَّر عليه الزمانُ ولا المكانُ في القلب الذي يحبه، مهما تراخت به الأيام.. وهذه بقيةُ الروح إذا امتزجتْ بالحب في روحٍ أخرى: تترك فيها ما لا يُمْحَى؛ لأنها ـ هي ـ خالدةٌ لا تُمْحَى!»[1].

وأزيد أنا: فإن لهم من وراء أعمارهم، المحدودةِ بحدود الزمان والمكان، أعماراً أخرى متطاولِـةً.. ما بقي للعلم معهد، وما ظلَّ في القلوب وفاء!

... ...

لقد قال أبوفِهرٍ ـ رحمه الله ـ بعد رحيل أستاذه وصديقه، شيخ العربية في زمانه، الرافعيّ:

«إن الرافعيَّ قد صار ميراثاً نتوارثُه، وأدباً نتدارسُه، وحَناناً.. نأوي إليه!»[2].

وقالها أبوأَرْوَى في شيخه أبي فِهْرٍ غَداةَ رحيله..

وهانحن، اليومَ، نقولها لأبي أَرْوَى!

... ...

(١) من مقالة «وحي القبور»: **وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي، نشْرة بسام عبدالوهاب الجابي، دار ابن حزم/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م، ص ٥١١.

(٢) من تقديم أبي فهر كتابَ محمد سعيد العريان: **حياة الرافعي**، المكتبة التجارية الكبرى/ القاهرة، ط ٢/ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م، ص ٩.

لِـيَرْحَمْك الله ـ أبا محمدٍ ـ، ولْيُطَـيِّبْ ثَراك، ولْيَـتَغَمَّدْك بعفوه وفضله، ولَيَـتَقَـبَّلْك في الصالحين..

وإلى روحك الطاهرة، في مُسْتَراحها المِطمئنِّ، مقالةُ صِدقٍ.. لئن صَدقتْ في شيخك الجليل أبي فِهْر؛ فَـلَـتَصْدُقنَّ الآن فيك!

مــا رَحـلتْ منك فكرةٌ نَـبُهتْ.. ضياؤهــا في سمائنا شُـهُـبُــه
مَقهـورةً بـالأسَى مَـدامعُنا.. يَحـرُِقُهـا مـن وَداعِـه لَـهَـبُــه
يـا بَــرَّد اللهُ مَـضْجَعـاً سَخُـنـتْ بـه عُيـونٌ.. تَبيـتُ تَحتـسبُـه
ما صَوَّحتْ من ناديكَ زَهْرتُه، يا راحلاً.. لا تَنطوِي كُتُـبُـه![1]

... ...

والحمد لله، الذي لا يُحمَد على مكروهٍ سواه..

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أحمد عبدالرحيم
كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر
القاهرة: ١/ ١/ ١٤٢٢ هـ - ١١/ ٤/ ١٩٩٩م

(١) من مَرْثِـيَـة أبي همَّام المشار إليها آنفاً.

التعريف بالطناحي(١)

السيرة الذاتية المختصرة للأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي
المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى صباحَ الثلاثاء
٦ من ذي الحجة ١٤١٩هـ، الموافق ٢٣ مارس ١٩٩٩م

ـ وُلد عام ١٩٣٥م بمحافظة المنوفية ـ جمهورية مصر العربية.

ـ **انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره.**

ـ **أتم حفظ القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، في الثالثة عشرة من عمره.**

ـ التحق بـ«معهد القاهرة الديني» بـ«الأزهر الشريف»، وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٥٣م، والشهادة الثانوية عام ١٩٥٨م.

ـ التحق بكلية «دار العلوم»/ جامعة القاهرة، وحصل على شهادة الليسانس في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية عام ١٩٦٢م.

ـ حصل من الكلية نفسها على شهادة الماجستير (قسم النحو والصرف والعَروض) عام ١٩٧٢م بتقدير «ممتاز». وكان موضوع أطروحته: «ابن معطي وآراؤه النحوية»، مع تحقيق كتابه **الفصول الخمسون**.

---

(١) الفضل في هذا التعريف المفصَّل للأخ الكريم الدكتور محمد محمود الطناحي (نجل الفقيد)، الذي حرره بعد وفاة والده ـ رحمة الله عليه ورضوانه ـ ، وصدَّر به الكتابين اللذين جُمعت في مجلداتها الأربعة مقالاتُ الطناحي وأبحاثُه. وقد تصرفتُ فيه قليلاً، وأضفتُ إليه ما صدر بعد تاريخ تحرير د. محمد الطناحي.

- ومن كلية «دار العلوم» أيضاً حصل على شهادة الدكتوراه (قسم النحو والصرف والعَروض) عام ١٩٧٨م بمرتبة «الشرف الأولى». وكان موضوع أطروحته: «ابن الشجري وآراؤه النحوية»، مع تحقيق الجزء الأول من كتابه **الأمالي النحوية**.
- عمل عقب تخرجه عام ١٩٦٣م معيداً بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وفي عام ١٩٦٥م ترك الجامعة الأمريكية، وعُيِّن خبيراً بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو العربية»)، وظل بمعهد المخطوطات إلى أواخر عام ١٩٧٨م، حيث انتدب أستاذاً مشاركاً بقسم الدراسات العليا العربية بكلية الشريعة/ جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة (الآن: كلية اللغة العربية/ جامعة أم القرى). ثم استقال منها بنهاية العام الدراسي ١٤٠٩ـ١٩٨٩م.
- عُيِّن أستاذاً مساعداً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة/ فرع الفيوم، في ٢٧/ ٣/ ١٩٩١م، ثم رُقِّي أستاذاً بتاريخ ٣١/ ٥/ ١٩٩٥م، وعمل أستاذاً بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب/ جامعة حلوان. كما درَّس النحو، فصلاً دراسيًّا، بقسم اللغة العربية/ كلية البنات - جامعة عين شمس، في حدود سنة ١٩٩٠م.
- عمل خبيراً بمَجْمَع اللغة العربية بالقاهرة، وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وعضواً بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي (معهد إحياء المخطوطات العربية/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو العربية»).

النشاط العلمي

ـ اتصل بالمخطوطات العربية، منذ أن كان طالباً بالسنة الأولى بكلية «دار العلوم»: ناسخاً ومُفَهْرِساً ومحقِّقاً، فنسخ كثيراً من المخطوطات المشرقية والمغربية، وأعان بعض المستشرقين الذين نزلوا مصر.

ـ شارك في نشاط معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، على امتداد ثلاثة عشر عاماً، وانتُدب عضواً في بعثاته لدراسة وتصوير المخطوطات. ومن البلدان التي زارها وفَهْرَس نوادرَ مخطوطاتها: تركيا عام ١٩٧٠م. المغرب الأقصى، مرتين: عام ١٩٧٢م، وعام ١٩٧٥م. المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣م. جمهورية اليمن الشمالية عام ١٩٧٤م. وقد اكتشف في هذه البلدان بعض المخطوطات المجهولة التي لم يكن يعلم الناس عنها شيئاً، والتي لم تُدرَج في فهارس المكتبات.

ـ شارك في ندوة «أبناء الأثير» التي عقدتها جامعة الموصل بالجمهورية العراقية (مارس ١٩٨٣م)، وكان بحثه بعنوان: «مجدُ الدين ابن الأثير وجهوده في علم غريب الحديث».

ـ شارك وحاضر في الندوات التي عقدتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (التي أسسها السيد أحمد زكي يماني) لدراسة وفَهْرَسة المخطوطات الإسلامية في كلٍّ من: القاهرة/ يناير ١٩٩٤م، استانبول/ سبتمبر ١٩٩٤م، لندن/ يونيو ١٩٩٥م.

ـ شارك في ندوة «تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسع عشر»، التي أقامها مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة بدبي: أكتوبر ١٩٩٥م.

- شارك في ندوة «اللغة العربية المعاصرة في مصر»، التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة: إبريل ١٩٩٧م.
- شارك في ندوة «علي الجارم» التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة: ١٩٩٨م.
- شارك في تدقيق وتحرير **مدخل قاموس القرآن الكريم** الذي أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).
- حرر مادة «أحمد محمد شاكر» في **دائرة المعارف الإسلامية** التي تصدر في استانبول باللغة التركية.
- نُشرت مقالاته بمجلات **الرسالة الجديدة والهلال والكتاب العربي والمجلة والثقافة والشعر** بالقاهرة. ومجلتي **مجمع اللغة العربية** بالقاهرة ودمشق، و**العربي** بالكويت، و**دعوة الحق** بالمغرب، و**مجلة كلية اللغة العربية** بمكة المكرمة. وجريدة **الأهرام** المصرية.
- شارك في ندوة «المحافظة على كنوز التراث الإسلامي» التي عقدت على هامش الدورة الثالثة للمجلس التنفيذي لمؤتمر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: عمان/ الأردن ـ سبتمبر ١٩٩٦م.
- شارك في تقويم برامج كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي (الإمارات العربية المتحدة) نوفمبر ١٩٩٦م.

الإنتاج العلمي

أولاً: التحقيقات:

١ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لمجد الدين ابن الأثير، المتوفَّى سنة ٦٠٦هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي/ القاهرة، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٣م[١]. (خمسة أجزاء: الثلاثة الأولى بالاشتراك[٢]، والرابع والخامس بالانفراد)

٢ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، لابن السُّبكي، المتوفَّى سنة ٧٧١هـ، الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي/ القاهرة، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، والطبعة الثانية (المزيدة المنقحة) بدار هَجَر/ القاهرة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م. (عشرة أجزاء بالاشتراك[٣]).

٣ـ **العِقْد الثمين في تاريخ البلد الأمين** (مكة المكرمة)، لتقي الدين الفاسي، المتوفَّى سنة ٨٣٢هـ، مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م. (الجزء الثامن).

٤ـ **كتاب الغريبين** (غريبي القرآن والحديث)، لأبي عبيد الهَرَوي، المتوفَّى سنة ٤٠١ هـ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م. (الجزء الأول).

٥ـ **الفصول الخمسون** (في النحو)، لابن معطي، المتوفَّى سنة ٦٢٨هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي/ القاهرة، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م. (رسالته لـ«الماجستير»).

---

(١) هذا التاريخ إنما هو للجزء الأول، وكذلك في الذي بعده.

(٢) شريكه فيه الشيخ طاهر الزاوي، مفتي ليبيا السابق.

(٣) شريكه فيه د. عبدالفتاح الحلو.

٦ـ **تاج العروس شرح القاموس**، للمرتضَى الزَّبيدي، المتوفَّى سنة ١٢٠٥هـ، وزارة الإعلام بالكويت (الجزءان: السادس عشر ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م. و: الثامن والعشرون ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

٧ـ **مَنال الطالب في شرح طِوال الغرائب**، لمجد الدين ابن الأثير، المتوفَّى سنة ٦٠٦هـ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي/ جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م. (حصلت هذه الطبعة على الجائزة الأولى في تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية بالقاهرة).

٨ ـ «أرجوزة قديمة في النحو»، لليَشْكُري، المتوفَّى سنة ٣٧٠هـ، بضميمة: **دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبي فِهْر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين**، مطبعة المدني/ القاهرة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

٩ـ **كتاب الشعر**. أو: **شرح الأبيات المشْكِلَة الإعراب**، لأبي علي الفارسي، المتوفَّى سنة ٣٧٧هـ، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م. (جزءان)

١٠ـ **أمالي ابن الشجري**، المتوفَّى سنة ٥٤٢هـ، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م. (ثلاثة أجزاء، اشتملت على ٨٤ مجلساً، منها ٤٩ مجلساً حصل بها الطناحي على شهادة «الدكتوراه» من كلية «دار العلوم» بالقاهرة).

١١ـ **ذِكْرُ النسوة المتعبِّدات الصوفيات**، لأبي عبد الرحمن السُّلَمي، المتوفَّى سنة ٤١٢ هـ مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٢ـ **أعمار الأعيان**، لابن الجوزي، المتوفَّى سنة ٥٩٧هـ مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

ثانياً: الكتب (المؤلَّفة والمجموعة):

١ـ **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف**، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢ـ **الموجز في مراجع التراجم والبُلدان والمصنفات وتعريفات العلوم**، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٣ـ **الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر**، سلسلة «كتاب الهلال» ـ أغسطس ١٩٩٦م.

٤ـ **في اللُّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث**، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط١/ ١٤٢٢ ـ ٢٠٠٢م. (مجلدان).

٥ـ **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي: صَفَحَاتٌ في التُّراثِ والتَّراجمِ واللغَـةِ والأَدَب**، دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ ـ ٢٠٠٢م. (مجلدان).

٦ ـ **من أسرار اللغة في الكتاب والسنة: معجمٌ لُغويٌّ ثقافي**، دار الفتح للدراسات والنشر/ عَمّان، ط١/ ١٤٢٨ ـ ٢٠٠٨م.

القسم الأول

المقالات

صيحةٌ من أجل اللغة العربية(١)

هل يتحول التراثُ العربيُّ إلى ألغازٍ وطلاسم؟!

لم يعد خافياً على أحد ذلك التدنِّي الذي وصل إليه خريجو أقسام اللغة العربية في جامعاتنا خلال العقود الأخيرة، وهؤلاء الخريجون هم الذين يتولون تعليم أولادنا في المدارس، وهم أيضاً الذين يُسمعوننا الكلمة العربية من خلال الإذاعة والتلفزيون، ولو تُرك الأمر على ما هو عليه الآن؛ فالله وحده هو الذي يعلم أبعاد الكارثة التي ستُطبِق على هذه الأمة، ونخشى أن تغشانا طوارقُها ذات يوم وقد استحال تراثنا (الذي ضَنِيَ به الأوائل خلال أربعة عشر قرناً من الزمان) ألغازاً و طِلَّسْمَات(٢)،

---

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة الهلال المصرية، عدد صفر ١٤١١ هـ ـ سبتمبر ١٩٩٠م.

ثم جُمع في: مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي: صَفَحَاتٌ في التُّراثِ والتَّراجمِ واللغَةِ والأَدَب، دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ـ٢٠٠٢م، القسم الأول، ص ١٣٦:١٤٦.

(٢) ورد هذا الجمع في الحيوان (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/ القاهرة، ط٢/ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م، ٥/ ٣٩٦)، ومفرده (بضبط عبدالسلام هارون) «طِـلَّسم».

وهو كلُّ غامضٍ مبهَمٍ، كالألغاز والأحاجي. ويقال: فَكَّ طِلَّسْمَه: أي وَضَّحه وفَسَّره وكشَف أسرارَه.

وذكر شهابُ الدين الخفاجي (٩٧٧ ـ ١٠٦٩ هـ/ ١٥٦٩ ـ ١٦٥٩م)، في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل (تصحيح نصر الـهُوريني، المطبعة الأميرية/ القاهرة، د. ط، ١٢٨٢ هـ ـ ١٨٦٥م، ص ١٥٠، ١٥٣)، أنه لفظٌ يوناني. ثم نقل أنه لم يعرِّبه من يُوثَق به.

وعلى أنه يوناني.. فقد قيل في معناه إنه «عُقْدةٌ لا تَنحلّ». أو إنه مكوَّنٌ من جزئين: يوناني وعربي، وإن جزءه الأول اليوناني «الطِّل» معناه الأثر، وجزءه الثاني العربي من «الاسم»، والمعنى: أثر الاسم.

أما المرتضَى الزَّبيدي؛ فيقول في تاج العروس: «الطِّـلَسْم» (كـ«سِبَطْر»)، وشدَّد شيخُنا اللام، وقال إنه =

كالذي تراه على جدران المقابر والمعابد ولفائف البردي، رموزاً قديمة تخفى على جمهرة الناس، ولا يعقلها إلا العالمون! ويومها سنقول:

استعجمتْ دارُ مَيٍّ.. ما تُكلِّمنا والدارُ، لو كلَّمتنا، ذاتُ أخبارِ![1]

وها هي نُذُر الفتنة قد أطلت برأسها، فلن يستطيع أحدٌ ـ مهما غلا في تقدير كليته أو معهده ـ أن يزعم أن طالباً متخرجاً في هذا المعهد أو تلك الكلية يستطيع الآن أن يقرأ سطراً من كتاب **سِيبَـوَيْـه**[2]، فضلًا عن أن يفهمه أو يحل رموزه! وإذا لم يستطع

= أعجمي. وعندي أنه عربي: اسمٌ للسر المكتوم. (...). والجمع: طلاسم». ولم يدلِّل المرتضَى على رأيه بعربيته. والظاهر أن تشديد لامه مع فتحها أيضاً.

فائدة: حيث يذكر المرتضَى الزَّبيدي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ/ ١٧٣٢ ـ ١٧٩٠م) في **تاج العروس** «شيخنا»؛ فمراده شيخه المغربي اللغوي أبوالطيب محمد بن الطيب الفاسي (١١١٠ ـ ١١٧٠ هـ/ ١٦٩٨ ـ ١٧٥٦م)، وحاشيته الحافلة **إضاءة الراموس في إفاضة الناموس على إضافة القاموس** (أي: **القاموس المحيط**) من مصادر المرتضَى الرئيسية في **تاجه**.

(١) البيت من قصيدة رائقة للنابغة الذبياني، وهو في **ديوانه** (نشرة محمد أبوالفضل إبراهيم): «فاستعجمتْ دارُ نُعْمٍ».

(٢) سِيبَـوَيْه هو لقب إمام النحاة أبي بِشْرْ عمرو بن عثمان بن قُـنَـبْـر (ورجَّح عبدالسلام هارون: قَـنْبَـر. وخطَّأ الـزَّبيدي شيخَه الفاسي في ضبطه «قُـنبُـر» كـ «قُنْفُذ») الفارسي الشيرازي. وكتابه **الكتاب** هو الإمام العلَم في الفن. اتُّفق على أنه توفي عن اثنتين وثلاثين سنةً، لكن في تعيين سنة وفاته اختلافٌ شديد، ما بين ١٦١ هـ إلى ١٩٤ هـ، ورجَّح عبدالسلام هارون أنها ١٨١ هـ. وحياته عجيبةٌ، وإرْثُه فريد! رحمه الله، وجزاه عن العربية والإسلام خير الجزاء.

فائدة: الضبط الأشهر في لفظ سِيبَـوَيْـه: كسر السين، وسكون الياء، وفتح الباء والواو، وسكون الياء الثانية. ونُطِق «سِـيْبـُـويَــه»، ونصَّ عليه ابن خِلِّكان في **وَفَيات الأعيان**. ونقل عبدالرحمن تاج (شيخ الأزهر الأسبق) عن المستشرق الألماني نطقاً مخالفاً لهذين، ولم أتبيَّنه (رغم استطراد تاج في الحديث عنه وتأييده) لعدم ضبطه في **مجلة مجمع اللغة العربية** المصرية!

وفي تفسيره أقوال:

١. «السِّيْب»: التفاح بالفارسية. و«وَيْـه»: رائحته. فكأنه «رائحة تفاح». =

خرّيج كلية تُعنى باللغة العربية وآدابها أن يقرأ سِيبَـوَيْــه؛ فمن ذا الذي يقرؤه؟! وإذا لم يقرأه في سِني دراسته؛ فمتى يقرؤه؟!

إن الأخطاء اللغوية والنحْوية صارت تأخذ علينا الطرق، وتأتينا من كل مكان، وهي أخطاء بشعة مفزعة تشمل كل شيء: من الأخطاء في أبنية الأسماء وأبنية الأفعال، ومخارج الحروف وصفاتها، وأسماء الأعلام والكُنَى والألقاب والأنساب، ولا تسأل عن غياب العلامة الإعرابية أو التخليط فيها!

وقد كنتُ عُنيت يوماً برصد هذه الأخطاء وتحليلها، ولكني رأيت الأمر قد اتسع اتساعاً عظيماً، وتشعَّب تشعُّباً مفزعاً، وأصبحت أنا وهذه الأخطاء كالذي قاله الأول:

تكاثرت الظِّباءُ على خِـراشٍ فما يدري خِراشٌ ما يصيدُ![(1)]

= ٢. «السي»: ثلاثون. و«بوي» أو «بويه»: رائحة. فكأنه في المعنى «ثلاثون رائحةً»، أي الذي ضُوعف طيب رائحته.

٣. «وَيْه»: اسم صوتٍ بُني على الكسر.

وردَّ عبدالسلام هارون كون «ويه» بمعنى «رائحة» في الفارسية، حيث سأل كثيراً من دارسيها، فأبطلوا هذا المعنى لذلك اللفظ، وأكدوا له أنه لا أساس له من الصحة. ورجح هارون أن تكون «ويه» ملحقةً فارسيةً بالأسماء، وأنها ذاتُ شَبَـهٍ باسم الفعل العربي «وَيه»، ولذا.. تُعامَل معاملة أسماء الأصوات: تُنوَّن عند التعريف «سيبويـهٍ»، وتُكسَر ـ دون تنوين ـ عند التنكير «سيبويـهِ».

وثمة تفاصيلُ أخرى، وفوائد تتعلق بمن عُرِفوا بسيبويه، وغيرها.. تجدها في صدر تقديم عبدالسلام هارون نشرتَه من **الكتاب** (مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ٣/ ١٩٨٨م، ١/ ٣: ٧)، وفي مقال عبدالرحمن تاج المشار إليه سابقاً، وعنوانه «سيبويه»: **مجلة مجمع اللغة العربية**، القاهرة، الجزء ٣٧، جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ ـ مايو ١٩٧٦م، ص ٢٥ : ٣٩.

(١) الظاهر، والله أعلم، أن «خِراش» اسمٌ للصائد الـمَحكيِّ عنه في البيت. وسمعتُ من بعض أهل العلم أن المراد به كلب الصيد. وأشار الشيخ علي الطنطاوي إلى أنه كلب، في مُعْتَرَض ذكرياته الماتعة، والتي جُمعت في ثمانية أجزاء: **ذكريات**، علي الطنطاوي، دار المنارة/ جدة، ط ٣/ ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م، ١/ ٤١.

وهكذا أورد البيتَ، كما ذكر الطناحي، ابنُ الأثير في **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. =

وإن أبناءنا وبناتنا في معاهد العلم ليأتوننا كل يوم بكل غريبة وعجيبة من معلميهم ومعلماتهم، وكلما رتقتَ فَتْقاً؛ تخرّق عليك آخر، وكلما سددت ثُلمة؛ انفتحت أمامك أخواتٌ لها أوسع وأبشع!

والسوأة السوآء في تلاوة القرآن العزيز.. فقد استعجم كلام ربنا ـ عز وجل ـ على ألسنة معلمي المدارس، وصاروا يتلونه على تلاميذهم محرَّفاً ومزالاً عن جهته، ثم أصبحتَ تسمعه من بعض المذيعين والمذيعات كذلك مغلوطاً ملحوناً. وهذه هي المصيبة التي تتضاءل دونها كل مصيبة، وهذا هو الخطر الماحق الذي يجب أن نقف جميعاً أمامه: ندرؤه وندفعه.. فإن القضية بهذه المثابة قد صارت ديناً يُغتال وشريعةً تُنتهك، ولابد أن يقول فيها كل غيور على دين الله كلمته، لا يتتعتع ولا يتلجلج، لا يفزعه سُخْط الساخط[1]، ولا يخيفه سلطان هؤلاء الذين يظنون أن بيدهم إغلاق الأبواب وفتحها، وقد قال سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ألا.. لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه»[2].

= وروايته في **تاريخ الطبري** (تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف/ القاهرة، ط٢/ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م، ٧/ ٣٠٣) «تفرَّقت الظِّباءُ»، و: «خِداش» في الموضعين، بالدال، بدل الراء. وكلٌّ من «خِراش» و«خِداش» من أسماء العرب منذ قديم.

وقد نسب الطبري البيتَ إلى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، متمثِّلاً به، وهو يقاتل وحده (سنة ١٢٧هـ) عبدَالله بنَ عمر بن عبدالعزيز وجُندَه، وقد تفرَّق أصحابُ ابن معاوية الطالبيِّ عنه، وقُبيل فراره.

ونسبه، احتمالاً، عبدُالله بن الحسن («بازيار» العزيزبالله الفاطمي) أي القائم على أمور صيده)، في كتابه **البيزرة** (نسخة رَقْمية، بضميمة: «الموسوعة الشعرية»، المجمع الثقافي في أبوظبي)، إلى الحارث بن مُصَرِّف الأَوْدِيّ (قُتل سنة ١٠١ هـ).

(١) سيأتي ضبط الطناحي إياها في ص ٢٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، وهو صحيح.

ـ عَوْدٌ على بَدْء

ولقد تابعت هذه القضية منذ زمان بعيد، ورأيت أهل العلم يردونها إلى أسباب كثيرة. على أني لم أرَ من وضع يده على أصل البلاء ومكمن الداء.. إلا قارئاً كريماً هو الأستاذ طارق البوهي (بـ«كَفْرِ الشيخ»، وقد علمت فيما بعد أنه من رجال التربية)، وقد جاء رأيه هذا في سطر واحد منشور في باب «مجرد رأي» بجريدة الأهرام.. قال: «لا يجب(١) أن نقسو كثيراً على الشباب، فهم نتاج البذور التي ألقيت والتعليم الذي أعطي لهم ومجالات الثقافة التي تلقوها». وهذا رجل صادق، عرف الحق فقاله، ولم يضيع نفسه ويضيعنا في متاهات التفلسف والتنظير واللف والدوران!

ثم إنه ـ أحسن الله إليه ـ قد وضع القضية في حاقِّ موضعها: ماذا يتلقى طالب العربية الآن في كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات؟ أمشاج من قواعد النحو والصرف مطروحة في «مذكرات» يمليها الأساتذة إملاءً أو يطبعونها طبعات تزيد عاماً وتنقص عاماً، واختفى الكتاب القديم لتحل محله هذه المذكرات والمختصرات، ودُفع الطلاب دفعاً إلى الملل من قراءة الكتب، و«المللُ من كواذب الأخلاق» كما قال عمرو بن العاص(٢) ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) نفي الوجوب في مثل هذا التعبير مما فشا، وهو ليس حسَناً في مثل هذا السياق. عدمُ الوجوب يقابله الجواز، أي أن القسوة على الشباب إذ لا تجب؛ قد تجوز! وهو ما لا يقصده المتحدثون غالباً في مثل هذه السياقات. والصحيح أن يقولوا فيها: «يجب ألَّا»، أو: «لا ينبغي»، أو: «لا يجوز».. ونحو هذه.

(٢) قال المبرِّد في **الكامل في اللغة والأدب**: «حدثني العباس بن الفرج، في إسناد ذكره: نُظِر إلى عمرو بن العاصي على بغلة قد شَمِط وجهُها هَرَماً، فقيل له: أتركب هذه وأنت على أكرم ناخرةٍ [أي: من الخيل] بمصر؟! فقال: «لا ملَلَ عندي لدابتي ما حملت رِجليَّ، ولا لامرأتي ما أحسنت عِشرتي، ولا لصديقي ما حفظ سري.. إن الملل من كواذب الأخلاق». [**الكامل**، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٣/ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م، ١/ ٣٤٤، ٣٤٥].

إن هَجْر الكتاب القديم ـ وهو وعاء العلم ومستودع التراث ـ، والاستعاضة عنه بـ«المذكرات» و«المختصرات»، قد حجب عن هذا الجيل كُوَى[1] النور، وحَلَّأهم[2] عن موارد العلم.. وكان من أخطر الأمور ردُّ ذلك إلى التيسير والتسهيل والتخفيف على الناشئة، ولقد مضينا في التيسير والتسهيل خطواتٍ وخطواتٍ حتى انتهينا إلى هذا الذي نشكو منه ونضيق به، ونسأل الله السلامةَ منه!

على أن تيسير النحو قد سلك دروباً مظلمة، فليس من التسهيل والتيسير أن تدع «زيداً وعمراً» في التمثيل؛ لتقول: «سمير وأشرف»! وليس من التسهيل والتيسير أن تترك التمثيل على القاعدة النحوية بالشاهد القرآني والحديثي وأشعار العرب وأمثالها؛ لتكتب قصة متكلفة عن نزهة في «القناطر الخيرية»، أو زيارة إلى أهرامات الجيزة، أو حكاية عن الفلاح في الحقل؛ لتستخرج من كل ذلك شواهدك على القاعدة النحوية والصرفية!

وليس يشك عاقل في أن التمثيل لتقدم المفعول على الفاعل بمثل: «قطف الوردةَ طفلٌ» ليس في قوة الاستشهاد بقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله ـ ﷺ ـ في الحديث السابق: «ألا.. لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه»، وقول جرير:

جاء الخلافةَ، أو كانت له قدَراً كما أتى ربَّـه موسى على قـدَرِ

فأنت مع المثال الأول أمام تركيب تمثلت فيه القاعدة النحوية، لكنه كالتمثال

(١) الـكَوَّة: الفتحة في الحائط وغيره. وهي بفتح الكاف، والجمع: كَـوَّات وكِـواء وكِـوًى. وتضم كاف «الـكُوَّة» أيضاً، وجمعها: كُواء، وكُوًى.

(٢) حَـلأ الإبلَ عن الماء، تحليئاً، وتَـحْلِئةً: منَعها وطَرَدها.

الأصم، فاز من الوسامة والقسامة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنه تمثالٌ جامدٌ فاقدٌ الحركةَ والنطق. أما مع الأمثلة القرآنية والحديثية والشعرية فأنت أمام نماذج تتنغَّش بالحياة(١) وتمور بالحركة، مع ما تعطيه من أُنس وخبرة بالأبنية والتراكيب العربية. ومن هنا.. احتلت الشواهد التراثية في تقعيد النحو مكانة عالية.

على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن فكرة التيسير على الناشئة كانت ظاهرةً بينةً في فكر النحاة الأوائل رضوان الله عليهم.. فابن السرَّاج (المتوفى ٣١٦هـ) يؤلف كتاباً كبيراً في النحو هو **الأصل**، ثم يضع إلى جانبه مؤلفاً صغيراً جداً هو **الموجز**، وأبوعلي الفارسي (٣٧٧هـ) يؤلف **الإيضاح**، وهو متن صغير سهل العبارة، إلى جانب كتبه الكبار: **التذكرة والشعر والحجة والشيرازيات**.. وغلامه ابن جِنِّي العظيم (كما كان يصفه أستاذنا الطيِّب الدكتور كمال بِشْر.. أطال الله في النعمة بقاءه) يؤلف بجانب **الخصائص والمنصِف وسر صناعة الإعراب والمحتسب** رسائل موجزة في النحو والصرف، مثل **اللُّمَع والـمُلوكي في التصريف**.

وأبوالقاسم الزَّجَّاجي (٣٤٠هـ) يصنف كتاباً في الفكر النحوي هو **الإِيضاح في عِلَل النحو**، ثم يؤلف للناشئة كتابه الشهير **الجُمَل**، وهو كتاب سهلٌ رَهْوٌ، وقد جاء عنوانه في الأصل المخطوط هكذا: «كتاب الجمل في النحو. اختصار أبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجَّاجي».. أرأيت إلى كلمة «اختصار»؟

وقد وقفت عند كتاب غريب أراه صورة واضحة الدلالة على أن علماءنا

(١) «التنغُّش»: الحركة المشعِرة بالحياة، وهو من العامي المصري المردود إلى الفصيح، وأكثر ما يستخدم فيه وصفُ الشخص اللطيف النشِط بـ«النِّغِش» (ذكره أحمد رضا في **قاموس رد العاميّ إلى الفصيح**، دار الرائد العربي/ بيروت، ط٢/ ١٩٨١، ص ٥٥٧. ولم يدرجه هشام النحَّاس في **معجم فِصاح العامية**، مكتبة لبنان/ بيروت، ط١/ ١٩٧٧م). وفي الحديث (كما في **تاج العروس**، والخبر رواه الواقدي) قال النبي ـ ﷺ ـ: «أيُكم يأتيني بخبر سعد بن الربيع؟» (...)، وفيه قال محمد بن سلمة يصف سعداً: «فتنغَّش كما تتنغَّش الطير»، أي تحرك حركة ضعيفة. ويقال: دارٌ تتنغَّش صبياناً، أي: تَمور بهم حَيويةً ونشاطاً.

الأوائل كانوا مشغولين حقًّا بتربية الناشئة والتيسير عليهم والتدرج معهم في تعليم النحو، وذلك هو كتاب **إعراب ثلاثين سورةً من القرآن الكريم** لأبي عبدالله الحسين بن أحمد، المعروف بابن خالَويه، (المتوفى سنة ٣٧٠هـ). لقد كان المألوف في زمن ابن خالَويه والأزمان التي سبقته والتي جاءت بعده أن يتصدى العلماء لإعراب القرآن الكريم كله، ولكن الذي صنعه ابن خالويه شيء عجب! لقد وضع كتابه لإعراب ثلاثين سورة فقط، مبتدئاً بسورة الطارق، ومنتهياً بسورة الناس، ثم افتتح كتابه هذا بإعراب الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب. ولا تفسير لصنيع ابن خالَويه هذا، وإيثاره لإعراب قصار السور هذه، إلا أنه وضع الناشئة أمامه؛ لأن هذه السور من أوائل ما يحفظه الصبيان من الكتاب العزيز، وأنها كثيرة الدوران على ألسنتهم، وأن عرض قواعد النحو والصرف من خلال هذه السور القصار مما يثبتها ويمكنها في النفوس.

فتعليم النحو من خلال هذه الكتب القديمة الموجزة فيه تثبيت للعربية وتمكين لها في النفوس، مع التقاط معارف أخرى تأتي من خلال الشواهد والنصوص.

وينبغي أن نحسن الظن بناشئتنا ولا نخشى عليهم من التعامل مع الكتاب القديم.. فإن فيهم خيراً كثيراً. ولقد كانت لي تجربة جيدة هذا العام، حين دعيت إلى تدريس النحو لطالبات السنة الأولى بكلية البنات بجامعة عين شمس، وقد قرأت معهن شيئاً من كتاب **شُذور الذهب** على خوفٍ مني ووجَل، لكني صبَرتُ نفسي معهن واحتشدتُ لهن احتشاداً، وكانت تجربة ناجحة جدًّا، وتلقَّت الطالبات كلام ابن هشام بقبول حسن، وقد رأيت من هؤلاء الطالبات نماذج مبشرة بخير كثير.

والغريب حقًّا أن زملاءنا الأكرمين بالجامعات المصرية ينفرون من تدريس الكتاب القديم، وحين يخرجون إلى جامعات دول الخليج يُحمَلون حملاً على تدريسه! وهناك يؤدونه بكفاءة عالية جدًّا؛ لأنهم بلا ريب أهل فقه وبصيرة؛ ولأنهم أيضاً ينتمون إلى «جيل المتون» الذي سأحدثك عنه.

ـ جيل المتون

على أن أخطر ما في هذه القضية أن يقترن تعليم النحو من خلال المذكرات والمختصرات بالطعن على أئمة النحاة والإزراء بتصانيفهم وغياب المنهجية في تآليفهم، ومحاكمتهم إلى مناهج غربية ظهرت بعدهم بقرون.

ومما لا شك فيه أن أساتذتنا الأفاضل وزملاءنا الأكرمين الذين يدورون في هذا الفلك إنما ينتمون جميعاً إلى الجيل العظيم.. جيل المتون والحواشي. نعم.. كلهم من جيل الحفظة، حفظة القرآن الكريم والمتون والمنظومات، وهذا شيء أعرفه تماماً، وبخاصة عند أبناء كليتي «دار العلوم»، من الجيل الذي سبقني والذي زاملني والذي جاء بعدي بقليل، فهؤلاء جميعاً قد تعلموا النحو من خلال الكتاب القديم، على هذا السياق، وبذلك الترتيب: **التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية ـ تنقيح الأزهرية** للشيخ خالد الأزهري ـ **قَطْرُ النَدَى وبلُّ الصدَى ـ شذور الذهب في معرفة كلام العرب** (كلاهما لابن هشام) ـ **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ أوضح المسالك على ألفية ابن مالك** لابن هشام ـ **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان عليه**.

وبهذه المسيرة الأصيلة الضخمة استطاع أساتذتنا وزملاؤنا أن يفقهوا النحو ويبرعوا فيه، ثم يكتبوا مذكراتهم ومختصراتهم، وأيضاً نقدهم للفكر النحوى. ولو أنهم تربوا من أول أمرهم على المذكرات، وتعلموا من المختصرات؛ لما فقهوا، ولما برعوا، ولما كتبوا نحوهم «الكافي» و«الشافي» و«الصافي» و«الوافي»![1]

---

(١) **النحو الكافي** للأستاذ أيمن أمين عبدالغني، و**النحو الشافي** للدكتور محمود حسني مغالسة، و**النحو الوافي** للأستاذ عباس حسن الدرعمي المجمعي.

وهناك أيضاً: **النحو الواضح** للشاعر الكبير الدرعمي المجمعي علي الجارم وزميله الأستاذ مصطفى أمين، و: **النحو الأساسي** للدكاترة أحمد مختار عمر ومحمد حماسة عبداللطيف ومصطفى النحاس زهران، و: **النحو العصري** للأستاذ الأديب سليمان فياض. وكلهم نازعٌ إلى ما اصطلحوا =

ثم إن الخطر كل الخطر أن يصدر التشكيك في النحو ومصطلحاته من أساتذة كبار لهم في النفوس مكانٌ ومكانة، ولكلامهم في القلوب وقعٌ وتأثير. ومن ذلك ما وقع في يدي ذات يوم، من كلمة للأستاذ الكبير الدكتور زكي نجيب محمود ـ متعه الله بالصحة والعافية[١] ـ بجريدة **الأهرام** بتاريخ ١/ ١٢/ ١٩٨٨ بعنوان: «العربي بين حاضره وماضيه»، ضمن سلسلة مقالاته التي اختار لها عنوان «عربيٌّ بين ثقافتين»، وقد أدار كلمته هذه حول تقييم[٢] الموروث الذي انتهى إلينا من ماضينا، وأنه ينبغي علينا أن ننتقي ونختار، وأن ننظر إلى «نوع الحصيلة التي اخترناها لتكون هي ماضيَنا المبثوثَ فينا، وذلك لأننا قد نسيء الاختيار ـ وكثيراً جدًّا ما نفعل! ـ، فنبث عوامل الضعف والشلل، من حيث أردنا القوة وانطلاقة الحياة».

ثم دلل على سوء الاختيار هذا بنموذج من تجربته الشخصية مع مدرس اللغة العربية الذي التقى به في السنة الثالثة الابتدائية، وذلك ما أملاه عليهم عن «إذا»، و«أنها ظرف لما يُستقبل من الزمان، خافضٌ لشرطه، منصوبٌ بجوابه». ثم تساءل الدكتور الفاضل عن جدوى تلك العبارة لا سيما والمتلقي طفل في الحادية عشرة من عمره! وعقب فقال: «وإني لأدعو القارئ إلى استعادة ما أسلفناه، وهو أن العربي إذ يحيا حياته حاملاً في رأسه هذا الذي قيل له عن كلمة «إذا» وما تؤديه، فإنما هو يحيا حاملاً معه نُتفةً من الماضي، لكنها نُتفةٌ عسيرة الهضم، قد تصيب المعدة بالأذى! وأما اليقين عنها؛ فهو أنها لن تنفع حاملها غذاء يقتات منه ليكون عربيًّا موصول الهُوية بماضيه. فإذا تصورنا[٣] أن مئات الألوف ممن يعدون بين حملة العلم في بلادنا

= على تسميته «تيسير النحو». أما **النحو الصافي**؛ فلم أقف على كتاب بهذا العنوان. ولعل الطناحي يقصد **النحو المصفَّى**، وهو للدكتور محمد عيد.

(١) توفي زكي نجيب محمود إلى رحمة الله سنة ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) ألاحظُ هنا استخدام الطناحي «تقييم»، لا «تقويم».. خلافاً للمتشددين في نفي الأولى وتخطئتها تماماً.

(٣) أين جواب «فإذا تصورنا»؟ قد يُفهم من السياق، أو قد يكون ساقطاً سهواً. والله أعلم. =

يحيون وهم يحملون في رؤوسهم أطناناً من أمثال هذه «المعرفة»، التي إن صلحت في الأركان الأكاديمية المعزولة عن الهواء الطلق؛ فهي لا تصلح لحياتنا الناهضة وسيلة حفز ودفع وتحريك».

هذا كلام الدكتور الفاضل.. وفيه من سلطان الذكاء وقوة العارضة، ومن بريق العذوبة والحلاوة ما ترى.. ولكنه عند التحقيق منقوض ومردود عليه. والأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود رمز من رموز فكرنا المعاصر، وهو أيضاً واحد من هذا النفر الكريم الذين أسهموا إسهاماً واضحاً في نشاط «لجنة التأليف والترجمة والنشر»[١]، هذه القلعة الضخمة من قلاع الفكر العربي.

فأقول: إن هذا المثال الذي ذكره الدكتور، ورأى فيه أساس الداء ومدخل البلاء في تعلم العربية: «إذا: ظرفٌ لما يُستقبل من الزمان، خافضٌ لشرطه، منصوبٌ بجوابه».. هذا المثال يستدعي ـ بلا ريب ـ عند بعض القراء أمثلة أخرى من بابه، ضاقوا بها أشد الضيق حين تلقوها أول مرة، وخاصة إذا لم يشتغلوا بالعربية وقضاياها فيما استقبلوا من أيام وما صرفوا من اهتمامات.. لكنه في الوقت ذاته وبالقدر نفسه عند من اشتغلوا بالعربية، وجعلوها ميداناً لدراساتهم وأبحاثهم فيما بعد، يذكِّر بأيام زاهية جادة صارمة وُضع فيها الأساس متيناً صُلباً، فقام البناء عالياً شامخاً.. «وإنما يمدح السوقَ من ربح» كما تقول العرب في أمثالها!

= ونص د. زكي نجيب محمود هكذا، كما نقله الطناحي، موجود في كتابه: **عربي بين ثقافتين**، دار الشروق/ القاهرة، ط ٢/ ١٩٩٣م، ص ١٤٧.

(١) أنشأها الأستاذ الأديب الباحث أحمد أمين (صاحب **فجر الإسلام** وغيره من المؤلفات الشهيرة) مع بعض أصدقائه سنة ١٩١٤م، وبقي رئيساً لها حتى وفاته سنة ١٩٥٤م. وقد صدر عنها عدد كبير من الكتب العربية (المؤلَّفة والمحقَّقة) والمترجمة. وعنها صدرت مجلة **الثقافة** (منذ يناير ١٩٣٩م)، وهي شقيقة مجلة **الرسالة** لأمير البيان أحمد حسن الزيات. رحم الله الجميع بفضله.

ـ الضوابط الراسخة

وإني سائلٌ الدكتور الفاضل: أي بأس في ذكر هذا الضابط النحوي؟! وأي ضرر في أن يتلقاه الصغار فيما يتلقون في النشأة الأولى؟! والدكتور يعلم أن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظ كثير من النصوص والضوابط لترسيخ القاعدة، ولذلك لجأ المصنفون قديماً إلى المنظومات العلمية لضبط القواعد وتثبيتها، ثم كان من ذلك أيضاً تلك الضوابط النثرية لبعض القواعد، مثل «سألتُمونيها» لحصر حروف الزيادة في الصرف، و«سكت فحثَّه شخص» لضبط الحروف المهموسة، و«لم أر على ظهر جبل سمكة» لبيان الأسباب والأوتاد والفاصلة في العَروض.

ومن أطرف ما حفظناه من مشايخنا في الصغر قولهم «صُنْ شَمْلَه» رمزاً لأسماء الأنبياء المصروفة، أي المنونة: فالصاد لصالح، والنون لنوح، والشين لشعيب، والميم لمحمد ـ ﷺ ـ، واللام للوط، والهاء لهود ـ عليهم السلام أجمعين ـ.. فهذه الأسماء الستة تنوَّن، وما عداها من أسماء الأنبياء يمنع من التنوين.

وكانوا يقولون لنا أيضاً: لا تكسر «الصَّحاح» ولا تفتح «الخِزانة»، يريدون **الصَّحاح** للجوهري وأنه بفتح الصاد[1]، و**خِزانة الأدب** للبغدادي وأنها بكسر الخاء.

---

(١) ذكر أحمد عبدالغفور عطار في مقدمته الماتعة لنشرته من **الصَّحاح** أنه لم يَـرِدْ عن الجوهري شيءٌ في ضَبْط عنوانه، وأنه صالحٌ للنطق بفتح الصاد (على أنه اسمٌ مفرَدٌ كـ«الصحيح») وكسرها (على أنه جمعٌ لـ«صحيح»). ومن ثَمَّ. فلا وجهَ ـ بحسَب عطَّار ـ للنكير على أيٍّ من الضَّبْطين في عنوان الكتاب. انظر: **الصَّحاح**، أبونصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين/ بيروت، ط٤/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ١/ ١١١.

ومهما يكن من أمر.. فأنا ألتزم، في هذا الكتاب ـ متناً، وحواشيَ ـ فتحَ الصاد؛ رعايةً لاختيار الدكتور الطناحي ـ رحمة الله عليه ـ. والله أعلم.

وقالوا: «من حفظ المتون؛ حاز الفنون». ولا شك أن الأستاذ الكبير يعرف في جيله هذه المجموعة التي طبعت باسم **مجموع مُهِمَّات المتون**، يشتمل على ستة وستين متناً في مختلِف العلوم والفنون، وتاريخ الطبعة الرابعة منه ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م.

ولا ينبغي أن يُلتفت إلى ما يقال من أن هذا عَيْثٌ في اللغة العربية أن تعتمد على الحفظ الأصم الأعمى، فهذا أمر معروف في سائر اللغات. يقول العالم الأديب الدكتور عبدالله الطيب، في دفع تلك الفرية: «ومساكين اللغة العربية ينفرون من الحفظ ليكونوا متمدينين!».. ثم يقول: «وأشهد على نفسي أني عندما كنت أدرس في الخارج (لندن) كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ يسمِّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سَبُع»! وكانت لهذه المسرحيات القديمة شروح، وقد تكون الأبيات أربعة أسطر في أعلى الصحيفة بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون. فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية؛ نفروا منه نفوراً شديداً! ومن عجيب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر، والورق الأصفر لعله ألين على عين القارئ من الورق الناصع الأبيض» («ملحق التراث» بجريدة **المدينة المنورة** بالسعودية: ٢١ من ربيع الأول ١٤٠٨هـ ـ ١٢ من نوفمبر ١٩٨٧م).

فهذا الذي يراه الدكتور زكي نجيب محمود «نُتْفةً من الماضي عسيرةَ الهضم قد تصيب المعدة بالأذى»، هو ـ عند النظر والتحقيق ـ أساس العلم ومدخله، بل هو الغذاء الذي تصح به المعدة، وتتكون عليه الأنسجة والخلايا. وما دخل علينا البلاء، واستبد بنا الضعف، إلا يوم أن هجرنا هذه الضوابط الكلية، ونفرنا من الحفظ، واجتوينا النصوص.. ثم غرقنا في البحث النظري، الذي أسلمنا إلى التجريد والمطلق!

أما إشفاق الدكتور الفاضل على الصبي الذي هو في الحادية عشرة، أن يؤخذ إلى هذه «التراكيب والمصطلحات المعقدة التي تصيب المعدة بالأذى».. فإن الدكتور

الكريم يعلم ـ علماً ليس بالظن ـ أن من أصحاب هذه السن في جيله من أتم حفظ القرآن الكريم، وحفظ إلى جانبه شيئاً من المتون، مثل **متن نور الإيضاح** في فقه الحنفية، أو **متن العشماوية** في فقه المالكية، أو **متن أبي شجاع** في فقه الشافعية، أو **متن زاد المستقنع** في فقه الحنابلة، إلى جانب **متن الآجُرُّومية** الشهير.. وإني أعيد هنا ما ذكرته من قبل: أن أساتذتنا الذين كتبوا في الدراسات اللغوية والنحوية الحديثة وشرَّقت كتبهم وغرَّبت، ينتمون جميعاً إلى جيل الحفَظة.. حفَظة القرآن والمتون والحواشي والمصطلحات، وما كان لهؤلاء الأساتذة أن يكتبوا ما كتبوا لو لم يحفظوا منذ الصغر: «إذا: ظرف لما يُستقبل من الزمان، خافضٌ لشرطه، منصوبٌ بجوابه»، وأخواتها.. مثل: «لا يُجمع بين العِوَض والمعوَّض عنه»، و: «اجتمعت الياء والواو، وسُبقت إحداهما بالسكون؛ فقُلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء.. وذلك في مثل: سيِّد».

ولا زلنا، نحن.. أبناءَ الجيل التالي الذي تستطيع أن تَـشَمَّ فيه رائحة العلم؛ لأننا وردنا الماء صافياً قبل أن تكدِّره الدِّلاء، ولأننا أدركنا معاهد العلم قبل أن يدهمها السيل.. أقول: لا زلنا نذكر هذه المشاكل النحوية التي التقينا بها في طَراءة[1] الصِّبا وريِّـق[2] الشباب، مثل إعراب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، وكيف رفع «هَذَانِ» وهو اسم «إِنَّ»، وتوجيه الرفع في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ...﴾ [المائدة: ٦٩]، واختلاف المعنى باختلاف حركة الإعراب على الراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، وعَود الضمير على غير مذكور في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، أي الشمس، والمصدر «المتصيَّد» في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧]، أي الشكر، وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، أي التخويف، وقوله: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ

---

(١) طَراوة وطَراءة: كناية عن الصِّبا الباكر.

(٢) ريِّـق الشباب، ورَيْـقُـه، ورَوْقُـه: أوله. وهي من مادة «ر و ق»، لا «ر ي ق».

ﭐلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي الإيمان.. ثم في مثل قول الشاعر:

إذا نُهِيَ السفيـهُ؛ جَـرى إليـه وخالفَ، والسفيـهُ إلى خلافِ![(١)]

أي: جرى إلى السَّفَه..

كل هذا كنا نستظهره ونديره على ألسنتنا في سهولة ويسر، كانت أسناننا في تلك الأيام لا تتجاوز الخامسة عشرة. نعم.. كل هذا عرفناه وخبرناه، وجرى منا مجرى المحفوظات والمأثورات، فأورث ملَكَةً في النحو، وأكسب إحساساً بالعربية في أبنيتها وتراكيبها، حتى إذا غَبِيَ[(٢)] علينا شيء من هذه الأبنية والتراكيب؛ فزعنا إلى ذلك المذخور من أيام الصِّبا؛ فأسفر وجهُه، ودان عَصِيُّه.. فهل عند أبناء اليوم من ذلك شيء؟!

---

(١) هذا البيت جارٍ شائعٌ في كتب النحو واللغة والتفاسير ، ولم أجده منسوباً. وأقدم من وجدته قد أنشده هو الفرَّاء (أبوزكريا يحيى بن زياد، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) في معاني القرآن: الجزء الأول بتحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط ١/ ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، ص ١٠٤.

وثعلب (أبوالحسن أحمد بن يحيى الشيبانيُّ ولاءً، المتوفى سنة ٢٩١)، في مجالسه: شرح وتحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف/ القاهرة، سلسلة «ذخائر العرب» - ١، النشرة الثانية، ط ١/ ١٩٦٠م، ص٦٠.

وبعد معاودة التنقيب وجدته منسوباً إلى أبي قيس ابن الأسلت الأنصاري: إعراب القرآن، أبوالحسن سالم بن الحسن بن إبراهيم الخازمي (كان حيًّا سنة ٦١٠هـ)، نسخة «إلكترونية»، بضميمة «المكتبة الشاملة»، ١/ ٤٥١.

هذا.. وأبوقيس هذا اسمه صيفيٌّ، أو الحارث، بن عامرٍ. و«الأسلت» صفةُ أبيه عامر، ومعناها: المستأصَل الأنف. والأدق في صفة أبي قيسٍ أنه: الأوسي (وقيل: الخزرجي)، لا: «الأنصاري»؛ إذ في إسلامه كلام، وقد توفي بعد نحو عشرة أشهر من الهجرة الشريفة. وكان عنده علمٌ ببعض الكتاب، متحنفاً، منتظراً النبي الموعود. وهو شاعرٌ ذُكر أنه مكثر، وأن في شعره حكمةً ووصايا، وقد ذكره ابن سلَّامٍ الـجُمَحي، المتوفى: ٢٣٢هـ، في طبقات فحول الشعراء (نشرة أبي فِهْر، دار المدني/ جدة، تصوير ط ٢، د. ت، ١/ ٢٢٦، ٢٢٧). والله أعلم.

ثم.. هذا البيت ساقطٌ من ديوان **أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي**، الذي صنعه د. حسن محمد باجودة: دار التراث / القاهرة، د. ط، ١٩٧٣م.

(٢) غَبَى، وغَبِيَ الشيءُ عنه، ومنه، وعليه: خَفِيَ فلم يعرفه ولم يفطن إليه.

ولا يصح أن يقال: إن هذا الذي ذكرته كان سمة التعليم الديني أو التعليم الذي تغلب عليه العربية، كالذي في «الأزهر الشريف» و«دار العلوم».. فإن الدكتور الفاضل يعلم علم اليقين مواد العربية التي كانت تقدم لتلاميذ المدارس في التعليم العام، أو «الأميري».

وأمامي الآن طبعة ثانية من معجم **المصباح المنير** للفيومي (المتوفى سنة ٧٧٠هـ)، وتاريخ هذه الطبعة ١٩٠٩م، وكتب على صدرها: «قررت نِظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الأميرية». وكذلك يعلم الدكتور كتب التراث التي كانت مقررة على طلبة المدارس الثانوية، مثل **البخلاء** للجاحظ، الذي نشره أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك سنة ١٣٥٦هـ-١٩٣٨م، و**نقد النثر** المنسوب إلى قُدامة بن جعفر (وثبت فيما بعد أنه **البرهان في وجوه البيان** لابن وهب) الذي نشره الدكتور طه حسين والأستاذ عبدالحميد العَبَّادي سنة ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م، وقد قررته وزارة المعارف لطلاب السنة الخامسة التوجيهية.. إلى طائفة أخرى من الكتب المشحونة بالنصوص، مثل **مجموعة النظم والنثر** لعبدالله باشا فكري و**المنتخب من أدب العرب**(١).

هذا.. إلى أن «الأزهر الشريف» كان موجِّهاً لتعليم النحو في المدارس ومهيمناً عليه، فهذا الكتاب الشهير **الدروس النحوية** (الذي ألفه حفني بك ناصف مع محمد أفندي دياب والشيخ مصطفى طموم ومحمد أفندي صالح) قررت نِظارة المعارف العمومية سنة ١٣٠٤هـ طبعه على نفقتها بعد تصديق شيخ «الجامع الأزهر»(٢). وهكذا كان تعليم النحو والعربية في مصر أيام عزها ومجدها من خلال الكتاب القديم، أو الكتاب الحديث المؤسس على القديم والماضي في طريقه.

(١) سيأتي، في القسم الثاني بإذن الله تعالى، تعليقٌ يخص هذه المختارات العالية. انظره ص ١٩٩.
(٢) سيأتي أيضاً، في القسم الثاني بإذن الله تعالى، تعليقٌ يخص هذا الكتاب النفيس. انظره ص ١٩٨.

فهذه العبارة النحوية التي نقلها الدكتور زكي نجيب محمود عن شيخه ينبغي أن تؤخذ في إطار الجِدِّ والصرامة الذي كان يشمل تدريس سائر العلوم في ذلك الزمان. وما أخذت مصرُ مكانتَها التي تزهو بها في العالمين في مختلِف العلوم والفنون إلا بذلك الجيل الذي أُخذ بالجِدِّ في كل أموره منذ النشأة الأولى.. و«الناس بأزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم»[1]!

ولا سبيل لنا، إذا أردنا صلاح الحال وإصلاح الألسنة، إلا إحياء جيل المتون والحفَظة.

وذلك لن يكون إلا بالعودة في تدريس النحو إلى الكتاب القديم والنص التراثي.. فإن آخر هذه الأمة لن يصلح إلاَّ بما صلح به أولها.

* * *

(١) نُسب إلى النبي ـ ﷺ ـ ولا يصح حديثاً. ونسِب أيضاً إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. وعلى كلٍّ.. فالمعنى صحيحٌ جليل.

الحفظ.. وأثره في ضبط قوانين العربية[١]

[التنظير بلا تطبيق]

كتب الأستاذ الدكتور محمود الربيعي كلمة في «أسبوعيات» **الأهرام** ٦/ ٧/ ١٩٩٠م، بعنوان «ترتيب الأولويات»، قال فيها: «إن تلقين المناهج لطلاب العلم الذين يدرسون في الجامعات لدينا يجعلهم يتحدثون عن «أعوص» المناهج الغربية الأجنبية كأنهم أصحابها، فإذا طلبت إليهم أن يقرؤوا (مجرد قراءة!) نصًّا إبداعيًّا باللغة التي يُعَدُّون للتخصص فيها (عربيةً أو أجنبيةً)؛لم يقيموا النص قراءةً، فضلاً عن التعمق في فهمه بالتحليل والتركيب والتفكيك!».

وهذا كلامٌ حكيمٌ (بالتنوين والإضافة![٢])، وهو أيضاً كلام ظاهر الوَضاءة والحُسن والتيقظ؛ لأنه يلخص المأساة التي نعيشها منذ نحو ثلاثين عاماً، في هذا المستوى المتدنِّي من علوم العربية: قراءةً وكتابةً. ثم هو كلام يفضي بنا إلى قضية ذات خطر، ليس في الأدب وحده، بل إن هذا الخطر يمتد ليشمل مختلِف فروع التراث العربي.. وأعني تلك الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق، أو بين المحفوظ والملفوظ.

فأنت قد تصادف شخصاً دارساً للأدب: تاريخه ومذاهبه ومدارسه، وإذا

---

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة **الهلال** المصرية، عدد رجب ١٤١١هـ ـ فبراير ١٩٩١م.
ثم جُمع في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ١٤٧: ١٥٧.

(٢) أي: كلامُ حكيمٍ.

فاتشته[١] في قضية من قضاياه النظريـة تلك؛ صال وجال، ولاك ومَضَغ، وخلط عربيًّا بعجميّ، وأتاك بكل عجيبة وغريبة! فإذا أخذتَه إلى نصٍّ مما كتبه السابقون الأولون، وأردتَه على شيء من التفسير أو التحليل والتذوق؛ حارَ وأبلس، «وصار لسانه قطعةَ لحمٍ خرساءَ تدور في جَوْبَة الحَنَك»![٢].. كما يقول شيخنا محمود محمد شاكر في سياق آخر.

ومثل ذلك يقال في نحويٍّ خالطت بشاشةُ النحو قلبَه، وخَـبَرَ سوادَه وبياضَه (زعم!)، أَسهَر فيه ليلَه، وأدأَب له نهارَه، حتى ظن أنه ملك ناصيته: قواعدَ وخلافياتٍ ونقداً.. فإذا أخذ في كلام، أو أدار قلمه على بيانٍ؛ خلَّط واعتَسَف وأخطأ! وما أُتي هذا النحويُّ وذلك الأديبُ إلا من قَبيل الإغراق في النظريات والمناهج والقواعد، واطِّراح الحفظ، وهَجْر النصوص، وإهمال التطبيق.

وقد سرى هذا الداء الخبيث إلى عِلْمينِ جليلينِ في تراثنا (وما كان ينبغى أن يسري إليهما؛ لأنهما مَـلاكُ[٣] الأمر كله!)، وهما التفسير والحديث. ففى ميدان التفسير قد تصادف دارساً يحدثك بإفاضة وإحاطة عن مدارس التفسير واتجاهاته، من تفسير بالمأثور إلى تفسير بالرأي، والتفسير الموضوعي للقرآن، والتفسير الفقهي، والتفسير

---

(١) الـفَتْش والتفتيش: البحث عن الشيء وطلبه. يقال: «فتِّشْ، ولا تُفنِّش»، أي: ابحثْ، ولا تسترخِ.

(٢) كأن أبافِهْر يريد: تجويفَ الحَنَك واتساعَه. والحَنَك: باطن الفم من أعلى أو أسفل.. وهي صورة تهكمية كما لا يخفى. وسياق جملة شاكر هكذا: «(...) لأن المسلمين منذ غُلبوا على أمرهم بغلَبة هذه الحضارة الأوربية على الأرض ـ مسلمها وكافرها ـ تلجلجت ألسنتُهم بالفرَق والذعر لهول المفاجأة، فصار لسانُ أحدهم كأنه مُضغة لحم مطروحة في جَوْبة الحَنَك.. ليس من عملها البيان!»، وقد جاءت في المقالة الرابعة عشرة، وعنوانها «أمْ على قلوبٍ أقْفالُها؟!»، من جملة مقالاته التي «سام فيها لويس عوض سوءَ العذاب» (بتعبير الطناحي الساخر)، وهي في سِفْر أبي فِهْر الباذخ **أباطيل وأسمار**: مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٣/ ٢٠٠٥م، ص٢٥٦، ٢٥٧.

(٣) مَـلاك الأمر: قِوامه وصلاحه الذي يُعتمد عليه. وفيه لغةٌ بكسر الميم.

الإشاري الصوفي.. إلى آخر هذه القائمة، فإذا طلبت منه تفسير شيء من كتاب الله؛ لم تظفر منه بشيءٍ.. إلا شيئاً لا يُعبأ به! وقد اختفت تلك الصورة الجليلة النبيلة، حين كنت تستوقف شيخاً فاضلاً عقِب صلاة الجمعة، أو في طريقٍ عامٍّ، فتسأله عن آية من كتاب الله؛ فإذا أنت أمام عِلم حاضر وإجابة شافية.

وقل مثل هذا في حديث سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ.. فقد اشتغل به كثير من طلبة العلم الآن: دراسةً نظريةً، تعنى بتدوينه وعلومه وتصانيفه من الصِّحاح والمسانيد.. إلى غير ذلك مما كان يعرف قديماً بعلم «الدراية»، لكنك قَلَّ أن تجد منهم من اعتنى بهذا العلم الجليل «روايةً».. من حيث حفظُ المتون وإتقانُ الغريب.

وقد أدى هذا الأمر إلى مصيبة كبرى اجتاحت بعض الشباب المسلم المحب لحديث المصطفى ـ ﷺ ـ ومعرفة السنة المطهرة.. فقد اتجه كثير منهم في هذه الأيام إلى طلب معرفة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وتجريح الرواة وتعديلهم (وهذا بحر لا ساحل له، ولا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال!)، وقد صرفوا في ذلك جهوداً كثيرة كان الأولى أن تصرف إلى قراءة **صحيحي** الإمامين الجليلين البخاريِّ ومسلم وبقية الكتب الستة التي هي دواوين السنة، ثم بعض المسانيد الأخرى، قراءةَ فهمٍ وبحثٍ وإمعان، فإذا أتقنوا ذلك؛ كان لهم أن يبحثوا في الضعيف والموضوع. وقد بلغت السفاهة ببعضهم أن يقول عن حديث رواه الإمام الجليل أبوعبدالله البخاري: «صحَّحه فلان» (يشير إلى أحد العلماء المعاصرين).. أفبعد إخراج البخاري للحديث، يقال: صحَّحه فلان؟!

إن الإسراف في النظريات والمناهج هو الذي أضعف إحساس أبنائنا بالعربية الأُولى، وهو الذي أورثهم العجز الذي يأخذ بألسنتهم وأقلامهم، فلا يستطيعون قولاً ولا بياناً.

على أن هذا الذي ذكره الدكتور الربيعي، والذي ذكرته أنا، يرجع إلى أننا أهملنا جوانب ضرورية في تعلم العربية. ومن هذه الجوانب التي أُهملت جانب النصوص أو الحفظ.. فإنه يشيع في أيامنا هذه كلام عجيب، يبغِّض إلى طالب العربية «الحفظ» ويزهده فيه، بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى تثبيت قاعدة تجعل «الحفظ» مقابل «الفهم»، وأن الطالب الذي يحفظ «صَمَّام»[1] وغير قادر على الفهم والاستيعاب، ونقرأ لمسؤول كبير عن التعليم في مصر قوله: «.. ولابد أن يدرك الطالب أن زمن الحفظ والصَّمَّامين قد انتهى»!

ـ تراثنا قائم على الرواية

وهذا الكلام إن صدق على العلوم المعملية والتطبيقية، لا يصدق على علوم العربية، من أدب وبلاغة ولغة ونحو؛ وذلك لأن تراثنا كله قائم على الرواية والدراية، والرواية مقدمة؛ ولذلك قالوا: «الرواية من العشرين، والدراية من الأربعين». والـجَوهري صاحب **الصَّحاح** يقول في مقدمته: «قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة.. بعد تحصيلها بالعراق روايةً، وإتقانها درايةً»[2].

وقد وصل إلينا تراثنا في أول أمره عن طريق الحفظ والرواية.. فقد وعته صدور الرواة والنَّـقَلة، وسلَّمته أجيالٌ إلى أجيال، حتى أَظَلَّ زمانُ التدوين والكتابة. فالحفظ هو الأساس، وقد حثوا عليه ومدحوا أهله، فروي عن الأصمعي أنه قال: «كل علم

---

(١) «الصَّمَّام» عامِّيٌّ فصيح، يُراد به الذي يحفظ حفظاً متقَناً لا يفوته شيء، ولا يُخرَم منه شيء. ويكثُر في العامِّيَّة المصرية استخدامه في السُّخْرِيَة من الشخص يحفظ بلا فهم ولا وعي. ومأخذُه الـمُعْجَمي يجوز أن يكون من التصميم على الشيء والـمُضيِّ فيه بلا تردد. والصخرة الـصَّمَّاء: الـصُّلْبة الـمُصْمَتة.. لا صَدْعَ فيها ولا رَخاوة. ولم يُورِداه في **قاموس رد العامِّي إلى الفصيح**، و**معجم فِصاح العامِّيَّة**.

(٢) **الصَّحاح**، ١/ ٣٣.

لا يدخل معي الحمّام فليس بعلم».. ويريد أنه حافظه ومستحضره في كل وقت وعلى كل حال. وقال محمد بن يسير[١] (من شعراء الدولة العباسية الأولى):

أأُشْهَدُ بالجهل في مجلسٍ وعِلميَ في البيت مستودَعُ؟!
إذا لم تكن حافظاً واعياً فجَمعُك للكُتْبِ لا ينفعُ!

وقال بعض أهل العلم[٢]:

حِفْظُ اللغات علينا فَرضٌ كفرْضِ الصلاةِ
فليس يُضبَطُ دينٌ إلا بحفظ اللغاتِ

ولولا الحفظ في تاريخنا التراثي؛ لما أمكن لهذه الطائفة من عباقرة العربية العُميان أن يسجلوا لنا هذا القدر الضخم من المعارف الإنسانية، كالذي نقرؤه عند أبي العلاء المعري (وأبو العلاء فوق شاعريته صاحب لغة ونحو وصرف وعَروض)، وابن سِيْدَه

(١) لم أقف على من نسبهما إلى محمد بن يسير.

ولكن نسبهما، باختلاف يسير، إلى عبدالله بن ثابت المقرئ النحوي (ت ٣٠٨ هـ) ابنُ الجوزي (٥٩٧هـ) في تاريخه (**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م، ١٣/ ١٩٨)، وتابعه ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في تاريخه أيضاً (**البداية والنهاية**، نشْرة عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجَر/ القاهرة، ط١/ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م، ١٤/ ٨١٧)

ونسبهما ياقوتُ (ت ٦٢٦ هـ)، في **معجمه**، إلى صاحبه الحافظ المؤرخ الأديب محب الدين بن النجار البغدادي (٥٧٨ ـ ٦٤٣ هـ). وأورد ثانيَ البيتين ـ المذكورين أعلى ـ أولاً كما هو، وأولَهما ثانياً برواية مختلفة هكذا:

أتنطِق بالجهل في مجلسٍ وعلمُكَ في البيت مُستودَعُ؟!

(**معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، نشْرة د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط١/ ١٩٩٣م، ٦/ ٢٦٤٥).

(٢) أوردهما السيوطي غير منسوبين، في **المزهر في علوم العربية وأنواعها** (تحقيق: محمد أحمد جادالمولى ومحمد أبوالفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار التراث/ القاهرة، ط ٣، د. ت، ٢/ ٣٠٢).

صاحب **المحكَم والمخصَّص**، والإمام الترمذي صاحب **السنن**.. وغيرهم كثير مما ذكره[١] صلاح الدين الصَّفَدي في كتابه الطريف **نَكْتُ الهِمْيان في نُكَت العُميان**[٢]. وحسبك بقرَّاء القرآن وعلماء القراءات، كالشاطبي صاحب المنظومة الشهيرة في القراءات السبع المسمَّاة **حِرْز الأماني ووجه التهاني**. وفي هذا العصر الحديث يأتي الدكتور طه حسين ـ رحمه الله ـ على رأس أفذاذ العُميان المعاصرين.

إن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظ كثير من النصوص لتثبيت القواعد والتمكين للأبنية والتراكيب في ذهن طالب العلم. وقد قيل: «الحفظُ الإتقانُ».. وذلك ما رواه أيوب بن المتوكل قال: سمعت عبدالرحمن بن مهدي يقول: «كان الرجل من أهل العلم إذا لقي مَن هو فوقه في العلم؛ فهو يوم غنيمته.. سأله وتعلم منه، وإذا لقي مَن هو دونه في العلم؛ علَّمه وتواضع له، وإذا لقى مَن هو مثله في العلم؛ ذاكَره ودارَسه». وقال: «لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، ولا يكون إماماً في العلم من روى كل ما سمع، ولا يكون إماماً في العلم من روى عن كل أحد، والحفظُ الإتقانُ»[٣].

---

(١) هكذا بالمطبوع. ولعل الأقرب: ممن ذكرهم. والله أعلم.

(٢) «الهِمْيان»: الوعاء أو مِنطقةُ الخَصرْ («المِنْطَقة»: «الحزام» العريض الذي يلف على الخَصر، وتُحفظ فيه الدراهم ونحوها من أشياء). و«نَكْتُه»: نَثْـرُه وبعْثَرتُه. فكأن الصَّفَدي أراد بكتابه نَثْرَ ما لديه في هِمْيانه/ مِنطَقته/ حِزامه من معارف ومسائل حول العَمَى والعُميان. وهو كتابٌ جليل، ومن فوائده الجليلة، كما أشار ناشره الأول أحمد زكي باشا (المكتبة التجارية/ القاهرة، ط ١/ ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م) أن أول من تنبه إلى طريقة الكتابة البارزة ليقرأها العُميان بأصابعهم هو علي بن أحمد زين العابدين الحنبلي الآمدي (ت ٧١٢هـ تقريباً)، قبل المخترع الفَرنسي لويس برايل (ولد ١٨٠٩م) الذي نُسبت إليه هذه الطريقة الطِّباعية الخاصة بالعُميان!

(٣) **حِلْية الأولياء**، الحافظ أبونعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٩٨٨م، ٩/ ٤.

ـ حفظ كلام العرب

ويقول ابن خَلدون: «(...) ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملَكة ويروم تحصيلَها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولَّدين أيضاً في سائر فنونهم.. حتى يتنـزَّل، لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور، منـزلة من نشأ بينهم ولُقِّن العبارةَ عن المقاصد منهم»[١].

ويقول أيضاً: «(...) وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملَكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوالُ الذي نسَجوا عليه تراكيبهم، فينسِـج هو عليه، ويتنـزَّل بذلك منـزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتِهم في كلامهم، حتى حصلت له الملَكةُ المستقرةُ في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم»[٢].

ويقول أيضاً عن هذه الملكة التي تحصل بالحفظ والدُّربة: «(...) فإن الملَكاتِ إذا استقرت ورسَخت في محالِّها؛ ظهرت كأنها طبيعةٌ وجِبِلَّـةٌ[٣] لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملَكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع. وليس كذلك.. وإنما هي ملَكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت، فظهرت في بادئ الرأي أنها جِبِلَّـةٌ وطبع.

---

(١) **المقدمة** (مقدمة كتابُ العِبرَ، وديوانُ المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، عبدالرحمن ابن خَلدون، تحقيق د. عبدالسلام الشدَّادي، خِزانة ابن خَلدون ـ بيت الفنون والعلوم والآداب/ الدار البيضاء، ط١/ ٢٠٠٥م، ٣/ ٢٥٩ (فصلٌ في تعلم اللسان المضري).

(٢) **المقدمة**، ٣/ ٢٦٣ (فصلٌ في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية).

(٣) «الجِبِلَّة»: الخِلْقةُ والطبيعةُ، وأصلُها. وفي ضبطها سبعُ لغات: الجِبِلَّة (وهي الأشهر)، الجُبُلَّة، الجَبِيلَة، الجُبْلَة، الجَبْلَة، الجِبْلَة. والسابعة غير مشهورة، وهي: الجُبُلَة.

وهذه الملَكة ـ كما تقدم ـ إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرُّره على السمع، والتفطُّن لخواصِّ تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك، التي استنبطها أهل صناعة اللسان.. فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملَكة بالفعل في محلها»(١).

وهذا الكلام الأخير هو الذي ينتهي إليه كلام الدكتور الربيعي، وهو الذي أدرت عليه مقالتي هذه. فإن «معرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان» هي «النظريات والمناهج» في أيامنا هذه. فكما أن الوقوف عند «معرفة القوانين العلمية» هذه لا يصنع ملَكة أدبية لُغوية، كذلك.. الاكتفاء بـ«النظريات والمناهج» لا يُكسب هذه الملَكة.

ويقرر ابن خَلدون أيضاً أنه «لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي. وعلى قدر جودة المحفوظ، وطبقته في جنسه، وكثرته من قلته؛ تكون جودة الملَكة الحاصلة عنه للحفَّاظ»(٢).

ويقول القاضي عبدالرحيم بن علي بن شيث الإِسنائي القُوصي، في سياق حديثه عن أدوات الكاتب وعُدَّته: «والحفظ في ذلك مَـلاكُ الأمر.. فإنه يؤهِّل ويدرِّب، ويسهِّل المطلوب ويقرِّب»(٣).

ـ هل الحفظ مطلوب؟!

هذا.. وقد وقعت على نص خطير جدًّا، هو خير رد وأوفاه على هؤلاء الذين

---

(١) المقدمة، ٣/ ٢٦٤، ٢٦٥ (فصلٌ في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان، وتحقيق معناه، وبيان أنها لا تحصل غالباً للمستعربين من العجم).

(٢) المقدمة، ٣/ ٢٩٢ (فصلٌ في أن حصول هذه الملَكة بكثرة الحفظ، وجودتها بجودة المحفوظ).

(٣) سيأتي (ص ٢٣٨) تخريج الطناحي إياه.

يشترطون للحفظ الفهمَ، ويقولون: لا تطلبوا من الصبي حفظ ما لا يفهم، فإن هذا غير مُجدٍ في العملية التعليمية. يقول أبوالفتح عثمان بن جِنّي: «قال لنا أبوعلي (الفارسي) يوماً: قال لنا أبوبكر (ابن السرَّاج): إذا لم تفهموا كلامي؛ فاحفظوه.. فإنكم إذا حفظتموه؛ فهمتموه»[(١)].

وهذا كلام صحيح، يصدقه الواقع، وتؤكده التجربة.. فإن الإلحاح بالحفظ الدائم المستمر مما يمهد للفهم لا محالة. وآية ذلك أن صغار التلاميذ في دُور الحضانة والروضة يرددون مع إطلالة كل صباح النشيد الوطني لبلادهم، وهم بالقطع لا يعرفون شيئاً عن معاني مفرداته فضلاً عن تراكيبه، ولكنهم بمرور الأيام يدركون ويفهمون. والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى في اكتساب وإدراك المعارف. ونحن الذين حفظنا القرآن صغاراً نعرف هذا من أنفسنا، فما زلنا نذكر ألفاظ القرآن وتراكيبه الغريبة علينا في مطالع أيامنا، ثم إضاءة معانيه في نفوسنا بعد ذلك بالتدريج، وإن كنا لا ندرك بالضبط متى تم هذا، كما لا يدرك الناظر في السماء انسلاخَ النهار من الليل إلا حين يغشاه نورُه ويغمره سناه.

وليس أدلَّ على أهمية الحفظ في العملية التعليمية في تراثنا، من هذا القدر الهائل من المنظومات في اللغة والنحو والفرائض (المواريث) والقراءات وعلوم الحديث والأصول والبلاغة والمنطق والعروض والميقات والطب، وكل ذلك لضبط القواعد وتثبيت الأحكام. وما أمر **ألفية ابن مالك** ببعيد!

ومع المنظومات المطوَّلة في النحو والصرف كان هناك البيتان والثلاثة والأربعة لضبط القاعدة وترسيخها. فهذا جمع التكسير ينقسم إلى جموع قِلَّة وإلى جموع كثرة،

---

(١) **الخصائص**، أبوالفتح عثمان بن جِنّي، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط١/ ١٩٥٧م، ١/ ٢١٦.

وللأول أربعة أوزان، وللثاني سبعة عشر وزناً، ولصعوبة حصر هذه الأوزان صاغها بعضهم شعراً ليسهل حفظها.. فجموع القِلَّة جمعت في قوله(١):

بـأفْعُــلٍ ثم أفعــالٍ وأَفْعِلـةٍ   وفِعْلةٍ.. يُعرَف الأدنى من العددِ
كـأفْلُسٍ وكـأثـوابٍ وأرْغِفةٍ   وغِلْمةٍ(٢). فاحفظنْها حفظَ مجتهدِ

وجموع الكثرة جمعت في قوله(٣):

في السُّفُنِ الشُّهْبِ البُغاةُ صُوَرُ   مَرضَى القُلوبِ، والبِحارُ عِبَرُ
غِلْمانُهـم للأشـقياءِ عَمَلـةْ   قُطَّـاعُ قُضْبـانٍ لأجـلِ الفِيَلـةْ
والعقـلاءُ شُــرَّدٌ، ومُنتهَـى   جُموعهم في السَّبْعِ والعَشْرِ انتهَى

---

(١) سيأتي في كلام الطناحي (ص ٢٣٩) نسبة هذين البيتين إلى أبي الحسن الـدَّباج.

وقد نسب البغدادي في **خزانة الأدب** (نشرة عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٣/ ١٩٩٦م، ٨/ ١٠٧) إلى أبي الحسن الدَّبَّاج الإشبيلي البيتين هكذا:

بـأفعُـلٍ وبـأفْعـالٍ وأفْـعِـلَـةٍ   وفِعْلَةٍ.. يُعرَفُ الأدنى من العَدَدِ
وسالم الجمع أيضاً داخلٌ معها   فهذه الخمس.. فاحفظها ولا تَزِدِ

ونسب الصَّفَدي في **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف** (تحقيق السيد الشرقاوي ومراجعة د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط١/ ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م، ص ١٩٩) البيت الأول منهما منفرداً إلى الشيخ جمال الدين بن مالك (صاحب **الألفية** الشهيرة).

وأقرب ما وجدتُ إلى رواية الطناحي ما نسبه الكَفَوي في **الكليات** إلى «بعض الأدباء»:

وأفعـل ثـم أفعـال وأفعـلـة   وفِعلـة مثلـه في ذلـك العـددِ
كـأنفس وكـأثواب وأرغفـة   وغِلمة فاحفظنها حفظ مجتهدِ

الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبوالبقاء أيوب بن موسى الحسيني الكَفَوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٢/ ١٩٩٨م، ص٣٣٣.

(٢) غِلْمة: جمع غلام.

(٣) ورد في **الدروس النحوية**، حفني ناصف وزملاؤه، دار إيلاف الدولية/ الكويت، ط ١/ ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، المستوى/ الكتاب الثالث، ص٢١٦، ٢١٧. و: المستوى/ الكتاب الرابع، ص٣٣٢.

وترتيب الخليل بن أحمد لمواد «المعجم» نظمها بعضهم في قوله[١]:

عن حُـزْن هَجْرِ خَريدةٍ غَنَّاجةٍ   قلبي كَواه جَـوًى شديدُ ضِرارِ
صَحبي سيبتدئون زَجْري طُلَّباً   دَهَشي.. تطلُّبَ ظالمٍ ذى ثَارِ
رُغماًالذي نُصحي..فؤادي بالهوى   متلهِّبٌ، وذو[٢] المَلامِ يُماري!

وواضح أن المراد الحروف الأولى من كلمات هذا النظم هكذا: ع ح هـ خ غ... الخ.

هذا.. إلى الضوابط النثرية، مثل «سألتمونيها» لضبط حروف الزيادة، و«سكت.. فحثَّه شخصٌ» لضبط الحروف المهموسة. فبهذه الضوابط الشعرية والنثرية تعلمْنا الأدب واللغة والنحو، وتعلم مَن قَبلَنا؛ لأننا سَلِمنا ولأنهم سَلِموا من زلازل «التطوير» وأعاصير «التيسير»! وإنه لواجب علينا إذا أردنا الخير لهذا الجيل أن نحيي فيهم مهارات الحفظ، ونقدم لهم قواعد العربية من خلال النصوص التراثية الموثقة.

ولقد جاءني ابني بكتاب **القراءة والنصوص الأدبية** للصف الثالث الإعدادي للعام الدراسي ١٩٩٠مـ١٩٩١م، وفي ص١٣ منه جاء هذا السؤال: «اختر الصواب مما بين كل قوسين: مقابل غضب (رضا/ سرور/ سكون)».. وطلب مني ابني الجواب الصحيح، فقلت له: «رضا»، وقال هو: «سرور»، وأصر على رأيه؛ لأنه لم يستسغ أن يكون «الرضا» مقابل «الغضب»؛ ولأن أستاذه قال ذلك أيضاً والأستاذ لا يخطئ! ولم يقتنع حتى ذكرت له حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ (الذي أخرجه أبوداوود في سننه: ٣/ ٣١٨، والحاكم في مستدركه: ١/ ١٠٥) أنه قال: «يا رسول الله.. أكتب ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: عند الغضب وعند الرضا؟ قال: نعم.. إنه لا ينبغي لي أن أقول إلا حقًّا».

(١) لم أقف على هذه الأبيات فيما راجعت.
(٢) بالمطبوعة: «وذوي». وهي خطأ طباعي.

وهنا انفرجت أسارير ابني، ونظر إليَّ نظرة الرضا لا الغضب!

فهذا السؤال الذي جاء في ذلك الكتاب المدرسي سؤال جيد؛ لأنه يزيد المحصول اللغوي عند التلميذ لا محالة، ولكنه ينبغي أن يكون مؤسَّساً على نصوص محفوظة للتلميذ بها أُنسٌ ومعرفةٌ سابقة. وأنَّى لتلميذ في هذه السن أن يختار بين هذه الكلمات القريبة المعاني دون نصٍّ يَشهد وحفظٍ يؤيِّد؟!

فالحفظ وسيلة ضبط وإتقان ينبغي أن تراعى من أول درجة من درجات سُلَّم التعليم. ولا تشفقوا على الصغار والناشئة.. فإن فيهم خيراً كثيراً، وانظروا إلى هؤلاء الصغار الذين يظهرون على شاشة التلفزيون من أعضاء «المسلم الصغير»[1]، وتأملوا حلاوة الأداء وسلامة مخارج الحروف، ثم حفْظَ نصوص القرآن والحديث عن ظهر قلب!

ومن وراء ذلك كله.. فالحفظ عاصم من التخليط في أبنية الأسماء والأفعال.

ـ أمثلة من القرآن

وإذا كان القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد؛ فإنه أيضاً كتاب عربية وبيان، ويجب ـ أشد الوجوب ـ أن نشد أبناءنا إليه في كل مراحل تعليم العربية، وأن يكون اختيارنا لآياته في مقرر «القراءة والنصوص» قائماً على تلك الآيات التي تُنَمِّي الحسَّ اللغوي والنحوي عند التلاميذ، ولا سيما تلك الآياتُ التي تأتي فيها الأفعال مضبوطةً على وجهها الصحيح. وقد لاحظت أن كثيراً من أبنية الأفعال التي نخطئ ـ نحن

---

(١) جمعيةٌ أهليةٌ مصريةٌ لرعاية الناشئة، وتحفيظهم القرآن الكريم، وتثقيفهم، وتنمية مواهبهم. كان لها نشاطٌ كبيرٌ محمودٌ في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين. مؤسسها الأستاذ مرزوق هلال ـ رحمه الله ـ.

الكبار أيضاً! ـ في ضبطها، أو ننطقها على وجه من الوجوه الضعيفة غير الفصيحة، جاءت على وجهها الصحيح في الكتاب العزيز، وأكتفي هنا ببعض الأمثلة..

يقول الناس في كلامهم: «كبُر» الولد «يكبُر».. فيَضمُّون الباء في الماضي والمستقبل.

والصواب بالكسر في الماضي، وبالفتح في المستقبل: «كبِر: يكبَر»، وهذا يكون في السِّنِّ والعمر، يقال: كبِر الرجل كبَراً فهو كبير، أي طَعَن في السِّنِّ، ومنه قوله ـ تعالى ـ عن أموال اليتامى والنهي عن أكلها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦]. أما «كبُر: يكبُر» بالضم في الحالتين؛ فليس من السِّنِّ، وإنما هو بمعنى «عَظُم»، ضد «صَغُر». وشواهده في الكتاب العزيز كثيرة.. منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

ويقولون: «نَقِمْتُ» عليه كذا وكذا، أي عبته وكرهته.. فيكسرون القاف في «نقِمت».

والأفصح الفتح: نقَمت، وهذا الفعل من باب «ضرَب»، وفي لغة من باب «تعِب»، والأولى هي الأفصح. قال ابن السِّكِّيت: «وقد نقَمت عليه أنقِم، والكسر لغةٌ ـ أي في الماضي ـ، والفتح الكلام». قلت: وبه جاء التنزيل، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال ـ تقدست أسماؤه ـ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وقال ـ تقدَّست أسماؤه ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩].

ويقولون: فلان «يُنقِصني» حقي، و«يُنقِص» في الميزان.. فيَضمُّون ياء المضارعة.

والأفصح والأكثر فتحها، «يَنقُصني»، و«يَنقُص». وهذا الفعل ثلاثي يستوي فيه اللازم والمعتدي، يقال: نَقَص الشيء، نَقَصته أنا، ونَقَصه هو. وفي لغة: أنقصه ونقَّصه، معدًّى بالهمزة والتضعيف، لكنها لغة ضعيفة، ولم تأت في كلام فصيح. وشواهد ذلك من القرآن المتلوِّ المحفوظ: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٤]. وقد جاء اسم المفعول من الثلاثي في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

ويقولون: «حرِص» فلان على كذا، و«حرِصتُ» على كذا.. فيكسرون الراء.

والأفصح فتحها، «حرَص» و«حرَصتُ». وبالفتح جاء التنزيل، قال ـ سبحانه وبحمده ـ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال ـ عزَّ وجلّ : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

ويقولون: «صلُح» حالي، و«صلُح» أمري.. فيضمون اللام.

والأفصح فتحها: «صلَح».. قال ـ تعالى ـ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال ـ تقدَّست أسماؤه ـ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [غافر: ٨]. ومن شواهد ذلك في الحديث الصحيح قوله ـ ﷺ ـ من حديثه الطويل: «ألا.. وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحت؛ صلَح الجسد كله».. قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر فتح العين في «صلَح»: «وحكى الفرَّاءُ الضمَّ في ماضي صلَح»(١).

---

(١) بقية كلام ابن حجر في **الفتح** (نشرْة عبدالقادر شيبة الحمَد، د.ن، ط١/ ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م، ١/ ١٥٦) معقِّباً على حكاية الفرَّاء: «وهو يُضَمُّ وِفاقاً إذا صار له الصلاح هيئةً لازمةً؛ لشرفٍ ونحوه».

وهذا الفعل[١] من باب «قعَد»: «صلَح: يصلُح». وذكر ابن دُريد أن ضمَّ اللام في الماضي ليس يثبت.

وهكذا تكون النصوص التراثية، وأعلاها كلام ربنا ـ عز وجل ـ، وسيلة ضبط وإتقان.. إذا اعتنينا بها قراءةً وحفظاً.

[حتى خُطَبُنا.. غَدت ثرثرةً!]

ويبقى أمر لابد من إثارته؛ لأنه يتصل بموضوعنا هذا بنسبٍ وثيق، وإن كان في الظاهر دخيلاً وبعيداً عنه؛ ولأنه أيضاً يتصل بالثقافة العامة وتنمية وجدان الأمة.

وذلك أنك كنت تجد ـ في الزمان القريب ـ من أوساط الناس وعوامهم من يأنس للكلام الفصيح ويرتاح له، ويحفظ منه الشيءَ بعد الشيء.. وذلك من خلال ما يسمعونه من خطيب الجمعة، العالِـم المتمكِّن، من نصوص القرآن العزيز والحديث الشريف والأدعية المأثورة. أما الآن؛ فتكاد خطب الجمعة ـ ولا سيما على ألسنة الشبان المتحمسين ـ تتحول إلى ثرثرةٍ وكلامٍ عامٍّ مبهمٍ عن «مدرسة محمد ﷺ»، و«الإسلام في خطر» و«الإسلام هو الحل»! وهذا وهذان مما يصرف عن الاستشهاد بالقرآن والحديث وكلام العرب، وإذا أتاك شيء من ذلك؛ فهو يأتيك في معظمه ملحوناً ومزالاً عن جهته!

وكل هذا إنما جاء من مقولات مضلِّلة، وهي أن «خطب الجمعة لابد أن تتفاعل مع الأحداث المعاصرة، وأن تشارك في صنع القرار».. إلى آخر ما تعرف!

وليتنا نعود إلى خطبة الجمعة المكتوبة على الورق الأصفر، والتي كان الخطيب

(١) في المطبوعة: بالفعل، وواضحٌ أنها خطأ طباعي.

يدعو في آخرها للسلطان بالنصر! (ونستغفر الله مما سَخِرنا من هذه الخطب!).. فمن خلال هذه الخطب المكتوبة حفظنا كثيراً من النصوص، وضبطنا كثيراً من أبنية الأسماء والأفعال[١]. وربنا المستعان على ما يصفون!

* * *

(١) نتمنى مع أستاذنا الجليل ـ رحمة الله عليه ـ أن تستقيم ألسنةُ خطباء المنابر وغيرِهم، وأن يَحسُن بيانُهم. أما أن تكون الدعوة إلى أن «تتفاعل خطب الجمعة مع الأحداث المعاصرة، وأن تشارك في صنع القرار» «مقولاتٍ مضلِّلةً»؛ فهو ما لا نتفق فيه وأستاذَنا.. فلا بد من أن تكون خطب الجمعة هكذا، إن نحن أردنا أن يكون المنبر وسيلةً إعلاميةً مؤثرةً في الواقع إيجابيًّا. فإذا انضاف إلى هـذا الغرض النبيل حُسنُ البيان واستقامةُ اللسان؛ فهو الخير العميم بفضل الله. والله أعلم.

الكتب الصفراء.. والحضارة العربية (١)

[كلام الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي]

كتب الشاعر الأستاذ أحمد عبدالمعطي حجازي كلمة في جريدة **الأهرام** بتاريخ ٢٦/ ٨/ ١٩٩٢م، قدَّم فيها كتاب الأستاذ الكبير النبيل الدكتور مصطفى ناصف **صوت الشاعر القديم**.

وقد ذكر الأستاذ حجازي في صدر كلمته أنه مدين لثلاثة أساتذة بها يعرفه عن الشعر الجاهلي.. أولهم مفتش لغة عربية رآه أيام الدراسة، وقد دخل عليهم الفصل، وكان أستاذ اللغة العربية يشرح شيئاً من شعر الأعشَى الكبير (مَيمون بن قَيس)، فلم تَرُقْ طريقةُ المدرس في شرح شعر الأعشى ذلك المفتشَ، فأخذ الكلام من المدرس، واندفع في شرحٍ بلغ من الأستاذ حجازي مبلغاً كبيراً من الرضى والارتياح، ثم غاب ذلك المفتش، ولم يره الأستاذ حجازي ولم يسمع به بعد ذلك.

ولا نعتقد أن مثل هذه اللحظة الخاطفة في حصة دراسية محدودة، أخذ فيها ذلك المفتش في شرح بيتين اثنين من شعر الأعشى على نحوٍ مُطرِب مُعجِب، تضع هذا المفتش - حذْوَ القُذَّة! - مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف، وتجعل الأستاذ حجازي مديناً لهؤلاء الثلاثة بها يعرفه عن الشعر الجاهلي! غاية ما يقال عن ذلك المفتش الحاذق اللبق أنه حبَّب إلى ذلك الفتى الصغير الشعر الجاهلي، ومهَّد لأنغامه الشجية أن تنصبَّ إلى سمعه وتَتولَّجَ في قلبه.

---

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة **الهلال** المصرية: جُمَادَى الأولى ١٤١٣ هـ - نوفمبر ١٩٩٢م.
ثم جُمع في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٢٠٦:٢١٣.

على أني أظن ظنًّا أن الأستاذ حجازي قد غَبَن نفسه، وحجَّر عليها واسعاً، حين حصر طريق معرفته بالشعر الجاهلي في هؤلاء الثلاثة، فإني ألمح في شعره وفي كتاباته الأخيرة رصيداً طيباً من القراءة المتعددة المصادر والموارد.

والعميد الدكتور طه حسين ـ على جَلالة قَدْره ونَبَاوة محله[١] ـ لم يكن وحده في ساحة الشعر الجاهلي.. فقد سبقه سابقون، وعاصره معاصرون، ولحقه لاحقون.. بذلوا لذلك الشعر الجاهلي من صفاء نفوسهم، ونقاء أذواقهم، وذكاء ألسنتهم، ونصاعة أقلامهم، ما كشف هذا الشعر، ودل على أنه أنبل كلام العرب وأشرفه، وأنه مستودَعُ أسرار العربي ومُستراحُه، ومَجْلَى مواجعِه وأشواقِه.

أما الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف؛ فما فتئ يصرِّح بأن الشَّأو بعيد، والمدى أوسع مما يحيط به بَصَر! بل كثيراً ما يحدِّثني كفاحاً ومشافهةً، ليس بيني وبينه أحد، عن صعوبة طريق الشعر.. ثم يقول لي بلهجته العذبة الودود: «يا مولانا.. المسألة ماهِشْ كده، احنا مَحَناش واخدين بالنا.. لازم نقرأ ونقرأ»! ثم يثني على فلان، ويحيل على فلان من السابقين الأولين.

ومهما يكن من أمر.. فإن الذي يعنيني من مقالة الأستاذ حجازي هنا قوله عن الدكتور طه حسين: إنه يدين له «بهذا المنهج الذي أخرج به الشعر الجاهلي من سلطان النحاة والشُّرَّاح وسَدَنة الكتب الصفراء». وهكذا يرسل الأستاذ حجازي الكلام إرسالاً، وكأن ذلك من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس، ولم يبق لأحد فيها مقال!

وسأؤخر الحديث عن سلطان النحاة إلى حين («وأَحْبِبْ إلينا أن تكون المقدَّما»![٢])، وآخذ في الحديث عن «سَدَنة الكتب الصفراء».

---

(١) أي ارتفاعَ مكانته وشرفَها.

(٢) للصحابي العباس بن مرداس، قاله يومَ حنين، وروايته في سيرة ابن هشام:

وقال نبيُّ المؤمنين: تقدموا ... وحُبَّ إلينا أن نكون المقدَّما

[الحديث عن «سَدَنة الكتب الصفراء»]

ولنفرغْ أولاً من «سَدَنة» هذه.. على طريقة «تحرير المصطلح» قبل الأخذ في المناقشة.

و «سَدَنة» من الكلمات التي يتساهل بعض الكتَّاب فيها، فيستعملونها في غير ما وُضِعت له، وهي جمع «سادن» (وهو خادم الكعبة خاصةً، وخادم الأصنام في الجاهلية)، والفعل منه «سَدَن يَسْدُن»، من باب «قَتَل يَقْتُل». قال ابن فارس في **مقاييس اللغة**: «السين والدال والنون أصلٌ واحدٌ لشيء مخصوص. يقال: إن السِّدانة: الحِجابة، وسَدَنة البيت: حَجَبَـتُه»[١].. انتهى كلامه. وقوله: «لشيء مخصوص» قَطَع به طريق المجاز، وأراد أن العرب لم تستعمله في غير هذا المعنى، وأن مثل ذلك لا يُنقل إلى غير معناه الخاص إلا بسماعٍ صحيحٍ ممن يُوثَق بعربيته. فبطل إذن ـ بحمد الله ـ استعمال «سَدَنة» هنا[٢].

ولم يبقَ إلا «الكتب الصفراء».. وهو وصفٌ عجيب، كنا نسمعه قديماً ونحن شبَبَةٌ صغار، فنفتتن به افتتاناً، كما كنا نفتتن بمثل: «الشعر المهموس»، و«الدَّفْقة الشعورية»، و«تراسُل الحواسّ»، و«الـمُنولوج الداخلي»! فلما أفَقْنا من الغَشْية، وعرفنا الطريق؛ أدركنا أن ذلك كله مما لا غَناء فيه، ولا طائل تحته، وأنه كما قال ابن

(١) **معجم مقاييس اللغة**، أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر/ بيروت، د. ط، ١٩٧٩م، ٣/ ١٥٠.

(٢) هنا تساؤلان للتأمل:

هل «الأصل الواحد» الذي نص عليه ابن فارس هو «حِجابة الكعبة» خاصةً؟ أو هو مطلق «الحِجابة»، سواءٌ أكانت للكعبة أم لغيرها؟

وهل قولُ أحدٍ من العلماء: «إن العرب استخدموا مادةً لمعنًى مخصوصٍ» قاطعٌ طريقَ المجاز؟ أو أن في باب التجوز سَعةً؟

قتيبة: «ترجمةٌ تَرُوقُ بلا معنًى، واسمٌ يَهُول بلا جِسم»![1].. أو كما قال ابن الشَّجري: «تهاويلُ فارغةٌ من الحقيقة»![2].

وقد اختفى هذا الوصف «الكتب الصفراء» زماناً، ثم عاد مرة أخرى! وإذا كنا لا نحفِل به إذا جاء في كلام من لا يؤبَه له، ولا يُعاج[3] به، من صغار الكتَّاب؛ فإن الأمر يختلف إذا ورد في كلام شاعر كبير مثل الأستاذ أحمد عبدالمعطي حجازي، له قراءٌ ومحبون، وأستاذ جامعي مثل الأستاذ الدكتور عاطف العراقي، له تلاميذُ ومريدون (وذلك في كلمة له قريبة في **الأهرام** أيضاً).

وواضح أن ورود هذا الوصف في كلام الأستاذ حجازي والدكتور العراقي ـ ومن لَفَّ لَفَّهما ـ إنما هو في مقام الذم والسُّخْرِيَة، بحيث صار استعمال هذا الوصف مرادفاً للأدب الغَثِّ والفكر الهزيل المتخلِّف.

وإذا كنا لا نرضى لأنفسنا أن نتغلغل إلى المطويِّ في ضمائر الناس؛ لأن ذلك عند علام الغيوب، وإذا كان الأستاذ حجازي والدكتور العراقي، وكل من استعمل هذا الوصف، لم يقدموا لنا نماذج محددة من أسماء هذا الكتب الصفراء وما تشتمل عليه من ألوان الفكر وضروب الأدب.. إذا كان ذلك كذلك؛ فإن من حقنا أن نقف عند الدلالة المجردة لهذا الوصف، فنقول ببداهة العقل وبمطلق الدلالة: إن كل فكر جاء في كتب صفراء مرفوض ومطَّرَح؛ لأن الوصف إذا جاء بغير قيد أو استثناء دخل تحته

---

(١) متحدثاً عن علوم اليونان المترجَمَة التي انصرف إليها بعض ناشئة زمانه، مستبدلين بها علومَ العربية والكتاب والسنة: **أدب الكاتب**، أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَـوَرِيّ، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة/ بيروت، د. ط، د. ت، ص ٧.

(٢) متحدثاً عن النحاة الكوفيين في أكثر كلامهم: أمالي ابن الشجري، هبة الله الحسَني العلوي ابن الشجَري، تحقيق د. محمود الطناحي، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط١/ ١٩٩٢م، ١/ ٥٦.

(٣) عاج بالشيء وعَوَّج: التفت إليه، وأقام به وعليه. ويأتي متعدياً: عاج غيـرَه. وعاج عنه: رجع.

كلُّ أفراد جنسه. ومعنى هذا ببداهة العقل أيضاً، وبمطلق الدلالة، أن ديوان الأستاذ حجازي **مدينة بلا قلب** إذا جاءنا في ورق أصفر؛ اجتويناه[١] ورفضناه.. وبمفهوم المخالفة: إذا جاءنا هذا الديوان على ورق «كوشيه» فاخر؛ كان ذلك رافعاً لخَسِيسَتِه.. إن كانت فيه خَسيسَةٌ لا قَدَّر الله ولا قَضى!

ونحن نقولها، بكل سلامة الصدر وبكل خلوص النية، لكل من عنده خبرٌ عن حقيقة هذا الوصف: نَـبِّأْنا بتأويله!

[ما معنى «إخرج الشعر الجاهلي من سَدَنة الكتب الصفراء»؟]

وبكل سلامة الصدر أيضاً وخلوص النية نسأل الأستاذ حجازي (نعم.. نسأله تعلُّماً، لا تعنُّتاً):

ما معنى قولك: إن الدكتور طه حسين أخرج الشعر الجاهلي من سَدَنة الكتب الصفراء؟ فمن هم هؤلاء السَّدَنة ـ إن قبلنا هذا الاستعمال! ـ؟

ما هي أسماؤهم؟

ثم: ما هي أزمانهم؟

ثم: ما هذه الكتب الصفراء التي جاء فيها شرح الشعر الجاهلي محرَّفاً ومُزالاً عن جهته، حتى جاء عميد الأدب العربي فنفخ فيه من روحه حتى نهض قائماً على سُوقه؟

إن الشعر الجاهلي قد جاءنا موثَّقاً مضبوطا في دواوين أصحابه التي صنعها علماء الصدر الأول، مثل ابن السِّكِّيت وابن حبيب وثعلب والسُّكَّري، وفي الشروح الكبرى، مثل **شرح الـمُفَضَّليَّات** لأبي محمد الأنباري، و**شرح القصائد السبع** لابنه

---

(١) اجتوى الشيءَ: كرِهه، ولم يوافقه.

أبي بكر، وشرح **القصائد التِّسْع** لأبي جعفر النحاس.. وجاءنا أيضاً في المجاميع والمختارات الأدبية التي صنفها فحول العلماء في الصدر الأول أيضاً كـ **الـمُفَضَّليَّات والأصمعيات** و«الحماسيات» و«المختارات»، وجاءنا أيضاً منثوراً ومفرَّقاً في كتب «الأمـالي» و«المجالس» ودواويـن الأدب ومعاجم اللغة، بل وفي كتب التاريخ والبُلْدانيات (الجغرافيا).

وحين ظهرت المطبعة، وتصدى علماء البعث والإحياء لشرح الشعر الجاهلي؛ قرأناه في مؤلفات جِلَّة العلماء، من أمثال الشيخ حسين بن أحمد المرصفي، والشيخ سيد ابن علي المرصفي، والشيخ حمزة فتح الله.. ثم جاءت طبقة تلاميذهم من قراء الشعر الجاهلي وشراحه، مثل الأستاذ محمود محمد شاكر، والدكتور طه حسين، والطبقة التي جاءت بعدهما مثل الدكتور نجيب محمد البَهْبِيتي، والدكتور عبدالله الطيب المجذوب.. وهلمَّ جرًّا.. إلى أساتذة الأدب ودارسيه بالجامعات وغير الجامعات.

فأنت ترى أن الشعر الجاهلي تنقَّل في أصلاب كريمة، ووعته صدورٌ حافظة، وحملته أيـدٍ بارَّة، وأدَّته ألسُنٌ ذكية. وهؤلاء العلماء المحدَثون الذين ذكرتهم إنما قرؤوا الشعر الجاهلي ـ وغيرَ الجاهلي ـ في الكتب الصفراء!

[تاريخٌ كريمٌ لـ«الورق الأصفر» المظلوم!]

فإذا تركنا حديث الشعر الجاهلي، ونظرنا في تراثنا كله المطبوع في مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى بمصر وسائر بلاد الدنيا؛ وجدناه كله (وبخاصة أواخر القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي) قد جاءنا في الورق الأصفر! فقد قرأنا تفاسير القرآن الكريم ودواوين السُنَّة المطهَّرة في الورق الأصفر، وكذلك كتاب **الأم** للشافعي، وكتاب **سِيبَـوَيْـه**، و**الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني، و**تاريخ الطبري** وابن **الأثير**، و**مقدمة ابن خَلدون**، و**الفتوحات المكية** لابن عربي، و**منهاج السنة النبوية** لابن

تيمية، ووفَيَات الأعيان لابن خِلِّكان، ونَفْحُ الطِّيْب للمَقَّرِيّ، وألف ليلة وليلة.. وسائرَ كتب الحضارة العربية والإسلامية، وكذلك الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية في أنواع العلوم، كالطب والهندسة والفلك والرياضيات والعلوم الحربية، وكذلك كان الشأن في كثير من مطبوعات أُورُبَّا من الكتاب العربي وغيره.

يقول العلامة الدكتور عبدالله الطيب المجذوب، صاحب الكتاب العظيم **المرشد إلى فهم أشعار العرب** في محاضرة ألقاها بـ«نادي ناصر الثقافي» بالخرطوم: «وأشهد على نفسي أني عندما كنت أدرس في الخارج (يعني لندن) كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ يسمِّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سَبُع»! وكانت لهذه المسرحيات القديمة شروح، وقد تكون الأبيات أربعة أسطر في أعلى الصحيفة بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون. فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية؛ نفروا منه نفوراً شديداً! ومن عجب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر، والورق الأصفر لعله ألين على عين القارئ من الورق الناصع الأبيض» انتهى كلامه[١].. ويؤكده أن مصابيح الإضاءة في شوارع وميادين المدن الكبرى غلب عليها الآن اللون الأصفر.

وقد شهدنا في الكتب الصفراء ظاهرة طِباعية عجيبة، لم نشهدها في الكتب البيضاء، وهي ظاهرة طبع كتاب أو كتابين بهامش الكتاب الأصلي، أو بآخره إذا كان له صلة بالكتاب الأصلي. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، لا داعي للتطويل بذكرها. على أن أعجب ما في هذه الظاهرة أن نرى خمسة كتب مطبوعة في كتاب! وفي صفحة

---

(١) وقد سبق، في المقالة الأولى من هذا الكتاب، أن ذكر الطناحي مرجع هذا النقل عن عبدالله الطيب ـ رحمهما الله ـ: «ملحق التراث» بجريدة المدينة المنورة السعودية: ٢١ من ربيع الأول ١٤٠٨هـ ـ ١٢ من نوفمبر ١٩٨٧م.

واحدة اجتمعت الكتب الخمسة، في الصُّلب والهامش، مفصولةً بجداول، دون أن يختلطَ بعضُها ببعض، أو يبغيَ بعضُها على بعض! وذلك.. كتاب **شروح التلخيص في** علوم البلاغة، ويشتمل على:

١ـ **شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح** للخطيب القَزْوِيني.

٢ـ **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح** لابن يعقوب المغربي.

٣ـ **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** لبهاء الدين السُّبْكي.

٤ـ **الإيضاح** للخطيب القَزويني.

٥ـ **حاشية الدسوقي على شرح السعد.**

والثلاثة الأولى طبعت في صُلب الكتاب، والاثنان الباقيان بهامشه. وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق (على الورق الأصفر!) سنة ١٣١٧هـ، أي منذ نحو مائة عام، وكانت هذه الطبعة على نفقة مصطفى أفندي المكاوي (المحامي بمدينة الفيوم)، والشيخ فرج الله زكي الكردي (وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية، من طلبة العلم بـ«الأزهر الشريف»)، وعبدالحميد أفندي الصمداني.

وقِفْ أيها القارئ الكريم عند اسم «مصطفى أفندي المكاوي المحامي»، وانظر إلى همم الرجال واهتماماتهم في تلك الأيام! رجل من رجال القانون ينهض للمشاركة في نشر أصول من كتب البلاغة! وأدعُ لك أيها القارئ العزيز التدبر في هذا الذي كان، وما نحن عليه الآن!

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى ظاهرة عجيبة فريدة، وهي دالَّةٌ بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم وإذاعته. وما أعلم أن هذه الظاهرة عرفت في غير مطابع مصر واستانبول، في بداية الطباعة العربية على الأقل[1].

---

(١) أيضاً.. موجودة بغزارة في مطابع الهند العربية في تلك الفترة.

هذا وقد ارتبط الورق الأصفر، عند عارفي الكتب وجامعيها، بجودة التصحيح وكمال الإخراج (وتلك حِقبةٌ غاليةٌ من تاريخ الطباعة في مصر!).. فقَلَّ أن تجد تصحيفاً أو تحريفاً، وجاءت النصوص كاملة موفورة، لا سَقْط فيها ولا خَلل؛ وذلك لأن القائمين على تصحيح الكتب الصفراء في ذلك الزمان كانوا طبقة من فضلاء العلماء، وكانوا يقومون بعملهم هذا في أمانةٍ تامةٍ وحرصٍ شديد. ويذكر التاريخ من أسماء هؤلاء المصححين العلماء: نصر الهُوريني، ومحمد بن عبدالرحمن (المعروف بقُطَّة العدوي)، ومحمد الحسيني، وطه محمود، ومحمد عبدالرسول، ومحمد قاسم، ومحمد الزهري الغمراوي، وعبدالغني محمود.

وكان كثير من أساتذتنا الذين يجمعون الكتب يركضون خلف «الطبعة الصفراء»، ويسمحون فيها بأغلى الثمن، فإذا جئت أحدهم بطبعة من الكتاب القديم على ورق أبيض؛ نفَر منها نفوراً شديداً، فإذا زيَّنتها له بأن فيها أوائلَ فِقْرات، وعلاماتِ ترقيم؛ لــجَّ في إعراضه، وقال: «بطِينُه ولا غَسيل البرَك»![1].

وإن تعجبْ؛ فعجبٌ.. أن الورق الأصفر قد عاد إلى الطباعة مرة أخرى، وأمامي الآن طبعة جيدة جدًّا من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، على ورق أصفر! (وتقع هذه الطبعة في ١٧٥٠ صفحة، وقد أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م). ثم طبعة محققة من كتاب **مفردات ألفاظ القرآن** للراغب الأصبهاني[2] على ورق أبيض، ولكنه بياض خفيف يميل كل الميل إلى الأصفر!

---

(١) مَثَلٌ مصريٌّ عاميّ، يُقصَد به تفضيلُ الشيء بأصله وإن كُرِه منه شيءٌ، على أن يُعالَج بأجنبيٍّ عنه قد يفسده أكثر! قال أحمد تيمور في كتابه اللطيف **الأمثال العامِّيَّة** (لجنة نشر المؤلفات التيمورية/ القاهرة، ط ٢/ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م، ص ١٤٢): «الضمير فيه (في «بطِينُه») للفجل. والمراد: تفضيل ما كان عليه طِينُه، على الذي غُسِل بماء البِرَك الآسِن. يُضرَب في تفضيل أخفِّ الضررين».

(٢) نسبةً لـ«أصبهان» وهي مدينةٌ فارسية (بإيران الآن). وتُنطَق أيضاً بالفاء «أصفهان»؛ لأن مخرج الباء الفارسية قريبٌ من الفاء (انظر: **تقويم البُلدان**، أبوالفداء عمادالدين الحلبي، د. ن، باريس، ١٢٥٦ هـ ـ ١٨٤٠م، ص ٤٢٢). والله أعلم.

(وهذه الطبعة من منشورات دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

هذا.. ولن تزول حَيرْتي ولن ينقضي عَجَبي من حديث «الكتب الصفراء» والحطِّ[١] عليها، إلا إذا جاءنيْ كاتبٌ بكلام محدد مبين موثَّق، بأسماء هذه الكتب الصفراء، والفنون التي عالجتْها، والدلالة على مواضع الذَّمِّ منها.. وليس لي إلا شرط واحد: أن يرفُق بي الكاتب، فلا يهَجُم بي على دهاليز «المنهجية» و«الموضوعية» و«الإشكالية»، و«حركة التاريخ»، و«الحتمية الحضارية»! وأن يأتيني الكلام واضحاً قاطعاً، لا ترى فيه عِوَجاً ولا أَمْتاً! فإن كثيراً مما نقرؤه ونسمعه في هذه الأيام مما ينطبق عليه قول ذلك الأعرابي، وقد حضر مجلسَ الأخفش فسمع كلاماً لم يفهمه، فحار وعجب.. فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ فقال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا!»[٢].

نعم.. إن كثيراً مما نقرؤه ونسمعه الآن مما يدير الرأس ويجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى، وكأنك في مدينة ملاهٍ، أمام تلك الصناديق التي يجلس فيها الصغار: تعلو بهم ثم تهبط، ثم تعلو ثم تهبط، إلى أن يدركَهم الدُّوَار، أو يُنزلَ الله عليهم النُّعاسَ أَمَنَةً منه! والملجأ الله!

---

(١) علَّق هنا ناشر مقالات **العَلاَّمَةِ الدكتور محمود محمد الطَّناحي** بقوله: «كذا في الأصل، ولعلها: والحضّ عليها». والذي أراه ـ والله تعالى أعلم ـ صوابَ الأصل الذي أثبتُّه. والمعنى ظاهر.. فعجَبُ الطناحي لا ينقضي (ونحن معه!) ممن يَنْعَتون تلك الكتبَ الشريفةَ، المملوءةَ علماً دقيقاً ومعرفةً جَمَّةً، بـ«الصفراء» انتقاصاً، ويحطُّون عليها اجتراءً. والحق أنه يصدُق فيهم قول الله ـ تعالى ـ ناعياً على كل من اجترأ بالتكذيب على ما لم يتبينْه ويتوثَّقْ منه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

(٢) ورد في: **الإمتاع والمؤانسة**، أبو حيان التوحيدي، نشْرَة أحمد أمين وأحمد الزين، تصوير دار ومكتبة الحياة، د. ط، د. ت، ٢/ ١٣٩.

البيان.. والطريق المهجور[1]

(١)

[نعمةُ موهبة البيان]

من أجَلَّ نعم الله على عباده: نعمةُ البيان. وقد امتنَّ الله على عباده بهذا النعمة، فذكرها في أشرف سياق، فقال ـ تقدَّست أسماؤه ـ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن، الآيات ١:٤].

ولا ينبغي أن يكون المراد بالبيان هنا مجردَ الكشف عما في النفس لقضاء الحاجات واتصال مصالح العباد؛ لأن الكشف عما في النفس يؤديه الكلامُ وهيئةُ الحال والإشارةُ والعلامةُ. وليس المراد أيضاً بالبيان مطلَقَ الكلام؛ لأن هذا مما يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يَفضُل بعضهم بعضاً فيه إلا بما يكون من سلامة مخارج الحروف، واستواء النطق، والبراءة من أسباب العِيِّ والحَصَر والحُبْسة.

لكن المراد بالبيان: الإحسانُ في تأدية المعاني.. يقول أبوالحسن الرُّمَّاني: «وليس يَحسُن أن يُطلَق اسمُ «بيان» على ما قبُح من الكلام؛ لأن الله قد مدح البيان واعتدَّ به في أياديه الجسام[2].. قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ

---

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة **الهلال** المصرية: شوال ١٤١٦ هـ ـ مارس ١٩٩٥م. ثم جُمع في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٣٤٦:٣٥٤.

(٢) أي: نِعَمه العِظام.

ٱلْبَيَانَ ﴾. ولكن إذا قُيِّد بما يدل على أنه يُعنَى به إفهامُ المراد؛ جاز» (**النُّكَت في إعجاز القرآن**، ص٩٨).

وقد مدحوا البيان وعظموا شأنه، فقالوا: البيان بصرٌ والعِيُّ عَمًى، كما أن العلم بصرٌ والجهل عَمًى، والبيان من نتاج العلم، والعِيُّ من نتاج الجهل. وقال يونس بن حبيب: «ليس لعَيِيٍّ مروءةٌ، ولا لمنقوص البيان بهاءٌ، ولو حَكَّ بيافوخه أعنان السماء!» (راجع: **البيان والتبيين**[1] للجاحظ ١/ ٧٧، ثم انظر مقالة الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في فضل البيان، في **دلائل الإعجاز** ص٥).

ووجوه الإِحسان في تأدية المعاني كثيرة، ومنادِحها[2] واسعة، ولا يكاد يظفر بها إلا من وُهب لَطافةَ الحس، وخِفَّةَ الروح، ورَحابةَ النفس، والارتياحَ والطربَ لمظاهر إبداع الله عزَّ وجلّ في هذا الكون، وما بثه في ملكوت السموات والأرض، وما أجراه على ألسنة خلقه. أما «أهل الكثافة[3]» (وهم الذين امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء!)؛ فما أبعدهم عن البيان والإِحسان!

وهُلْكُ الفتى ألَّا يَـراحَ إلى النَّدَى   وألَّا يَرى شـيئاً عجيباً فـيَعجبا![4]

---

(١) رجَّح د. الشاهد البوشيخي أن عنوان كتاب الجاحظ الصحيح هو **البيان والتبين**، لا: **البيان والتبيين**، وقدَّم في تأييد ترجيحه تحقيقاً ضافياً في كتابه: **مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيُّـن للجاحظ**، دار القلم/ الكويت، ط٢/ ١٩٩٥م، ص ٥: ٧، و ٢٧: ٤٦. ومن الجدير بالذكر أن عبدالسلام هارون ذاتَه، وهو ناشر النسخة الفُضلَى حتى الآن من الكتاب، أشار إلى ترجيح ما رجحه الشاهد، في: **قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث**، مكتبة السنة/ القاهرة، ط١/ ١٩٨٨م، ص ٩٧، ٩٨.

(٢) جمع مَندوحة، أي الفُسْحة والسَّعة.

(٣) الكَثافة: الـغِلَظ والـثَّخانة.

(٤) للشاعر الأموي علي بن الغدير الغَنَويّ. و«يَـراح» بفتح الياء، مضارع «راح» إلى الشيء: ارتاح، وأخذته إليه خِفةٌ ونشاطٌ وأريحيةٌ وفرحة.

ثم إن هذه المواهب التي يمتن الله بها على من يشاء من عباده، لابد لها لكي تؤتي ثمارها عند الأدباء وأرباب البيان، من طول دُرْبَةٍ ومعالجة، يأتيان بكثرة النظر في الأساليب العالية الشريفة، من بديع الشعر وكريم النثر، ثم معاشرة الأصفياء أصحاب الفِطَر السَّوِيَّة والطبائع النقية، والفرار من مخالطة «أهل الكثافة»؛ فإن مجالسة الثقلاء حُمَّى الروح.. كما قال بُخْتُيَشُوع بن جِبريل(١) للخليفة المأمون! (**لطائف الظرفاء** لأبي منصور الثعالبي، ص٧٠).

---

(١) بُخْتُيَشُوع بن جبريل، طبيب نصراني، خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وبلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره. وله تصانيف عدة. (ت ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م).

قال ابن أبي أُصَيْبعة: «ومعنى بختيشوع عبدالمسيح، لأن في اللغة السريانية: البخت: العبد، ويشوع: عيسى ـ عليه السلام ـ.

[مستفاد من: **الفِهْرست**، أبوالفرج محمد بن إسحاق النديم، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي/ لندن، ط١/ ٢٠٠٩م، ٣/ ٢٩٨. وأيضاً من: **تاريخ الحكماء**، أبوالحسن جمال الدين القِفْطي، تحقيق يوليوس ليبرت، ليبسك، ١٩٠٣م، ص ١٣٢ : ١٤٦. وأيضاً من: حاشية صالح السَّمر على سير **أعلام النبلاء**، الحافظ الذهبي، أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١١/ ١٩٩٦م، ١٢/ ٣٨. وأيضاً من: **معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١/ ١٩٩٣، ١/ ٤٢٢].

ثم: ذُكر أن المحاورة الواردة فيها هذه الجملة لبُخْتُيَشُوع كانت مع الخليفة الرشيد [**ربيع الأبرار**، جار الله الزمخشري، تحقيق عبدالأمير مهنا، دار الأعظمي للمطبوعات/ بيروت، ط١/ ١٩٩٢م، ٢/ ٢٣٢].

فائدة في ضبط اسم «بُخْتُيَشُوع»:

ضبطه عبدالسلام هارون، **الحيوان** (١/ ٣٥٦): بَختيشَوع.

وضبطه د. أيمن فؤاد سيد، في نشرته من **الفِهْرست**: بُخْتِيشُوع. وفي حاشية الصفحة ذاتها (٣/ ٢٩٨): بَخْتيشوع!

وضبطه عمر كحالة في **معجم المؤلفين** (١/ ٤٢٢): بَخْتيشَوع. =

[شِعْرِيَّة العربية]

ونحن ـ أمةَ العرب ـ أمة بيان وفصاحة، ولغتنا مُعينةٌ على ذلك، بما أُودع فيها من خصائص شعرية في الحروف والأبنية والتراكيب، ثم.. هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال، والمترادف والمشترك والأضداد. ولغتنا مُعينةٌ أيضاً على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرَّحْبة الواسعة من الحقيقة والمجاز، والسماحة في تبادل وظائف الأبنية (كالذي يقال من مجيء «فَعيل» بمعنى «فاعل» وبمعنى «مفعول» وبمعنى «مُفْعِل»)، وتبادل وظائف الإِفراد والتثنية والجمع، ووقوع بعضها موقع بعض، والتساهل في التعبير عن الأزمنة، كالتعبير عن الماضي بالمستقبل، وبالمستقبل عن الماضي (إذا اقترن بالفعل ما يدل على زمانه)، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض، وتذكيرُ ما حقُّه التأنيث وتأنيث ما حقُّه التذكير، والحمل على المعنى، والحمل على اللفظ، وحرية التعامل مع الضمائر، غَيبةً وحضوراً (فيما يعرف بالالتفات)، والتعويل على القرائن والسياق في تخليص الكلام من كثير من الفضول والزوائد (وهو باب الحذف.. الذي يجعله ابن جِنِّي من باب «شجاعة العربية»، وهو تعبير عجيب! انظره في كتابه الفذ: **الخصائص** ٢/ ٣٦٠).. إلى سائر قوانين اللغة وأعرافها، حتى علم النحو الذي يُظَنُّ به العُسْرُ والتشدُّد، ولو تأملتَه حَقَّ التأمل؛ لوجدتَ فيه كثيراً من الرُّخَص والإباحة، على ما قاله الأصمعي: «مَن عرَف كلام العرب؛ لم يَكَدْ يُلحِّن أحداً!»[1].

= وضبط اسماً قريباً منه المُرتضَى الزَّبيديُّ في **تاج العروس**: بُخْتُـنَـصَّر. فهل «بخت» في كلا الاسمين سواء، فيُقدَّم ضبط المُرتضَى؛ لأنه نصَّ عليه بالحرف ـ؟

أما ترجيحي، حتى الوقوفِ على نصٍّ؛ فهو: بُـخْـتُـيَشُوع. حيث «بُخْتُ» كما ضبطها المرتضَى، و«يَشُوع» كـ «يَسُوع». والله أعلم.

(١) لم أجده هكذا منسوباً إلى الأصمعي، فيما بحثتُ فيه من مصادر ومظانّ.

وللطناحي كلام مهم حول هذه المقولة، وقضية «التصويب اللغوي» و«قل.. ولا تقل»، في =

ولقد تضوَّأتْ هذه اللغة العربية الشريفة على ألسنة الشعراء والخطباء، شعراً شَجيَّ النَّغْم، ونثراً حُلوَ الوَقْع، فيما بقي لنا من أدب الجاهلية. ثم كان مَجلَى هذه اللغة العزيزة كلامُ ربنا ـ عزَّ وجلّ ـ، بما نزل به جبريل الأمين على خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ، في هذا البيان الذي لا يطاوله بيان. ثم ألقى ربُّنا ـ تباركت أسماؤه ـ على لسان نبيه المصطفى بياناً عالياً آخر، هو ما نطق به ـ ﷺ ـ من جوامع الكلم: فصاحةً صافيةَ الـمَورِد، وبلاغةً عذبةَ الـمَشْرَع، ومنطقاً صائبَ الـحُجَّة.

[البيان الشريف قِسْمةٌ بين أفذاذ الأمة]

وقد جرت لغتُنا العربيةُ بما حملته من أدب الجاهلية، وبيان الكتاب العزيز، والحديث الشريف، على أقلام الكتاب وألسنة المتكلمين وقصائد الشعراء: بياناً يأخذ منه الناسُ بما قُدِّر لهم من رزق الله المقسَّم على خلقه، فتفاوتت حظوظُهم في ذلك.. فمنهم من أحسن، ومنهم من قارب، لكن البيان ظل هدفاً يُسعى إليه، وغايةً يَشتدُّ الناس في طلبها، ومعياراً يلجأ إليه النقاد في الحكم على الكلام وإعطاء الأدباء حقَّهم من التقديم والتأخير. ولعل أول من أصَّل هذا الفن هو أديب العربية الكبير أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حين صنع كتابه الذي جعل عنوانه دالًّا بصريح اللفظ على

= مقال «التصحيح اللغوي وضرورة التحري» (الهلال: صفر ١٤١٤ هـ ـ أغسطس ١٩٩٢م)، انظره في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، ١/ ١٩٦ : ٢٠٥.

وانظر في هذا الموضوع المهم: المقصد الثاني في مقدمة تاج العروس «في سَعة كلام العرب»، ١: ١٦، ١٧.

وفي الباب قولهم: «لغة العرب أوسع من أن يُحاط بها، ولا نعلمه يحيط بلغة العرب إلا نبيٌّ!» [الشافعي]، و: «من توسَّع في كلام العرب؛ لم يكد يُخطِّئ أحدًا» [الفَـرَّاء، وأبوعمرو بن العلاء]، و: «أنحَى الناس مَنْ لا يُخطِّئ أحداً» [ابن هشامٍ اللَخْميّ].

وسيأتي ـ بإذن الله تعالى ـ حول المقولة والقضية كلامٌ ذو صلةٍ في حاشيتي ص٢٩٦، ٢٩٧.

الغاية التي تغيَّاها منه، وكان كتاب الجاحظ هذا[١]، مع كتاب معاصره والراوي عنه أبي محمد عبدالله بن مسلم (المعروف بابن قتيبة) **عيون الأخبار**، هما الأساس الأول في إرساء قواعد هذا الفن (البيان)، بذكر الأدوات الموصلة إليه والمعينة عليه، من ذكر كلام العرب وخطبها وشعرها ومحاوراتها وأجوبتها المسكتة.. وتوالت الكتب في هذا الطريق، ككتب «الأمالي» و«المجالس» و«المختارات» و«الحماسات»، مع عناية ظاهرة باللغة والغريب، تمثلت في **أمالي أبي علي القالي** و**مجالس أبي العباس ثعلب**.

ولم تكن كتب هذا اللون من التأليف قاصرة على الأدباء واللغويين فقط، بل دخل فيها الحفَّاظ والفقهاء أيضاً.. كالذي رأيناه من كتاب **بهجة المَجالس وأُنْس المُجالس وشَحْذ الذهن والهاجس**، لفقيه الأندلس الحافظ المحدث أبي عمر بن عبدالبر القرطبي، صاحب كتاب **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، وصاحب **الاستيعاب في طبقات الأصحاب**. وكتابه هذا **بهجة المجالس** من المجاميع الأدبية العظيمة، ويقول فيه ابن سعيد، بعدما ذكر مصنفاته في الفقه والحديث والتراجم: «مع أنه في الأدب فارس، وكفاك دليلاً على ذلك كتاب **بهجة المجالس**» (**المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب**، ٢/ ٤٠٨). وهذا، ابن عبدالبر الفقيه المحدث، هو الذي جمع ديوان أبي العتاهية، وعن نسخته كانت نشرة الدكتور شكري فيصل ـ رحمه الله ـ.

وهكذا كان الأدب مَشرَعاً يَرِدُه الناس جميعاً. وغَبَرت أجيالٌ ونشأت أجيال، حتى جاء ابن خَلدون في القرن التاسع ليخبرنا أن كتب الأدب هي: **أدب الكاتب** لابن قتيبة، و**الكامل** للمبرد، و**البيان والتبيين** للجاحظ، و**الأمالي** (**أو النوادر**) لأبي علي القالي[٢].. ويريد ابن خَلدون أن يقول: إن هذه الأصول هي مكونات الأديب.

---

(١) أيُّ كتابٍ؟ لعل الطناحي يعني **البيان والتبين**، بدلالة ما سبق من ذِكره. (راجع، حول عنوان الكتاب الصحيح، حاشيتي السابقة قريباً ص١٠٨).

(٢) انظر: مقدمة ابن خَلدون، ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩.

ـ البارودي والمرصفي [ومَنْ بعدهما]

وطُويت أيام ونُشرت أيام، حتى كان العصرُ الحديث، وجاء رجال البعث والإحياء.. هؤلاء الذين ردوا الناس إلى أصولهم الأدبية، وكشفوا عن تلك المناجم الغنية الضاربة في التاريخ بعروقها. فكان الشاعر محمود سامي البارودي و**مختاراته**، والشيخ حسين الـمَرْصفي و**الوسيلة الأدبية**، والشيخ سيد بن علي الـمَرْصفي و**رغبة الآمِل من شرح كتاب الكامل**، وما قرأه على تلاميذه من شرح **حماسة أبي تمام**[١]، وبعدهما[٢] كان الشيخ حمزة فتح الله وكتابه الجيد **المواهب الفَتْحية**.. فكانت هذه الآثار كلها زاداً للجيل التالي.

ولقد كان من حسن حظنا ـ نحن.. أبناءَ هذا الجيل ـ أننا فتحنا عيوننا وعقولنا في أوائل الخمسينات، ورأينا القاهرة قبل أن يَدهَمها السَّيلُ وتغشاها المِحَنُ والنوائب، وكان من صنع الله لنا أننا نعمنا بثمرات «دار الكتب المصرية»: قراءةً في قاعة المطالعة الشهيرة بها، واستعارةً باشتراك زهيد متاح لطلبة العلم. وأخذنا نتضلَّع بالقراءة لتلاميذ مدرسة البعث والإِحياء المذكورة. وفيما يتصل بالبيان كان هناك اسمان كبيران: مصطفى صادق الرافعي، ومصطفى لطفي المنفلوطي.. وقد شَقَّ علينا الرافعي في أول الأمر، ووجدنا في المنفلوطي واحة خِصْبة عامرة بالندى والأزاهير، فأي جنة فتحها

---

(١) وهي الشروح الماتعة التي أشار إليها طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود شاكر (وكلهم ممن شافَه الشيخ المرصفي) وغيرهم، وطُبع جزءٌ يسير منها، جزءاً أولَ من كتاب سماه المرصفي **أسرار الحماسة** (الطبعة الأولى، والوحيدة فيما أعلم، صدرت سنة ١٩١٢م، عن مطبعة مغمورة اسمها «مطبعة أبي الهول» بشارع محمد علي بالقاهرة).

(٢) الظاهر أن كتاب الشيخ حمزة فتح الله (توفي ١٩١٨م) كان بعد كتاب الشيخ حسين المرصفي (ت١٨٨٩م)، وقد يكون أيضاً بعد البارودي (ت ١٩٠٤م). أما الشيخ سيد بن علي المرصفي؛ فقد توفي سنة ١٩٣١م. رحمة الله عليهم أجمعين.

لنا هذا المنفلوطي في ذلك الزمان! وكم دموعٍ أراقها! وكم قلوبٍ خفقت على بيانه الـحُلو الآسِر الذي انساب في **العبرات** و**الشاعر**، أو: **سيرانو دي براجراك** و**الفضيلة** و**ماجدولين**! ولئن كنا قد فرغنا من المنفلوطي بعد حين، فإن أثره الضخم الذي لا ينسى أنه حبَّب إلينا القراءة جملةً، فإن هذه الليالي التي قضيناها مع بيانه الـمُعجِب الآخِذ لم تضع سُدًى؛ لأنها وثَّقت صِلاتِنا بالأدب عامةً والبيان خاصةً.

ومن عجبٍ أن المنفلوطي هو الذي ردنا إلى الرافعي! وعند هذا الرافعي وجدنا دنيا أخرى حافلةً بالغرائب والعجائب، لكن صورة الرافعي لم تأخذ حجمها الحقيقي عندي إلا بعد أن اتصلتُ بتراث الآباء والأجداد فيما قرأتُ وفيما نسختُ وفيما حققت، وأيضا حين توثقتْ عَلاقتي بصاحبه ووارث أدبه وعلمه أبي فِهْر محمود محمد شاكر، فعرفت أن هذا من ذاك، وأنها ذريةٌ بعضها من بعض. وإن كنت أرى أن بيان أبي فِهْر لا يُشبِهه بيان، وأن علمه لا يُقرَن به علم، على ما فصَّلت في كلمتي عن كتابه الماتع المتنبي (في الجزء الأول من **موسوعة عصر التنوير** التي أصدرها **الهلال**[1]). ولو كتب أبوفِهْر الآن ـ وهو في هذه السن العالية ـ ؛ لزلزل الدنيا، ولرأيت ثَمَّ نعيماً وعلماً كبيراً! فهل تستجيب يا أبافِهْر؟ وهل أنت مُـخْـرِجٌ ما عندك من **حديث الأحرف السبعة** و**مداخل إعجاز القرآن** و**كتاب الشعر**[2]؟ شرح الله لك صدرك وأمتع أهل الأدب ببقائك.

ولئن كانت مدرسة البيان قد عُرفت يومئذ في كتابات الرافعي والمنفلوطي والزيات ومحمد صادق عنبر؛ فإن سائر الأدباء والكتاب لم يكونوا بعيدين عنها؛ لأن حُسن البيان وتجويد العبارة كانا لازمين لكل كاتب يريد لكتابته أن تُقرأ، ولكل مفكر

---

(١) وتجدها في مجموع دراسات وأبحاث الطناحي: **في اللُّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث**، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢م، ١/ ٢٠٩ : ٢٣١.

(٢) أما **المداخل**؛ فقد صدرت بعد وفاة أبي فِهْر عن نسخة غير كاملة، لا مادةً.. ولا صوغاً، كان أبوفهر قد أعدها تجربةٍ طِباعية: مطبعة المدني/ القاهرة ـ دار المدني/ جدة، ط١/ ٢٠٠٢م. وأما الآخران؛ فلـمَّـا! وأتمنى أن يوجَدا يوماً في أوراق أبي فهر وملفاته التي لم تُفرَز بعدُ!

يريد لأفكاره أن تَذيع. فلقد كان الأدب ـ ولا يزال ـ خير سبيل لإِيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع، وتَوَلُّجها في القلب، واستيلائها على النفس.. والبليغ يضع لسانه حيث أراد، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأَوعت لكنها لم تبلغ مَبْلَغَها من النفع والفائدة لجفافها وعُسرها، و«حُسْنُ البيان يُرِي الظلماءَ كالنورِ» على ما قال الشاعر(١)!

ولقد كنا في زمان الصِّبا نظن أن أسلوب العقاد معقَّد، حتى كَـبِرنا واستطعنا أن نَميْزَ الخبيثَ من الطيب؛ فوقعنا عند العقاد على مناطق من البيان وحلاوة الأداء هي الغاية والمنتهى!

وكذلك سائر الكتَّاب والأعلام ممن لا يصنفون مع الأدباء.. كانوا أصحاب فصاحة وبيان. فمكرَم عبيد (السياسي الشهير، والمحامي الجهير) كان أديباً وصاحب بيان، ثم كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم. وفتحي رضوان (المحامي الضليع، وأحد أقطاب الحزب الوطني) كان كاتباً صاحب بيان. والدكتور أحمد عمار (طبيب النساء الشهير) كان لُغويًّا صاحب بيان. والدكتور محمد كامل حسين (طبيب العظام الشهير) كان أديباً صاحب بيان، وهو صاحب القصة الشهيرة في الخمسينات **قرية ظالمة**. والدكتور محمد الصياد (الجغرافي الكبير) كان شاعراً صاحب بيان. وسيد إبراهيم (الخطاط العظيم) كان شاعراً صاحب بيان، وهو أحد مؤسسي «جماعة أبولُّو». والدكتور حسن حبشي (عالم التاريخ) شاعر وصاحب بيان. والدكتور محمد يوسف حسن (الجيولوجي الكبير، وعميد كلية العلوم بجامعة الأزهر سابقاً، وعضو مجمع

---

(١) ابن الرومي، من قطعته القصيرة الشهيرة، وروايتها كما في ديوانه (نشرة د. حسين نَصَّار):

في زُخْرفِ القولِ ترجيحٌ لقائلهِ ... والحقُّ قد يعتريه بعضُ تغييرِ
تقول: هذا مُجَاجُ النحل.. تَمدحُه ... وإن تَعِبْ؛ قلتَ: ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ!
مدحاً وذمًّا.. وما جاوزتَ وصفَها ... سِحرُ البيان يُري الظلماءَ كالنورِ!

ويلاحظ أن استشهاد الطناحي جاء بـ«حُسْن»، بدل «سِحْر».

اللغة العربية الآن) أديب يحفظ شعر أبي العلاء حفظاً عالياً، وله في اللغة نظراتٌ جِيادٌ نسعد بها في «لجنة المعجم الكبير» بالـمَجمَع.

ومن وراء هؤلاء طوائفُ لا تُحصى من الأدباء المجيدين الأغفال[١] أصحاب البيان، كنت تقرأ لهم في الصحيفة اليومية والمجلة الأسبوعية، ثم كنت تراهم في فصول المدارس الابتدائية والثانوية، يَـرُوضون صغارَ التلاميذ على البيان، ويجمعون لهم عناصر موضوع «الإنشاء» (الذي صار الآن «التعبير»، ولا تعبير هناك ولا عبارة!).. ثم كانوا يخوضون بهم لُـجَج بحار الشعر والنثر فيما كان يعرف بـ«المحفوظات والمطالعة».

ـ [الزهد في] حُسْن البيان

وقد ذهبت تلك الأيام بحَلاوتها ونَضارتها! وصرنا إلى هذا الزمان الذي زهد الناس فيه في حُسْن البيان، وهجروا طريقه هَجْراً يوشك أن يكون تامًّا، وأصبحت أساليب كثير من الكُتَّاب ومن ينتسبون إلى الأدب الآن تدور في فَلَك ألفاظ مستهلكة تشبه العُمْلة الـمَعْدِنية الممسوحة، أو العُمْلة الورقية التي تهرَّأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي، أو كالعُمْلة الزائفة التي ليس لها رصيد في مَصرِف النَّفْس! وإنما هي ألفاظٌ وتراكيبُ تُسَوَّد بها الصُّحُف، تروح وتجيء، تتجاوزها عينك على عجَل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعاً، ولا تحس معها أُنساً، فضلاً عما تجده في بعضها من ثقل وغَثَاثة[٢]، تكاد تُطْبِق على القلب وتَسُدُّ مَجرَى النَّـفَس! (وما أمر «الزَّخم» منك ببعيد)[٣].. إلى هذه البلية المستحدثة، وهي بَلِيَّـة الغموض الذي يندفع فيه كثير

(١) أي المجهولين المنسيين، ومَن لا ذِكْرَ لهم.

(٢) الـغَثاثة: الـهُزال والرداءة. وتُنطَق، في العامية المصرية، بالتاء: «الغتاتة». ويراد بها ثِقَل الروح وعدم الظَّـرْف.

(٣) يقصد الطناحي استفحال استخدام أولئك الذين أشار إليهم («كثير من الكتاب ومن ينتسبون =

من الأدباء الآن، وليس هو الغموض الذي يحرك النفسَ لتستخرج بحُسْن التأمل خَبِيءَ الكلام ومَطويَّ المشاعر، ولكنه الغموض المظلِم الذي يَكُدُّ العقل، ويكون مجلَبةً للغَمِّ والكآبة.. غموضُ العجز والـحَيرة!

وهذه الألفاظ والتراكيب التي يستعملها بعض أدباء هذا الزمان، أشبه بتقاليع «الموضة».. تظهر ثم تختفي، لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً! فقد كنا نسمع في الستينات كما ذكرت في مقال سابق بـ **الهلال** ـ «الوَحْدة الموضوعية»، و«المعاناة»، و«عُمق التجربة»، و«الـخَلْق»، و«تراسُل الحواسّ»، و«الـمُونولوج الداخلي»، و«الدَّفْقة الشُّعورية»، و«التعبير بالصورة»، و«الألفاظ الموحية»، و«الشعر المهموس».. والآن نسمع: «الإبداع»، و«تكثيف التجربة»، و«الزَّخَم» (والعياذ بالله!)، و«الطَّـرْح»، و«المنظومة»، و«الإشكالية»، و«التناصّ»، و«التماهي»، و«التفجير»، و«التفكيك»... وهذا وأشباهه إنما هو كما قال ابن قتيبة (منذ ١٢٤٠ سنة!) في مقدمة **أدب الكاتب**: «ترجمةٌ تَرُوق بلا معنى، واسمٌ يَهُول بلا جسم! فإذا سمع الغُمْر (أي الجاهل) والحدَث الغِرُّ قوله: «الكون» و«الفساد» وسمع «الكِيان» (...)؛ راعه ما سمع، فظن أنَّ تحت

= إلى الأدب») كلمة «الزَّخَم»، يعنون بها «الاحتشاد» أو «النشاط» أو «قوة الدفع»، وما إليها، في سياقات الثقافة والأدب والفن والسياسة والاجتماع.. في حين يرتدُّ إيقاعُها ومعناها الأصليُّ إلى النَّـتَن والرائحة الكريهة.. فتأملْ ـ رعاك الله ـ كيف نضل عن «ذَوْق عربيتنا» كلَّ هذا الضلال!

وفي استخدام ناس هذا الزمان «الزَّخَم» بمعنى «الاحتشاد»، وما إليها، مسألتانِ:

الأولى: ما سبق، من دَوَران معناها الأول في دائرة النَّـتَن، حتى وإن جاء من معانيها «قوة الدفع»؛ فإنها قوة دفعٍ في سياقٍ مُنْتن، أو قابضٍ على الأقل.

والثانية: أنهم يفتحون الخاء.. ولو أنهم أرادوا معنى «قوة الدفع» (على ما يكتنفه من نَـتَـن)؛ للزمهم تسكينُ الخاء؛ إذ فعلُ «الزَّخْم» لازمٌ ومتعدٍّ، تقول: زَخَم الشيء زَخْماً: اندفع بشدة، و: زَخَمه: دفعه. أما فعلُ «الزَّخَم»؛ فلازمٌ فقط، تقول: زَخِم اللحمُ زَخَماً: خَبُثَتْ رائحتُه وأنتن.. والعياذ بالله!

هذه الألقاب كلَّ فائدة وكلَّ لطيفة! فإذا طالعها؛ لم يَحْلَ[١] منها بطائل!»[٢]، أو كما قال أبوالسعادات ابنُ الشَّجَري: «تهاويلُ فارغةٌ من حقيقة»[٣] (**الأمالي** ١/ ٥٦). ولا يَـغُـرَّنَّك ـ أيها القارئ المبتدئ ـ اجتماعُ الكتَّاب على هذه الألفاظ، وكثرةُ استعمالهم لها.. «فإن الاستعمال ليس بدليل على الـحُسْن» كما يقول ضياءالدين ابنُ الأثير في **الـمَثَل السائر** (١/ ٢٢١).

إن كثيراً مما يُكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورةَ الحروف والأبنية من الأسماء والأفعال! أما روحُ العربية وآمادُها الرَّحبةُ الواسعة؛ فلا تجدها في أسلوبٍ مما تقرأ، ولا في كلامٍ مما تسمع!

إني أحس أحياناً أن هؤلاء الذين يكتبون أدباً عربيًّا لم يمروا بالقرآن ولا بالبيان النبوي، ولا بكلام العرب! فإن ثروتهم اللفظية محدودة جدًّا، وتصرُّفهم في وجوه الكلام قصير الخَطْو، منقطِع النَّـفَس.. ولذلك تأتي معانيهم هزيلةً خفيفة؛ لأن ضِيق الألفاظ يؤدي إلى ضِيق المعاني (كما يقول عبدالقاهر الجرجاني في **دلائل الإعجاز**[٤]).

ومن الكلام الحكيم للجاحظ في هذه البابة[٥] قوله: «والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل؛ لأنهم حين عَدِموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلُّف ما هو أخصرُ وأيسرُ وأوجزُ كثيراً» (**الحيوان**، ٣/ ٣٦٥).

---

(١) يقولون: لم يَحْلَ بطائل.. أي: لم يظفَر، ولم يستفدْ منه كبير فائدة. ولا يُتكَلَّم به إلا مع الـجَحْد والنفي. وفعله يائيٌّ، لا واويّ.

(٢) سبق (ص ١٠٠) جزءٌ منه، وهناك تخريجه، والتعليق عليه.

(٣) سبق التعليق عليه.

(٤) هذا المعنى مبثوث في **دلائل الإعجاز**، ومن مواضعه على سبيل التمثيل: ص ٦٣ وما بعدها (نشرة أبي فِهْر، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ٥/ ٢٠٠٤م).

(٥) بابَـة الشيء: وجهُه الذي يَصلُح له. ويُستخدم في تبويب الكُـتُب بمعنى الباب. وأبوفِهْر من أشهر من استخدمه في كتبه في العصر الحديث.

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم ورثة طه حسين. لم يسيروا في طريق بيانه، ولم يحاكوا حلاوة أدائه، وكان له في ذلك مُسْتَرَادٌ[١] ومذهب.. فانتماؤهم لطه حسين إذن انتماء كاذب وولاء منقوص.

وأيضاً.. هؤلاء الذين يتحدثون عن «التنوير» ورموز «التنوير».. لم يمروا بأدب أعلام هذا التنوير، ولم يسلكوا طرائقَهم في معرفة العربية ورعاية قوانينها في حسن الأداء وجمال العبارة.

إن الذين يَشكُون الآن من «الأغاني الهابطة» لا ينبغي أن ينسوا أن هذه القضية مرتبطة بألوان الأدب الأخرى، وأن البيان كله من باب واحد. فيومَ أن كان عندنا أدباءُ بيانٍ كبار، كالمنفلوطي والزيات، كان عندنا كُتَّابُ أغانٍ كبارٌ، مثل أحمد رامي وبيرم التونسي وعبدالفتاح مصطفى وحسين السيد؛ لأن كلام الناس يَنزِع بعضُه إلى بعض، ويأخذ بعضُه برقاب بعض.. وقد أنشدتُك أيها القارئ الكريم من قبل قول ابن الرومي: «وبعضُ السَّجايا يَنتسبْنَ إلى بعضِ»[٢].

ولن تجد مع كثرة الغبار إلا قَذى العيون!

... ...

والآن إذا أردت أيها القارئ العزيز أن تعرف سر هذا التردِّي في الكتابة، ومجافاة حُسن البيان، والإِعراض عن جمال العبارة؛ أعجزك أن تردَّه إلى سبب واحد أو سببين اثنين، وإنما هي أسبابٌ كثيرةٌ تداخلَت وتشابَكت.. وسيأتيك حديثها ـ إن شاء الله ـ في المقال التالي.

---

(١) الـمُسْتراد، والـمَراد: الموضع الذي يُذهَب فيه ويُجاء.

(٢) من قصيدة عجيبةٍ يمدح فيها «الـحِقْد»! وصدر البيت:

وما الحِقْدُ إلا تَـوءَمُ الشُّكرِ في الفتَى

البيان.. والطريق المهجور(١)

(٢)

وقفت في المقال السابق عند أسباب التردِّي في الكتابة ومجافاة حسن البيان وجمال العبارة. وقلت إن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة، أرجأت الحديث عنها إلى هذا المقال.

[حُسْن البيان قيمةٌ جماليةٌ لا تتقادَم!]

وبَدْءةَ ذي بَدْء.. لا أحب لك أيها القارئ العزيز أن تقول كما يقولون: إنها طبيعة العصر، وسرعة إيقاع الحياة، لا يدعان للكاتب فرصة لأن يحسن ويزين ويتأنق. كما أني لا أرضى لك أيها الشاب المبتدئ أن تصدق ما يقولونه من أن لغتنا العربية هي «لغة الخيل والليل والبيداء»، وأن زمانها قد راح وولَّى، وأن هذا عصر الكمبيوتر، فافْسَحوا له الطريق!

لا أحب هذا لقارئي ولا أرضاه له.

وذلك؛ لأن حُسن البيان قيمة جمالية، والقِيَم الجمالية باقية ثابتة، لا تتغير بتغير الأيام وتبدل الأحوال. والفِطَرُ السَّويــَّة تطرَب للكلمة الحلوة، كما تطرَب لـهَديل الـحَمام، وزَقْزقة العصافير، وحَفيف الشجر في ليلة طيبة الهواء. والعطر الفَوَّاح

---

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة الهلال المصرية: ذوالقَعْدة ١٤١٦ هـ - إبريل ١٩٩٥م.
ثم جُمع في: مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي، القسم الأول، ص ٣٥٥ : ٣٦٤ .

ينعشك سواءٌ ركبتَ جملاً أو طائرة! ولا زلنا، مع تغير الأصوات وتحولات الموسيقى، نستقبل رمضان بأغنية أحمد عبدالقادر «وَحَوِي يا وَحَوِي»، كما نستقبل العيد بشَدو أم كُلثوم «يا ليلة العيدْ أنِسْتينا» و«حبيبي يِسْعِدْ أوقاته» (وإن كانت هذه قد قيلت في عيد جلوس فاروق ملك مصر).

ولا أظن أنه سيأتي يومٌ لا يطرب الناس فيه لصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وأم كُلثوم ومحمد عبدالوهاب. إن الأنغام متوارثةٌ في الأنفس، والجمال مَصونٌ في تلافيف القلوب، والطرب مَركوزٌ في الطباع.. فلا يخدعنك عن الحق غلَبَةُ الباطل، ولا يزهدنك في الطَـيِّب كثرةُ الخبيث!

[أسبابٌ خمسةٌ لمحنتنا فيما نكتب ونقول]

ثم أعود بك أيها القارئ الكريم إلى أسباب محنتنا فيما نكتب وفيما نقول.

وقد جمعت لك أسباباً شتَّى، ولعلك جامعٌ إليها أسباباً أخرى بصائب نظرك، وحسن تأتِّيك إلى ما لم أهتد اليه..

أولاً: ذهاب الكبار بالموت، أو بالملَل، أو بالمصانعة.

والموت لا مَردَّ له ولا حيلة فيه، وبموت الكبار يضيع الصغار ويذهب العلم.. أخرج البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله لا يَقْبِضُ العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكنْ يَقْبِضُ العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً؛ اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً.. فسُئلوا؛ فأفتَوْا بغير علم؛ فضَلُّو وأضلُّوا» (صحيح البخاري، باب كيف يُـقبض العلم، من كتاب العلم: ١/ ٣٦).

أما المَلَل؛ فهو من كواذب الأخلاق، كما جاء عن عمرو بن العاص[١] ـ رضي الله عنه ـ على أن بعض كبار أدبائنا معذورون فيما دُفعوا إليه من الملل؛ لِما يرونه من فساد لم ينشأوا عليه، ولِما حاق بهم من أذًى أُضيروا[٢] منه.

وأما المصانعة؛ فهي داءٌ خبيث، لا مَعذِرةَ له، ولا مسامحةَ فيه. وبالمصانعة هذه خاض بعض كبارنا فيما يهزَل به مدَّعو الأدب والحداثة، وكأن هؤلاء الكبار خشَوا على أنفسهم آفةَ النسيان، وأرادوا أن يكونوا ظاهرين في الأرض، وكأنهم يقولون: لَأنْ نكون في جَلَبة الأضواء خيرٌ من أن نكون في صمت الظلام! وهم يعلمون في دَخيلة أنفسهم أن هذه الأضواء خادعة، وأن مَدَّها منقطع؛ لأن «مُولِّدها» ضعيف! ولا ينقضي عجبي من بعض هؤلاء الكبار (وهم من تلاميذ طه حسين، وأمين الخولي، وأحمد أمين، ومصطفى السقَّا، وإبراهيم أنيس.. وبقية هذا الجيل العظيم).. كيف يسكتون على هذا العبث؟! بل.. كيف يتعاملون معه ويحضرونه ويقدِّمونه، بل ويدافعون عنه ـ؟! وهم يعلمون باليقين، الذي لا يدخله شكٌّ، أنه لا طائل تحته ولا غَناء فيه!

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٧.

(٢) نبهني الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله إلى أن الوجه هنا: «ضِيرْوا»؛ لأنها من «ضار»، لا «أضار».

هذا.. ولم أجد الفعل الرباعي «أضار» فيما بحثتُ فيه من معاجم، غير أني وجدتُه في قليل من الشعر والنثر، وأقدم شعرٍ وجدتُ فيه الرباعي هذا (لازماً، غير متعدٍّ) قولُ أبي ذُؤَيْبٍ الـهُذَلي في قصيدة جيدة (**الشعر والشعراء**، ٢/ ٦٥٦):

خليلي الذي دلَّى لِغَـيٍّ خليلتي   جِهاراً! وكُلًّا قد أضار عُرُورُها!

ورواية البيت ذاتِه في **شرح ديوان الـهُذَليين** (١/ ٢٠٩): «فكُلًّا قد أصاب عُرُورُها!». وليست ثمة إشارةٌ إلى رواية **الشعر والشعراء**.

كما وجدتُه، بتشديد الراء، في حديثٍ شريف: «من أضارَّ مسلماً؛ ضَرَّ الله به» (رواه أبوبكر الخرائطي بإسناده، في **مساوئ الأخلاق ومذمومها**، تحقيق مصطفى الشلبي، مكتبة السوادي/ جدة، ط ١/ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م، ١/ ٣٤).

ثانياً: قلة المحصول اللغوي عند الكُتَّاب.

والقلة تُغري بالقلة، والفقر يقود إلى الفقر (وهذا كلام موزون وقع لي اتفاقاً من غير قصد كما ترى!). ولو تأملت ما يكتبه كثير من الأدباء الآن؛ لوجدته يدور حول طائفة محدودة من أبنية الأسماء والأفعال والحروف، مع العجز عن تحريكها والتصرف فيها وَفْق قوانين العربية التي حدثتُك عنها في المقال السابق، وإنما هي أبنية وأدوات تُرَصُّ رَصًّا، بلا دَم ولا رُوح، وكأنها الدُّمَى! وكأن ذلك الأديب يكتب بلغة أجنبية ليس له بها أُنس، ولا يَشُدُّه إليها تاريخ وموروث!

وليس يخفى أن قلة المحصول اللغوي، والعجز عن التصرف في الكلام، إنما يرجعان إلى قلة القراءة وضعف الزاد. فالأديب لكي يكتب أدباً عالياً جميلاً لابد أن يكون على صلة لا تنقطع بالقراءة، وأن يجعل من يومه نصيباً مفروضاً للمراجعة والاستزادة، فـ«الإبداع» ـ كما يقال في هذه الأيام! ـ لابد له من مدد، والمدد ليس له إلا طريق واحد، هو القراءة الرشيدة المستمرة، ثم التأمل.

وتقرأ في كتب التراجم والطبقات أن العالم الفلاني صنف الكتاب الفلاني بعد أن قرأ له كذا كتاباً! فالصالحي الشامي (المتوفى سنة ٩٤٢) يذكر أنه ألف كتابه **سُبُل الهُدَى والرشاد في سيرة خير العباد** من أكثر من ثلاثمائة كتاب. وروى عن إمام الحرمين الجويني (المتوفى سنة ٤٧٨) أنه قال: «ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبي بكر وحده اثني عشر ألف ورقة»! (**طبقات الشافعية الكبرى**، لابن السبكي، ٥/ ١٨٥). وأبوبكر في هذا النص هو محمد بن الطيب الباقلاني، من كبار المتكلمين الأشاعرة، وصاحب **إعجاز القرآن**. فهذا أثر القاضي أبي بكر وحده في محفوظ إمام الحرمين، فكيف يكون أثر العلماء الآخرين؟!

لكن الملاحظ والمشاهد الآن أن الأدباء يتكلمون أكثر مما يقرؤون، وأن ما تقرؤه من مصطلحات في القصة والرواية والشعر والنقد، إنما هي مسموعات، تتردد في

الندوات، يتلقفها بعضٌ من بعض! ولا خير في ذلك كله، فقد قال ابن قيم الجوزية: «من لم تنفعه عينه؛ لم تنفعه أذنه!».

[مغالطاتٌ واهيةٌ لتسويغ العجز البياني!]

ثالثاً: تسويغ العجز.. باصطناع نظريات تمهد له وتسانده.

وفي ذلك الطريق جاءت مغالطاتٌ شتَّى، وجاء خداعٌ كثير..

فقيل مثلاً: إن العناية بتحسين العبارة أصباغٌ وزخارف، وإنها تكون على حساب المعاني والأفكار، وإن التفكير والموضوعية يأبيانِ الزخارفَ والأصباغ، وإن غايتهما الحقائقُ ليس غير. وقد تبع ذلك التفرقةُ بين «الأسلوب الأدبي» و«الأسلوب العلمي»، تفرقةً تُفضي في نهاية الأمر إلى التهوين من الأسلوب الأدبي، ووصفُ من يُحْسن البيان بأن كلامه «كلام إنشاء»، وقولُهم في سياق المدح: إن فلاناً يكتب كما يتكلم![1].

وقيل أيضاً: لا ينبغي التعامل بالكلام المأثور، حتى لا يجد القارئ نفسه يتعامل في المنزل والشارع بلغة، وفي الكتاب بلغة الشعر الجاهلي، وإننا يجب أن نصطنع لغة تقرب الفجوة بين الشارع والكتاب. وهذا كلام غير صحيح، فضلاً عما فيه من لعب وخداع؛ لأن هذه الفجوة لابد أن تكون قائمة وثابتة، ففي كل لغات الدنيا فرق بين لغة العامة ولغة الخاصة (وانظر مقالتي عن «الشيخ الشعراوي واللغة»[2]، وتقديمي

---

(١) في **دفاعٌ عن البلاغة** لأمير البيان أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ مرافعاتٌ قويةُ المعنى بليغةُ المبنى، انتصاراً للأساليب البلاغية، ودَحراً لوباء الكتابة الرديئة والأساليب الـمَسِيْخة، التي تزايدتْ وتباجَحتْ بعد «انقلاب يوليو» ١٩٥٢م بمصر.

(٢) نُشرتْ بمجلة **الهلال** المصرية، شعبان ١٤١٤ هـ ـ فبراير ١٩٩٤م. ثم جمعت في: **مقالات العَلاَّمَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٢٨٠ : ٢٩٢.

لكتاب الأستاذ محمود رؤوف أبوسعدة من **إعجاز القرآن**»[(١)]).

وقيل أيضاً: إن أحسن الأساليب هو ما لا يحتاج معه القارئ إلى مراجعة معجم. وهذا مما يفتتن به الشباب المبتدئون.. والكلام مقلوب، والقضية معكوسة! فإننا إذا لم نراجع لبعض ما نكتب شيئاً من المعاجم؛ فإننا نكون قد وقعنا في حَمْأة[(٢)] العامية والكلام السُّوقي، واستوى في ذلك عالِمُنا وجاهلُنا! ولماذا كانت المعاجم؟! ولأي غاية وضعت؟!

ـ حُسْن البيان [بين «المحسِّنات اللفظية» و«تحسين العبارة»]

ولقد كان من أشنع الخطأ هنا وأغلظه الخلط بين «المحسِّنات اللفظية» و«تحسين العبارة».. وبينهما فرقٌ لا يخفَى! فالمحسِّنات اللفظية هي أنماط تعبيرية محصورة في قواعد محددة بشواهد معينة. أما تحسين العبارة، الذي هو البيان؛ فمجاله واسعٌ رَحْب، وهو قائم على أسباب كثيرة.. من الغِنى اللغوي، واختيار الأبنية الشاعرة المتجانسة، من الأسماء والأفعال والأدوات، وإحكام بناء الـجُمَل وحُسن تنسيقها، وإشاعة الأُلفة بينها، وقدرة الكاتب في ذلك كله على أن ينشىء علاقة أُنس بين قارئه وبين ما يكتب. إن الكاتب المبين يجعلنا نحب بعض الكلمات ونعشقها! ترى هذا في أسلوب الجاحظ، وأبي حيان التوحيدي (إذا نَسي مشاكله النفسية!)، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمود محمد شاكر.

---

(١) نُشرتْ بمجلة **الهلال** المصرية، رجب ١٤١٤ هـ ـ يناير ١٩٩٤م. ونشرت في صدر كتاب من **إعجاز القرآن: العلَم الأعجمي في القرآن مفسَّراً بالقران.. وجهٌ في إعجاز القرآن جديد**، رؤوف أبوسعدة (هكذا على غلاف الكتاب.. دون «محمود» في أوله)، دار الهلال/ القاهرة، ط ١، د. ت، ١/ ٣ : ٢١. ثم جمعت في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٢٧٠ : ٢٧٩.

(٢) الحَمْأة (بتسكين الميم وتحريكها، وقيل: لا يُعرَف التحريك): الطين الأسود الـمُنْتِن، والجمع: حَمَأ.

وحُسن البيان لا يمنع من الإلمام بهذه المحسِّنات اللفظية إذا جرت على قلم الكاتب في حاقِّ موضعها غيرَ مُتكلَّفة ولا مُستكرَهة.

على أن هذه المحسِّنات اللفظية ليست سيئة السمعة، على نحو ما يلقيه بعض أساتذة البلاغة على طلبتهم، وأنها قائمة على التكلُّف والتزييف! إن المحسِّنات اللفظية باب ضخم من أبواب الجمال في البيان العربي، وما يجيء منها متكلَّفاً يعاب ويذم، كما يعاب التكلُّفُ في كل شيء ويُذَمّ. وكيف تعاب المحسِّنات اللفظية جملةً، وقد جاء منها في كلام ربنا ـ عزَّ وجلّ ـ وكلام نبيه ـ ﷺ ـ وكلام العرب وأشعارها، قَدْرٌ صالح؟! ألم تقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقوله ـ تباركت أسماؤه ـ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، ثم انظر **المجازات النبوية** للشريف الرَّضِيّ، وشعرَ أبي تمام على وجه الخصوص.

إن كثيراً من شواهد التورية والجناس تحدث إمتاعاً للنفس لا مزيد عليه، فضلاً عما يستخرجه بعضها من أسباب الضحك والبهجة، وكثير من نِكاتنا المصرية تجري على هذا الباب، ولولا الجِدُّ الذي نحن فيه لأمتعتك بشيء منها!

وكأن هذه السمعة السيئة للمحسِّنات اللفظية قد استقرت عند بعض الناس.. وهذا هو البلاء العظيم! فقد سمعت أحد الأساتذة في محاضرة له، وقد جاء على لسانه شيء من هذه المحسِّنات، فغمغم بعض الجالسين، فقطع المحاضر كلامه كالملسوع وقال: «لا والله.. دي جَتْ كده، غَصبْ عني!».. وكأنه يَـبْـرأ من عيب يخشى أن يلحق به عاره!

وأقرأ لبعض النقَّاد، وأسمع لبعضهم فيما يذاع من ندواتهم، تنفيراً شديداً من هذا اللون الأدبي، وتحذيرا للشباب منه.. فلا أملك إلا أن أتلو قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، و[الحديد: ٢٤].

رابعاً: اقترن بتسويغ العجز عن جمال البيان السُّخْرِيَةُ منه والإِزراءُ بقائله.. على ما قال ـ تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، أو كما قال أبوعلي الفارسي: «من عَـرَف؛ أَلِف، ومن جهل؛ استوحش!» (**الأشباه والنظائر النحوية**، للسيوطي، ٣/ ٤٦٤).

[بعض أساتذة العربية في مُقَدَّم الساخرين!]

ومن أعجب العجب أن أكثر من يسخرون من البيان الآن هم بعض أساتذة العربية الذين يدرِّسونها في الجامعات (نحواً وأدباً وبلاغةً)! وأرجو من قارئي العزيز أن يأذن لي مرة واحدة ـ إن شاء الله ـ بذكر بعض التجارب الخاصة، واستعمال ضمير المتكلم!

ـ بين الدُّعابة والسُّخْرِيَة

لي صديقانِ، أحدهما طبيب والآخر صيدلي، يحبانِ الأدب حبًّا جمًّا، ويحرصانِ على قراءة ما أكتب، ويطربانِ جدًّا لما أجتهد فيه من ضروب البيان وتحسين العبارة.. وعلى الجانب الآخر يقرأ بعض زملائي من أساتذة العربية هذا الذي أكتب، فيداعبونني بمثل قولهم: «إيه الكلام ده؟ إيه الأساليب دي؟ ألفاظك كلها كَلاكيع!».. وأعلم يقيناً أنه لولا المحبة؛ لاستحالت هذه الدعابة سُخْرِيَةً لاذِعةً، وإزراءً شديداً!

ودُعيت منذ خمس سنوات إلى ندوة عن «مستقبل التعليم في مصر» (أقامها، مشكوراً مأجوراً، نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسيوط)، وقدمت بحثاً عنوانه: «استثمار التراث في تدريس النحو العربي»[1]، قدمت له بمقدمة أَدرتُها على شئ من البيان فتح الله به عليّ فتحاً، وقد طرب له كثير من الحاضرين، وكان أكثرهم من

---

(١) تجده في هذا الكتاب فيما يلي، القسم الثاني، ص ١٨٣: ٢٦٥.

الشباب المعيدين والمدرسين المساعدين بكليات الطب والهندسة والعلوم والتجارة، وأخذ هؤلاء الشباب يلاحقونني فيما بين الجلسات، يطلبون المشورة والدلالة على كتب العربية التي يقرؤون فيها مثل هذا الكلام الذي جرى على لساني.

أما أساتذة العربية الذين حضروا الندوة، ومنهم كبار في السن والدرجة؛ فقد سخِروا مني سُخْرِيَةً شديدة، أعلنوها ولم يكتموها! وكان بعضهم يناديني هكذا: «تعال يا بْتاع التراث»، «قول يا بْتاع التراث»، «ازيّك يا بْتاع التراث»! (لكني أشهد في تلك الأيام أن الأستاذ الدكتور حامد عمار ـ وكنت قد اختلفت معه في هذه الندوة قال لي ونحن في القطار من أسيوط إلى القاهرة بالحرف الواحد: «يا أستاذ.. اثْبُت على ما أنت عليه، فإني سعيد أن أرى إنساناً يتحدث عن لغته وتراثه بهذه الحماسة»، وهذا إنصاف من الرجل، وهو شأن الكبار. أما الصغار؛ فما أجرأهم على لغتهم وعلى تاريخهم!).

ومهما يكن من أمر.. فإنه من العار أن يذم الناس مذهبهم، ويهجِّنوا[1] طريقهم! هل تعرف طبيباً يَـذُمُّ مهنة الطب؟! وهل تجد مهندساً يحتقر حِـرْفة الهندسة؟! قد يشكوان إرهاقاً أو أعباءً، أما أن يكون ذمٌّ ومَعابةٌ؛ فلا.

وقد انتقلت سُخْـرِيَةُ الأساتذة إلى تلاميذهم من معلِّمي العربية في مدارسنا الآن.. سأل مدرس اللغة العربية التلاميذ في الثانوية العامة عن مرادف لعبارة «رغْـد العيش» فأجاب ابني: «بُلَهْنِية».. فضحك المدرس ضحكة عالية وسخر منه قائلاً: «إيه يا خُويَه؟».. وحمدت الله أن وقف المدرس العابث بالسُّخْـرِيَة عند هذا الحد، فإن لهذا التركيب الذي نطق به ذلك المدرس تكملةً سوقيةً يعرفها أهل السُّخْـرِيَة، ولعله قالها وكتمها ابني عني!

(١) الـهُـجْنة: العيب والإضاعة.

أرأيت أيها القارئ العزيز؟ إنه أمر محير فعلاً، وهو يحتاج إلى محلِّل نفسي لا إلى كاتب مثلي!

خامساً: الكسل والإخلاد إلى الراحة.

أعرف نفراً من زملائي الجامعيين، أعرف نشأتهم العربية الأصيلة، وأقرأ لبعضهم شعراً عذبَ النَّغْم، فصيحَ الأداء، آسِرَ النَّغْمة، وأحاورهم فأقع منهم على كل لَطيفة ودَقيقة من الفِطنة والقول الـحَسن.. ولكنهم إذا كتبوا؛ قرأتَ كلاماً خفيفاً يخدعك عن حقيقة أمرهم وما عندهم من العلم والأدب! ولا تفسير لذلك عندي إلا الكسلُ وطلبُ الخِفَّة.. و«طلب الخِفَّة» مطلب نحوي، ولكنه لا يُحمَد في الأدب والبيان!

[إهمالُ البيانِ والتأنُّـقِ يؤدي إلى هَجْر كثير من أبواب النحو]

ويبقى أن أقول: إن إهمال البيانِ والتأنُّـقِ في الكلام وتحسينِ العبارة قد أدى إلى هجر كثير من أبواب النحو، وقلة استعمال بعضها في كتابات الكاتبين الآن، مثل «البدل»، وبخاصة «بدل البعض» و«بدل الاشتمال»، و«كان التامة» في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، و«كان الزائدة» في نحو: «ما كان أغناك عن هذا!»، وقول قُتَيْلَة بنت النَّـضْر بن الحارث[1]، تخاطب رسول الله ﷺ:

---

(١) الصحابية الشاعرة، أسلمت بعد معركة بدرٍ، التي قُتل بعدها في الأُثَـيْـل صَبْراً، بأمر النبي ـ ﷺ، النضرُ بن الحارث (مع عُقْبة بن أبي مُعَيط، وطُعَيمة بن عَديّ)، وفي بكائه قالت ـ قبل إسلامها ـ قطعةَ هذا البيت العالية، وهي من مختارات أبي تمام في **حماسته**.

وفي تعيين أبي قُتَيْلَة، وقرابة قتيل بدرٍ منها، خلافٌ.. أهي قُتيلة بنت النضر بن الحارث، والقتيلُ المبكيُّ أبوها؟ أم هي قُتيلة بنت الحارث بن النضر، والقتيلُ المبكيُّ أخوها؟

وبعد مراجعة عدد كبير من المصادر، يميل المرءُ إلى ترجيح الثاني، وهو الذي تذكره أقدم المصادر التي رجعتُ إليها، وهي **سيرة ابن إسحاق** (ت ١٥١ هـ)، **وشرحها** لابن هشام (ت ٢١٣هـ)، وتوافقه روايةُ البيهقي بإسناده إلى محمد بن إسحاق صاحب **السيرة**. =

ما كان ضَرَّكَ لو مننتَ! وربما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ!

و«اسمِ الفاعل» و«اسم المفعول» العاملينِ في التركيب، و«المصدرِ الميميِّ» و«المصدر المؤوَّل»، وبعض جموع التكسير الفصيحة، وزيادة الباء في خبر «ليس» وفي خبر «ما».. مع كثرة ذلك في القرآن وكلام الفصحاء، ولا يزال ذلك يجري على ألسنة الناس في الخطاب اليومي في السعودية والكويت، يقولون: «ما أنا بمبطيء عليك»، و: «ما أنا بناسي كلامك».

ومما أهمل أيضاً «المفعول المطلق» المؤكِّد للفعل، فأنت لا تكاد تقرأ لكاتب يقول: «كلَّمته كلاماً»، من غير أن يضيف إليه وصفاً، فيقول: «كلاماً شديداً» ونحوه.. مع مجيء ذلك بكثرة في الفصيح، ومنه قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]. ومن الغريب أن هذا المفعول المطلق مستعمل بكثرة في عاميتنا المصرية.. تقول: «أكلت أَكْل!»، «شِربت شُرْب!»، «نِـمت نوم!»، «الأهلي لِعِب لِعْب!»(١).

= فائدة: قال ابن هشام في شرح السيرة: «ويقال، والله أعلم، إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما بلغه هذا الشعر؛ قال: «لو بلغني هذا قبل قتله؛ لمننتُ عليه»، وفي روايةٍ: أنها اعترضت النبيَّ ـ ﷺ ـ بهذه الأبيات أثناء طوافه (في عمرة القضاء، أم في حجة الوداع؟)؛ فـرَقَّ لها ـ ﷺ ـ، وبكى حتى اخضلَّت لحيته الشريفة. وقال ابن الملقِّن في **غاية مأمول الراغب**: «قوله: «لو سمعتُ؛ ما قتلتُه» لم يثبت لنا بإسناد صحيح».

والألباني، في **إرواء الغليل** (المكتب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م، ٥/ ٣٩، ٤٠)، يُضعِّف القصةَ كلها، قائلاً: «لم أجد لهذه القصة إسناداً تقوم به الحجة، على شهرتها في كتب السيرة».

فائدة ثانية: ورد في بعض المصادر أن قُتَيْلَة هذه هي أم السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهم ـ. والتحقيق ـ والله أعلم ـ أن أم السيدة أسماء هي قُتَيْلَة بنت عبدالعُزَّى من بني مالك بن حَسَل. وهي ليست أمَّ السيدة عائشة بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ.

فائدة ثالثة: انفرد ـ كما يقول عبدالسلام هارون ـ الجاحظ، في حاشية **البيان والتبيين** (٤/ ٤٣)، بنسبة الأبيات إلى ليلى بنت النضر. وذكر هذا ابنُ حجر في **الإصابة** (نشرة عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجَر/ القاهرة، ط ١/ ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م، ١٤/ ١٣٣)، دون أن يتعقبه. والظاهر أن تسمية الجاحظ صاحبةَ الأبيات «ليلى» خطأٌ منه، أو من النُّسَّاخ؛ إذ لم يُسبَق إليه ولم يُلحَق فيما وقفتُ عليه! والله أعلم.

(١) من طريف ما يُذكَر هنا، بمناسبة هذا المثال الأخير.. أن الطناحي كان «أهلاويًّا» (نسبةً لـ«النادي =

ومن ذلك باب تعدِّي الأفعال بنفسها أو بحرف الجر، مثل: «شكرته» و«شكرت له»، و«نصحته» و«نصحت له».. فلا يكاد الكتاب يستعملون إلا الأول... إلى أبواب نحوية أخرى كثيرة أُهملت وعُطِّلت.

على أن من أبواب النحو التي كادت تختفي الآن تماماً باب التوكيد الفظي، (وهو إعادة الكلمة بلفظها)، والاستغناء عنه بالتوكيد المعنوي (وهو التوكيد بالنفس، أو بالعين، أو بـ«كل» و«جميع»).. مع أن التوكيد اللفظي أوسع مجالاً من التوكيد المعنوي، كما قال علَمُ الدين اللَوْرَقيُّ الأندلسي (المتوفى سنة ٦١١).. قال: «...لأنه يدخل في المفردات الثلاث (يعني الاسم والفعل والحرف)، وفي الـجُمَل، ولا يتقيد بمُظهَر أو مُضْمَر، معرفةٍ أو نكرة. بل يجوز مطلقاً» (**الأشباه والنظائر النحوية، ٢/ ٢٢٩**).

ولعل الذي زهَّد الناس في أيامنا في استعمال التوكيد اللفظي، هو ما تلقَّوه في دراسة النحو، من مثل: «جاء جاء محمد»، أو «جاء محمد محمد».. وهذه أمثلة تعليمية، وفي مثل هذا يقول سِيبَـوَيْــه كثيراً[(١)]: «وهو تمثيل.. ولا يُتكلَّم به»، ويقول ابن جِنِّي: «التمثيل للصناعة، ليس ببناء معتمد» (**الخصائص، ٣/ ٩٧**). ولو التمس معلِّمو النحو أمثلة التوكيد اللفظي من الكلام الفصيح؛ لوجدوا منه أمثلةً ذواتِ عددٍ تغري باستعماله واعتياده، من نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، ومن نحو قول عُروة بن أُذَينة:

= الأهلي» المصري.. الأوسع شعبيةً) متعصِّباً. وكان أبوفهر «زَمَلْكاويًّا» (نسبةً لـ«نادي الزمالك» المصري.. «النخبوي» شيئاً ما) متعصِّباً أيضاً. وكانت بينهما مناوشاتٌ لطيفة في أمور الكرة ومبارياتها، مما يحصُل بين الأصحاب المقرَّبين. وكانا يعيدان ترتيب أمورهما ومواعيدهما وفقاً لمواقيت المباريات المهمة لفريقيهما. وكانا لا يردَّانِ على أحدٍ أثناء مثل هذه المباريات! رحمهما الله وأحسن إليهما. حدثني بهذا د. محمد محمود الطناحي و د. فهر محمود شاكر.. كلٌّ على حِدَة.

(١) انظر مثلاً: **الكتاب**، ١/ ٨٣، ٣١٢، و: ٢/ ٩٢، و: ٣/ ٢٨.

لقد علمتُ، وما الإشرافُ من خُلُقي | أن الذي هو رزقي سوف يأتيني [١]
أسعى لـه.. فيُعَنِّيني تطلُّبُه | ولو قعدتُ؛ أتاني لا يُعَنِّيني
وكلُّ حظِّ امرئٍ دوني؛ سيأخذُه | لا بُدَّ، لا بُدَّ، أن يحتازَه دوني

ولعدم إلْفِ الناس الآن لهذا التوكيد اللفظي يظن بعض من يقع إليه شيء منه أنه من باب التَّكرار الخاطئ! كتبت مرة مقالاً بإحدى المجلات، وكنت قد كتبت فيه هذه العبارة: «والكلام هنا طويل طويل».. وحين قرأته مطبوعاً وجدت «طويل» مرة واحدة، فأيقنت أن الأخ مصفِّف الحروف حذف الثانية؛ لأنه ظنها تَكراراً مني من باب السهو! وعذره في ذلك واضح؛ لأنه لم يتعود مثل هذا التوكيد اللفظي فيما يقدَّم له من كتابات. وعلى ذلك.. فإنني أنصح من يستعمل التوكيد اللفظي أن يستعمل اللفظ ثلاث مرات، لا مرتين؛ فإن ذلك أبعد من مَظِنَّة التَّكرار وأنفَى للَّبْس!

[أسوأ الحِقَب التي مرت بها العربية والبيان العربي!]

وبعد..

فإني أخشى أن تكون هذه الحِقْبة التي نعيشها هي أسوأ الحِقَب التي مرت بها العربية والبيان العربي! فإن اللغات تنتعش أو تَذوي باحترام أهلها لها وممارستهم لها، وما أظن لغتنا العربية فيما يسمونه ـ خطأً وتسرُّعاً ـ بـ«عصور الانحطاط الأدبي» (وهو العصر العثماني).. لا أظنها في تلك الأيام إلا أحسنَ حالاً، وأجملَ بياناً مما هي عليه الآن!

---

(١) رواية **الأغاني** و**منتهى الطلب** و**الحماسة البصرية** وغيرها من الأمهات: «وما الإسرافُ» بالمهملة، وهي رواية **ديوان عروة بن أُذَينة** (نشرة د. يحيى الجبوري، دار القلم/ الكويت، ط ٢/ ١٩٨١، ص ١١٦). ولم يشر جامع **ديوان عروة**، الذي استله من **منتهى الطلَب**، إلى رواية «الإشراف»، وهي واردة في عدد من المصادر القديمة مثل **مجالس ثعلب** و**الفرج بعد الشدة** وغيرهما. وكلتا الروايتين صحيحة المعنى، ولعل رواية «الإشراف» أنسب بسياق القطعة.. والله أعلم.

والـرِّثاء كل الـرِّثاء لشباب هذه الأيام الذين يُخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرؤون وفيما يسمعون!

أما أنا وأنت، ومن يجري معنا في حب العربية والبيان العربي؛ فليس لنا إلا الصبرُ.. نعتصم به، ونفزع إليه، حتى يكشفَ الله الكُـرْبة، ويزيلَ الغُمَّة، ويردَّ الغُـرْبة:

ما في الصِّحاب أخو وَجْدٍ نُطارِحه   حديثَ نَجْدٍ، ولا صَبٌّ نُجَارِيه![1]

* * *

(١) ونسبه ابن الجوزي (ت ٥٧٩هـ) في **المدهش** (نسخة د. مروان قَبَّاني، دار الكتب العلمية/ بيروت، د. ط، د. ت، ص ١٥٢)، في قطعةٍ قصيرة، إلى معاصره الشاعر الرقيق الحاشية أبي الغنائم ابن المعلِّم الواسطي (٥٠١ ـ ٥٩٢هـ)، ورواه بصيغة الخطاب: «تطارحه»، و«تجاريه».

يقول عن ابن المعلِّم الواسطي الصَّفَديُّ في **الوافي بالوَفَيات** (٤/ ١١٩): «وكان ابن الجوزي يستشهد بشعره كثيراً في تصانيفه وعلى المنبر. وشعره ينفع الوُعَّاظ؛ لأن الغالب عليه ذكرُ الصَّبابة والغَرام والشوق والارتياح؛ فلهذا خَفَّ على الأسماع، وراج على القلوب، وطَرِبت له النفوس».. وأقول: وهو كذلك فعلاً.. رحمه الله.

وأورده الذهبي، ضمن قطعةٍ قصيرة أيضاً، في ترجمته ابن المعلِّم في **تاريخ الإسلام ووفَيات المشاهير والأعلام** (نشرة عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط ١/ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ٤٢/ ١١٠، وأيضاً: نشرة بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، ١٢/ ٩٨٦)، ورواه بصيغة الإفراد: «أطارحه»، و«أجاريه».

وأكثر وروده في المصادر التاليةِ عصرَ الشاعر ابن المعلِّم منسوباً إلى الشيخ شهاب الدين أبي حفص السُّهْـرَوَرْدِيّ (ت ٦٣٢ هـ) ينشده في مجلس وعظه، في قصة مؤثرة.

النحوُ العربي.. والحِمَى المُستباح[١]

(١)

[عَودٌ على بَدءٍ مع الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي!]

من أمثال العرب الشائعة قولهم: «ذَكَّرْتَني الطَّعنَ وكنتُ ناسياً!»، ويضرب في الحديث يُستذكر به حديثٌ غيره، كما قال الزمخشري.

وقال أبوهلال العسكري: «يُضرب مثلاً للشيء ينساه الإنسان وهو محتاج إليه»[٢].

وقد ذكرتُ ذلك حين قرأتُ في جريدة **الأهرام** ٢٦/ ٦/ ١٩٩٦م مقالة للأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي، عنوانها: «حين يستوي الصمت والكلام»، وقد أعاد في هذه المقالة كلاماً قديماً عن اللغة والنحو، كان قد كتبه في **الأهرام** أيضاً بتاريخ ٤/ ٣/ ١٩٩٢م و٢٦/ ٨/ ١٩٩٢م، وكنت قد رددت عليه في عددين من **الهلال**[٣] (نوفمبر، ديسمبر ١٩٩٢م).

---

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة **الهلال** المصرية: ربيع الثاني ١٤١٧ هـ ـ سبتمبر ١٩٩٦م.
ثم جُمع في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الثاني، ص ٤٣٧:٤٥٢.

(٢) **جمهرة الأمثال**، أبوهلال العسكري، ضبطه: د. أحمد عبدالسلام، خرج أحاديثه: أبوهاجر محمد سعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م، ١/ ٣٧٦.

(٣) المقال الأول منهما «الكتب الصفراء.. والحضارة العربية» سبق في هذا الكتاب، ص٧٩: ١٠٦.

ويقول الأستاذ أحمد عبدالمعطي حجازي في كلمته الأخيرة هذه: «.. وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعاً، فجعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً كما يطالبنا النحاة به. والحقيقة أن هذا فهم بالغ السذاجة.. فاللغة ليست النحو، والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسَّة لُغوية يقِظة، بل ربما كانت بالعكس.. دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملَكة! هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهِلِّينية (أو السَّكَندرية)(1)، كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدها الأدب العربي في العصر المملوكي.. ففي ذلك العصر الذي تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام».

[النحو.. مَـلاكُ العربية وقِوامُها]

هكذا قال الأستاذ حجازي، وقد قرأت كلامه هذا أكثر من مرة، وأعطيته حظَّه

---

(١) يُعنى بـ«الهِلِّينية» الفترة الزمنية الممتدة من أرسطو إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، ودامت نحو ٣٠٠ سنة. وحضاريًّا يُشار بها إلى ولادة مجتمع دولي جديد، لعبت فيه اللغة والثقافة الإغريقية دوراً مهيمناً. وأساس الفلسفة الهِلِّينية كان قائماً على تعميق الأسئلة التي طرحها فلاسفة الإغريق الكبار (سقراط وأفلاطون وأرسطو). وانطلاقاً من علم الأخلاق (المشروع الفلسفي الأكثر أهمية في تاريخ الحضارة الهِلِّينية) نشأت أربعة تيارت فلسفية: «الكَلْبية»، و«الرِّواقية»، و«الإبيقورية»، و«الأفلاطونية الجديدة». وأبرز ما حدث في عصر الحضارة الهِلِّينية ذوبان الثقافات والعادات والتقاليد والأديان في بُوتَقة النمط الإغريقي، فيما يمكن تسميته بـ«ثقافة الهيمنة»، وإلغاء الحدود أمام كل شيء.. من الدين، حتى الفن والتجارة!

انظر: **عالم صوفي: رواية حول تاريخ الفلسفة**، جوستاين غاردر، ترجمة حياة الحويك عطية، دار الـمُنَى/ الأردن، د. ط، د. ت، ص ١٣٨:١٤١.

من النظر والتأمل، ثم قلَّبته ظهراً لبطن، والتمست لكاتبه المعذرة؛ فما استقام على وجه! ولا كشف عن جديد مما يكتبه الأستاذ حجازي، وما يكتبه غيره الآن عن النحو.. هذا العلم الذي هو مَـلاكُ العربية وقِوامُها[1]، والذي يقول عنه أبوالعباس ثعلب أحد أئمة العربية في القرن الثالث: «لا يصح الشعر، ولا الغريب، ولا القرآن، إلا بالنحو.. النحو ميزانُ هذا كله» («مجالس ثعلب»، ص٣١٠).

وكان ينبغي على أبي العباس ثعلب أن يضيف: «ولا الفقه»! فقد قال أبوبكر الشَّنْـتَـرِينيُّ من علماء القرن السادس: «.. ولقد رأيت جماعة من الفقهاء المتقدمين الذين لم يبلغوا درجة المجتهدين قد تكلموا في مسائل من الفقه فأخطأوا فيها، وليس ذلك لقصور أفهامهم، ولا لقلَّة محفوظاتهم، ولكن.. لضعفهم في هذا العلم (يعني علم النحو) وعدم استقلالهم به!» (**تنبيه الألباب على فضائل الإعراب**، ص٦٣).

ـ كتاب سِيبَـوَيْــه والقياس

ورُوي أن أباعمر الـجَرْميَّ (من نحاة القرن الثالث) قال: «أنا مذ ثلاثون[2] سنة

---

(١) الـقِوام: نظام الأمر وعماده الذي يقوم به. وفيه لغةٌ بفتح القاف. وقد سبق ـ في حاشيةٍ ـ أن مَـلاك الأمر: قِوامه وصلاحه الذي يُعتمد عليه، وأن فيه لغةً بكسر الميم.

(٢) كذا بـ**الكتاب**، نشرة عبدالسلام هارون. والشائع في الاستخدام الدارج جرُّ ما بعد «مُذْ» و«مُنذُ»، لا رفعُه. وإذ قد يُشكِل الرفعُ على بعض القراء؛ ألخِّص ما قال أهل حروف المعاني فيهما.

فلـ «مُذْ» و«مُنذُ» **ثلاثُ** أحوال:

١. أن يَلِيَهما اسمٌ مجرور (على ما هو الشائع، وكما ستأتي رواية ياقوت الحموي هذا النصَّ ذاتَه في **معجم الأدباء**)؛ فهما حرفا جرٍّ على الصحيح، أو ظرفانِ مضافان.

٢. أن يَلِيَهما اسمٌ مرفوع (كما في هذا الموضع من النص)؛ فهما اسمانِ، وفي إعرابهما مذاهب، منها: أنهما مبتدآن وما بعدهما الخبر، أو ظرفانِ في موضع الخبر المقدَّم وما بعدهما المبتدأ.

٣. أن تَلِيَهما جملةٌ؛ فهما ظرفانِ مضافانِ إلى الجملة بعدهما، أو مبتدآنِ. =

أُفتي الناس في الفقه من كتاب سِيبَـوَيْــه»، فحدَّث ابن شُقَير بهذا الحديث المبرِّد، على سبيل التعجب والإنكار! فقال المبرِّد: «أنا سمعت الجَرْميَّ يقول هذا ـ وأومأ بيديه إلى أذنيه ـ.. وذلك أن أباعمر الجَرْميَّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سِيبَـوَيْــه؛ تفقه في الحديث؛ إذ كان كتاب سِيبَـوَيْــه يُتعلَّم منه النظرُ والتفتيش» (كتاب سِيبَـوَيْــه، ١/ ٥). وروى ياقوت هذا الخبر برواية أخرى: «قال الجَرْميُّ: أنا مذ ثلاثين سنة أُفتي الناس في الفقه من كتاب سِيبَـوَيْــه. فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا رجل مكثرٌ من الحديث، وكتاب سِيبَـوَيْــه يعلمني القياس، وأنا أقيس الحديث، وأُفتي به» (**معجم الأدباء**، ص١٤٤٣، طبعة د.إحسان عباس.. وهي أصح الطبعات).

هذا.. وقد روى الـزَّجَّاجي قصة تؤكد هذا الخبر، قال: «.. وكان أبوعمر الجَرْميُّ يوماً في مجلسه، وبحضرته جماعة من الفقهاء، فقال لهم: سلوني عما شئتم من الفقه، فإني أجيبكم على قياس النحو. فقالوا له: ما تقول في رجل سها في الصلاة، فسجد سجدتي السهو، فسها؟ فقال: لا شيء عليه. قالوا له: من أين قلت ذلك؟ قال: أخذته من باب الترخيم، لأن الـمُـرَخَّم لا يُرخَّم».

ورُويت هذه القصة أيضاً عن أبي زكريا الفرَّاء، بإجابة أخرى شبيهة بالسابقة، وذلك قوله: «أخذته من كتاب التصغير؛ لأن الاسم إذا صُغِّر لا يُصغَّر مرةً أخرى» (**مجالس العلماء**، للزجَّاجي، ص٢٥١، ٢٥٢).

= وللتفصيل .. انظر:

رَصْفُ المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبدالنور المالقيّ (ت ٧٠١هـ)، تحقيق أحمد محمد الخرَّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ط، د.ت، ص٣١٩:٣٢٢. و: **الجَنَى الداني في حروف المعاني**، الحسن بن قاسم الـمُرادي (ت ٧٤٩ هـ)، تحقيق فخرالدين قباوه ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٩٩٢م، ص٥٠٠:٥٠٤.

[الفقهاء والنحو]

ومما ينبغي التنبه له أن بعض علماء الفقه كانوا يلجأون إلى بعض علماء النحو؛ ليضبطوا لهم بعض مسائلهم الفقهية.. ومن ذلك ما ذكره السَّرَخْسيُّ صاحب كتاب **المبسوط**، في أثناء شرحه لكتاب **السير الكبير** لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة.. قال: «اعلم بأن أدق مسائل هذا الكتاب وألطفها في أبواب الأمان، فقد جمع بين دقائق علم النحو ودقائق أصول الفقه، وكان (أي محمد بن الحسن) يشاور فيها عليّ بن حمزة الكِسَائي ـ رحمه الله تعالى ـ.. فإنه كان ابنَ خالته، وكان مقدَّماً في علم النحو» (**شرح السير الكبير**، ١/ ٢٥٢).

وفي مكتبتنا العربية كتاب حاشد، يدور حول ربط الفقه بالنحو، هو كتاب: **الكوكب الدُّريُّ في تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية**(١) لجمال الدين الإسنوي (من علماء القرن الثامن).

ولا أظنني بحاجة إلى الاحتشاد والاستشهاد على سلطان النحو على سائر علوم العربية، ودَوَرانه في نسيج الثقافة العربية.. فهذا شيء مسطورٌ في الكتب، ومحفوظٌ في صدور الذين أُوتوا العلم. لكن.. لا بأس من الإشارة إلى بعض الأمثلة التي تؤكد سلطان النحو على اللغة وعلى الفكر والفن معاً. وهذه الأمثلة التي تأتيك أيها القارئ الكريم مما لا يتنبه له كثير من الناس؛ لأنها مطروحة في أخبار لا يقف الناس عندها كثيراً. حكى المسعودي قال: «وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفضيل صنعة الكلام (وهي الرسالة المعروفة بـ**الهاشمية**) أن الخليل بن أحمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الإيقاع وتراكيب الأصوات» (**مُرُوج الذهب**، ٤/ ٣٢٤).

---

(١) مطبوع بتحقيق د. محمد حسن عواد، دار عمَّار/ عمَّان، ط١/ ١٩٨٥م.

[النحوُ إبداعٌ]

أرأيت أيها القارئ العزيز، كيف قاد الإِحسان في النحو والعروض إلى الموسيقى؟! ولعل هذا خير تفسير لما قاله الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف، فيما نقله الدكتور محمد حماسة عبداللطيف في كتابه الجيد **النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي**.. يقول الدكتور مصطفى ناصف: «.. فالنحو ليس موضوعاً يحفِل به المشتغلون بالمثُل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأياً واحداً. النحو مَشغلةُ الفنانين والشعراء، والشعراء أو الفنانون هم الذين يهتمون بالنحو، أو هم الذين يبدعون بالنحو.. فالنحو إبداع»[1].

نعم.. النحو إبداع، ولا يعرف هذا إلا من قرأ القرآن الكريم قراءة تبصُّر وإحسان، ثم أطال النظر في كلام العرب: نثرها وشعرها، وصبَر نفسَه على قراءة الكتب والسِّير في دروبها، وحمَل تكاليف العلم وأعباءه.

ونعم.. إن في النحو مناطق فن وإبداع، فإذا أنت تركت «نحوَ الصَّنعة»، المتمثل في التعريفات والإِخراج بالمحترزات والحدود والقوالب والنظام والاطِّراد، وما تقتضيه القِسمة العقلية التي تفترض أشياءَ لا وجود لها؛ لاستواء الصنعة النحوية ليس غير، وسائرِ هذه الأمور التي جعلت أباسعيد السِّيرافيّ يقول: «النحو منطقٌ، ولكنه مسلوخٌ من العربية. والمنطق نحوٌ، ولكنه مفهومٌ باللغة» (**الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان** التوحيدي، ١/ ١١٥)..

أقول: إذا أنت تركت هذا كله، وجئت إلى «نحو التراكيب» و«بناء الجملة

(١) صدَّر د. حماسة كتابه هذا بكلمة د. ناصف العالية، وجعلها (في طبعة دار الشروق/ القاهرة، ٢٠٠٠م) في صفحة وحدَها؛ احتفاءً بها!

العربية»؛ وجدت ذلك النحو العربي الشامخ القائم على رعاية المعاني والدلالات، التي خرجت بالنحو من دائرة القوالب والنظام والاطِّراد، إلى العَلاقات بين أجزاء الكلام، وتلك المنادِحِ[1] الواسعة، من التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، والإضمار والفصل، والاتساع والحمل، والتضمين والجوار، والاستغناء، ورعاية الظاهر، واعتبار المحل، ومعاني الحروف والأدوات، ووقوع بعضها موقع بعض، وتبادل وظائف الأبنية، ثم.. لغة الشعر التي يسمونها «الضرائر».

ـ مقتضى المعنى وحقُّ الإعراب

وحين انفسحت هذه الآفاق أمام النحاة الأوائل.. فطِنوا إلى ما قد يكون من تعارض بين مقتضى المعنى وحق الإعراب، الذي هو أبرز شيء في الصَّنعة النحوية، فحاولوا الإبقاء على الصنعة والنظام، مع إعطاء المعاني والدلالات حقَّها. وكان أبوالفتح ابن جِنِّي أسبق النحاة إلى هذا التوفيق، وقد عالجه في غير موضع من كتبه، وفي مقدمتها كتابه الفذّ **الخصائص**، فعقد (في ص ٢٧٩ من الجزء الأول منه) باباً سمَّاه: «باب في الفرق بين تقدير الإِعراب وتفسير المعنى».. قال فيه: «ألا ترى إلى فرق ما بين تقدير الإِعراب وتفسير المعنى؟ فإذا مر بك شيء من هذا عن أصحابنا؛ فاحفظ نفسك منه، ولا تسترسل إليه. فإن أمكنك أن يكون تقدير الإِعراب على سَمْت تفسير المعنى؛ فهو ما لا غاية وراءه. وإن كان تقدير الإِعراب مخالفاً لتفسير المعنى؛ تقبَّلتَ تفسير المعنى على ما هو عليه، وصحَّحت طريق تقدير الإِعراب، حتى لا يشِذَّ شيءٌ منها عليك. وإياك أن تسترسلَ؛ فتفسدَ ما تؤثِر إصلاحه!».

---

(١) النَّدْح والنُّدح: الفُسْحة والسَّعة، وجمعها: أنداح. والمَنْدوحة: الفُسْحة والسَّعة أيضاً، وجمعها: مَناديح، وتُحذَف الياء جوازاً.

وقال في «باب تجاذب المعاني والإِعـراب» (**الخصائص**، ٣/ ٢٥٥): «هذا موضعٌ كان أبوعلي (الفارسي) رحمه الله يعتاده ويُلِمُّ كثيراً به، ويبعث على المراجعة له، وإلطاف[١] النظر فيه. وذلك.. أنك تجد، في كثير من المنثور والمنظوم، الإِعرابَ والمعنى متجاذبين: هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه. فمتى اعتورا[٢] كلاماً؛ أمسكتَ بعُروة المعنى، وارتحتَ لتصحيح الإعراب».

ثم كانت القفزة الثانية في ربط معاني الكلام ودلالته بالنحو على يد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في كتابه العظيم **دلائل الإِعجاز**، وكانت نظريته المعروفة في النَّظْم هي مَـجلَى ذلك الربط. وبتأمل هذه النظرية نستطيع أن ندرك أن المنهج العقلي المحكَم الذي سار عليه عبدالقاهر «هو الذي قاده إلى اعتماد «النحو التقعيدي» («نحوِ الصَّنعة») أساساً لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة، وما يمكن أن يتيحه هذا النحو من إمكانيات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية» (كما قال الدكتور محمد عبدالمطلب في كتابه **قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجاني**، ص٢٨٦).

ومما ينبغي التنبه له أن عبدالقاهر الجرجاني هذا مع شهرته الواسعة في البلاغة بكتابيه **دلائل الإعجاز** و**أسرار البلاغة**، يُعرف عند الأقدمين بعبدالقاهر النحوي.

فهذا النحو القائم على رعاية التراكيب والدلالات في الكلام العربي الملفوظ والمكتوب هو النحو الذي ينبغى معرفته وتأمله والاستكثار منه؛ لأنه بهذا المفهوم مَـلاكُ العربية وقِوامُها، بل إنه كان يعبر عنه أحياناً في القديم بـ«العربية».. حكى ابن جِنِّي عن أبي العباس ثعلب، قال: «.. وكان يعقوب (يعني ابن السِّكِّيت) وضيئاً عظيمَ الـخَلْق، وكان ذكيًّا حافظاً، عالماً بالشعر واللغة، صالحَ المعرفة بالعربية، وكان ابن

---

(١) يقال: أَلْطَف به في القول: قال قولًا لطيفاً. و: أَلْطَف له في المسألة: سأل سؤالًا لطيفاً.

(٢) أي تعارض دلالتي الإعراب والمعنى.

قادمٍ وغيرُه من أصحابنا يحتاجون إليه في الشعر واللغة، ويحتاج هو إليهم في العربية» (**الخاطِريات**، ص ١٩٨)، وكذلك عبَّر ابن خَلدون عن النحو بـ«علم العربية» (انظر: **مقدمة ابن خَلدون**، ص ٥٣٢)[١].

ـ [من سلطان النحو على اللغة:] وجهانِ للفعل الواحد

ومن الشواهد على سلطان النحو على اللغة ما ذكره أبوحيان التوحيدي.. قال: «سمعت في مجلس أبي سعيد (يعني السِّيرافيّ) شيخاً من أهل الأدب يقول: ومن الأفعال ما له وجهان، كشيء ينصرف على معنيين.. مثل: أصاب عبدُالله مالاً، وأصاب عبدَالله مالٌ.. إذا أصابه مالٌ من قِسمة. و: وافق زيدٌ حديثَنا.. إذا صادفهم يتحدثون، و: وافق زيداً حديثُنا.. إذا سره وأعجبه، و: أحرز زيدٌ سيفَه.. إذا صانه في غِمده، وأحرز زيداً سيفُه.. إذا خلَّصه من القتل وشَبَهه. ولو قلت: أحرز امرؤٌ أجلَه؛ لم يجز؛ لأن الرجل لا يحرز أجله، ولكنَّ أجلَه يُحرزه.. إلا أن تذهب إلى قولك: أحرزت أجَلي بالعمل الصالح».

ثم يقول أبوحيان: «انظر ـ فديتُك ـ إلى أثر النحو في هذا القدْر اليسير، وتعجبْ عنده من أبي حنيفة الصوفي[٢] حين قال لك: «إن الله عزَّ وجلّ أمرنا بالطاعة والإيمان، وإنه لم يأمرنا بالنحو! وإلا.. فهاتِ أنه يدل على أنه أمرنا بأن نتعلم «ضرب عبد الله زيداً»![٣]. وقد رأيت رَوَغانَه عن تحصيل الحجة في معرفة ذلك! ألا يعلم أن الكلام كالجسم والنحو كالحِلية، وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحُلَى القائمة

---

(١) وانظره في طبعة الشدَّادي، المعتمدة في تحرير هذا الكتاب: ٣/ ٢١٠، وأيضاً: ٣/ ٢٤٤.

(٢) هو علي بن الحسين بن علي (ت ٤٢٠هـ تقريباً)، ساقطٌ من ميزان أهل الجَرْح والتعديل، قال عنه الخطيب البغدادي وابن حجر العسقلاني: له أحاديث مظلِمة.

(٣) أحسَب أن هذا مما خُلِقت له دِرَّةُ الفاروق أبي حفصٍ ـ رضي الله عنه ـ!

والأعراض الحالَّة فيه، وأن حاجته إلى حركة الكلمة بأخذه وجوهَ الإعراب حتى يتميز الخطأَ والصواب، كحاجته إلى نفس الخطاب ـ؟! وليس على كلامه قياس، ولا في ركاكة بني جنسه التباس، وإنما غرَّه من هو أنقصُ منه فطرةً، وأخسُّ نظراً وفكرةً! أتراه يصل إلى تخليص اللفظ المبني على معنى، دون اللفظ المبني على معنى آخر.. إلا بحفظ الأسماء وتصريفها؟! أو تراه يقف على تحصيل المعنى المدفون في هذا اللفظ، دون المعنى المدفون في هذا اللفظ.. إلَّا بتمييز وجوه حركات اللفظ؟!» (**البصائر والذخائر**،١/ ١٧٩، ١٨٠).

وفي هذا النص ـ فوق ما أوردته له ـ إشارةٌ إلى ضيق بعض الناس بالنحو من قديم، وهذا مما يرجع إلى ضعف الهِمَم وقصور الخُطَى.. ليس غير، على نحو ما قاله ربنا ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، فما ينبغي أن يُتخذ مثل ذلك حجةً على اطِّراح النحو أو إهماله.

[مهاجمة بعض القُدَامَى النحوَ والنحاة]

على أن مثل أبي حنيفة الصوفي هذا لا ينبغي أن يُهتم برأيه في النحو واستصعابه له، وذلك لجهالة شأنه وخفوت ذكره. أما أن يأتي شاعر ضخم مثل الفَرَزْدَق فيسخر من قواعد النحو، فيما أجاب به عبدَالله بن أبي إسحاق الحضرمي، في القصة المشهورة، وقوله: «علينا أن نقول وعليكم أن تتأوَّلوا»، أو أن يؤثر عن الفيلسوف الشهير ابن الراوندي ـ على زندقته وإلحاده ـ طعنٌ في النحو ونقضٌ على النحويين؛ فهذا الذي ينبغي الوقوف عنده والاحتفال به. وقد قلتُ رأيي في قصة الفَرَزْدَق تلك، في **الهلال**[1] (ديسمبر ١٩٩٢م)، وانتهيتُ يومئذٍ إلى أن قول الفَرَزْدَق وقول سواه من الشعراء الذين

---

(١) عنوان المقال «النحو والشعراء»، تجده في مقالات **العَلاَّمَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٢١٤: ٢٢٤.

أظهروا سُخْطَهم على النحو وقواعده إنما هو من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن نحوَكم أيها النحاة صَنعة، ونحوَنا فِطرة. وآية ذلك أن شعرهم الذي حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شيء خارج عن النظام النحوي، أو خارق لقواعده. وكأنها سخرية بالنحاة، لا بالنحو.

ومع هذا المأثور عن الفَرَزْدَق من استخفافه بالنحاة، وخروجه أحياناً قليلة عن النظام النحوي.. فقد بقي جمهور شعره على الجادَّة النحوية، وظل مَدَداً ثريًّا للنحاة، ينتزعون منه شواهدهم في الدرس النحوي واللغوي والصَّرْفي والصوتي.

وأما ابن الرَّاوندي (أحمد بن يحيى بن إسحاق ٢٩٨هـ) الفيلسوف المعروف، والزنديق المجاهر بالإلحاد؛ فقد عُرف عنه الطعن على النحويين، وذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدي قال: «وأما قوله (يعني أباحنيفة الصوفي): «فقد نَقَض على النحويين ابنُ الراوندي نحوَهم»؛ فإنه ذاهب بهذا القول عن وجه الرشد؛ لأن ابن الراوندي لا يَلْحَن ولا يخطئ؛ لأنه متكلم بارع، وجِهْبِذ ناقد، وبحَّاث جَدِل، ونظَّار صبور.. ولكنه استطال باقتداره على عِلَل النحويين، ورآها مفروضة بالتقريب، وموضوعة على التمثيل؛ لأنها تابعة للغةِ جيلٍ من الأجيال، ومقترنة بلسان أمة من الأمم، فلم يكن للعقل فيها مجال إلا بمقدار الطاقة في إيضاح الأمثال وتصحيح الأقوال» (**البصائر والذخائر**، ١/ ١٨١).

وهذا النص مهمٌّ جدًّا، وهو شاهد صريح على ما قلته أنا منذ أربع سنوات بمجلة **الهلال**، من أن الذين يهاجمون النحو قديماً لا يَلْحَنون ولا يخطئون، وإنما هو الضِّيق بـ«نحو الصَّنعة» ليس غير. و«علل النحويين» التي ذكرها أبو حيان، إنما هي من أبرز «نحو الصنعة». ومن التوافق العجيب أن هذا النصَّ الشاهدَ لما قلته قد جاء فيه لفظ «الاستطالة» أيضاً، وقد استعملته أنا وصفاً لموقف الفَرَزْدَق من النحاة، واستعمله أبو حيان وصفاً لموقف ابن الراوندي من النحاة أيضاً!

[بين «نحو الصنعة» و«نحو التراكيب»]

وَضَح إذن أن النحو نحوان: «نحو الصنعة»، و«نحو التراكيب».

فالأول: هو النظام والقواعد والتعريفات والقوالب، وما صحب ذلك كلَّه من العلة والعامل. ولبعض خلق الله الحقُّ في أن يَضيقوا بالنحو على هذا الوصف؛ لأن فيه أحياناً ما يَكُدُّ الذهن ويُصدِّع الرأس، مع ما في بعض النحويين قديماً وحديثاً من ثِقَل وغَثاثة! ولكنه على كل حال علم ينبغي أن يعرف ويحاط به.

والنحو الثاني: «نحو التراكيب»، وهو الذي اتَّكأ على النظام، وانطلق منه إلى إدراك العلائق بين أجزاء الكلام، وتلك المنادِحِ الواسعة التي ذكرتها من قبل. وهذا تستطيع أن تدركه من أول **كتاب سِيبَوَيْه** إلى **النحو الوافي** لعباس حسن (على تفاوتٍ بين النحاة في ذلك)، وتستطيع أن تدركه أيضاً في كتب أعاريب القرآن وتوجيه القراءات السبع والعشر والشواذّ، وشروح الحديث النبوي، وفي شروح الشعر، وكتب الأمثال وعلوم البلاغة. والنحو بهذا الوصف لا يصح أن يُطعَن فيه أو يُنتقَص منه؛ لأن الطاعن فيه منتقصٌ للعربية كلها، ذاهبٌ عنها جميعِها.

ومن أعجب العجب أننا لا ننتبه لمناطق العظمة في تراثنا إلا إذا نَبَّهَنا إليها غيرُنا من الطارئين على ثقافتنا وفكرنا، وهم طائفة من المستشرقين الجادِّين الذين عملوا بإخلاص وتفانٍ في الكشف عن كنوزها وإبرازها! فحين التفتوا إلى ابن جِنِّي وعبقريته الفَذَّة.. التفتنا نحن أيضاً إليه، ويوم أن خرج اللغوي الأمريكي المعاصر تشومسكي بنظريته في «النحو التحويلي التوليدي»، وما قاله عن «البِنية[1] العميقة»

---

(١) البِنية والـبُنية: الشيء الـمَبْنِيّ. والجمع: بِنَى وبُنَى. ولم أقف على جمعها «بِنُيات»، كما يستخدمه بعض الكُتَّاب الآن.

و«البِنية السطحية».. فرح كثير من المشتغلين بالدراسات النحوية عندنا، وقالوا: إن ذلك يتشابه مع كثير مما قدمه النحويون العرب القدماء في معالجتهم لتفسير الجُمَل في العربية، وجَهَد بعضهم في المقارنة بين جهود عبدالقاهر الجرجاني وجهود تشومسكي في هذا السبيل! ويرد الدكتور محمد حماسة عبداللطيف ذلك فيقول: «.. ومهما تكن أسباب هذا التشابه أو التقارب في أسس المعالجة؛ فإنه ينبغي ألا نَعُدَّ ذلك من جانبنا شهادةً للنحو العربي. بل قد أبالغ فأقول، وبغير تواضع كاذب أو ادعاء خادع: إن العكس هو الصحيح! أي أن هذا التقارب أو التشابه قد يعد شهادة لنظرية تشومسكي» (**من الأنماط التحويلية في النحو العربي**، ص٦).

ـ اللغة ليست هي النحوَ فقط

وإذ قد فرَغتُ من التفرقة بين «نحو الصَّنعة» الذي هو النظام، و«نحو التراكيب» الذي هو التراكيب والعلاقات بين أجزاء الكلام.. أعود إلى ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي.

وأول ما يلقانا من كلامه ـ حفظه الله ـ قوله: «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعاً، فجعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً، كما يطالبنا النحاة».

وأقول: أما أن اللغة ليست هي النحو؛ فهذا صحيح، وقد قاله أهل العلم من قديم، ومن أقرب ما قاله القدماء قول أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمنى (٧٤٥هـ)، قال في كتابه **الطراز** (٣/ ٤٤٢): «إن المقاييس النحوية تابعة للأمور اللغوية، فيجب تنزيلها على ما كان واقعاً في اللغة. فإذا ما ورد ما يخالف الأقيسة

النحوية من جهة الفصحاء؛ وجب تأويله، ويُطلب له وجهٌ في مقاييس النحو، ولا يجوز ردُّه لأجل مخالفته للنحو».

ومع استقلال اللغة عن النحو وتبعيته لها.. فإن له سلطاناً بضوابطه الإعرابية على دلالات اللغة، وقد مر بك كلام ذلك الأديب، الذي حكاه أبو حيان.

أما قول الأستاذ حجازي عن بعضهم: «إن القيامة لن تقوم إذا جعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً كما يطالبنا النحاة»؛ فالأمر في العلامة الإعرابية ليس بهذه السهولة وذلك اليسر، والذين يقولون هذا إنما يستشهدون بجملة مثل «جاء محمد»، ويقولون: إن الفاعل معروف، سواء سكَّنَّا الدال أو رفعناها أو نصبناها أو جررناها. وهو كلام ركيك؛ لأن جملةً كهذه لا تكاد توجد، لا في الفصحى ولا في العامية، فالذي يستعملها فصيحةً لابد أن يضم الدال، ولا يُسَكِّنها إلا إذا وقف على الدال. أما في العامية ـ وبخاصة العامية المصرية ـ؛ فلا يكاد الناس يستعملون في هذا الموضع إلا الجملة الاسمية «محمد جِه»، وعلى لهجة أهل دمياط وما حولها «إجَهْ» (وفيها قلب مكاني، مثل: جذب وجبذ، وأرانب وأنارب، ومسرح ومرسح).

والعلامة الإِعرابية هي قضية القضايا في النحو العربي بقسميه: «نحو الصنعة» و«نحو التراكيب»، وقد أكثر الدارسون القدامى والمحدثون من الكلام عنها، وعن العامل الذي جلبها، وهل هو عامل لفظي أو معنوي، مما لا يتسع المقام هنا لبسطه وشرحه، ومن أجمع ما كُتب فيها كتاب **العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث** للدكتور محمد حماسة عبداللطيف.

وهذه العلامة هي إحدى القرائن النحوية. ومهما اختلف الدارسون في وضع هذه العلامة مع القرائن الأخرى، سَبْقاً أو توسُّطاً أو تأخُّراً؛ فلن يستطيع الدارس المستند إلى قراءة واسعة في كتب النحو وفي غير كتب النحو، أن يغفل أثر هذه العلامة،

وأنها أحياناً تكون حاسمة في تحديد المعاني والدلالات، لا يَشْرَكُها معها غيرها، ولا يقوم شيء مَقامَها، وأمثلة ذلك مما يطول به الكلام جدًّا. وأظن أنه لا يخفى على القارئ اختلاف الدلالة في قوله تعالى: ﴿...أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، برفع اللام وجرها من «رسوله»، وكذلك اختلاف تقدير عدد النسوة في قولنا: «جاء سبعةُ رجالٍ ونسوةٍُ» بين جر «نسوة» ورفعها.. فإذا قلنا «نسوةٍ» بالجر؛ كان عددهن سبعاً؛ لأن «نسوةٍ» حينئذ تكون معطوفة على «رجالٍ» وهم سبعة. وإذا قلنا «نسوةٌ» بالرفع، كانت على الابتداء، والخبر محذوف، وتقدير الكلام: «ونسوةٌ لا يُعلم عددهن»[١].

سأترك هذا وأشباهه لأذكر مثالين اثنين على الإعراب وأثره في توجيه المعنى، وعلى المعنى وأثره في توجيه الإعراب.. وإنما ذكرت هذين المثالين؛ لأن الناس لا تلتفت إليهما، ولا تقف عندهما.

[أثر الإعراب في توجيه المعنى:] الفرق بين الرفع والنصب

المثال الأول، ذكره ابن هشام في **المغني** (٢/ ٥٢٨): «قال الشَّلَـوْبِـين[٢] (٦٤٥هـ): حُكي لي أن نحويًّا من كبار طلبة الجُـزُولي سُئل عن إعراب «كَلالة» من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ [النساء: ١٢]، فقال: أخبروني ما الكلالة؟ فقالوا: الورثة إذا لم يكن فيهم أبٌ فما علا، ولا ابنٌ فما سفل. فقال: فهي إذن تمييز». قال ابن هشام: «وتوجيه قوله أن يكون الأصل: «وإن كان رجل يرثه

(١) وثمة احتمال ثالث عند تنوين «سبعة»، لو قلنا: «جاء سبعةٌ.. رجالٌ ونسوةٌ».. حيث يكون العدد متداخلاً بين الرجال والنساء. والله أعلم.

(٢) عمر بن محمد بن عمر أبوعلي الأشْبيـلِـي الأندلسيّ، إمام أهل عصره في العربية، والصواب أنه توفي ٦٤٥هـ (لا ٦٥٤، كما في المطبوع). عُرف بـ«الشَّلَـوْبين»، لقباً.. لا نسبةً (كما نص عليه في **تاج العروس**، غير مستبعدٍ أن يكون منسوباً إلى بلدةٍ أو حِصْنٍ أبيضَ بالأندلس). و«الشَّلَـوْبين» بلغة أهل الأندلس: الأبيضُ الأشقر.

كلالةٌ»، ثم حُذف الفاعل وبُني الفعل للمفعول، فارتفع الضمير واستتر، ثم جئ بكلالة تمييزاً».. ثم عقَّب ابن هشام برأيه في المسألة.

أما المثال الثاني: فهو ما ذكره مُعْـرِبو القرآن الكريم في الفرق بين الرفع والنصب في جواب «ماذا» من قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل:٢٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ [النحل: ٣٠].. وواضح هنا أن سياق الآيتين واحد، في «قيل» المبني للمجهول، ثم في صورة السؤال «ماذا أنزل ربكم؟»، ومع ذلك.. فقد جاء الجواب في الآية الأولى برفع «أساطيرُ»، وفي الثانية بنصب «خيراً».

وتوجيه الرفع في «أساطيرُ» أنه خبر لمبتدأ، ولم يُقدِّر «أَنزلَ»؛ لأن الآية إخبارٌ عن الكافرين، والكافر جاحدٌ لإنزال القرآن، وإنما هو عنده كذبٌ وأساطير، كما حكى القرآن عنهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:٥]. وقدَّر في الثاني «أنزلَ»؛ لأنه من جواب المؤمنين بأنَّ القرآن منزَّل من عند الله.

قال الزمخشري عقب تلاوة الآيتين: «فإن قلتَ: لِمَ نصَب هذا، ورفع الأول؟؛ قلتُ: فصلاً بين جواب الـمُقِـرِّ وجواب الجاحد. يعني أن هؤلاء لما سُئلوا؛ لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيِّناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: «خيراً».. أي «أنزل خيراً». وأولئك عدَلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء» **(الكشاف، ٢/ ٤٠٧)**.

فهذا أثر العلامة الإعرابية في تحديد الدلالة والفصل بين المعاني، وسوف تقوم القيامة فعلاً في هذا ونحوه لو رفعنا ما حقه النصب، أو نصبنا ما حقه الرفع! وترى لذلك نظائر كثيرة في الشعر، وفي غيره من مأثور كلام العرب.

[حول «عصور الانحطاط»]

ثم يقول الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي: «والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسَّة لُغوية يقِظة، بل ربما كانت بالعكس.. دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملَكة! هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهِلِّينية (أو السَّكَندرية) كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعَروض، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي...».. ويجيء بعد ذلك كلامٌ نستبقيه إلى حين.

ـ ضعف الحُـجَّـة

وهذا كلام غريب حقًّا!

وبَـدءةَ ذي بَـدءٍ.. فليس صحيحاً ولا عدلاً أن نضع نحوَ أولئك القومِ وعَروضَهم بإزاء نحونا وعَروضنا، فـ«الجهة منفكَّة» (كما يقول أهل المنطق[1]).. فإن

---

(١) الجهة المنفكَّة هنا هي جهة «المحمول»، باصطلاح المناطقة (وهو «الخبر» باصطلاح النُّحاة، و«المسنَد إليه» باصطلاح البلاغيين).. حيث إننا نتحدث عن نحوٍ منسوبٍ إلى جهتين مختلفتين: القدامى المحتفين بلغتهم والمهتمين بكل ما يتصل بها، والـخَلْفِ الـمُحْدَثين الذين خَلَفوا أولئك الأسلافَ بالتضييع واتِّباع شهواتِ الفكر وجَمَحات العقل! فليس من منطق العقل، وإنصاف القول، قياسُ نحوِ قومٍ لم يقوموا به كما ينبغي لورثة إرْثٍ عظيم، بنحوِ قومٍ أنفقوا في تنمية إرْثهم (لا حفظه وحَسْب!) وتفعيله في كل مفاصل حياتهم!

ثم: قاعدة انفكاك الجهة من القواعد الجليلة والمهمة في الفقه والأصول، ويعتمد عليها فهمُ كثير من الأحكام، وقد تكلم عليها علماء أصول الفقه قديماً وحديثاً، لا سيما في مسائل تعارض الأدلة، فهي طريقة من طرق التوفيق بين النصوص مُوهِمَة التعارض والجمع بينها. وهي قاعدةٌ عقليةٌ مهمةٌ للفكر المستنير، لكي يحرِّرَ دوماً محالَّ النزاع، ويُصفِّيَ أوجهَ النظر في المسائل.

وأصل المسألة من علم المنطق، حيث يقول المناطقة: لكي يكون التناقضُ بين قضيتين تامًّا، ولا سبيل =

الأمر على نحو ما قال أبوعمرو بن العلاء: «ما لسان حِمْيَر وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتُهم بعربيتنا»(١).

= إلى حَلِّه، أو الجمع بين القضيتين المتناقضتين ظاهراً.. لا بد من اتحادهما في ثمانية أشياء، تُسمَّى «الوَحْدات» أو «الـجِهات»، هي:

١ ـ الموضوع: فلو اختلفتا فيه؛ لم تتناقضا، مثل: عليٌّ تلميذ ـ أحمدُ ليس تلميذًا.

٢ ـ المحمول: فلو اختلفتا فيه؛ لم تتناقضا، مثل: عليٌّ تلميذ ـ عليٌّ ليس معلِّماً.

٣ ـ الزمان: فلو اختلفتا فيه؛ لم تتناقضا، مثل: الشمس مشرقة في النهار ـ الشمس ليست مشرقةً في الليل.

٤ ـ المكان: فلو اختلفتا فيه؛ لم تتناقضا، مثل: الأرض مخصِبة في الريف ـ الأرض ليست مخصِبةً في الصحراء.

٥ ـ القوة والفعل: فلو اختلفت القضيتان في القوة والفعل؛ لم تتناقضا، مثل: محمد مَيِّت بالقوة ـ محمد ليس مَـيْتاً بالفعل. («القوة» يراد بها القابلية، فمثلاً: حينما يقال لطفلٍ رضيعٍ «هذا طبيبٌ».. فإنما هو لتوفُّره على القابلية لأن يكون في المستقبل طبيباً بالفعل. و«الفعل» يراد به «الزمن الحاضر»، فمثلا: حينما يقال: «محمد طبيبٌ» يعني الآن هو طبيب).

٦ ـ الكل والجزء: فلو اختلفتا فيهما؛لم تتناقضا، مثل: العراق مخصبٌ بعضُه ـ العراق ليس مخصباً كله.

٧ ـ الاتحاد في الشرط: فلو اختلفتا فيه؛ لم تتناقضا، مثل: الطالب ناجح إن اجتهد ـ الطالب غير ناجح إن لم يجتهد.

٨ ـ الاتحاد في الإضافة: فلو اختلفتا فيها؛ لم تتناقضا، مثل: الأربعة نصف.. بالإضافة إلى الثمانية ـ الأربعة ليست نصفاً.. بالإضافة إلى العشرة.

وهذا المبحث بتفاصيله وتفريعاته في مطوَّلات كتب المنطق، وقد استعنا في تلخيصه هذا على:

المنطق، محمد رضا المظفَّر، دار التعارف للمطبوعات/ بيروت، د. ط، ١٤٠٧ هـ ـ ٢٠٠٦م، ص ١٦٦ : ١٦٩.

المنطق، مرتضى المطَّهري، دار الولاء/ بيروت، ط ٢/ ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م، ص ٧٣ : ٧٧.

التمهيد في علم المنطق، علي شيرواني، مؤسسة انتشارات ـ دار العلم/ طهران، د. ط، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، ص ٧٢ : ٧٥.

وانظر: **البصائر النصيرية في علم المنطق**، زين الدين ابن سهلان الساوي، تعليق محمد عبده، عناية د. رفيق العجم، دار الفكر اللبناني/ بيروت، ط١/ ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م، ص ١٢١ وما بعدها، وص١٦٥.

(١) **طبقات فحول الشعراء**، ١/ ١١.

على أن الزَّجَّ بهذه الكلمات «الآداب اليونانية»، و«المرحلة الهِلِّينية» و«السكندرية»، و«روما في القرن الرابع»... كل ذلك وأشباهه مما يلقيه الكاتب إلى القارئ أو السامع ـ وبخاصة المبتدئ ـ .. فيَهُزُّه هزًّا، ثم يدهشه ويُرْعِش عقلَه، ويخيفه و«يَخُضُّه»؛ فتضعف حجتُه في الرد عليه أو دفعه لو وجد إليهما سبيلاً! على ما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: «ونُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر»!

ثم نعود إلى كلام الأستاذ حجازي الذي يقول «إن المبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية»... إلى آخر ما قال وانتهى إليه من أن الاهتمام بالنحو دليل على ضعف السليقة وانحطاط الملكة.

[ابتداء النحو ونضجه في القرون الأولى]

وليس بيننا وبين الأستاذ حجازي إلا التاريخ.. نلوذ به ونحتكم إليه! تاريخ نشأة النحو، وتاريخ الاهتمام به.

ولْنترك ـ ونحن بسبيل ذلك ـ القرنَ الأولَ، وما قيل عن وضع النحو على يد أبي الأسود الدُّؤَلي بإشارة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.. ففي تلك الحقبة بعضُ غموض لا يُفضي إلى الاطمئنان إلى رأي.

ولْنقفزْ إلى القرن الثاني.. حيث نَلقَى الخليل بن أحمد، عبقريَّ العربية، وتلميذَه سِيبَوَيْه، الذي ترك لنا كتاباً مكتملاً محْكَماً لا سبيل إلى الطعن فيه أو الغض منه. وتوفي سِيبَوَيْه على الأرجح سنة ١٨٠هـ.. فكان هذا القرن الثاني هو بداية التصنيف النحوي الذي مهد لما بعده، فجرى الناس في أثره.

ولنأخذْ القرنين التاليين: الثالثَ والرابعَ.. وننظر في حال النحو في هذه القرون

الثلاثة معاً: تأليفاً ومدارسةً واهتماماً. وإنما اخترت تلك القرونَ الثلاثة؛ لأنها تمثِّل البدايةَ والتدُّرجَ والنُّـضج. وسوف ننظر بعد ذلك في حال اللغة والأدب في تلك القرون الثلاثة أيضاً؛ لنرى أثر الاهتمام بالنحو فيها عُلُوًّا أو انحطاطاً.. وَفْق رؤية الأستاذ حجازي.

على أنه مما ينبغي التذكير له[١] أنه كان هناك اهتمام بالنحو في القرنين الأول والثاني قبل ظهور **كتاب سِيبَـوَيْـه**، ولكنه كان اهتماماً بالنحو لا من حيث هو علمٌ ذو قوانينَ وضوابط، ولكن من حيث الاستعانةُ به في محاصرة اللَحْن الذي بدأ يطغى ويفشو نتيجة اختلاط اللسان العربي بغيره من ألسنة الأمم الوافدة على المجتمع العربي. ونستطيع أن نقول: إن النحو في تلك الفترة المبكرة كان نحوَ السَّليقة والفِطْرة العربية المتوارثة، وهي تلك السَّليقة التي عبر عنها الشاعر بقوله:

ولسـتُ بنَحْويٍّ يَـلُوكُ لسـانَه ... ولكن سَلِيقيٌّ.. أقولُ فأُعرِبُ![٢]

وأخبار التصدي للحن ومحاصرته في ذلك الزمان المبكر كثيرة، من أبرزها خبران يتصلان بلحنين وقعا من شخصيتين كبيرتين، لم يمنع مركزهما الاجتماعي من تنبيههما على ما وقعا فيه من خطأ..

الخبر الأول: ما وقع من الحجَّاج بن يوسف الثقفي «وقد سأل يحيى بن يَعْمُر: أتسمعني أَلْـحَن؟ قال: حرفاً. قال: أين؟ قال: في القرآن. قال: ذلك أشنع له! فما هو؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا

---

(١) هكذا بالمطبوعة. ولعلها: به.

(٢) البيت في **اللسان** و**التاج**، وغيرهما، دون عزو.

وأقدم كتابٍ وجدته فيه، دون عزوٍ أيضاً، هو: **تاريخ دمشق**، ابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر/ بيروت، ط ١/ ١٩٩٥م، ٢٥/ ١٩٥.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] (قرأها برفع «أحبُّ»، وحقها النصب؛ لأنها خبر كان). قال الحجَّاج: لا جَرَمَ[1]! لا تسمع لي لحناً أبداً. فألحقه بخُراسان» (**طبقات فحول الشعراء**، لابن سلَّام، ص١٣).. كأن الحجَّاج غَضِبَ فنفاه!

والخبر الثاني: عن الأخفش.. قال: «كان أمير البصرة يقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، برفع «وملائكتُه»، فمضيتُ إليه ناصحاً له، فزبَرني وتوعدني، وقال: تُلَحِّنون أمراءكم؟!».

وفي رواية أن اللاحن كان محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة أيضاً، وأنه رضي عن الأخفش لتنبيهه إياه، وأجازه (**إنباه الرواة**، للقِفْطي، ٢/ ٤١).

وقد قلت: إن القرون الثاني والثالث والرابع تمثل بداية التأليف في النحو وتدرجه ونضجه.. ففي القرن الثاني ظهر **كتاب سِيبَـوَيْـه** الرائد، وفي القرن الثالث جاء أبوبكر بن السَّرَّاج بكتابه **الأصول**، الذي قيل فيه: «كان النحو مجنوناً حتى عقَّله ابن السرَّاج بأصوله»[2]! وفي القرن الرابع جاء العَلَم الضخم أبوعلي الفارسي، إمام الصناعة النحوية، وتلميذه العبقري أبوالفتح ابن جِنِّي. وفي وسط هؤلاء الأعلام ظهر

---

(١) قال أبوفِهْر ـ رحمه الله ـ في حاشيته على **طبقات فحول الشعراء** (١/ ١٣): «لا جَرَمَ: كلمةٌ تدور في الكلام، كانت في الأصل بمنزلة «لا بُدَّ» و«لا مَحالةَ».. فلما جرت على الألسنة وكثُرت؛ تحولت إلى معنى القسَم، وصارت بمنزلة «حقًّا». فلذلك يُجاب عنها باللام، كما يُجاب عن القسَم.. يقولون: لا جَرَمَ.. لآتينَّك».

(٢) هو أبوبكر محمد بن السريّ البغدادي النحوي، المتوفى سنة ٣١٦ هـ عن ٣٢ عاماً! كان من أقرب تلاميذ المبـرِّد إليه، وكان شيخاً لأبى سعيد السِّيرافيّ، وعليّ بن عيسى الرُّمَّـانى.

وأقدم كتابٍ وجدتُ فيه هذه المقولةَ العاليةَ في ابن السَّـرَّاج، هو: **معجم الأدباء**: **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦ هـ)، ٦/ ٢٥٣٥.

نحاةٌ كثيرون، في البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر والأندلس.

وفي تلك القرون الثلاثة ظهر النحو ظهوراً بيناً على ساحة الفكر العربي، وأخذ الاهتمام به أشكالاً كثيرةً: تآليفَ في النحو خالصةً، وأعاريبَ للقرآن الكريم، وكتباً في توجيه قراءاته والاحتجاج لها.. مثل: **معاني القرآن** للفرَّاء (٢٠٧هـ) (و «المعاني» في ذلك الوقت يراد بها «الإعراب»)، و**مجاز القرآن** لأبي عبيدة (٢١٠هـ)، و**معاني القرآن** للأخفش (٢١٥هـ)، و**معاني القرآن** للزجَّاج (٣١١هـ)، و**إعراب القرآن** للنحَّاس (٢٣٨هـ)[1]، و**الحجة للقراء السبعة** لأبي علي الفارسي (٣٧٧هـ)، و**المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات** لابن جِنِّي (٣٩٢هـ).

ثم تجلى الاهتمام بالنحو أيضاً في شروح الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد عُنِيت هذه الشروح عنايةً فائقةً بالنحو.. مثل شروح الأصمعي، وأبي نصر الباهلي، وابن السِّكِّيت، وأبي العباس ثعلب، وأبي العباس الأحول، وأبي بكر بن الأنباري، وأبي سعيد السُّكَّري.

ـ مظاهر الاهتمام بالنحو

ومن وراء ذلك كله كان هناك مظهر رابع للاهتمام بالنحو، وهو تلك المجالس التي كانت تعقد بين عالِمين أو أكثر من علماء النحو واللغة، وقد عُرفت بـ«المجالس النحوية».. ومن أشهرها مجلس سِيبَوَيْه مع الكِسائي، حول «المسألة الزُّنْبورية»: «كنت أظن أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزُّنْبور.. فإذا هو؛ إياها»، وقد حضرها هارون الرشيد.

---

(١) هكذا بالمطبوع. والصواب: ٣٣٨ هـ. وقيل: ٣٣٧هـ.

وقد جمع هذه المجالس (التي بلغت ١٥٦ مجلساً) أبوالقاسم الـزَّجَّاجي، في تأليف مستقل، باسم **مجالس العلماء**، نشرها شيخنا عبدالسلام هارون[1] ـ برَّد الله مضجعه ـ.

أرأيت اهتماماً بالنحو أكثر من هذا؟!

... ...

البقية في المقال القادم.

* * *

(١) أصدرت طبعتَه الأولى وزارةُ الإعلام بدولة الكويت سنة ١٩٦١م، ثم أعادت تصويره ١٩٨٤م.

النحـوُ العربي.. والحِمَى المُستباح[1]

(٢)

[بقيةٌ حول الاهتمام القديم بالنحو]

الاهتمام بالنحو كان متزامناً مع النهضة العامة التي كانت آخذةً في النمو والاتساع، في علوم العرب وفنونها في ذلك الزمان، لكن التركيز هنا يكون على النهضة اللغوية والنهضة الأدبية.. اللتين يرى الأستاذ حجازي أنهما لا يجتمعان مع الاهتمام بالنحو!

فالعلماء الرواة يَغْدون ويَـرُوحون لمشافهة الأعراب في البوادي، وكذلك رواة الشعر وجامعوه في نشاط دائب، واللغة تدوَّن في تلك الرسائل الصغار القائمة على الأجناس، مثل كتب **خَلْق الإنسان والبهائم والحشرات والخيل والإبل والنخل والنبات والمطر والسحاب واللبَن والمذكَّر والمؤنَّث**، ثم تظهر المعاجم في ذلك الوقت المبكر، مثل **العين** للخليل بن أحمد (أو الليث بن المظفر)، وكتاب **الجيم** لأبي عمرو الشيباني.

ثم يتجه التأليف اللغوي وجهة أخرى.. فينهض العلماء إلى تنقية اللغة، فيما عُرف بـ«لحن العامَّة»، وقد جاء ذلك صريحاً فيما صنفه الكِسائي من **لَحْن العامة**[2]،

(١) نُشر أولَ مرة بمجلة **الهلال** المصرية، جمادَى الأولى ١٤١٧ هـ ـ أكتوبر ١٩٩٦م.
ثم جُمع في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الثاني، ص ٤٥٣ : ٤٦٦.

(٢) عنوانه: **ما تَلْحَنُ فيه العامَّة**، وقد حققه د. عبدالتواب رمضان، مكتبة الخانجي/ القاهرة =

أو ما جاء ضمناً.. كالذي صنعه ابن السِّكِّيت في **إصلاح المنطق**، وما صنعه ابن قتيبة في **أدب الكاتب**.

[نهضة الشعر والأدب الأولى واكبتْ العنايةَ الشديدةَ بالنحو]

أما النهضة الأدبية المواكبة لذلك الاهتمام النحوي في القرون الثلاثة المذكورة؛ فلست أعرف سبيلاً للتدليل عليها، ولا أحسب أن الأستاذ حجازي يَخفَى عليه مكانُ هذه الكتب واجتماعُ النحو واللغة والأدب فيها: **البيان والتبيين** للجاحظ، **وعيون الأخبار** لابن قتيبة، **والكامل** للمبرِّد، **وأمالي أبي علي القالي**، ويبرز كتاب **الكامل** من بين هذه الكتب.. بعنايته الفائقة بالنحو.

أما الشعر والشعراء؛ فلا يخفى تألُّقُهما في تلك القرون الثلاثة التي اهتم فيها أهل العلم بالنحو. وهاتان قائمتان بأبرز النحاة وأبرز الشعراء الذين تعاصروا في ذلك الزمان.. أسوقهما تذكرةً للمبتدئين، أما أهل العلم؛ فهم أقدر مني على معرفة ذلك..

النحاة: سِيبَوَيْه (١٨٠هـ)، الكِسائي (١٨٩هـ)، الفَرَّاء (٢٠٧هـ)، المبرِّد (٢٨٦هـ)، ثَعْلب (٢٩١هـ)، الزَّجَّاج (٣١١هـ)، ابن السَّرَّاج (٣١٦هـ)، السِّيرافيّ (٣٦٨هـ)، أبوعلي الفارسيّ (٣٧٧ هـ)، ابن خَالَوَيْه (٣٧٠هـ)، ابن جِنِّي (٣٩٢هـ).

الشعراء: بشَّار بن بُرْد (١٦٧هـ)، أبونُوَاس (١٩٨هـ)، مُسلِم بن الوليد المعروف بـ «صريع الغواني» (٢٠٨هـ)، أبوالعتاهية (٢١١هـ)، أبوتـمَّام (٢٣١هـ)، ابن الرومي (٢٨٣هـ)، البُحتري (٢٨٤هـ) ابن المعتز (٢٩٦هـ)، المتنبي (٣٥٤هـ)، أبوفِرَاس الحَمْداني (٣٥٧هـ)، الشريف الرَّضِيّ (٤٠٦هـ).

= ودار الرفاعي/ الرياض، ط ١/ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢م.

[من صور العلاقة الحميمة بين الشعراء والنحاة]

ومن المعروف أنه كانت هناك خصوصية بين بعض هؤلاء النحاة وبعض هؤلاء الشعراء، أذكر منها ما كان بين أبي العباس المبرِّد والشاعرين البحتري وابن الرومي.. فالبحتري يدعو المبرِّد إلى حضور مجلسه على النهر، في قصيدة يقول فيها:

ودوام المُـدام يُـدْنيك مِمَّن كنتَ تهوَى وإن جفاك الحبيبُ
فـائـتنـا يـا محمد بـن يـزيد في استتارٍ كي لا يراك الرقيبُ

ثم يمدحه بشعر آخر، يقول فيه:

مـا نال مـا نال الأمـيرُ محمدٌ إلا بيُمْـنِ محمـد بـن يزيـدِ

(**ديوان البحتري**، ص١٣٢، ٧٧٤، تحقيق حسن كامل الصيرفي).

وابن الرومي يمدح المبرِّد أيضاً في قصيدة طويلة، بلغت عدة أبياتها ٩٨ بيتاً، يقول في أولها:

طَرَقَتْ أسماءُ والرَّكْبُ هُجودُ والمَطايا جُنَّحُ الأوزارِ قُودُ(١)

---

(١) بالأصل المطبوع: «جُنْحُ الأوزارِ».. فأما «جُنْح»، بتسكين النون؛ فخطأٌ محض، يُخِلُّ الوزنَ والمعنى معاً. وأما «الأوزار»؛ فمُحتمَلةٌ، كما سيأتي.

والقراءة في **ديوان ابن الرومي** (نسخة حسين نصَّار، وهي ذاتها التي يعتمدها الطناحي: ٢/ ٧٥١): «جُنَّحُ الأزوارِ».

وهذه إضاءةٌ على معاني المفردات:

«جُنَّحُ»: جمع جانحة، وهي الناقة الباركة المائلة بأثقالها. جُنِحت (كـ«عُنِي») المطيةُ جُنُوحاً: انكسرتْ جوانحها (وهي أوئلُ ضلوعها التي تقع عليها كَتِفُه) لثِقَل حِمْلها.

ويمكن أن تكون من «الـجِنْح»: وهو الجانب الطريق. وأيضاً: الطائفة من الليل.. أوله، أو إلى نحو النصف منه. =

(ديوان ابن الرومي، ص١٧٥١، تحقيق د. حسين نصَّار).

ثم أذكر أيضاً الخصوصية التي كانت بين ابن خالَوَيْه وأبي فِرَاس الحمداني، وقد شرح ابن خالَوَيْه ديوانه (الذي نشره الدكتور سامي الدهَّان).

ومن أشهر الصِّلات بين نحويٍّ وشاعرٍ ما كان بين أبي الفتح ابن جِنِّي وأبي الطيب المتنبي.. فقد اجتمعا معاً في بلاط سيف الدولة بن حَـمْدان بحلَب، وفي مجلس عَضُدالدولة بن بُـوَيْه بشيراز. وكانا يتبادلانِ الإعجاب، ويتقارضانِ الثناء. وكان

= «الأزوار»: الزائرون (يكون بهذا اللفظ للواحد والجميع والمذكر والمؤنَّث).

«الأوزار» (جمع «وِزْر»): الأحمال والأثقال.

«قُوْدُ»: جمع «قَوْداء» (والمذكَّر: «أقْوَد»،وجمعه هو ذاته «قُوْد»)، وهي من الإبل والخيل: الطويلة العُنُـق والظهر العظيمين.

وبعد طول تأمُّلٍ في معاني مفردات البيت المحتمَلة، ثم في تأويل تركيبه.. بدا لي في عجُز البيت (والـمَطايا جُنَّحُ الأزوارِ/ الأوزارِ قُودُ) أن «قودُ» صفةٌ ثانيةٌ للمطايا. والصفة الأولى هي شبه الجملة «جُنَّحُ الأزوارِ/ الأوزارِ»، والإضافة فيها بدلٌ عن التنوين، فكأنه قال: «جُنَّحٌ بالأزوارِ/ الأوزارِ»، والباء سببية. وبذا؛ تصح القراءتان: «الأزوار»و «الأوزار». والله أعلم.

وعلى أن «الرَّكْب الهجود» في الشطر الأول هم ركْبُ الشاعر، والمطايا في الثاني هي مطايا أسماء.. يكون المعنى: انتهزت أسماءُ انشغالَ قومها بإناخة مطاياهم، المثقلةِ بأحمالهم، وتسللتْ إليَّ ورَكْبي هجود.

وثمة احتمالٌ آخر، وهو عكس السابق: أن الرَّكْب الهاجدين هم رَكْبُ أسماء، وأن المطايا المثقَلَة هي مطايا الشاعر، وأنها تسللتْ إليه خُفيةً مَشوقةً، مستغلةً هجودَ قومها وانشغالَ قوم الشاعر. وعلى كِلا المعنيين قد تصح أيضاً القراءتان «الأزوار»و «الأوزار»، رغم أن الرؤية االشاعرية قد لا تحبِّذ قراءة «الأزوار» مطلقاً، وتراها تصحيفاً لا معنى له.

ثم اقترح عليَّ الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله معنًى يراه أقرب، بعد أن استسقم قراءة «الأزوار»، منـزِّهاً شاعرية ابن الرومي عنها! قال: «طُروق أسماء»: مجيئُها مناماً، وتُرشِّح هذا كلمةُ «الـنُّبْــه» في البيت التالي:

طَـرقَـتْـنا.. فـأنـالـتْ نـائـلاً شُكره، لو كان في الـنُّبْــه، الـجُحودُ!

ثم ما في تالي الأبيات من ذِكْر «الـسُّـرَى».

وأقول: هذا معنًى جميلٌ وقريب، ولكن يبقَى لديَّ إشكالٌ في شِبْه الجملة «جُنَّحُ الأوزارِ»، مع الإشكال الجديد في «شُكْره» (أهي بالرفع، أم بالنصب؟)! ولا يتسع المجال هنا لأكثر من هذا!

المتنبي يقول عن ابن جِنِّي: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس!»، وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول: «سلوا صاحبنا أباالفتح».. ثم كان إذا سئل عن معنًى قاله، أو توجيهِ إعرابٍ حصل فيه إغرابٌ؛ دلَّ عليه، وقال: «عليكم بالشيخ الأعور.. ابن جِنِّي؛ فسَلُوه؛ فإنه يقول ما أردتُ وما لم أُرِدْ!».

وأما ابن جِنِّي؛ فقد كان يُجِلُّ المتنبي، وهو أول من شرح **ديوانه**، وقد شرحه شرحين: أحدهما كبير يسمَّى: **الفَسر** أي التفسير (وقد طبع جزء منه بتحقيق الدكتور صفاء خلوصي[1])، والشرح الآخر صغير يسمَّى **الفتح الوَهْبي على مشكلات المتنبي** (وقد طبع في جزء واحد بتحقيق الدكتور محسن غياض).

ومن وراء ذلك.. فقد كان ابن جِنِّي يثني على أبي الطيب ويستشهد بشعره، متجاوزاً بذلك ما حدده متشدِّدو النحاة من الوقوف بالاستشهاد عند الشاعر إبراهيم ابن هَرْمَة (١٧٦هـ). ومما قاله ابن جِنِّي في ذلك عندما استشهد بشعر المتنبي: «... ولا تستنكر ذِكْـرَ هذا الرجل ـ وإن كان مولَّداً ـ في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولُطف متسرَّبه! فإن المعاني يتناهَبُها المولَّدون كما يتناهَبُها المتقدِّمون» (**الخصائص**، ١/ ٢٤). ومن أقواله فيه أيضاً: «وحدثني المتنبي ـ شاعرُنا ـ، وما عرفته إلا صادقاً» (**الخصائص**،١/ ٢٣٩)، و: «ذاكرتُ المتنبي ـ شاعرَنا ـ نحواً من هذا» (**الخصائص**، ٢/ ٤٠٣). وكان يفاوضه في أمور من النحو والصرف، منها قوله: «ودار بيني وبين المتنبي في قوله «وقلنا للسيوف هَلُمُّنا»[2] كلامٌ فيه طُول»[3] (**سر صناعة الإعراب**، ص٧٢٢).

---

(١) طُبع الـفَـسْـر كاملًا، في أربعة مجلدات، بعد وفاة الطناحي ـ رحمة الله عليه ـ بتحقيق د. رضا رجب: دار الينابيع/ دمشق، ط ١/ ٢٠٠٤م.

(٢) البيت بتمامه في **ديوان المتنبي**:

قَصَدْنا له قَـصْدَ الحبيبِ لقاؤه   إلينا، وقلنا للسيوف: هَلُمُّنا

(٣) أورد ابن جِنِّي هذه المحاورة الفنية الدقيقة بينهما في شرحه الكبير، المشار إليه قريباً، **الـفَـسْـر**: ٣/ ٦٢٤ : ٦٢٦.

وحين مات المتنبي رثاه ابن جِنِّي بقصيدة أولها(١):

غاض القريضُ وأودتْ نضرةُ الأدبِ   وصَوَّحتْ بعد رِيٍّ دَوحةُ الكتبِ

فهل تصدق بعد ذلك ما يقال عن عداوةٍ ومُدابَرةٍ بين النحاة والشعراء؟

ثم هل بقي بعد ذلك موضع لقول الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي: «والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسَّة لُغوية يقِظة، بل ربما كانت بالعكس.. دليلاً على ضعف السَّليقة وانحطاط الملَكة».. هل بقي موضع لهذا الكلام؟! إلا أن يكون الأستاذ حجازي يريد نحواً آخر وأدباً آخر، غير اللذين يعرفهما الناس في تراثنا العربي!

ـ كلامٌ فظيعٌ جدًّا!

ثم نأتي إلى أخطر شيء في كلام الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي، وهو قوله في سياق الحديث عن عصور الانحطاط التي يسود فيها الاهتمام بالنحو والعروض.. يقول: «وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدها الأدب العربي في العصر المملوكي، ففي ذلك العصر الذي تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام». انتهى كلام الأستاذ حجازي بنَصِّه وفَصِّه، وهو كلام فظيعٌ جدًّا، مفزعٌ جدًّا؛ لأنه دالٌّ بصريح اللفظ على أن ابن منظور وابن هشام آيتان من آيات الضعف، ومظهران من مظاهر الانحطاط!

وأنا أسأل الشاعر الكبير، وأقول له: من أنبأك هذا؟!

ثم.. ما هي جَريرةُ ابن منظور وابن هشام عندك حتى تهوي بهما إلى مكانٍ سحيقٍ من التخلف والانحطاط؟! أهو شيء استنبطته أنت بقراءاتك، وقامت لك

(١) في قصيدة جيدة المعاني قوية التراكيب، أوردت المصادر منها بضعة عشر بيتاً.

شواهدُه، ولمعت أمامك أدلتُه؟! فنبِّئنا بتأويله!

أم هو كلام سقط إليك مما نقرؤه من البلايا التي تُصَبُّ علينا هذه الأيام، تريد أن تغتال تاريخَنا اغتيالاً، تحت شعار «تنوير العقل العربي»؟! فدُلَّنا على مصدر هذا الكلام، واخرجْ من العُهدة فيه!

[هل ابنُ مَنظورٍ من «عصور الانحطاط»؟!]

وابن منظور هنا: هو جمال الدين أبوالفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل رُوَيْـفِع بن ثابت، والإفريقي في نسَبه معناها التونِسي، فقد كانت إفريقية في ذلك الزمان يراد بها تونس الآن.

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ، ونشأ بها وتعلم وصنَّف، وتوفي بها أيضاً سنة ٧١١هـ، وخلاصة أمره أنه كان مشتغلاً بالأدب نظماً ونثراً، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى وظيفة «كاتب الإنشاء» بالدولة، وكان كثير النسخ، ذا خطٍّ حسن.

وقد عُرف ابن منظور باختصاره للكتب، فاختصر كتاب **الأغاني**، وهذَّبه ورتَّبه على الحروف، وقد طبع هذا المختصر في ثماني مجلدات.

ومن الكتب التي اختصرها ابن منظور أيضاً: **الحيوان** للجاحظ، و**زَهْر الآداب** للحُصْري، و**يتيمة الدهر** للثعالبي، و**الذخيرة** لابن بَسَّام، و**نِشْوَار المحاضرة** للتَّـنُوخي، و**تاريخ بغداد** للخطيب، و**الذيل عليه** لابن النجار، و**صفة الصفوة** لابن الجوزي، و**مفردات ابن البَيطار**، و**سرور النفس بمدارك الحواسِّ الخمس** للتيفاشي (نشره الدكتور إحسان عباس)، و**تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر (ويقوم على تحقيقه الآن الدكتور رضوان السيد الأستاذ بالجامعة اللبنانية)[1].

---

(١) طُبع **تاريخ دمشق** كاملًا في ثمانين مجلَّداً بتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غَرامة العَمْرَويّ =

وقد تغيًّا ابن منظور من تأليف معجمه هذا[١] غاياتٍ، أَبَنْتُ عنها في مقالة لي بـ **الهلال**[٢] (مارس ١٩٩٢م).. لكني أستأذن قارئي الكريم في أن أعيد ذكر غاية واحدة من تلك الغايات ـ لاتصالها بموضوعنا الآن ـ ، وهي غاية قومية وطنية، باعثُها الغَيرةُ على العربية والعصبيةُ لها، بعد أن اطَّرح بعض الناس الحديث بالعربية وهجروها إلى اللغة الأعجمية، وهي التركية في ذلك الزمان.

يقول ابن منظور في مقدمة **اللسان**[٣]: «وذلك لِما رأيتُه قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف التَّـرْجـُمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية.. فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهلُه بغير لغته يفتخرون، وصنعته كما صنع نوحٌ الفُلْكَ وقومه منه يسخرون!».

فهذا حديث ابن منظور.. سُقْتُه على سبيل الوَجازة والاختصار.

[هل ابنُ هشامٍ النحويُّ من «عصور الانحطاط»؟!]

أما حديث ابن هشام؛ فمُجمل القول فيه أنه جمال الدين أبومحمد عبدالله بن يوسف بن أحمد... ابن هشام الأنصاري المصري، ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨هـ، وتوفي بها سنة٧٦١هـ. حصّل علوم العربية، واشتغل بالتدريس والإقراء، وصنف تصانيف

= (أمامي الآن طبعته الأولى عن دار الفكر/ بيروت، سنة ١٩٩٥م). ولا أعلم أن د. رضوان السيد عمل على تحقيقه أو تحقيق مختصره لابن منظور، وليس واحدٌ منهما مثبَتاً في ثَـبَت كتاباته وتحقيقاته الذي وضعه هو نفسُه (منذ سنة ٢٠١١م) في موقعه الإلكترونيِّ الشخصيِّ الرسميّ. والله أعلم.

(١) يقصد الطناحي بالطبع **لسان العرب**، وإن لم يسبقْ له ذِكرٌ صريح؛ فهو العلَمُ، بل والنارُ ذاتها!

(٢) عنوانها: «لسان العرب لابن منظور»، وتجدها في: **مقالات العَلاَّمَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ١٧٧ : ١٨٦.

(٣) ١/ ١١ (طبعة بولاق الأولى، التي صدرت خلال السنوات ١٣٠٠ ـ ١٣٠٧ هـ).

كثيرة، جمهورها في علم النحو، وقد بلغت تآليفه فيه نحو ٣٠ مصنفاً، ما بين رسالة صغيرة، إلى كتاب كبير، ومن أشهرها: **الإعراب عن قواعد الإعراب**، و**قَطْرُ النَدَى وبَلُّ الصدَى**، و**شذور الذهب**، وشرح **ألفية ابن مالك** المسمَّى **أوضح المسالك**. ويأتي على رأس مصنفاته النحوية كلها كتابه الماتع **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**.. وهو الذي يقول عنه ابن خَلدون: «ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوانٌ من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملةً ومفصلةً، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسمّاه بـ**المغني في الإِعراب**»[1].

وكان ابن خَلدون قد وصف أمر ابن هشام على الجملة، فقال وهو يتحدَّث عن صعوبة تحصيل علم من العلوم من جميع جهاته، والإحاطة به كله، ومثَّل لذلك بعلم العربية، وهو علم النحو.. فقال في سياق حديث طويل: «كيف يُطالَب به المتعلم، وينقضي عمرُه دونه؟! ولا يطمع أحد في الغاية منه، إلا في القليل النادر.. مثلما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية، من أهل مصر، يعرف بابن هشام، ظهر في كلامه فيها أنه استولى على غايةٍ من مَلَكة تلك الصناعة، لم تحصُل إلا لسِيبَوَيْه وابن جِنِّي وأهل طبقتهما؛ لعِظَم مَلَكته، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه، وحسن تصرفه فيه.. ودل على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين» (**المقدمة**، ص٥٣٢[2]).

ـ تحقيق [في كلمة ابن خَلدون عن ابن هشام]

شاعت عن ابن خَلدون في حق ابن هشام كلمة تناقلها مترجموه، وهي قوله:

---

(١) انظره في طبعة الشدَّادي المعتمدة في تحرير هذا الكتاب: ٣/ ٢٣٩.

(٢) طبعة الشدَّادي: ٣/ ٢١٠.

«مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية، يقال له ابن هشام، أنحَى من سِيبَـوَيْـه».. ولم أجد هذه الكلمة بسياقها هذا وحروفها في **مقدمة ابن خَلدون**، وإن كان الكلام الذي نقلته من **المقدمة** يؤول إليها ويدلُّ عليها. وقد تتبعت الكلمة فوجدت أن الذي ذكرها بهذا النسق والسياق هو ابن حجر العسقلاني، في ترجمة ابن هشام من **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** (٢/ ٤١٦)، ويلاحظ أن ابن حجر صَدَّر هذه الكلمة بقوله: «قال لنا ابن خَلدون».. فهو سماع إذن. وقد ذكر شمس الدين السخاوي في **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (٤/ ١٤٨) أن ابن حجر اجتمع بابن خَلدون مراراً، وسمع من فوائده.

ـ تعمُّقُ [ابن هشام] مذاهبَ النحاة

ويقول أستاذنا الدكتور شوقي ضيف عن ابن هشام: «وقد تحوَّل يتعمَّقُ مذاهبَ النحاة، وتمثَّلَها تمثُّلاً غريباً نادراً، وهي مبثوثة في مصنفاته مع مناقشتها وبيان الضعيف منها والسديد، مع إثارته ما لا يحصى من الخواطر والآراء في كل ما يناقشه وكل ما يعرضه». ويقول أيضا عن مصنَّفاته: «وهو يمتاز فيها جميعاً بوضوح عبارته، مع الأداء الدقيق إلى أبعد حدود الدقة.. مُسْهِباً مُطْنِباً، أو مُوجِزاً مُـجْمِلاً» (**المدارس النحوية**، ص ٣٤٦، ٣٤٧).

فهذا ابن هشام.. يراه الأستاذ أحمد عبدالمعطي حجازي مظهراً من مظاهر الضعف والانحطاط، ويراه ابن خَلدون وشوقي ضيف محييَ صناعة النحو في تلك العصور الوسطى بعدما كادت تؤذن بالذهاب، وأنه قرين سِيبَـوَيْـه وابن جِنِّي، وأنه قد تعمَّق مذاهبَ النحاة وتمثَّلها ثم أحسن عَرْضَها ومناقشتَها.. وهذا على نحو ما قال ربنا عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وهذا ابن منظور.. يراه الأستاذ حجازي مظهراً من مظاهر الانحطاط والضعف

أيضاً، ويراه أهل العلم بالعربية صاحب أول معجم عربي كبير، جمع جذور اللغة العربية بمناهج المعاجم المختلِفة: **لسان العرب**.. تذكره ولا تصفه؛ لأنه أحد معالم حضارتنا العربية!

[أين هي «عصور انحطاط» النحو واللغة؟!]

على أن للقضية وجهاً آخر، هو ما ذكره الأستاذ حجازي ويذكره غيره من الدارسين الجامعيين وغير الجامعيين، من وَسْم العصر المملوكي بالانحطاط والتخلف؛ لضعف الأدب والشعر فيه. ورَدُّ هذا الكلام ونقضُه في غير هذا المكان، لكني أشير هنا إلى أنه لولا ما صنعه ابن منظور وابن هشام ومن إليهما من لُغَوِيِّي ونحاةِ وعلماءِ القرن الثامن (وهو العصر المملوكي) من هذه الأعمال الموسوعية؛ لضاع علم كثير، ولضعُفت ذاكرة الأمة العربية ثم تلاشت، وهو «الدور» العظيم الذي اضطلعت به مصر والشام في ذلك الوقت غداةَ سقوط بغداد، وإيذان شمس الأندلس بالغروب.. فكانت القاهرة ودمشق ملاذاً وملجأً لعلماء بغداد والأندلس، فواصلوا المسيرة التي بدؤوها في بلدانهم قبل أن تغشاها النوائب، وشاركوا قرناءهم من علماء مصر والشام في تلك الأعمال التجميعية الضخمة.. كابن منظور، وابن هشام، وصلاح الدين الصَّفَدي، وشمس الدين الذهبي، وشيخ الإِسلام ابن تيمية، وأبي الحَجَّاج المِزِّي، وأبي حيان الأندلسي، وابن سيِّد الناس اليَعْمُري، وشهاب الدين النُّوَيْري صاحب **نهاية الأرَب في فنون الأدب** الذي يقول فيه المستشرق فازيليف: «إن **نهاية الأرَب** على الرغم من تأخر عصره يحوي أخباراً خطيرة عن صَقَلِّية[١]، نقلها عن مؤرخين قدماء لم تصل إلينا كتبهم، مثل ابن الرقيق وابن رشيق وابن شدَّاد وغيرهم»[٢].

(١) ضُبطت بكسر الصاد والقاف، ونُصَّ على تخطئته.

(٢) حول أهمية موسوعات العصر المملوكي، ودورها، انظر وجهتي نظر مختلفتين في كتاب: **النويري** =

فما ينبغي أن تكون بعض مظاهر الضعف في الشعر والكتابة الأدبية، في العصر المملوكي، صارفةً الأنظارَ عن مظاهر الحضارة العربية في ذلك العصر. فلنكفَّ إذن عن ثَلْب هذا العصر وتجريحه! ومرة أخرى: لولا ابنُ منظور وابنُ هشام وأشباهُهما من الحَفَظة؛ لضاع الإرثُ والورثة، ولم يجد الأستاذ حجازي عربيةً يُقِيم بها لسانه وينسِج بها شعـرَه!

ـ هجومٌ [بلا بَـيِّـنة].. وازدراء [بلا تأهُّل!]

وليعلم الشاعر الكبير أن مكانته العالية التي اقتعدها في دنيا الشعر، في زماننا هذا، ليست مؤهِّلةً له لأن يذهب هذه المذاهبَ في دنيا اللغة والنحو! فاللغة بحر لا ساحل له، والنحو صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُه[1]، ولستُ آمَنُ إذا ظل الشاعر الكبير ماضياً

= وكتابه **نهاية الأَرَب في فنون الأدب: مصادره الأدبية وآراؤه النقدية**، د. أمينة محمد جمال الدين، دار ثابت/ القاهرة، ط ١/ ١٩٨٤م، ص ٩٧ : ١٠٣، و: ١٢٩ : ١٦٣. وقد تحدث عنها الطناحي أيضاً في غير موضعٍ مما كتب، ومنه ما ذكره في **الموجز في مراجع التراجم والبُلدان والمصنفات وتعريفات العلوم** (مكتبة الخانجي/ القاهرة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، ص ٢٥ : ٢٨).

(١) أخذه من رَجَز الـحُطَيئة، حين أوصى ـ أثناءَ نَزْعه ـ بالشعر (في قصةٍ طويلةٍ طريفةٍ استقصاها د. نعمان محمد أمين طه، في: **ديوان الـحُطَيئة برواية وشرح ابن الـسِّكِّيت**، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ١/ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م، ص ٢٩٠ : ٢٩٤)، ومنها:

الشِّعر صَعبٌ وطـويلٌ سُلَّمُه
إذا ارتقى فيـه الذى لا يعلمُه
زَلَّت بـه إلى الحضيض قـدمُه
والشعرُ لا يَسْطِيعه من يظلِمُه
يريـد أن يُعربَـه.. فيُعْجِـمُـه!

وقد نُسب البيتان الأخيران فقط من هذه القطعة المذكورة هنا إلى رُؤْبة بن العَجَّاج الراجز (توفي ١٤٥هـ وتوفي الـحُطَيئة ٤٥ هـ). نسبهما إلى رُؤْبة الجوهري في **الصَّحاح** (مادة ع ج م)، واستدرك عليه محققه أحمد عبدالغفور عطَّار بنسبتهما إلى الـحُطَيئة. =

في هذا الطريق، طريقِ الـجُرْأة على اللغة والنحو، لستُ آمَنُ أن يقوم له أحد المعيدين الصغار الذين تخصصوا في هذين العلمين، فيقعدَ له كلَّ مَرصَد، ويأتيَه من كل مكان، حتى يَنقُضَ كلامه عُروةً عُروةً! و«أولُ راضٍ سُنَّـةً.. من يَسيرُها» كما يقول خالد بن زُهيرٍ الـهُذَلي![1].

على أن هذا الذي ذكره الأستاذ أحمد عبدالمعطي حجازي عن النحو العربي إنما

= كما نسبهما إليه، مع بقية القطعة المذكورة هنا (دون بقيتها مما لم أذكر)، في **لسان العرب** (مادة ع ج م)، ولم يستدركه عليه عبدالسلام هارون في كتابه: **تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب**، جامعة الملك عبدالعزيز/ مكة المكرمة، ط ١/ ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٩م. ولا أحمد تيمور في كتابه: **تصحيح لسان العرب** (القسم الأول)، مطبعة الجَمَّالية/ القاهرة، ط ١/ ١٣٣٤ هـ ـ ١٩١٥م، ولا في القسم الثاني منه، المطبوع بضميمة: **تصحيح لسان العرب من إفادات إبراهيم اليازجي وأحمد تيمور وغيرهما**، د. محمد نعمان خان، د. ن، دِلْهي ـ الهند، ط ١/ ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م. والظاهر أن خطأ ابن منظور راجع إلى متابعته الجوهري؛ إذ هو أحد مصادره الخمسة الرئيسية. ونسب الأبياتِ الخمسةَ (آخرَ قطعةٍ طويلةٍ) إلى رُؤْبة كذلك، دون استدراكٍ أيضاً، المستشرقُ وليم ابن الوَرْد البروسيّ، في جمهرته: **مجموع أشعار العرب**، د. ن، ليبسيغ ـ ألمانيا، ١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م، ص ١٨٦.

(١) للبيت في **خزانة الأدب** (نشرة عبدالسلام هارون) روايتان:

فلا تَـجْزَعَنْ من سُنَّـةٍ أنت سِرْتَها فأولُ راضٍ سُنةً.. من يَسيرُها

(٨/ ٥١٥، ٩/ ٥٩)

فلا تَسْخَطَنْ من سيرةٍ أنتَ سِرْتَها فأول راضٍ سيرةً من يَسيرُها

(١/ ٨٤)

وبالمناسبة.. **خزانة الأدب ولُبُّ لُباب لسان العرب** هذا، لعبدالقادر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ/ ١٦٨٢م)، هو أحد موسوعات تلك العصور (المملوكية والعثمانية) المشتومة دوماً، وقد حفظ لنا شيئاً كثيراً مما دَرَس وضاع من الكتب والمجموعات القديمة، ومنه هذا البيت وقصته! انظر مقدمة عبدالسلام هارون: ١/ ١٩ : ٢٢.

ثم وجدتُ البيت، وقطعتَه وقصتَها، في **شرح ديوان الـهُذَليين**، لأبي سعيد الحسن السُّكَّريّ (تحقيق عبدالستار أحمد فرَّاج، مراجعة أبي فِهْر، مكتبة دار العروبة/ القاهرة، ط١/ ١٩٦٥م)، وروايته فيه (١/ ٢١٣): « فأولُ راضي سُنةٍ»، بالإضافة. دون إشارة في المتن ولا في التحقيق إلى روايتي **الخزانة**.

هو نَـفْخٌ في نار خامدة، شَبَّت في العقود الأخيرة من هذا القرن، ثم طَفِئت، ثم شَبَّت، ثم طَفِئت... وهكذا! على نحو ما قال ربنا ـ سبحانه ـ : ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وإذا كانت ثقافة هذه الأمة العربية كلها قد تعرضت للتنقُّص والتجريح.. كقولهم في تفسير القرآن: إن به إسرائيليات، وقولهم في الحديث: إن به وضعاً وضعفاً، و: إن في الشعر انتحالاً، و: في الأدب ذاتيةً، و: في البلاغة تكلُّفاً وزخارفَ وأصباغاً... إلى آخر هذا الكلام المعاد الممجوج[١]؛ فإن النحو العربي قد ذهب بالهجوم كله، وبالازدراء كله!

[النحو «مَلْطَشَة» الجميع!]

على أن أغرب ما في الأمر أنه قد صار «مَلْطَشَة»[٢].. يتكلم فيه من يعرف ومن لا يعرف! فإن بعض الذين يكتبون عن النحو الآن لا صلة لهم به، لا من قريب ولا من بعيد! وإنما هي نُقُول ومتابعات ينقلها لاحقٌ عن سابق، ثم ينسبها إلى نفسه

(١) الحقُّ أنْ ليس كلُّ هذا باطلًا من القول! فلا يمكن لمثل الطناحي أن يَغْفُل عن أن في تفسير القرآن المجيد إسرائيلياتٍ، وأن في الحديث المنسوب للمقام النبوي الشريف موضوعاتٍ وكذباً... إلى آخر ما ذكر.

نعم.. التزيُّـد في تسقُّط هذه المواطن السلبية في مدوَّنتنا العلمية الضخمة، إلى حد إسقاط إرثنا العلمي جملةً، كما هو ديدنُ بعض من يزعمون «التجرُّد» و«الحياد» من خَلْف الباحثين والكُتَّاب، هو المرذولُ المحذورُ حقًّا.. و«كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأمور ذَميمُ» كما يقول ـ محقًّا ـ أبوسليمان الخطَّابي فيما يُنسَب إليه. والله أعلم.

(٢) هذا من فصيح العاميّ. ومما استدركه **التاج على القاموس**: «الـلَطْش: الضرب بـجُمْع اليد، والطعن»، ثم قال: «وأهمله الجماعة».

وقد ذكره أحمد رضا في **قاموس رد العاميّ إلى الفصيح**، ص ٥٢٤. و: هشام النحاس في **معجم فِصاح العامية**، ص ٥٥٢ : ٥٥٤.

ويتنفَّج[١] بها على خلق الله! وهذا هو الزور بعينه، على ما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: «المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ؛ كلابس ثوبَي زورٍ»! وهكذا تسير الأمور، وكأن الأمر في الكتابة عن النحو قد صار «على المَشاع»![٢].

ومن ذلك ما كتبه الأستاذ بدر نشأت في **الأهرام** ٥/ ٧/ ١٩٩٦م بعنوان: «بين فُصحى نعرفها وعامِّيَّة نجهلها»، وفي هذه الكلمة ترديد لأقوال السابقين، مع تخليط كثير، وجُرْأة عجيبة، من مثل قوله: «إن القراءة الصحيحة السليمة تفتقد السرعة والمباشرة، فالقراءة بالتنوين تطيل الوقت، وتضاعف جهود النطق، وهي أمور ما عادت تتفق وإيقاعَ العصر وتتعارض مع النزوع البشري المطَّرد إلى الاقتصاد في الجهد والوقت.. فاللغة كائن حي، لابد لها من أن تلاحق إيقاع الحياة وتتكيف معه».

وأنا لا أفهم معنى «القراءة بالتنوين» هذه؟! هل التراكيب النحوية كلها تجري في نطقها على التنوين؟! فما بال الأسماء التي لا يجتمع معها التنوين، مثل الأسماء المعرَّفة بأل، والأسماء المعربة المضافة، والأسماء المبنية، والأسماء الممنوعة من الصرف، والمثنى والمجموع؟! ثم.. ما بال الأسماء الموقوف عليها؟!

ويقول الأستاذ بدر نشأت أيضاً: «ويجب أن يعلم النحويون عندنا أن علم النحو العربي يحتاج في كثير منه إلى صياغة جديدة، فقد قام على رؤية معيارية، وعمد إلى الافتراض، واستنباط القواعد التي تضبط الجانب الكتابي، وأهمل الجانب الصوتي الذي هو موطن اللغة الأصلي، وهو ما أدى إلى ما نشكو منه اليوم من تعقيد في اللغة العربية».

وهذا كلام مكرور ومُعاد، أعرف مَنابِتَه ومَغارِسَه، كما قالت العرب في أمثالها:

---

(١) النَّفَّاج (من الانتفاج: الارتفاع): المتكبر، والمفتخر والمتمدح بما ليس عنده ولا فيه، والقائل ما لا يفعل. ومثله: المنتفج، و: المتنفِّج.

(٢) يعني الانتشار والتفرق، بلا ضابط ولا رابط!

«شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم»![1] ولا تغرنك هذه العبارات: «إيقاع العصر»، و«اللغة كائن حي»، و«صياغة النحو صياغةً جديدة»... أفبعد أربعةَ عشرَ قرناً من جهود الرجال الكبار تُطلب للنحو صياغةٌ جديدة؟! صياغة إيه يا راجل؟! وحدِّ الله وصلِّ على اللي حيشفع فيك!

ولا بأس علينا إن شاء الله من الإلمام بشيء من العامية.. فإنها تحلو في هذا الموضع، ولا تقوم الفصحى مقامها! وأيضاً.. فإن ذلك من باب «المناسبة» أو «المشاكلة»، كما يقول علماء البلاغة؛ لأن الأستاذ بدر نشأت قَصَّاص بارع، ومكانه في الأدب معروف، ومازلت أذكر مجموعته القصصية الجيدة التي نشرها في الخمسينات «مساء الخير يا جِدْعان»، وقد مزج فيها بين الفصحى والعامية مزجاً رائعاً، مع تطويعه العامية المصرية لبعض المحسِّنات البديعية، كالجِناس والتورية، على نحو ما كان يفعل الشاعر العظيم فؤاد حداد[2] ـ رحمه الله ـ . لكن أن يَسلُك الأستاذ بدر نشأت تلك

---

(١) يضرب مثلًا للرجل يُشْبِه أباه. وكان أَخْزَم من أكرم الناس وأجودهم، فلمَّا نشأ حفيده حاتم وفعل من أفعال الكرم ما فعل؛ قيل فيه: شِنْشِنةٌ أعرفها من أَخْزَم. وقيل في أصل المَثَل غير هذا. ويروى أن عمر بن الخطاب قاله في ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ يشبِّهه في رأيه بأبيه. والشِّنْشِنة: الغريزة والطبيعة والـخُلُق.

والحاصل ـ والله أعلم ـ أنه يُستخدَم في إلحاق فرعٍ بأصلٍ مطلقاً، مدحاً أو ذمًّا.

انظر: **الأمثال**، أبوعُبيد القاسم بن سلَّام، تحقيق د. عبدالمجيد قطامش، جامعة الملك عبدالعزيز ـ مكة المكرمة ودار المأمون للتراث/ دمشق، ط١/ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م، ص ١٤٤.

و: **جمهرة الأمثال**، أبوهلال العسكري، ١/ ٤٤٣.

و: **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال [لأبي عُبيد القاسم بن سلَّام]**، أبوعبيد البكري الأندلسي، تحقيق د. إحسان عباس ود. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة/ بيروت ودار الأمانة/ بيروت، ط ٣/ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) شاعرية فؤاد حدَّاد، في العامِّيَّة المصرية الراقية، شاعريةٌ فَذَّة.. لا تقلُّ ـ في تقديري ـ عن شاعرية المتنبي وأبي العلاء وأضرابهما! ويكفيك وصفُ الطناحي إياه بـ«العظيم». وكان أبوفِهْر (على ما حدَّثني ابنه الصديق د. فِهْر) يحبه ويُجِلُّ منزلتَه في الشعر. وقد ذكره الطناحي، مُكْبِراً من شأنه، غيرَ مرة.. انظر مثلاً: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، ١/ ٢٦٦. رحم الله الجميع، وتغمدهم بواسع كرمه وإحسانه.

الدروبَ الضيقةَ في النحو والصرف واللغة؛ فهذا ما لا يَـجمُل به، ولا يَـحسُن منه!

أقول قولي هذا.. وأنا أعلم يقيناً أننا جميعاً أصحابُ هذه اللغة، لنا أن نتحاور حولها، وأن نبدي الرأي فيها.. لكن الأمر مشروط بتقدم الأهلية وامتلاك الأدوات، كما قالت العرب في أمثالها: «ثَبِّتْ نَسَباً.. واطلُبْ ميراثاً»(١)!

ويبدو لي أن مجال الحديث مع من يهاجمون النحو العربي ينبغي أن يأخذ منحًى آخر.. ففى نيتي ـ إن شاء الله ـ أن أسأل من يكتب عن النحو الآن جملةً من الأسئلة..

فمثلاً أقول له: ماذا تعرف عن نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة؟ ماذا قرأت من كتب النحو الأولى؟ وماذا في مكتبتك الخاصة منها؟

ثم أسأله عن طائفة من المصطلحات النحوية التي تدور في كتب القوم.

وبعد ذلك أضع أمامه بعض أبياتٍ من الشعر وقطعةً من النثر، وأطلب إليه أن يقرأ هذا وذاك قراءة صحيحة أو مقارِبة.

فإن جاءت الإجابة على ذلك كله وَفق المراد؛ قلت: أجل.. ونُعْمَى عينٍ.. هاتِ ما عندك. ومددتُ حبال الحديث بيني وبينه.

وإن تعثَّر وكَبَا؛ قلت: حَسْبُك.. فقد سقطتْ مؤونةُ الكلام بيني وبينك، فأنت غريبُ المحل، ناءٍ عن الديار!(٢).

---

(١) لم أجده فيما تحت يديَّ من كتب الأمثال والأدب. ومثلُه ما نقوله في مصر: «ثَـبِّت العَرْش.. ثم انقُشْ». ومعناهما واضح: لا تَـبْـنِ على فراغ.. ابدأ بالأصل، ثم بما يترتب عليه.

(٢) كيف بالطناحي ـ برَّد الله مضجعه، ونوَّر ضريحه ـ لو امتد به العمر ليرى ما هو أنكَى وأمرُّ! كذلك الصِّحافي شريف الشوباشي الذي لا علاقةَ له بالعربية (إلا أنه يُـحْسِن عامِّـيَّـتَها المصرية!) ويتمطَّى، لا ليجددها وحسب، بل.. ولينقذها! ممن؟! من سيبويه، الذي يزعم أن مشاعر ملايين العرب تود لو تهتف بسقوطه! في كتاب بعنوان صاخب **لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه!** (صدرت طبعته الأولى بمصر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م).. =

ثم أزيدك عجباً أيها القارئ الكريم (ومن يعشْ؛ يرَ عجباً! كما قالت العرب).. أن النحو العربي الآن يهاجم أيضاً من بعض «الإسلاميين» الذين يصرخون ليل نهار، دفاعاً عن الإِسلام وخوفاً عليه! ولكن.. كيف يهاجم هؤلاء النحو؟ سمعت كبيراً منهم في محفلٍ عامٍّ يقول: «إن المسلمين الأوائل شُغلوا بإعراب القرآن عن تطبيقه»! وقد غَفَل هذا الغبي (نستغفر الله من فاحش القول!) عن أن كثيراً من كلام ربنا ـ عزَّ وجلّ ـ لا يُفهم ولا يطبق إلا إذا عُرف وجهه النحوي الصحيح! والأمثلة من ذلك كثيرة.. لا أريد أن أطيل بذكرها، وقد ذكرت شيئاً منها في صدر كلمتي.

[زميلُنا، الأزهريُّ القديم، قائدُ الهجوم على النحو العربي!]

وما بقي إلا الإِشارة إلى أن النفخ في نار الهجوم على النحو العربي في هذه الأيام، إنما خرج من كِير[1] الزميل العزيز الدكتور أحمد درويش، الذي كتب خمس مقالات بجريدة **الأهرام** أيضاً، اختار لها عنواناً جذاباً هو «أنقذوا اللغة من أيدي النحاة».. وفي هذا العنوان من الإِثارة وفتح الشهية ما ترى!

وأخطر ما في كلام الزميل العزيز أنه استطال فيه بذكائه، واحتشد له بتلك المصطلحات والتراكيب التي تخطَف بصر القارئ وتهزُّه هزًّا وتُـخيفه و«تَخُضُّه»! (على ما وصفت من كلام الأستاذ أحمد عبدالمعطي حجازي من قبل). وهو نمط من الكلام إن أعجب بعض الناس؛ فإنه عند كثير منهم خفيفٌ هين.. كما قال الشاعر[2]:

= وثمة آخر قبله بقليل، اسمه زكريا أوزون (ولا أعرفه، ولا أعرف مدى إحسانه العربيةَ!)، جعل عنوان كتابه هكذا: **جنايةُ سيبويه: الرفضُ التامُّ لِـمَا في النحو من أوهام** (دار رياض الرَّيِّس/ لندن، ط ١/ ٢٠٠٢م).

وسوى هذين خَلْقٌ كثير! أعاذنا الله والإسلامَ والعربيةَ من فتن آخر الزمان!

(١) الكِيرْ: زِقٌّ ينفخ فيه الحدَّاد.

(٢) لم أجدها شعراً. بل هي مَثَل، قال الميداني فيه: «يُضرب للغنيّ الذي لا فضل له على أحد، ولا =

«وخمرُ أبي الرَّوْقاءِ ليست تُسْكِرُ»!

وليس من هَـمِّي هنا أن أنقضَ كلام الزميل العزيز أو أردَّه، فلذلك موضع آخر.. لكني أريد أن أذكِّره فقط بأن هذا النحو القديم الذي سخر منه ومن أعلامه، ثم دعا إلى إنقاذ اللغة منه ومنهم، هو الذي أنطق لسانَه وفجَّر بيانَه؛ فإن الزميل العزيز ممن ينتمون إلى جيل الحفَظَة.. حفَظَة المتون، فقد التقى وهو في طَراءة الصِّبا ثم في مَيْعة الشباب بـ**التُّحْفة السَّنِيَّـة** شارحة **الآجُرُّومية**، و**تنقيح الأزهرية**، و**قَطْر الندى**، و**شُذور الذهب**، و**ابن عقيل**، و**أوضح المسالك**. ولو أن زميلنا العزيز تعلم النحو بعيداً عن هذه الكتب، ووَفْق منهجه الذي يقترحه اليوم؛ لما استقام له بيان، ولا نهضت له حجة!

وهذا «الإعلال والإبدال»، الذي يهزأ به زميلنا العزيز، هو الذي أعانه على معرفة المعجم العربي، بمعرفة الزوائد والأصول في الأبنية العربية. ولولا هذا «الإعلال والإبدال» ما عرف أن «تراث» من «ورث»، وأن «ميناء» من «وَنَى»، وأن «تَتْـرى» من «وَتَـر»... وهلم جرًّا.. فهذا موضع المثل «أكلاً وذمًّا»![1].

وما ينبغي أن يكون في تسويغ الزميل العزيز لكلامه أنه يغار على النحو العربي،

= إحسان إلى إنسان» (**مَجْمَع الأمثال**، أبو الفضل النيسابوري الميداني، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة، د. ط، ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥م، ١/ ٢٤٦). ولو قيل: يُضرَب في كل ما لا أثـرَ له ظاهراً من قولٍ أو فِعلٍ؛ لكان أولى! والله أعلم.

ثم أفادني الأستاذ الحساني حسن عبدالله أنها لو قُرئت «تُسَكِّرُ»؛ لكانت شطْرَ بيتٍ من الطويل. وهو يرجِّح أنها شعرٌ، حتى وإن لم نقع عليها شعراً بعدُ.

(١) يضرب لمن يذم شيئا قد ينتفع به، وهو لا يستحق الذم (**مَجْمَع الميداني**، ١/ ٢٩). ومثله: الشّعير يُؤْكَل ويُـذَمّ! وجمعهما قول الشاعر:

أكلوا تالِـدي وذمُّـوا قَـديمـي مثلَ خبز الشَّعير: أكلاً وذَمّا!

أنشداه، غيرَ منسوبٍ، في أشباه الخالِدِيَّيْنِ: **الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين**، الخالديان أبوبكر محمد بن هاشم الخالدي وأبوعثمان سعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة، ط١/ ١٩٦٥، ٢/ ١٢.

وأنه يريد له أن ينهض من كَبْوته، ويقوم من عَثْرته.. لا ينبغي أن يقول هذا؛ لأنه نَقَب نَقْباً وأباح حِمًى.. فاتَّكأ بعض الناس على ما قاله في مقالاته الخمس، واندفع يميناً وشمالاً، يحارب بسيفه وينزِع عن قوسه! فالزميل العزيز شريك في هذه الحملة الشرسة على النحو العربي، شاء أم أبى.. على ما قال الشاعر(١):

فإلاَّ يكونوا قاتِـلِيه.. فإنه سواءٌ علينا مُمْسِكاهُ وضارِبُه!

ولو لم يكن إلا الوفاء لهذه السنوات التسع التي قضاها الأستاذ الدكتور أحمد درويش بـ«الأزهر الشريف»، فملأت شرايينه بدم العربية، وكَسَتْ عَظْمَه لحمَ الفصحى؛ لكان في ذلك ما يَــزَعُه(٢) عن الهجوم على النحو العربي، الذي هو مَـلاكُ العربية وسلطانها!

إن الأيام الأولى عزيزة علينا.. نحرص عليها، ونذود عنها، ونفخر بها.. أليس كذلك يا دكتور؟!

ولَشَدَّ ما يعجبني ويؤنسني كلام الأستاذ الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة، الذي ما يفتأ يذكر فضل «الأزهر» عليه، وعلى لسانه، فيقول: «كانت دراستي في «الأزهر» قد أمدتني بفيض من الأبيات المتناثرة في كتب النحو والبلاغة، وأصبح الشعر هَمَّ الليل والنهار» («تجربتي مع الإبداع»، **الهلال**، يونيه ١٩٩٤م).. وأشار إلى مثل هذا أيضاً في **الأهرام** ٢٥/ ٦/ ١٩٩٦م.

... ...

---

(١) هو الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط، في أبياتٍ قالها في مقتل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وقبل البيت المذكور أعلى:

هُمُ قتلوه كي يكونوا مكانَه كما غَدَرتْ يوماً بكسرى مَرازِبُـه

(٢) وَزَع، من باب وَضَع، وَزْعاً: كفَّ ومَنَع وزَجَر.

وبعد...

فقد كتب الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي كلامه هذا، الذي أدرتُ عليه مقالتيَّ، بجريدة **الأهرام** يوم ٢٦/ ٦/ ١٩٩٦م، وتأخر ردي عليه إلى هذا الوقت؛ لأني كنت أريد أن أُمَهِّدَ له العذر.. لعله يستدرك ما فرَط منه، أو يفسِّر ما أَشكل على الناس من كلامه! ولم يفعل الأستاذ حجازي شيئاً من ذلك. ولكنه على العكس.. حشد في صفحته في الأسابيع التي أعقبت مقالته، طائفة من كتابات القراء: رِضًا عما كتب، وحفاوةً بما قال!

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

القسم الثاني

الأبحاث

استثمار التراث في تدريس النحو العربي[(١)]

النحو علمٌ بقوانينَ يُعـرَف بها أحوالُ التركيب، من الإعراب والبناء وغيرهما. ويذكر ابن خَلدون أن «أركان علوم اللسان العربي أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب»، ثم يقول: «والذي يتحصَّل.. أن الأهم المقدَّم منها هو النحو؛ إذ به تتبيَّن أصولُ المقاصد بالدلالة، فيُعرف الفاعلُ من المفعول، والمبتدأُ من الخبر. ولولاه؛ لجُهل أصلُ الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدُّم.. لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير، بخلاف الإعراب الدالِّ على الإسناد والمسنَد والمسنَد إليه، فإنه تغيَّـر بالجملة، ولم يبق له أثرٌ. فلذلك كان علمُ النحو أهمَّ من اللغة؛ إذ في جهله الإخلالُ بالتفاهم جملةً. وليست كذلك اللغة».

---

(١) جمُع في: في اللّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، ٢/ ٤٩١: ٥٤٥. ولم يُذكر هناك مكانُ نشره أولَ مرة. وإن كان الطناحي ذاته ذكر في ثانية مقالتيه المعنونتين «البيان.. والطريق المهجور» (والسابقة معنا في القسم الأول من هذا الكتاب) أنه تقدم به إلى ندوة عن «مستقبل التعليم في مصر» أقامها، قبل خمس سنواتٍ من نشر مقالته هذه (إبريل ١٩٩٥م)، نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسيوط (انظر ما سبق ص ١٢٨، ١٢٩). فيكون تاريخ هذا البحث في حدود سنة ١٩٩٠م تقريباً. والله أعلم.

وأعيد هنا التنبيه إلى ما ذكرتُ في تقديمي (ص ٢٣).. حيث أحافظ في هذا القسم الثاني على تخريجات الطناحي وتعليقاته كما هي في الحواشي.

أما ما يكون من حاشيةٍ كاملةٍ لي في هذا القسم؛ فأجعل في آخرها اسمي الأول بين معكوفتين.

وما يكون من زيادةٍ لي في حاشيةٍ من حواشي الطناحي، وَسْطَ كلامه أو آخِرَه (بحسَب المقتضِي)؛ فيكون بين معكوفتين. وفي ختام تعليقي أضع نقطةً يليها اسمي الأول، ثم أغلق المعكوفة الثانية. [أحمد].

ثم يقول: «... فاستنْبَطوا من مجاري كلامهم قوانينَ لتلك المَلَكة مُطَّردةً، شِبْهَ الكليّات والقواعد، يقيسون عليها سائرَ أنواع الكلام، ويُلحقون الأشباهَ بالأشباه.. مثل أن الفاعل مرفوعٌ، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوعٌ. ثم رأوا تغيُّر الدلالة بتغيُّر حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيُّر عاملاً.. وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيَّدوها بالكتاب وجعلوها صناعةً لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»(١).

[الأصل الديني في وَضْع النحو]

وتشير بعض الروايات في سبب وضع النحو إلى سبب دينيٍّ قوي، هو سَرَيانُ اللحن إلى كلام ربنا عز وجل، فيما رُوي أن رجلاً قرأ آية سورة التوبة [الآية ٣]: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ القراءة بالضم.. قرأها الرجل «ورسولِه» بالجرّ، فقال أعرابيٌّ حين سمعها بالجرّ: أو قد بَـرِئَ اللهُ من رسوله؟! إن يكنِ الله بَـرِيء من رسوله؛ فأنا أبرأ منه! فبلغ عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مقالةُ الأعرابيّ، فصحَّحها له، ثم أمر ألا يُقرِىء القرآنَ إلا عالمٌ باللغة.

ويروون أيضاً أن عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ سمع أعرابيًّا يقرأ قوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٧].. قرأها «الخاطئين»، ففزع ـ رضي الله عنه ـ، ثم وضع مقدمة في النحو، وأعطاها لأبي الأسود الدُّؤَلي (المتوفي سنة ٦٩هـ)، وقال له: «انْحُ هذا النحوَ».

ومهما يكن من أمر.. فقد اتجه العلماء في وقت مبكِّر جدًّا إلى التأليف في علم

(١) مقدمة ابن خَلدون، ص٥٤٥، ٥٤٦.

(١) مقدمة ابن خَلدون، ص٥٤٥، ٥٤٦.

النحو، في رسائل صغيرة وأوراق معدودة، على ما هو معروفٌ في بدايات الأشياء، إلى أن جاء عبقري العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي، فمَهَد الطريق لِسِيبَـوَيْــه.. إمامِ النحو الأول.

يقول ابن خَلدون: «ثم كتب فيها الناسُ (أي في صَنعة النحو) مِن بعده (أي من بعد أبي الأسود الدؤلي)، إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيامَ الرشيد، وكان الناس أحوجَ إليها لذهاب تلك الملَكة من العرب.. فهذَّب الصناعة، وكمَّل أبوابها. وأخذها عنه سِيبَـوَيْــه.. فكمَّل تفاريعها، واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابَه المشهور الذي صار إماماً لكلِّ ما كُتب فيها من بعده»[1].

وبهذا يكون النحوُ هو أولَ علم عربيٍّ صُنِّف فيه، فصار بذلك مَـلاكَ العربية وقِوامَها. يقول أبوالعباس أحمد بن يحيى الثعلبي[2]: «لا يصحُّ الشعرُ، ولا الغريبُ، ولا القرآنُ.. إلا بالنحو. النحوُ ميزانُ هذا كلِّه». وقال: «تعلَّموا النحو.. فإنه أعلى المراتب»[3].

وقال أبوبكر الشَّنْتَـريني: «لو[4] لم يكن من فضائل هذا العلم إلا أن صاحبه مترشِّحٌ لقَبول سائر العلوم، مستطيلٌ عليها، متصرِّفٌ فيها، مالكٌ لأزمَّتها، لا يتعذَّر عليه شيءٌ منها، هذا.. مع استغنائه عنها، وافتقارها إليه! وقد سُمِّي «العِلمَ المستطيل»! في خبرٍ يُرْوَى عن أبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد ـ رحمه الله ـ.. قال: كنت عند أبي

(١) **المقدمة**، ص٥٤٧. وانظر حديث هذه الأوراق التي تنسب إلى عليٍّ وأبي الأسود، في: **إنباه الرواة**: ١/ ٤:٩.

(٢) هكذا. والمشهور في لقب هذا الإمام اللغوي، صاحب **المجالس** وغيره، أنه «ثعلب». والله أعلم. [أحمد].

(٣) **مجالس ثعلب**، ص٣١٠.

(٤) لم يأت لـ«لو» بجواب، وهو فصيح صحيح. وجواب «لو» يُحذَف كثيراً لفهمه من سياق الكلام. والتقدير هنا: لكان [أي علم النحو. أحمد] كافياً. ومنه قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[الرعد: ١٨]، أي: لكان هذا القرآن.

العباس أحمد بن يحيى الثعلبي[١]، فتذاكرنا العلوم، فقال لي: يا أبابكر.. شُغِلتم أنتم بتعليم القرآن؛ ففُزتم، وشُغِل أهل الفقه بالفقه؛ فنجَوا، وشُغلت أنا بزيدٍ وعمرو! وما أدري ما يكون أمري غداً مع الله عز وجل! وبكى بكاءً شنيعاً. فانصرفت من عنده. فرَأيت في تلك الليلة محمد بن أحمد بن غالب الزاهد في النوم، فقال لي: يا أبا بكر: أتعرف أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلباً؟ فقلت: صاحبُنا. قال لي: إذا كان غداً؛ فاقرأ عليه من الله السلام، وقل له: أنت غداً في القيامة صاحبُ العِلم المستطيل. قال أبوبكر بن مجاهد: يعني بقوله ـ والله أعلم ـ «العلم المستطيل» أنه يستطيل به على سائر العلوم، وأن سائر العلوم فقيرٌ إلى النحو»[٢].

[تعلُّم النحو قبل تعلُّم الحديث النبوي]

وكانوا يقدِّمون النحو على الحديث. ذكر الخطيب البغدادي بسنده إلى عيَّاش بن المغيرة بن عبدالرحمن، عن أبيه، قال: «جاء الدَّرَاوَرْدِيُّ ـ يعني عبدالعزيز بن محمد إلى أبي يعرض عليه الحديث، فجعل يقرأ ويَلْحَن لحناً منكراً، فقال له أبي: ويحك يا دَرَاوَرْدِيُّ! أنت كنتَ بإقامة لسانك قبل هذا الشأن أحرى!».

وبسنده إلى حاجب بن سليمان قال: «سمعت وكيعاً يقول: أتيتُ الأعمش أسمع منه الحديث، وكنت ربما لـحَنْتُ، فقال لي: يا أبا سفيان.. تركتَ ما هو أولى من الحديث! فقلت: يا أبامحمد.. وأي شيء أولى من الحديث؟! فقال: النحو. فأملى عليَّ الأعمشُ النحوَ، ثم أملى عليّ الحديث».

(١) تتبعتُ هذه الواقعة فيما تيسر لي من مصادر (ومنها: **تاريخ بغداد، معجم الأدباء، إنباه الرواة على أنباه النحاة، سير أعلام النبلاء، تاريخ الإسلام**).. فلم أجد في شيء منها «الثعلبي»، بل كلها متفقة على «ثعلب». [أحمد].

(٢) **تنبيه الألباب على فضائل الإعراب**، ص٦٨، ٦٩. ويقال: إن المرئيَّ في النوم، في هذه الحكاية هو النبي ـ ﷺ ـ. راجع حواشي المحقِّق.

وبسنده إلى المازني قال: «سمع أبوعمرو أباحنيفة يتكلم في الفقه ويلَحَن، فأعجبه كلامُه، واستقبح لحنَه.. فقال: إنه لخَطَّاب.. لو ساعده صَواب! ثم قال لأبي حنيفة: إنك لأحوجُ إلى إصلاح لسانك من جميع الناس»(١).

وبسنده إلى شُعبة قال: «من طلب الحديث فلم يُبصِرْ العربية؛ فمثَلُه مثَلُ رجلٍ عليه بُرْنُس(٢) وليس له رأس!».

وإلى حَمَّاد بن سلمة قال: «مَثَلُ الذي يطلبُ الحديث ولا يعرف النحو مَثَلُ الحمار: عليه مِخْلاةٌ لا شعيرَ فيها!» (٣).

وذكر أيضاً بسنده إلى سالم بن قتيبة قال: «كنت عند ابن هُبَيْرَةَ الأكبر(٤)، فجرى الحديث.. حتى جرى ذِكْرُ العربية، فقال: والله ما استوى رجلان: دينُهما واحدٌ، وحسَبُهما واحد، ومروءتُهما واحدة.. أحدهما يَلْحَن، والآخر لا يَلْحَن! إنَّ أفضلَهما في الدنيا والآخرة الذي لا يَلْحَن. قلت: أصلح الله الأمير.. هذا أفضلُ في الدنيا لفضلِ فصاحته وعربيته، أرأيتَ الآخرة.. ما بالُه فُضِّل فيها؟ قال: إنه يقرأ كتاب الله على ما أنزله الله، وإن الذي يلحن يحمله لحنُه على أن يُدخلَ في كتاب الله ما ليس فيه، ويُخرجَ منه ما هو فيه. قال: قلت: صدق الأميرُ وبَرَّ»(٥).

---

(١) أدار الشيخ محمد زاهد الكوثري ـ رحمه الله ـ كتابه الحافل **تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب** على نقض مثل هذه الرواية الثالبة في الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ رضي الله عنه ـ، ودارت بينه وبين بعض معاصريه، كالشيخ عبدالرحمن بن يحيى المُعلِّميّ اليمانيّ وغيره، مساجلاتٌ طويلةُ الذيل، متشعِّبةُ الأودية، حول هذا الموضوع وما إليه. [أحمد].

(٢) «البُرْنُس»: قَلَنْسُوةٌ طويلةٌ. أو هو كل ثوبٍ رأسه ملتصقٌ به، كما هو الزي المغربي الشهير. [أحمد].

(٣) **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ٢/ ٢٦، ٢٧.

(٤) هو عمر بن هُبَيرة بن معاوية الفَزاريّ، أبوالمثنَّى، أمير العراقَينْ [العراقان: الكوفة والبصرة. أحمد]، مات سنة سبعٍ ومائة تقريباً. **المعارف**، ص٤٠٨، و: **سير أعلام النبلاء**، ٤/ ٥٦٢.

(٥) **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ٢/ ٢٥، ٢٦.

[النحو إمامُ كلِّ فنٍّ وأمامَـه!]

وقد صار النحو بهذه المثابة إماماً لكلِّ فن، ومقدَّماً على كلِّ عِلم. وأصبح التقصيرُ فيه، والإخلالُ بقواعده، وإهمالُ ضوابطه.. مَجْلَبَةً للنقص، ومَدْعاةً للإزراء. وصار مرتكب ذلك منقوصَ الحظِّ من الكمال، مشنَّعاً عليه في كل مكان. وترى في كتب تراجم العلماء عبارات مثل «وكان يَلْحَن»، «وكان لُـحَـنَة»، «وكان ربما يقع منه اللحْن»! ونصوا على ضعف بعض الأئمة في النحو، كالذي نراه في ترجمة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ[١]. وذكر تاج الدين السُّبكي في ترجمة الإمام أبي حامد الغزالي، قال: «ومما كان يُعترَض به عليه وقوعُ خللٍ من جهة النحو، يقع في أثناء كلامه. ورُوجعَ فيه.. فأنصف من نفسه، واعترف بأنه ما مارسَ ذلك الفن، واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه...»[٢].

وكذلك ذكر ابن فَرْحون في ترجمة الفقيه المالكي الشهير محمد بن القاسم بن شعبان (المتوفَّى سنة ٣٥٥هـ).. قال: «وكان يلحَن، ولم يكن له بصرٌ بالعربية، مع غزارة علمه».. هذا مع قوله عنه: «وكان واسعَ الرواية، كثيرَ الحديث، مليحَ التأليف، شيخَ الفتوى، حافظَ البلد، وإليه انتهت رئاسة المالكيين بمصر»![٣].

وكانوا يضربون أولادهم على اللحن، كالذي يُروى عن علي بن أبي طالب أنه كان يضرب الحسن والحسين على اللحن، ومثلُه ما رُوِي عن ابن عمر أنه كان يضرب ولده على اللحن، ولا يضربهم على الخطأ[٤].

---

(١) وَفَـيَات الأعيان، ٥/ ٤١٣، و: الطبقات السَّنيّة في تراجم الحنفيّة، ١/ ١٣٢.
[وراجع تعليقي السابق قريباً حول كتاب الكوثري في نقض مثل هذه المرويات. أحمد].

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ٦/ ٢١١.

(٣) الدِّيباج المذهَّب، ٢/ ١٩٤.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي، ٢/ ٢٨، ٢٩، و: إيضاح الوقف والابتداء، ص٢٤، و: بهجة المجالس، ١/ ٦٤.

بل إنهم كانوا يتحرَّون الصواب في المواقف الصعبة الحرِجة.. جاء في خبر محنة الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ لحمله على القول بخلق القرآن.. قال الراوي: «وأخبرني رجل أحضره أنه تفقَّده في هذه الأيام الثلاثة، وهم يناظرونه، فما لَـحَن في كلمة!» (١).

ومن هذا.. ما رُوِي أن النَّضْر بن شُمَيْل مرض يوماً، فدخل الناس يعودونه، فقال له رجل من القوم: مسح الله ما بك. فقال النضر: لا تقل: «مسح»، ولكن قل: «مصَح» الله ما بك.. ألم تسمع قول الأعشَى:

وإذا ما الخمرُ فيها أزبدتْ أَفَلَ الإزبادُ فيها فمَصَحْ (٢)

وبعض إخواننا إنما يستحضرون مثل هذه الروايات في مجالس الأنس والمسامرة ليس غير! وقد يتظرَّف بعضهم فيقول: «إنت في إيه ولا في إيه؟!»! وما علموا أنه تاريخ قوم يحترمون لغتهم، ويعرفون لها حقَّها من دقة النظر، وكريم الرعاية.. في الـمَنْشَط والـمَكْرَه، وعلى اليُسْر والعُسْر!

وقال ابن فارس: «وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابَهم بعض الذنوب! فأما الآن؛ فقد تجوَّزوا.. حتى إن المحدِّث يُحدِّث فيَـلْحَن،

---

(١) **طبقات الشافعية الكبرى، ٢/ ٥٠.**

[أقول: الظاهر أن اللحْن في هذه الرواية هو بمعنى الـمَيْل أو التعريض والإيماء، ومنه قوله ـ تعالى ـ عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وليس بمعنى الخطأ في اللغة والقواعد. فالكلام عن صلابة الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ، واستمساكِه بما يعتقده الحقَّ وعدمِ انحرافه عنه أدنَى انحرافٍ، ولو تعريضاً.. يمكن أن يكون مُنْجياً في ذِروة المحنة.. لكنه يخالف معتقَدَه. والله أعلم. أحمد].

(٢) **طبقات النحويين واللغويين، ص٦٠.**

[والـمَصْح: الذهاب والانقطاع، تقول: مَصَح الله مرضَك ومصَّحه. وهو أقوى من مجرد «الـمَسْح». أحمد].

والفقيه يؤلِّف فيَـلحن، فإذا نُـبِّها؛ قالا: ما ندري ما الإعراب، وإنما نحن محدِّثون وفقهاء. فهما يُسَرَّان بما يُساء به اللبيب!»[١].

وقيل للحسن البصري: إنَّ لنا إماماً يلحن. فقال: أخِّروه[٢].

وكان من يُنسَب إليه اللحن يجزع جزعاً شديداً! رُوِي أن الحجَّاج بن يوسف (وكان من أفصح الناس، بل يقال: إنه كان بقيّة الفصاحة![٣]) قال ليحيى بن يَعْمُر[٤]: أتسمعني ألحنُ؟ قال: الأميرُ أفصحُ الناس. فأعاد عليه. قال: حَرْفاً. قال: أين؟ قال: في القرآن. قال: ذلك أشنَعُ! فما هو؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].. قرأها بالرفع [«أحبُّ إليكم»]، والوجه أن يقرأ «أحبَّ إليكم» بالنصب على خبر كان. فغضب الحجاج، وقال له: لا جَرَمَ! لا تسمعُ لي لحناً أبداً![٥]. ونفاه إلى خراسان!

ويروون أيضاً أن محمد بن سليمان الهاشمي، والي البصرة، غَلِطِ يوماً فقرأ على المنبر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قرأها برفع «وملائكتُه»، ثم استحيا أن يرجع، ثم أرسل إلى النحويين، فقال: احتالوا لي. فقالوا: عطفْتَ «وملائكتُه» على موضع «الله» وموضعه رفع. فأجازهم. ولم تزل قراءتَه حتى مات، وكره أن يرجع عنها فيقال: إن الأمير لَحَن!

---

(١) **الصاحبي**، ص٥٦.

(٢) **إيضاح الوقف والابتداء**، ص٢٩.

(٣) **تفسير أسماء الله الحسنى**، للزجَّاج، ص٣٦.

(٤) سبق هذا الخبر في كتابنا هذا (ص١٥٥)، وثمة تعليقٌ على قول الحَجَّاج: «لا جَرَمَ». [أحمد].

(٥) **طبقات فحول الشعراء**، ص١٣، و: **تنبيه الألباب**، ص١٢٨، وحواشيه.

وفي رواية عن الأخفش الكبير.. قال: إنْ[١] كان أمير البصرة يقرأ: «إن الله وملائكتُه» بالرفع، فيَلحَن، فمضيتُ إليه ناصحاً له، فزَبَرني وتوعَّدني، وقال: تُلحِّنون أمراءكم؟![٢].

ولم نَرَ هذا التبشُّع وذلك التشنيع على من قصَّر في علم آخر من علوم العربية! فلم نقرأ أن فلاناً كان مقصِّراً في علم البلاغة؛ أو أن فلاناً كان قصير الباع في الأدب، أو أنه كان لا يعرف علم الكلام أو أصول الفقه. بل إن تقصير الأصمعي في علم العَروض في قصته المعروفة مع الخليل بن أحمد [٣].. لم يُـزْرِ به، ولم يُنزله عن مكانته العليا التي اقْتَعَدها في العربية!

وهكذا كان النحو ـ منذ أن عُرِف ـ إمامَ كلِّ علم، وأساسَ كلِّ بناء، وتوشك معرفته أن تكون فرضَ عين على كلِّ من انتسب إلى العربية، أو كتب فيها حرفاً[٤].

---

(١) بالأصل المطبوع زيادة «إنْ» قبل «كان» هذه، وليست موجودةً في **مجالس العلماء** (نسخة عبدالسلام هارون التي يعتمدها الطناحي). [أحمد].

(٢) **مجالس العلماء**، ص٥٤.

[إصرار الوالي على القراءة بوجهٍ لم يَـرِدْ متواتراً اجتراءٌ عظيمٌ، لا يجوز. وأيضاً: صنيعُ النحويين بالاحتيال له، وتخريج خطئه في القراءة على لغات العرب خطأٌ شَنيعٌ، لا يجوز ديناً.. وإن جاز لغـةً. في هذا الموضوع.. انظر مثلاً: **القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي**، د. محمود أحمد الصغير، دار الفكر/ دمشق، ط١/ ١٩٩٩م، ص ١٢٣، ٤٢٩. أحمد].

(٣) قصد الأصمعيُّ إمام العَروض الخليلَ بن أحمد ليتعلمه منه، فتعذر على الأصمعي، ويئس منه الخليل، فقال له يوماً: يا أبا سعيد.. كيف تقطِّع قول الشاعر:

إذا لـم تستطـعْ شيئـاً؛ فدعْه وجـاوزه إلى مـا تستطيعُ ـ ؟

ففهم الأصمعيُّ إشارة الخليل، وانصرف عن العَروض! انظر القصة في **خصائص ابن جِنِّي**، ١/ ٣٦٢،٣٦١. [أحمد].

(٤) أما «من كتب فيها حرفاً»؛ فأحسب أن معرفة ما لا يسع كاتباً الجهلُ به من قواعد العربية فرضُ عينٍ تأكيداً، لا احتمالاً! والله أعلم. [أحمد].

[تتابُع التصنيف في النحو وتنوعُه]

وقد تتابعت المصنَّفات فيه منذ سِيبَـوَيْــه إلى يوم الناس هذا، بين كتاب كبير يجمع مسائلَه وأبوابَه كلَّها، إلى موجزٍ يقف عند المبادئ وما لا يسَعُ الطالبَ جهلُه. ثم طُوِّع الشعر له، فكانت المنظومات النحوية.. بين قصيدٍ على قافية واحدة، إلى أرجوزة متعددة القوافي.. وبين نظمٍ في مسألة واحدة من مسائله، إلى نظمٍ يستغرق كل أبوابه ومسائله.

وتَشْغَلُ المصنفات النحوية في المكتبة العربية مكاناً ضخماً جدًّا، ربما لا يزاحمها فيه إلا ما صُنِّف في فن التاريخ بكل صوره: التاريخ العام، والتراجم، والطبقات.

ولابد من التنبه هنا إلى أن النحو ليس في كتبه المصنّفة فيه فقط، فهو مُنْداحٌ في المكتبة العربية كلها.. ففي كتب التفسير والقراءات نحوٌ كثير، بل إن الاحتجاج للقراءات المتواترة والشاذَّة يتَّكِيء كثيراً على النحو، وفي كتب الفقه وأصوله نحوٌ كثير، وفي معاجم اللغة وكتب البلاغة وشروح الشعر نحوٌ كثير. بل إنك واجدٌ في بعض كتب السِّيَر والتاريخ والتراجم والأدب والمعارف العامة والطرائف والمحاضرات، من مسائل النحو وقضاياه ما لا تكاد تجد بعضه في كتب النحو المتداولة! واقرأ إن شئت: **الإمتاع والمؤانسة** و**مثالب الوزيرين** (كلاهما لأبي حيان التوحيدي)، و**رسالة الملائكة**، و**رسالة الغُفران**، و**الصاهِلُ والشاحِج** (الثلاثة لأبي العلاء المعري)، و**الرَّوْضُ الأُنُف** للسُّهَيلي، و**بدائع الفوائد** لابن قيم الجوزية، و**الغَيثُ المنسجِم في شرح لامية العجَم** لصلاح الدين الصَّفَدي... ثم انظر كم من مسائل النحو والصرف أفدتَ!

ومما يُستطرَفُ ذكره هنا أن الشاهد النحوي المعروف «أكلوني البراغيث»[1] لم

---

(١) لغة جمهور العرب في الفعل إذا كان فاعله أو ما ناب عنه اسمًا ظاهراً أن يُوحَّد، أي يلازم الإفراد، ولا تلحقه علامات التثنية والجمع، سواءٌ أكان الفاعل مفرداً أم مثنًّى أم جمعاً، فتقول: =

أجده منسوباً لقائل في كتابٍ من كتب النحو التي أعرفها، على حين وجدته في كتاب أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى **مجاز القرآن** منسوباً لأبي عمرو الهُذَلي(١).

وخُذْ كتاباً لُغويًّا مثل **المخصَّص** لابن سِيْدَهْ (وهو من معاجم المعاني كما عرفْتَ)؛ تجدْ فيه نحواً كثيراً وصَرْفاً كثيراً. بل.. إن هذا الكتاب اللغويَّ يُعدُّ توثيقاً كبيراً لآراء

= أكلتني (أو: أكلني.. لا فرق) البراغيث، و: ضربني قومُك، و: ضربني أخواك.

ولغة طيِّئ وأَزْد شَنُوءة وبني الحارث بن كَعْب: إلحاق الألف أو الواو أو النون بمثل هذا الفعل المسند إلى اسم ظاهر مثنًّى أو مجموعٍ مذكر أو مؤنث، على أنها حروفٌ دالةٌ على التثنية أو الجمع، لا ضمائر. وقد عُرِفَتْ هذه اللغةُ بلغة «أكلوني البراغيثُ»، وهو مثالها الأشهر ومحل تعليق الطناحي هنا. ويسمِّيها ابنُ مالك لغةَ «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ» (من حديث صحيح رواه البخاري).

ولهذه اللغة شواهدُ كثيرةٌ جدًّا: من القرآنِ المجيد، والحديثِ الشريف الصحيح، وشِعْرِ العَرَبِ الـمُحْتَجِّ بكلامهم الثابتِ النسبةِ إليهم؛ مما يَدُلُّ على أنَّ هذه اللغةَ ليستْ مهجورةً ولا بعيدةً عن الفصاحة. ولا نزال في عامِّية مصر، وكذا بعض الدول العربية، نقول: «ظلموني الناس»!

ومع هذا.. اختلف العلماء فيها: فمنهم مَنْ عدَّها لغةً حسَنةً وفاشية، ومنهم مَنْ عدَّها شاذةً وقليلة.

وقد اشتدَّ د. محمد أحمد الدالي في تقليلها والقول بشذوذها عن مِهْيَع العربية، وتأويل كل ما قيل إنه منها في القرآن والسنة، وردّ الشعر الآتي عليها إلى «الضرورة الشعرية»، في مقالٍ له بـ **مجلة مجمع اللغة العربية** بدمشق (المجلد ٦٨، ج ٣، سنة ١٩٩١م)، ثم ضَمَّنه كتابَه الحافل: **الحصائل في علوم العربية وتراثها: بحوثٌ ودراساتٌ ومقالاتٌ ونصوصٌ محقَّقة**، دار النوادر/ دمشق ـ الكويت، ط١/ ٢٠١١م، ١/ ٦٣ : ٨٨.

ومن المهم لي الإشارة إلى استفادتي في تحرير هذا التعليق بالحاشية الدقيقة التي صنعها محقِّقو كتاب **عِلَل الحديث** لابن أبي حاتم، وهم فريق من الباحثين بإشراف وعناية كلٍّ من: د. سعد بن عبدالله الحميد و د. خالد بن عبدالرحمن الجريسي، مطابع الحميضي/ الرياض، ط١/ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م، ٢/ ٣٢٢. بالإضافة إلى مقال الدالي المشار إليه آنفاً. [أحمد].

(١) **مجاز القرآن**، ١/ ١٠١، ٢/ ٣٤.

[وثمة موضع ثالث.. نسب فيه معمرٌ كلمة «أكلوني البراغيث» إلى أبي عمرو الهُذَلي: ١/ ١٧٤. أحمد].

أبي علي الفارسي في النحو والصرف، فقد أكثر من النقل عنه كثرةً ظاهرة(١).

وكذلك.. يرجع المشتغلون بالدراسات الصرفية كثيراً إلى **صَحاح الجوهري**؛ لما تضمنه من مسائل الصرف وقضاياه.

ـ تعلُّم النحو وتعليمه

تدلُّنا كتب التراجم على النهج الذي كان يسلكه الأوَّلون في تعلم النحو وتعليمه، وهو النهج المألوف في تلقي سائر العلوم والمعارف، والمتمثل في القراءة على الشيخ مؤلف الكتاب نفسه، أو من يقوم مقامه عِلماً وبصيرةً، كالذي نراه من إقراء المبرِّد **كتاب سِيبَوَيْه**(٢)، ثم ما يكون بعد ذلك من حفظ المتون والمنظومات، والعكوف على الشروح وإدامة النظر فيها، ومُفاتشِة أهل العلم، عن طريق الـمُدارَسة والمذاكرة، فيما سُمِّي بمجالس العلماء ومناظراتهم(٣).

[كُتُب النحو في عصر الطباعة]

وظل الحال هكذا على امتداد الأيام وتعاقُب الأزمان إلى أن ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان النحو من أوائل ما طبع من فنون التراث العربي..

---

(١) راجع مقدمة تحقيق **كتاب الشعر**، لأبي علي الفارسي، ص٤٩.

(٢) انظر شيئاً عن إقراء كتب النحو وسماعها، في: **فِهْرِسِت ابن خير الإشبيلي** ص٣٠٥ ـ ٣٢٠. و: **برنامَج الوادي آشي** ص ٣٠٥ ـ ٣٠٨.

[الوادي آشي الأندلسي هو محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي، شمس الدين، أبوعبد الله، المتوفى سنة ٧٤٩هـ. والـبَرْنامَج (وفيه لغة بكسر الباء والميم: الـبِرْنامِج، وهي الشائعة في عامِّية مصر وغيرها): معرَّب الكلمة الفارسية «بَـرنامَه». وتُطلق في الأصل على الورقة الجامعةِ حسابَ شيءٍ. وكثُر إطلاقها على التدوين الذي يُذكَر فيه الشيوخُ الـمُتَلقَّى عنهم العلم والكتبُ المقروءة. أحمد].

(٣) ترى نماذج من هذه وتلك في **مجالس العلماء** للزجاجي، و**الأشباه والنظائر** للسيوطي.

ففي روما بإيطاليا طُبع متن **الكافِيَــة في النحو** لابن الحاجب، سنة ١٥٩٢م، ثم تتابعت مطبوعات النحو في مطابع مصر والبلدان العربية وغيرها، بدءاً من **الكتاب**[١]

---

(١) وكانت أول طبعة له في باريس سنة ١٨٨١م. أرأيت كيف اهتم المستشرقون بأصول عِلْمنا؟!

[أرادني الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله على أن أحذف هذا التعليق لظنه أنني صاحبه. فلما أخبرته بأنه للطناحي؛ تعجب، ودار بيننا نقاشٌ مستَطرَدٌ.

هو لا يحب أن يُشار إلى القوم المستشرقين بما قد يُفهَم منه تقديرُ أعمالهم، التي كانت كلُّها ـ ولا تزال ـ في سياق خدمة المشروع الغربي لاستغلالنا وبلادنا ومواردنا، والبادئ منذ أولى «حمَلات الفِرنجة» (التي أطلق عليها الغزاةُ المعتدون أنفسُهم «الحمَلات الصليبية») أواخرَ القرن الخامس الهجري ٤٨٩ هـ/ أواخرَ القرن الحادي عشر الميلادي ١٠٩٦م، والمتواصل حتى يوم الناس هذا. وهذا مذهب أبي فهر الصارم في نقد المشروع الغربي «الإمبريالي» الاحتلالي التخريبي (ولا تقل: «الاستعماري»!): جذوراً وفروعاً، في رسالة **في الطريق إلى ثقافتنا وأباطيل وأسمار** وفي أثناء كثير من كتاباته وجهاده عمرَه كلَّه. كما أنه مذهب إدوارد سعيد، وإنْ على طريقته ورؤيته الخاصتين، لا سيما في كتابه الأهم **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق** (ترجمة طبعة عام ١٩٩٥ المزيدة. ترجمة د. محمد عناني، دار رؤية/ القاهرة، ط ١/ ٢٠٠٨م)، وكتابه **تعقيبات على الاستشراق** (ترجمة وتحرير صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت، ط ١/ ١٩٩٦م). ولا يعني هذا تطابُقَ رؤية كلٍّ من محمود شاكر وإدوارد سعيد في سياق نقد الاستشراق: منطلَقاتٍ، ومآلاتٍ؛ إذْ لا يقول بهذا مَنْ له أدنى معرفةٍ بالرجلين ورؤاهما. بل.. اتفق أنهما اجتمعا في هذه المسألة على أصل النقد وجِذْريته، دون ما نبَّهتُ إليه من «منطلَقات» كلٍّ و«مآلات» رؤيته. ولكلٍّ إحسانُه في سياقه.. رحمهما الله وأحسن إليهما.

ورأيي في كلمة الطناحي «التقديرية» هذه أنها من بابة التوسُّط في هذا الموضوع.

نعم.. بدأ «الاستشراق» من رَحِم المؤسسات الدينية الغربية (النصرانية، بصورةٍ أساسية)، وكان رجالُه في سياق «حمَلات الفِرنجة» بمثابة «سلاح الثقافة والمعرفة»، إلى جوار «سلاح المشاة» و«سلاح الفرسان» وغيرهما من أسلحة الجيوش المتعددة. ولكن لا يمكن التغافُل عن أن بعض الأمور يُتَناسَى أصلُ وضعها، لا سيما بعد مرور القرون العديدة. هذا التناسي ليس فقط من أجل مرور الزمان الطويل، بل ـ وأيضاً ـ لخروج هذه الأمور المتناسَى أصلُها عما وُضعتْ له في بادئ أمرها. ولا يعني هذا ـ قَـطُّ ـ الدعوةَ إلى النسيان، و«تسامح الاستضعاف الغافل».. فـ«ليس الغبيُّ بسيِّدٍ في قومه» (كما قال أبوتمَّامٍ رحمه الله). لكن هذا بيانٌ لواقعٍ حصل فعلاً.. دون حكمٍ قِيْمِةٍ عليه.

ونعم.. لا يزال (الآن.. ومنذ بدايات «العصر الحديث») ثمة مستشرقون في أجهزة المخابرات الغربية والأمريكية، يمثِّلون بعضَ ما كان يمثله أسلافُهم من قادة حمَلات الفرنجة الروحيين. ولكن لا يَحْسُن أن نغمِط مُجِيديهم حقَّهم من الثناء والاهتمام بجهودهم الكبيرة والكثيرة في خدمة تراثنا من نواحٍ متعددة. =

لسِيبَـوَيْـه، وانتهاء بـ **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**. ووجد الناس بين أيديهم قدراً هائلاً من المصنفات النحوية، شمل الموسوعات، مثل **كتاب سِيبَـوَيْـه**، **وشرح المفصَّل** لابن يعيش، إلى ما دونها من أوساط الكتب مثل كتب ابن هشام، ثم صغار المؤلَّفات، وهي الـمُتون، مثل **الآجُـرُّومية**.

وحين أخذ التعليم شكله الحديث في أوائل هذا القرن، ووُضِعت المناهج لتدريس مختلِف العلوم، برزت طائفة من كتب النحو القديمة تُدرَّس من خلالها هذه المناهج، وقد دارت هذه الكتب المقرَّرة في الجمهور الأعظم منها حول ابن مالك وابن هشام: أعني **شرح الألفية** لابن عقيل، **وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** لابن هشام، **ومنهج السالك إلى ألفية ابن مالك** للأشموني، مع كتب ابن هشام الأخرى، مثل **قطر الندى وشذور الذهب ومغني اللبيب**، إلى بعض الكتب الأخرى، مثل **شروح المفصل**[1] لابن يعيش، وبعض كتب الخلافيات، مثل **الإنصاف في مسائل الخلاف** لأبي البركات الأنباري.

= يجب علينا الحذَرُ والانتباه إزاء أية جهود يقوم بها غيرُنا في خدمة تراثنا، لكن ليس من المناسب (فضلاً عن أنه ليس من المفيد) أن نَهْدُر هذه الجهودَ، ونُزْري على أولئك المجتهدين.

والخلاصة، كما قال الطناحي ذاتُه، في مناسبةٍ قريبةٍ من هذه، أن «القَصْد هو الطريقُ المستقيم» (**الموجز في مراجع التراجم والبُلدان والمصنفات وتعريفات العلوم**، ص ١٣).

وبخصوص موقف الطناحي «المتوسط» هذا ـ في تقديري ـ.. فهو ليس بمستغرَبٍ منه؛ حيث عمل سنين عدداً، أوائلَ فُتوَّته وشبابه، مع بعض هؤلاء المستشرقين، وعرَف مواطنَ إحسانهم ومزلَّاتِ أقدامهم، وخبَرَ حَسَنَ نياتهم وسيِّئَها جميعاً. وهو في هذا مخالفٌ شيخَه أبافهر، ولم يَسْتَخفِ بمخالفته هذه في حياة أبي فهر. بل فَصَّلها، وأسندها بدلائلها التاريخية والشخصية، ودوَّنها في كتابه **مَدْخلٌ إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرةٍ عن التصحيف والتحريف** (مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ١/ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م، ص ٢٠٦ : ٢٨٣). وفي ص ٢١٦ : ٢٢٥ منه طرفٌ من تجربته الشخصية مع عدد من المستشرقين.

فالعفو من الحساني، والشكر له أن فتح لي باباً إلى هذه الإشارة! أحمد].

(١) وكانت أول طبعة له في ليبزج من سنة ١٨٧٦م إلى سنة ١٨٨٦م.

فهذه هي الكتب الأصيلة التي كان النحو يُدَرَّس من خلالها[١]. ولمن يريد التوسُّع والاستزادة كان هناك سيلٌ من الحواشي وكتب الأعاريب وشروح الشواهد مثل **خزانة الأدب** لعبدالقادر بن عمر البغدادي، و**شرح الشواهد الكبرى** للعَيْنيّ. وكانت وظيفة معلم النحو في تلك الأيام أن يسلكَ بطلبته دروب هذه الكتب، ويخوضَ بهم لُـجَجَها، ولم يكن مأذوناً له أن يلخِّصَ شيئاً من هذه الكتب بقلمه، أو يؤديَها بلسانٍ غير اللسان الذي كُتبت به. ولقد تخرَّج الجيلُ العظيم من نحاة ولُغويِّي مصر والبلدان العربية الأخرى من هذه المدرسة: مدرسة النصوص والكتاب القديم، وهو ما أسميه «جيل الـمُتون والحَفَظة».

[الأزهر الشريف هو موجِّه دراسة النحو في العصر الحديث]

ولا ينبغي أن يقال: إن هذا كان سِمَة التعليم الديني الذي هو امتدادٌ لحلقات المساجد[٢]، والذي تغلب عليه العربية كالذي في «الأزهر الشريف» و«دار العلوم»..

---

(١) هذا الرأي مَـبْنيٌّ على واقع الحال في الأزهر الشريف والمعاهد العلمية الأخرى بمصر. فلسنا نعرف على وجه اليقين كتب النحو التي كانت مقرَّرة في البلدان العربية الأخرى. فمع شيوع **ألفية ابن مالك**، حفظاً وشرحاً في قاعات الدرس بمختلِف البلدان، في العقود الأخيرة، فقد رأيت في أثناء زيارتي لليمن سنة ١٩٧٤م، الصبيانَ في الجامع الكبير بصنعاء يُحَفَّظُون ويتدارسون **مُلْحة الإعراب** للحريري صاحب **المقامات**. وهذه الـ**مُلْحة** أشهر نظمٍ نحوي قبل نظم ابن معطي وابن مالك. وكان مشايخنا رضوان الله عليهم مع اشتغالهم بتدريس **ألفية ابن مالك**، يستشهدون لنا بشيء من هذه الـ**مُلحة**، ومن ذلك قوله:

والحرفُ ما ليستْ له علامَةْ فِقِسْ على قولي؛ تكُنْ عَلاَّمَةْ

(٢) بل لنا أن نتصور أن بعض الكتب النحوية الموجزة التي طبعت بالمغرب العربي كانت من المقررات المدرسية على طلبة العلم هناك، مثل **الجُمَل** للزجَّاجي الذي طبع أول مرة بالجزائر سنة ١٩٢٦م، و**تنبيه الألباب على فضائل الإعراب وتلقيح الألباب في عوامل الإعراب**، كلاهما لأبي بكر الشَّنْـتَريني، وقد طبعا في فاس طبعةً حجرية سنة ١٣٢٣هـ [توافق: ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦م. أحمد]. [وقد] أدركنا من مشايخنا من تلقى تعليمه في المساجد، وقد حدثني شيخي الجليل عبدالسلام هارون ـ رحمه الله ـ أنه تلقى تعليمه الأزهري =

فإنه[1] المتتبع لتاريخ التدريس النحو لتلاميذ المدارس، في التعليم العام أو الأميري، يعلم أن «الأزهر الشريف» كان موجِّها لتعليم النحو في المدارس ومهيمناً عليه. فهذا الكتاب الشهير **الدروس النحوية** الذي ألَّفه الأساتذة حفني بك ناصف ـ وهو متخرِّج في «الأزهر» ـ ومحمد أفندي دياب، والشيخ مصطفى طموم، ومحمد أفندي صالح[2]،

= الأوّلي بجامع إبراهيم باشا أغا، الكائن بحيّ باب الوزير بالقاهرة. وكان بجواره أيضاً من معاهد العلم: مسجد المارداني، أو مسجد المؤيَّد. [وأيضاً.. تلقَّى أبوفهر ـ رحمه الله ـ بعض علومه في الجامع الأزهر، لا سيما في السنة التالية رسوبَه في «الابتدائية الأميرية». ومما تلقاه في الجامع الأزهر، غير علوم اللغة والأدب، الفقه الحنبلي.. رغم أن أسرته كلها حنفيةُ المذهب، لكن أباه الشيخ محمد شاكر ـ وكيل مشيخة الجامع الأزهر ـ وجَّهه لدراسته! أحمد].

(١) هكذا في الأصل المطبوع. ولعل الصواب: فإن. [أحمد].

(٢) وفي المستوى الرابع (والأخير منه) انضم الأستاذ محمود عمر بدلًا من الأستاذ محمد صالح، الذي ربما كان قد توفي حينها، رحمهم الله جميعاً.

وإنما ذكرتُ هنا «المستوى»، لا «الجزء»؛ لأن مادة النحو مُصنَّفةٌ في هذا الكتاب العظيمِ القدْر أربعة مستويات، بحسَب التدرُّج الدراسي، وفي الرابع منها أضيفت مسائل الصرف. وكانت «بدعةً حسَنةً في الترتيب» آنذاك، كما قال المؤلفون في صدر المستوى الرابع.

وقد تَحسُنُ هنا الإشارة إلى الثناء العاطر على هذا التصنيف المعلِّم من قِبَل اثنين من أعلام العربية والأدب في القرن العشرين.. حيث قال فيه الأستاذ علي الطنطاوي (١٣٢٧ ـ ١٤٢٠ هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩٩٩م): «هذا الكتاب يغني الطالب (بل الأديب، بل المدرِّس) عن النظر في غيره!» (**ذكريات**، ١/ ١٥٥)، وقال الأستاذ سعيد الأفغاني (١٣٢٧ ـ ١٤١٧ هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩٩٧م): «أقدِّر الآن، وقد أمضيتُ في تدريس النحو خمساً وخمسين سنةً، أن هؤلاء الأخيار سَلَخوا في عملهم هذا الكتابَ، الضئيلَ الحجم الغزيرَ النفع، أوقاتاً مديدةً جدًّا: يَنخُلون ما بأيديهم، ويُصَفُّونه (...)، حتى خلَص لهم (...) نَحوٌ ميسَّرٌ سليم» (مجلة **الفيصل**، المملكة العربية السعودية، العدد ١٨). وقد قرأتُ هذين الثناءينِ قديماً، ثم أذْكَرَنيهما صنيعُ ناشر الكتاب، في طبعته الكاملة في مجلدٍ واحد، وهي الوحيدة مجموعةً بحسَب علمي (نشر دار إيلاف الدولية/ الكويت، ط١/ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م)، حيث وضعهما في غلاف نَشْرته الـخَلْفيّ.

وبخصوص ذكر الأستاذ الأفغاني.. أنقل عنه روايةً عن د. محمد حسَّان الطَّيَّان، بالسماع المباشر، قوله: «ما من كتابٍ بعد **كتاب سيبويه** خيرٌ من كتاب **قواعد اللغة العربية**»، يعني كتاب **الدروس النحوية** هذا. وهذه كلمةٌ خطيرة! انظر: **العربيةُ وطرائقُ اكتسابها**، للطَّيَّان، تحرير: أحمد عبدالرحيم، منتدى النهضة =

كُتب عليه هذه العبارة: «قرَّرت نظارة المعارف العمومية سنة ١٣٠٤هـ[١] طبْعَه على نفقتها بعد تصديق شيخ الجامع الأزهر[٢]».

ولنتأمل الكتب التي كانت مقررة على تلاميذ المدارس في تلك الأيام:

المصباح المنير للفيومي (المتوفى سنة ٧٠٠ هـ) كتب على طبعته الصادرة سنة ١٩٠٩م: «قررت نِظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الأميرية».

والبخلاء للجاحظ، طبعة خاصة لتلاميذ المدارس الثانوية سنة ١٩٣٨م، أصدرها أحمد العوامري بك، وعلي الجارم بك.

ونَـقْد النثر المنسوب لقُدَامة بن جعفر، من أدباء القرن الرابع الهجري (وثبت فيما بعد أنه **البرهان في وجوه البيان** لابن وهب)، الذي نشره الدكتور طه حسين والأستاذ عبدالحميد العبَّادي سنة ١٩٣٧م، وقد قررته وزارة المعارف المصرية لطلاب السنة الخامسة التوجيهية.

إلى طائفة أخرى من الكتب المشحونة بالنصوص، مثل **مجموعة النَّظْم والنثر** لعبدالله باشا فِكْري، و**المنتخب من أدب العرب**[٣].

= والتواصل الحضاري/ الخرطوم ـ السودان، ط١/ ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م، ص ٧٤. (وقد سهوتُ عن تصحيح عنوان كتاب **الدروس النحوية** في تعليقي هناك!). [أحمد].

(١) توافق: ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧م. [أحمد].

(٢) هو الشيخ محمد الإنبابي، شيخ الجامع الأزهر وقتَ الطبعة الأولى من المستوى الأول.

(٣) مختارات راقية من روائع الشعر والنثر عبر العصور، في أربعة أجزاء (أو: مستويات، كما سبق في التعليق على **دروس النحو**)، قررتها وزارة المعارف على طلبة الثانوية، وقد قررتها قبل «انقلاب يوليو ١٩٥٢م» بسنين عديدة، والنسخة التي بمكتبتي نسخة سنة ١٩٥٤م، ولم أقف على تاريخ وقف توزيعها على الطلاب. وقد اشترك في جمعها وشرحها كلٌّ من (بحسَب ترتيب الغلاف): أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، عبدالعزيز البِشْري، د. أحمد ضيف. [أحمد].

[تدريس النحو من الكتب القديمة]

وهكذا كان تعليم النحو والعربية في مصر أيام عزّها ومجدها من خلال الكتاب القديم، أو الكتاب الحديث المؤسَّس على الكتاب القديم، والماضي في طريقه.

على أن تلاميذَ المدارس هؤلاء كانوا يتصلون بالكتاب القديم اتصالاً وثيقاً حين يصلون إلى المرحلة الجامعية، فقد كانت أقسام اللغة العربية بكليات الآداب والمعاهد العليا في ذلك الزمان لا تعرف غير الكتاب القديم سبيلاً لتعليم النحو والعربية. ومن هنا عرفنا نحاةً ولُغويِّين كباراً من خارج «الأزهر» و«دار العلوم».

وفي تلك الأيام كان اللسان العربي محروساً لا يَـتداخَلُه الخلَل، محُكَما لا يتطرق إليه الزَّلَل. ثم كان بيان الناس يجري على الجادَّة: استقامةً في التراكيب، وسلامةً في مخارج الحروف وصفاتها، ورعايةً للضوابط والقواعد، واحتراماً ومَهابةً للنظام اللُّغوي والنحوي.

وفي تلك الأيام أيضاً لم يكن أحدٌ يتحدث عن «صعوبة النحو»، ولا عن «تيسير النحو». إلى أن فُتح هذا الباب.. فولَجَ من وَلَج، ونُقب ذلك النَّقْب! فتدَسَّس من تدسَّسَ، وتطاير شَـرَرٌ كثير، وسهرت أعينٌ ونامت عيونٌ[1]: سهرت أعيُن مكراً ودهاءً، تريد أن تُشعل الحرائق في تراث أربعةَ عشرَ قرناً من الزمان (والنحوُ مَـلاكُ

(١) الأعين: جمعُ قِلَّة، والعيون: جمع كَثْرة. وقد يكون هذا التنويعُ إشارةً ذكيةً، لا تُستَغرَب من مثل الطناحي، إلى أن الأعين الساهرة على تنفيذ مخططات الإفساد والهدم فعَّالةٌ على قِلَّتها، وأن العيون الغافلة الساهية ـ على كثرتها ـ لا تَصُدُّ مفسِداً ولا تَردَع هادماً! والـشِّكايةُ إلى الله تعالى! ثم.. لا تفوتني الإشارة هنا إلى أن أسلوب الطناحي في هذه الفقرة ينزِع إلى أسلوب شيخه الأكبر أبي فِهْر ـ رحمة الله عليهما ـ الراقي معنًى ومبنًى، لا سيما في **رسالةٌ في الطريق إلى ثقافتنا** وصدرِ كتابه الماتع **المتنبي** المعنون «قصة هذا الكتاب»، حيث أفاض في بعض تفاصيل هذا الدَّسِّ وذلك الشَّرَر، وهذه الغفلة وذلك السَّهَر! [أحمد].

العربية وقِوامُها، كما حدثتُك من قبل).. ونامت عيونٌ غَفلةً وبَلاهةً عما يُراد بتراث هذه الأمة، إذ جاء الـهَدْمُ في مِسْلاخ[١] التجديد!

والغريب حقًّا ـ وهو ما لا يختلف عليه اثنان ـ أن أمر النحو قد أخذ في الضعف بعد ظهور فكرة «تيسير النحو» و«تسهيله» وكلما مضينا في التيسير خطوة تأخر الإحساس بالنحو خطوات، وكأن تيسيرَ النحو والضعفَ فيه وجهان لعُملةٍ واحدة، كما يقول الناس في كلامهم هذه الأيام!

ومما لا يختلف عليه اثنان أيضاً أن أساتذتنا الأكرمين وزملاءَنا الأفاضل الذين كتبوا الدراسات الحديثة في النحو واللغة، وشرَّقَتْ كتبُهم وغرَّبتْ، ينتمون جميعاً إلى «جيل الـحَـفَظة».. حَفَظة القرآن الكريم والـمُتون والحواشي والمصطلحات القديمة. ولولا هذا الأساسُ المتين ما استطاعوا أن يَـفْقَهوا النحو ويَـبْـرَعوا فيه، ثم يكتبوا مذكراتهم ومختصراتهم، وأيضاً نقدَهم للفكر النحوي. ولو أنهم تربّوا من أول أمرهم على مناهج تيسير النحو وتسهيله، ثم قرؤوه من خلال المذكرات والمختصرات؛ لَـمَـا فَقِهوا ولَـمَـا برعوا!

ولقد أذكر ويذكر أبناء جيلي، والجيل الذي تقدمني بقليل، أننا تعلَّمنا النحو من خلال الكتاب القديم، على هذا السياق وبذلك الترتيب: **التحفة السَّنيّة بشرح المقدمة الآجُـرُّومية ـ تنقيح الأزهرية**، وهي مقدمة الشيخ خالد الأزهري (**والتحفة والتنقيح** كلاهما من عمل الشيخ الجليل محمد محيي الدين عبدالحميد[٢]، رحمه الله) ـ **قطر الندى**

---

(١) المِسْلاخ: جِلْدُ الـحَيَّة الذي تنسلخ عنه. ومن المجاز: فلانٌ حمارٌ في مِسْلاخ إنسان. وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما رأيتُ امرأةً أَحبَّ إليَّ أنْ أكون في مِسْلاخها من سَودة» (رواه مسلم)، تمنت أن تكون على مثلِ هَدْيها وطريقتها. [أحمد].

(٢) قدَّم هذا الرجل للمكتبة العربية ما لم تقدمه هيئة كبرى مدعومة بالمال والرجال! ومهما اختلف الناس في أمره.. فإن هذا الجيل الذي تعلَّم النحو وعلَّمه في شرق الدنيا وغربها مَدينٌ له بما أخرجه من =

وبلُّ الصَّدَى ـ شذور الذهب في معرفة كلام العرب (وكلاهما لابن هشام) ـ **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** لابن هشام ـ **منهج السالك إلى ألفية ابن مالك** للأشموني مع **حاشية الصَّبَّان** عليه.

وبهذه المسيرة العظيمة استقامت ألسنتُنا، وسلِمت أقلامُنا. ولئن تفرَّقتْ بنا الطُّرُق، وباعدتْ بيننا الأيامُ والاتجاهات؛ فقد سَدَّ كلٌّ منا ثُغرة، وحَمَى كلٌّ منا حِمًى. ولئنْ مال ببعضنا الطريقُ؛ فليس بمستطيعٍ أن يقتلعَ «الـمَشْيَخَةَ» الكامنةَ في نفسه، أو ينـزِعَ العِمامةَ القابعةَ في داخله[1]! وربُّك يفعل ما يشاء!

[ضعف هذا الجيل في النحو والعربية]

والآن.. ما هو حال النحو على الألسنة والأقلام؟

= كتب النحو التراثية، محرَّراً مضبوطاً في أجمل صورة وأبهاها. وإن كثيراً من الـمُعْرِبين والشُّـرَّاح إنما أفادوا من إعراب **الألفية** وإعراب الشواهد اللذين نثرهما الشيخ في حواشيه. وانظر كلمتي عنه في كتابي **مدخل إلى تاريخ نشر التراث**: ص٧٠ : ٨٠.

[وانظر شيئاً حول ما قيل في نقد بعض عمل محيي الدين في كتب التراث، ودَفْعِه، في: **النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين**، د. محمد رجب البيومي، دار القلم/ دمشق، ط١/ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م، ٢/ ١٣٧ : ١٤٢. وثمة رسالة جامعية (ماجستير) «حاولتْ» الموازنة بين جهده وجهد عبدالسلام هارون التحقيقي، ولم تُنشَر كتاباً حسَب ما أعلم: **التحقيق النحوي ما بين عبدالسلام هارون ومحمد محيي الدين عبدالحميد**، جمال نمر محمد إبراهيم، كلية الدراسات العليا/ قسم اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية/ نابلس ـ فلسطين، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م. أحمد].

(١) كان الطناحي ـ رحمه الله ـ يتفكَّه كثيراً، تفكُّهاً أقربَ إلى الـجِدّ، بقوله، وقد سمعتُها منه غيرَ مرةٍ: «رأسي مرفوعٌ بعِمامةٍ مقدَّرةٍ، منع من ظهورها الـتَّـعَـذُّرُ، لا الـثِّـقَـل!».. في إشارة نحويةٍ لطيفة إلى اعتزازه بنشأته الأزهرية المعمَّمة، وأنها هي ما أقامه على جادَّة العلم والتحقيق، حتى وإن اضطره إكمالُه دراستَه في «الجامعة المدَنية»، جامعة القاهرة، إلى نزع العمامة الظاهرة، ناعياً ـ في الوقت ذاته ـ على كثيرٍ من رفاقه الأزاهرة الـقُدَامَى حرصَهم على التخفي بعمائمهم الكامنة، وكأن بها عاراً، وما إنْ بها من عارٍ.. ولا حتى شَكاةٍ! [أحمد].

لم يعد خافياً على أحد ذلك التدنِّي الذي وصل إليه خِرِّيجو أقسام اللغة العربية في جامعاتنا خلال العقود الأخيرة. وهؤلاء الخريجون هم الذين يتولون تعليم أولادنا في المدارس، وهم أيضاً الذين يُسمعوننا الكلمة العربية من خلال الإذاعة والتلفزيون. ولو تُرِكَ الأمر على ما هو عليه الآن فالله وحده هو الذي يعلم أبعاد الكارثة التي ستطبق على هذه الأمة، ونخشى أن تغشانا طوارقُها ذات يوم وقد استحال تراثُنا الذي ضَنِيَ به الأوائل خلال أربعةَ عشرَ قرناً من الزمان، ألغازاً أو طِلِّسْمات[1]، كالذي تراه على جدران المعابد والمقابر ولفائف البَرْدِي: رموزاً قديمة تَخْفَى على جَمْهَرة الناس، ولا يعقلها إلا العالِمون! ويومها سنقول:

استعجمتْ دارُ مَيٍّ.. ما تُكلِّمنا والدارُ، لو كلَّمتْنا، ذاتُ أخبارِ![2]

وهاهي نُذُر الفتنة قد أطلَّت برأسها، فلن يستطيع أحدٌ مهما غَلا في تقدير كُلِّيته أو معهده، أن يزعم أن طالباً متخرجاً في هذا المعهد أو تلك الكلية يستطيع الآن أن يقرأ سطراً واحداً من كتاب سِيبَوَيْه، فضلاً عن أن يفهمه أو يفُكَّ رموزَه! وإذا لم يستطع خِرِّيج كلية تُعْنَى باللغة العربية وآدابها أن يقرأ سِيبَوَيْه؛ فمن ذا الذي يقرؤه؟! وإذا لم يقرأه في سِنى دراسته؛ فمتى يقرؤه؟!

إن الأخطاء اللغوية والنحوية صارت تأخذ علينا الطُّرُق، وتأتينا من كلِّ مكان، وهي أخطاء بَشِعة مفزعة، تشمل كل شيء: أبنيةَ الأسماء والأفعال، ومخارجَ الحروف وصفاتِها، وأسماءَ الأعلام والكُنَى والألقاب والأنساب، ولا تسأل عن غياب العلامة الإعرابية، أو التخليط فيها!

---

(١) سبق لنا، في القسم الأول (٦٣، ٦٤)، تعليقٌ مستطْرَد حول هذه الكلمة وأصلها ومعناها. [أحمد].

(٢) سبق التعليق عليه، في القسم الأول من هذا الكتاب (ص٦٤)، وقلنا هناك: البيت من قصيدة رائقة منسوبةٍ للنابغة الذُّبْياني، وهو في ديوانه (نشرة محمد أبوالفضل إبراهيم): «فاستعجمتْ دارُ نُعْمٍ». [أحمد].

وقد كنت عُنيت يوماً برَصْد هذه الأخطاء وتحليلها، ولكني رأيت الأمر قد اتَّسع اتساعاً عظيماً، وتشعبت تشعُّباً مفزعاً، وأصبحت أنا وهذه الأخطاء كالذي قاله الأول:

تكاثرت الظِّباءُ على خِـراشٍ فما يدري خِـراشٌ ما يصيدُ![1]

وإن أبناءَنا وبناتِنا في معاهد العلم يأتوننا كل يوم بكلِّ غريبة وعجيبة من معلِّميهم ومعلِّماتهم. وكلما رتَقْتَ فَتْقاً؛ تخرَّق عليك آخر، وكلما سدَدْتَ ثُلمةً؛ انفتحت أمامك أخواتٌ لها أوسعُ وأبشع!

والسوأة السَّوآءُ في تلاوة القرآن العزيز! فقد استعجم كلامُ ربنا ـ عز وجل ـ على ألسنة معلِّمي المدارس، وصاروا يتلونه على تلاميذهم محرَّفاً ومُزالاً عن جهت! ثم أصبحتَ تسمعه من بعض المذيعين والمذيعات كذلك مغلوطاً ملحوناً! بل إن الأمر قد تعدَّى ذلك إلى ما هو ضلالٌ وكفرٌ، وذلك ما تراه من الخلط بين كلام المولى ـ عز وجل ـ وكلامه ـ ﷺ ـ.. جاء في **الأهرام الرياضي**[2] (عدد الأربعاء: ١٦ من مايو ١٩٩٠م، صفحة ٣٧)، على لسان أحد الوزراء: «إن الإدارة فنٌّ يجب إتقانه؛ لأن الإتقان أساسُ كل شيء في هذه الدنيا.. وخيرُ دليل قول المولى ـ عز وجل ـ وصدق قوله: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».. وهذا من قوله ـ ﷺ ـ، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ[3].

وهذه هي المصيبة التي تتضاءل دونها كلُّ مصيبة، وهذا هو الخطر الماحقُ الذي يجب أن نقف جميعاً أمامه: ندرؤه وندفعه، فإن القضية بهذه المثابة قد صارت دِيناً يُغتال

---

(١) سبق التعليق عليه ببعض تفصيل، في القسم الأول من هذا الكتاب، ص٦٥، ٦٦. [أحمد].

(٢) مجلة أسبوعية تصدر عن «مؤسسة الأهرام» بالقاهرة. [أحمد].

(٣) **مجمع الزوائد**، لنور الدين الهيثمي: باب نُصْح الأجير وإتقان العمل، من كتاب البيوع، ٤/ ٩٨. و: **المطالب العالية**، لابن حجر العسقلاني: باب الصُّنَّاع وكَسْبهم، من كتاب البيوع، ١/ ٣٧٩.

على أن لهذه القضية وجهاً آخر خطيراً، وهو غفلة مُصحِّحي المجلة عن تدارك هذا الخطأ! وقد كان المصحِّحون عنصراً هامًّا في الصحف والمجلات، وكان منهم علماء وأدباء!

وشريعةً تُنْتَهك! ولابد أن يقول فيها كل غيورٍ على دين الله كلمته، لا يَتَـتعْتع ولا يتلجلج، لا يُفزعه سُخُط[١] الساخط، ولا يُخيفه غضبُ الغاضب. وقد قال سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ في الحديث الذي رواه أبوسعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ: «ألَا.. لا يمنعَنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ أن يقول بحقٍّ إذا علمه»[٢].

وقبل أن أقول كلمتي في بيان أصل الداء، وما أراه من دواء، أحبُّ أن يكون واضحاً كل الوضوح:

إن ما يحملني على ما أقول هو حبُّ العربية والغَيرة عليها.. فإني رأيت الـخَطْبَ عظيماً، من شُيوع الخطأ وتفشيه، وتتابُع الناس عليه.

وإنه لَيَحْزُنني أن يُحمَل كلامي في هذه القضية على غير وجهه.. «ولكل كلامٍ وجهٌ وتأويل، ومن طلب عيباً؛ وجده، ومن طلب له مخرجاً؛ لم يَفُتْه» (كما يقول ابن رشيق[٣]).

ونحن مأمورون بالإنصاف وقول الحق، لا يَلْـفِـتُنا عنه ظنُّ ظانٍّ، ولا يُـزَهِّدنا فيه تُهْمة مُتَّهم.. وإنا إلى الله راغبون.

[أسبابٌ أربعةٌ لهذا الضعف]

ولقد تابعت قضية ضعف هذا الجيل في النحو والعربية، ورأيت أهل العلم يَرُدُّون ذلك إلى أسباب كثيرة. ومع التسليم ببعض هذه الأسباب فإن الأمر عندي يرجع إلى أسبابٍ أربعة[٤]:

---

(١) بضم السين، وضم الخاء، وتسكينها. وأيضاً: بفتح السين والخاء معاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٣/ ١٩، ٥٠، ٧١. ورواه غيره من أصحاب السُّنَن.

(٣) العُمْدة، ١/ ١٠٢، ٢/ ٢٤٦.

(٤) هذه الأسباب الأربعة عند التحقيق سببٌ واحد، هو نَبْذُ التراث والانسلاخُ منه، والـهُـزْءُ برموزه والسُّخْـرِيَةُ من أشياخه. لكني نثرتها على أسباب أربعة؛ ليسهل إيضاحها والكشف عنها.

أولها: هَـجْـرُ الكتاب القديم.

ثانيها: طغيانُ المناهج الغربية في دَرْس النحو واللغة، وما تبع ذلك من جُرْأةٍ على النحو وسخرية بالنحاة.

ثالثها: الاشتغالُ بالنظرية واجتواءُ[1] التطبيق.

رابعها: إهمالُ جوانبَ ضرورية في تعليم النحو والعربية.

[أولاً:] هَـجْـرُ الكتاب القديم

سبق القولُ إن جيلَنا والجيلَ الذي سبقه قد درس النحو وتعلَّمه من خلال الكتاب التراثي القديم. ولقد تخرَّجتُ في «دار العلوم» سنة ١٩٦٢م، والكتاب التراثي هو الذي كان يُـقدَّم لنا درسُ النحو من خلاله: **شرح ابن عقيل على الألفية**، **والأشموني**، وكذلك كان الشأن في أقسام اللغة العربية بالكليات الأخرى، مع إضافة شيء من الكتب التراثية الأخرى، مثل **شذور الذهب** لابن هشام.

ثم انقضت تلك السُّنونَ وأهلُها[2].. وجاءت أيامٌ، وتقلَّبت أحوالٌ، وتداخَلَتْ نوايا[3]، ....

---

(١) اجتوَى الشيءَ: كَـرِهه، ولم يوافقه. ومنه حديث الـعُـرَنيين (رواه أحمد وغيره، وهو صحيح): «... فاجتَـوَوا المدينةَ». [أحمد].

(٢) صدر بيتٍ رقيقٍ لأبي تمّام، وهو في **ديوانه**، وتمامُه: / فكأنها، وكأنهم، أحلامُ! / [أحمد].

(٣) هذا من عجيب ما استفدتُه من عملي في هذا الكتاب! فقد استوقفني هنا الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله، وأفادني أن «نية» لا تجمع على «نوايا»، بل جمعُها «نِيَّات» (ثم وجدتُ لها جمعاً آخر، ذكر المرتضَى في **التاج** أنه من نوادر الجموع، وهو: نِـيٌّ).

ونظراً لأن المعلومة مفاجئةٌ لي؛ إذْ لا أنفكُّ أسمع «نوايا» من العلماء والمتحدثين وأستخدمها منذ نعومة أظفاري، حتى لقد زعم مَجْمَعيٌّ (نُقل زعمُه هذا في مادة بالموقع الإلكتروني» الخاص بـ«مجمع اللغة =

....

= العربية» المصري) أنه لا يُذكَر لـ«نية» جمعٌ سواها في اللغة المعاصرة! (وهذا الزعم لا يصح.. أولاً. ولو صحَّ؛ فإن مجرد الاستعمال، دون مستنَدٍ من نصٍّ أو اجتهادٍ سائغ، لا يُسوِّغ خطأً مهما انتشر! هذا بوجهٍ عام، قبل الخوض في «نوايا» تحديداً).

.. وحيث وردتْ «نوايا» في كلام لُغويٍّ محنَّكٍ كالطناحي..

نظراً لهذا.. كان لا بد لي من أن أتتبع هذا الجمع بكل دقةٍ وأناةٍ حتى أتبين أمره.

وبعد طول بحثٍ وتفتيش.. لم أجد كلمة «نوايا» جمعاً لـ«نية» فيما راجعتُ من المعاجم والكتب القديمة، ولا حتى في تخطئة تصريفها جمعاً لـ«نية». لم أجدها مطلقاً فيما قبل «العصر الحديث».

ثم دققتُ البحث عبر «المكتبة الشاملة الإلكترونية» و«الموسوعة الشعرية» ومحرِّكات البحث «الإلكتروني» المتعددة؛ فلم أجدها إلا في شعر بعضٍ قليلٍ جدًّا من شعراء «العصر الحديث»، قبل أن يفشوَ أمرُها حتى يوم الناس هذا. كما وجدتُ الطاهر بن عاشور (١٢٩٦ - ١٣٩٤هـ/ ١٨٧٩ - ١٩٧٣م) ومحمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ/ ١٩٠٧ - ١٩٧٤م) المفسِّر، وهما مَن هما بَصَراً بالعربية وحفظاً، يستخدمانها في تفسيريهما (**التحرير والتنوير**، و**أضواء البيان**) مراتٍ عديدةً.

وقال بطرس البستاني (١٢٣٥ ـ ١٢٩٩ هـ/ ١٨١٩ ـ ١٨٨٣م) في معجَمه **محيط المحيط** (مادة ن و ي): «والعامة تقول: نوايا (جمعاً لـ«نواة»)، وهي جمع «نـوْيـَة»..»، دون إشارةٍ إلى استخدامها جمعاً لـ«نية».

وأقدم من وقفتُ لديه على تخطئة «نوايا»، جمعاً لـ«نية»، هو الأديب اللغوي اللبناني إبراهيم ناصيف اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م)، في كتابه **لغة الجرائد** (مطبعة مطر/ القاهرة، ط ١، د. ت، ص١٣)، وكان قد نشر مادتَه منجَّمةً في مجلة **الضياء** منذ نهاياتِ القرن التاسع عشر، وطُبع الكتاب المجموع هذا، **لغة الجرائد**، طبعتَه الأولى في حياة اليازجي.

ثم وجدتُ محمد كرد علي (١٢٩٣ ـ ١٣٧٢ هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م) يُخطِّئ المترجم محمد السباعي (١٢٩٨ ـ ١٣٥٠ هـ/ ١٨٨١ ـ ١٩٣١م) لاستخدامه إياه، في نقده ترجمة كتاب **الأبطال** (مجلة المقتبَس، العدد ٧٣، بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٣٣١ ـ ١ مارس ١٩١٢م).

والوحيد، في أفراد القدامَى والمحْدَثين من اللغويين (لأُخرج المجامعَ اللغوية)، الذي وجدتُه نصَّ على اعتبار «نوايا»، جمعاً لـ«نية»، هو د. أحمد مختار عمر في كتابه **معجم اللغة العربية المعاصرة** (عالم الكتب/ القاهرة، ط ١/ ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م، مادة ن و ى).

ويبدو أن أحمد مختار عمر قد اعتمد قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة (دورة ٤٢: صفر، ربيع الأول ١٣٩٦ هـ ـ فبراير، مارس ١٩٧٦م) بإجازة «نوايا» جمعاً لـ«نية»، بعد نقاشٍ طويل، تحدث عنه محمد العدناني، وردَّ على حُجَج المجيزين، وأبطل نصَّ القرار على أنه صدر بالإجماع، مثبتاً معارضةَ محمد بهجة=

....

= الأثري الصريحةَ، وهي ـ بحسَب العدناني ـ تنقُض الإجماعَ المدَّعَى.. انظر: **معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة**، محمد العدناني، مكتبة لبنان/ بيروت، ط ١/ ١٩٨٩م، ص ٦٨٧.

ثم وجدتُ صلاح الدين الزعبلاوي يستطرد في إبطال قرار المجمع هذا.. يقول (بتصرف يسير):

«لم يُسمَع الجمع «نوايا» عن العرب. والصحيح أن يُجمع على «النيات»، بالألف والتاء، وهو القياس. (...). لكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة (دورة ٤٢: ١٩٧٦م) قد أقر «نوايا».

ولم أرَ فيما أدلى به من الـحُجج اللغوية ما يُعوَّل عليه. ومن هذه الحجج مثلاً:

أن «النية» أشبهت «الطَّوِيَّـة» في دلالتها؛ فحُملت «النَّوايا» على «الطَّوايا». ومتى كان الشَّبَـهُ بين دلالتين سبباً في جمع أحدهما جمعَ الآخر؟! ونحن لو أخذنا بهذا؛ لانتهينا بالأمر إلى العَجَب العُجاب!

ثم القياس على الشاذ. (...). وإذا فُتح هذا الباب؛ صُوِّب به كلُّ خطأ، وسُدِّد به كلُّ مردود! (...)».

معجم أخطاء الكُتَّاب، صلاح الدين الزعبلاوي، دار الثقافة والتراث/ دمشق، ط ١/ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م، ص٦٣٢، ٦٣٣)

ثم ذكر الزعبلاوي أن حُجَج المجمَع كافةً لا تخرج عن مثل اللتين ذكر: ضعفاً، وعدمَ توفيق.

وكعادة الشيخ المغربي محمد تقيِّ الدين الهلالي في تشديد النكير على ما يعتقد خَطَأه.. قال (**تقويم اللسانين**، مكتبة المعارف/ الرباط، ط ٢/ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م، ص ٧٣، ٧٤.. بتصرف يسير):

«ومما يُحزن ويَسُوء كلَّ من له غَيرةٌ على لغة القرآن: أن أكثر الخطباء والكُتَّاب يجمعون «النية» على «نوايا». وذلك دليلٌ على إفلاسهم وجهلهم بقواعد اللغة العربية السهلة؛ لأن «النية» «فِعْلَة»، وعينُها واو، فأصلها «نِـوْيَة».. حَكمتْ عليها القاعدة الصرفية بقلْب الواو ياءً وإدغامها في مثلها. والقاعدة: إذا اجتمعت الياء والواو، وسُبقتْ إحداهما بالسكون؛ تُقلَب الواو ياءً، وتُدغَم في الياء. (...) و«فِعْلَة» تُجمَع جمعاً صحيحاً على «فِعْلات»..».

هذا.. ولم يتوقف الطناحي عند هذا الجمع «نوايا» في بحثه «جموع التكسير والعُرْف اللغوي» (نشره أولاً في **مجلة مجمع اللغة العربية** بالقاهرة، العدد الحادي والسبعين، جمادَى الأولى ١٤١٣هـ ـ نوفمبر ١٩٩٢م، ثم جُمِع في: **في اللُّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث**، ٢/ ٥٤٧ : ٦٢٣).

فهل كان الطناحي يرى ما رأى مَجمَع القاهرة؟

أو أنه قد يَصْدُق فيه ما قاله هو ـ رحمه الله ـ عن أحد كبار أساتذته: «ومن عجبٍ أن هذا الوهم جاز على بعض كبار المحققين».. وذكر أستاذه السيد أحمد صقر! (**في اللُّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث**، ٢/ ٥٥٥).. العلم عند الله تعالى.

وهذا كلُّه بابٌ. =

واختلطت أهداف... وكان ما كان مما لستُ أذكره[١].

وانسحب الكتابُ القديم لينزوي في رفوف المكتبات، مرجعاً للتوثيق والاستئناس لمن أراد من طلبة الدراسات العليا، وجاء عصرُ «المذكِّرات» و«المختصَرات»، ورأى بعضُ الأساتذة أن يقدموا لطلبتهم منهج النحو من خلال تلك «المذكِّرات». على أن هؤلاء الأساتذة قد اختلفوا فيما بينهم شِرعةً ومنهاجاً: فمنهم من قَدَّم منهج النحو من خلال الكتاب القديم، ولكنه أدَّاه بلسانه وحرَّره ببيانه.. وفي مثل هذا أثارةٌ من عِلم، وبقيةٌ مما ترك الأولون.

ومنهم من قدَّم النحو بمنهج غربي، كالذي فعله بعضهم من تدريس النحو

= وتأييد خطأٍ بكثرة شيوعه، أو حتى عدم معرفة سواه في عصرٍ.. بابٌ آخرُ يجب سَدُّه تماماً، في العربية وسواها!

فلا أَنْـكَـرَ لديَّ من هذه القَالة البغيضة الخاطئة «خطأٌ شائعٌ خيرٌ من صوابٍ مهجور»! ولا أدري من أين ابتُلينا بها! فلا يمكن (في عقلِ عاقلٍ، ولا رأيِ حكيم) أن يكون الشيوعُ هو مناطَ الصواب. وهذا القول المرذول شبيهٌ بأن نقول مثلاً: الحق مناطُه القوة.. فكلُّ قويٍّ هو أولى بالحق. ولو رحنا نطبِّق هذين الأصلين الفاسدين، أو أحدهما؛ لفسَدتْ جُلُّ أمور الدنيا والآخرة!

فلْنستعملْ ما نعتقده صواباً (أو على الأقل: الأولَى) وإن كان مهجوراً؛ يَـشِـعْ.

ولْنتجنَّب ما نعتقده خطأً (أو حتى خلافَ الأولَى)، وإن كان لا يُعرَف في أخلاف الزمان غيرُه؛ يَـنْزَوِ ويَتوارَ!

ويتأكَّد وجوب استعمال الصواب المهجور حالَ كونه لطيفَ الوَقْع، سَهْلَ الاستخدام. ولا لزومَ للعكس. والله أعلم.

ومهما يكن من أمرٍ؛ فلسوف أجتهد أن ألتزم في خاصِّ استخدامي بما لا يخالف القواعد، مهما أجازت المجامعُ منه.. دون انشغالٍ بتخطئة من يقلِّد المجامع أو يطابق رأيُه رأيَها، فلكلٍّ وِجْهةٌ هو ماضٍ عليها.

ثم.. الشكر الجزيل، من قبل ومن بعد، للأستاذ الحساني حسن عبدالله أن هداني لِما ضَلِـلْـتُ عنه سنينَ طويلة! [أحمد].

(١) صدر بيتٍ لابن المعتز، وهو في ديوانه، تمامُه: / فَـظُـنَّ خيراً، ولا تسألْ عن الـخَبـرِ! / [أحمد].

من خلال ما يعرف بـ«جداول بلومفيلد»[(١)]، فصار أشبه شيء بذلك السائح الأجنبي الذي تراه في حيّ «خان الخليلي» و«الحسين» يلبس طربوشاً يَتخايل به ويضحك في بَلاهة تستخرج الإعجابَ والضحكَ عند الصِّغار وعوامِّ الناس، لكنه في الوقت ذاته يستخرج السُّخْـرِيَةَ والاشمئزازَ عند العقلاء وذوي البصائر! على أن هذا هو الخطر الماحق والبلاء الـمُرْدِي.

إن هجر الكتاب القديم ـ وهو وعاء العلم ومستودَع التراث ـ ، والاستعاضة عنه بـ«المذكِّرات» و«المختصَرات»، قد حجب عن هذا الجيل كُـوَى النُّور، وحالهم[(٢)] عن موارد العلم. وقد كان من أخطر الأمور ردُّ ذلك إلى التيسير والتسهيل والتخفيف عن الناشئة... وأي ناشئةٍ يا سادة؟! إن وراء الأكَمةِ ما وراءها![(٣)] وسيأتيك حديث «التيسير» في موضعه إن شاء الله[(٤)].

---

(١) ليونارد بلومفيلد (١٢٩٨ ـ ١٣٦٩ هـ/ ١٨٨١ ـ ١٩٤٩م) عالمِ لغةٍ أمريكي. من أتباع «السيكولوجية السلوكية» في دراسة اللغة، ومن أعلام «البِنْيَويَّة» والنظرة الوصفية للغة. ومدرسته السلوكية اللغوية، المعتدة بالحتمية الآلية «الميكانيكية»، هيمنت مدةً على الفكر اللغوي في أمريكا. انظر، مثلاً:

القضايا الأساسية في علم اللغة، كلاوس هيشن، ترجمة د. حسن بحيري، مؤسسة المختار/ القاهرة، ط ١/ ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م.

وأيضاً: **علم اللغة: مقدمةٌ للقارئ العربي**، د. محمود السعران، دار الفكر العربي/ القاهرة، ط٢/ ١٩٩٧م. [أحمد].

(٢) هكذا في المطبوعة. ولم أجد: حالَـه عن الشيء: منعه عنه. كما لم أجد «حالَ» متعدياً بنفسه. والغالب أن الأصل «حلّأهم عن موارد العلم»، يقال: حلّأ الشيءَ تَحْليئاً وتَحْلئةً: مَنعَه. وقد سبقت هذه الفقرة في القسم الأول، وفيها «حلَّأهم» على الوجه الصحيح. [أحمد].

(٣) مثَلٌ قديم، أصله أن أَمَـةً واعدت صديقَها أن تأتيه وراء الأَكمة (وهي التَّـلَّة المرتفعة، وجمعها: آكام، وإكام، وأُكُم، وأَكَم) إذا فرغت من مهنة أهلها ليلاً، فشغلوها عن الإنجاز بما يأمرونها من العمل، فقالت حين غلبها الشوق: حبستموني وإن وراء الأكمة ما وراءها! يُضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً. **مجمع الأمثال**، ١/ ١٣. [أحمد].

(٤) أفاض الطناحي في قضية «الكتاب الجامعي» في مقالٍ عنوانه «الجامعة المصرية إلى أين؟ الكتاب =

[الشواهد النحوية ثروةٌ علمية وأدبية]

إن تدريس النحو من خلال الكتاب القديم يفتح للطالب أبواباً من المعارف تأتي من خلال «الشاهد النحوي» كالغنيمة الباردة.

فمن المعلوم أن النحاة قد اعتمدوا في تأصيل قواعدهم وتثبيتها على «الشاهد»، وكذلك صنع اللُغويون. والشاهد عند النحوي واللغوي هو بمثابة «الدليل النَّقْلي»(١) عند علماء الكلام وأصول الفقه، ويقابله «القياس»، وهو بمثابة «الدليل العقلي» عند من ذكرتُ.

وقد احتل الشاهد منزلة كبرى في علم النحو. وقال الجاحظ : «ومدار العِلم على الشاهد والـمَثَل»(٢). وقال الشيخ محمد الطنطاوي: «الشاهد في علم النحو هو النحو»(٣). ويقول الشيخ محمد عبدالخالق عِـضِيْمَة(٤): «وفي اعتقادي أن البحوث

= الجامعي والطريق الصحيح»، نشره في مجلة **الهلال**: جمادى الأولى ١٤١٦ هـ - أكتوبر ١٩٩٤م، وتجده في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، ١/ ٣١٠ : ٣٢٠.

(١) أي الدليل المنقول، يعنون به الوارد في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، ويقابله عند علماء الكلام «الدليل العقلي» المستند إلى المعقولات. [أحمد].

(٢) **البيان والتبيين**، ١/ ٢٧١.

(٣) قرأته في كتابه **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، ويغيب عني موضعه الآن.

[أقول: هو في سياق حديث محمد الطنطاوي - رحمه الله - عن **شرح الـرَّضِيّ على الكافية** وتميزه بالإكثار من الشواهد، لا سيما من كلام الإمام عليٍّ - رضي الله عنه - وحديث النبي - ﷺ -، وهو في ص ١٩٧، من الطبعة التي حققها د. أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط١/ ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ. أحمد].

(٤) أضبطه هكذا سماعاً من الأشياخ، وحاولتُ مراجعة الضبط نصًّا؛ فلم أقف عليه. والشيخ محمد عبدالخالق عِـضِيْمَة شيخُ أشياخي، من طبقة أبي فِهْر وعبدالسلام هارون، وتحدث عنه أبوفِهْر - أكثر من مرة - في تقديمه كتابه الأهم **دراسات لأسلوب القرآن الكريم** (حـاز بـه «جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية») بصفة «أستاذنا الجليل». وُلد ١٩١٠م وتوفي ١٩٨٤م. رحمة الله عليهم جميعاً. [أحمد].

النحوية إن لم ترتكز على النصوص كانت كلاماً إنشائيًّا أجوفَ لا غَناءَ فيه»(١). وكانوا يمتدحون بكثرة المحفوظ من الشواهد، فيُروى أن أبا العباس ثعلباً قال عن علي بن المبارك الأحمر: «كان يحفظ أربعين ألف بيتٍ شاهدٍ في النحو»(٢). ثم عابوا من أهمل الشواهد، كالذي قالوه عن أبي بكر الـزُّبَـيْديِّ مختصِر كتاب **العين** للخليل بن أحمد: «إنه أخلَّ بكتاب **العين** كثيراً لحذفه شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب منه»(٣).

ومعروف أن شواهد النحو واللغة تنتزع من مصادر أربعة: القرآن الكريم، وحديث سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ (مع اتفاقهم على الاستشهاد به في قضايا اللغة، واختلافهم في الاستشهاد به في مسائل النحو)، وكلام العرب وأمثالها، والشِّعر.

وعَرْضُ القاعدة النحوية من خلال الشاهد التراثي بأقسامه الأربعة يفتح أبواباً واسعة من المعارف كما قلت. فأنت مع الشاهد التراثي تلتقي بأبنية الأسماء والأفعال وأمثلة الجموع (مَقيسِها، ومسموعِها)، وغريب اللغة، وهو ما يقابل الواضح منها، فيقولون في تراجم العلماء: «وكان عالماً بالغريب»، أو «وكان صاحبَ غريب». ثم تلتقي أيضاً بتلك الإشارات التاريخية والجغرافية والكونية والاجتماعية المبثوثة في ثنايا الأمثال والأشعار. فأنت موصولٌ بالتراث كله من خلال ذلك الشاهد النحوي.

ولقد كانت هذه الشواهد على اختلافها مدداً سخيًّا لنا ونحن في طَراءة الصِّبا وريِّق(٤) الشباب، نزهو بها على من لا يعرفها من تلاميذ «المدارس الأميرية»(٥)، وننتزع منها تراكيبَ بأعيانها لكتابة رسائل التهنئة أو التعزية وسائر «الإخوانيَّات»، بل كنا نتعابث ببعضها أحياناً حين يكون في الشاهد شيءٌ لاصقٌ بـمَنْ نُعابثُه، كورود

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ١/ ١٦.

(٢) معجم الأدباء، ١٣/ ١١.

(٣) المزهر، ١/ ٨٨.

(٤) سبق التعليق على «طَراوة» و«رَيِّـق»، ص٧٦. [أحمد].

(٥) «التعليم الأميري» في مصر هو المقابل لـ«التعليم الأزهري». [أحمد].

اسمه أو اسم أبيه فيه، أو ذكر صفة من صفاته. ومن وراء هذا كلِّه ما كان يدَّخره بعض زملائنا من هذه الشواهد للمواقف الصعبة في القُرَى، كخُطبة جُمعةٍ مفاجئة ونحوها.

[نماذج من روائع الشواهد]

ولعل أبناء جيلي لا يزالون يذكرون معي تلك الشواهد الشعرية(١) التي استقرّت في زوايا النفس لا تبرحها، مثل:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبرَهُ بما فعلَ المشيبُ!(٢)

ليتَ الكواكبَ تدنو لي؛ فأنظِمَها ... عُقودَ مدحٍ.. فما أرضى لكم كَلِمِي!(٣)

---

(١) واضحٌ أن الطناحي ـ رحمه الله ـ يستخدم تعبير «الشاهد» هنا بتوسُّع؛ إذ لا يصح ـ مما أورده ـ «شاهداً»، بـ«المعنى الفني» الذي يعتدُّ به أهل اللغة، سوى بيتِ الشَّنْفَرى؛ لكونه من عصر الاحتجاج. والمشتَهر أن عصر الاحتجاج خُتِم بوفاة الشاعر إبراهيم بن هَرْمَة (٨٠ ـ ١٧٦ هـ ـ ٦٩٩ ـ ٧٩٢م)، وهو من مُخضرَمي الدولتين الأموية والعباسية الأولى. وقد سبقت إشارةٌ من الطناحي (هذا الكتاب، القسم الأول: ص ١٦٣) إلى مسألة زمان الرواية، في معرض كلامه عن استشهاد ابن جنِّي بأبي الطيب المتنبي.

أما الأبيات الباقية فـ«أمثلةٌ»، يذكرها النحاة توضيحاً للقواعد وتمثيلاً. وللطناحي ذاته كلامٌ جيدٌ ومختصرٌ حول مثل هذا التمثُّل استشهاداً: **في اللّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث**، ٢/ ٦٠٣ : ٦٠٤. [أحمد].

(٢) لأبي العتاهية (ت ٢١١ هـ). ورواية **ديوانه** (نسخة د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، د. ط، ١٩٦٥م، ص ٣٢): فيا ليت. وكلتا الروايتين موجودتان في المصادر القديمة. وقيل إنه سطا فيه على قول جميل بُثَيْنَة (ت ٨٢ هـ):

ألا ليت رَيْعانَ الشباب جديدُ ... ودهراً تولَّى يا بُثَيْنَ يعودُ!

ثم: الشاهد فيه نَصْب المضارع «أخبرَه» بـ«أن» مضمرة وجوباً بعد «فاء السببية». فضلاً عن إعمال «ليت» الناسخة عمل «إنَّ» وأخواتها. [أحمد].

(٣) هذا البيت مع كثرة إنشاد الناس له لم أجد من نسبه، وقد رأيته في قصيدة لعُمَارة اليمني، قالها في سنة خمسين وخمسمائة، في مدح [الخليفة/ الإمام الفاطمي] الفائز بن الظافر، صاحبِ الديار المصرية، ووزيرِه الصالح طلائع بن رُزِّيك [الملقَّب «الملِك الصالح»]، ومطلعها:

الحمدُ للعِيْس بعد العَزْمِ والهِمَمِ ... حمداً يقومُ بما أولَتْ مِنَ النِّعَمِ =

وإن مُدّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكن   بأعجلِهِمْ.. إذْ أجشَعُ القومِ أعجلُ(١)

أقولُ وقـد ناحتْ بقُـربي حَمامةٌ:   أيا جارتـا.. هل تشـعرينَ بحالي؟!

= **وَفِيَات الأعيان**، ٣/ ٤٣٢، ٤٣٣.

[وقد صَلب عُمارةَ هذا صلاحُ الدين الأيوبيُّ (سنة ٥٦٩ هـ) مع رَهْطٍ، من بقايا مناصري الفاطميين بمصر، ممن حاولوا اغتياله.

هذا.. وقد استعرضتُ نسخةً مخطوطةً من ديوان **عُمارة بن علي اليمني** (من مقتنيات المكتبة الملكية الدَّنماركية، رقم النسخة: Cod. Arab. ٢٦٦، وعدد أوراقها ٤٣٣ ورقة)، ولم أجد القصيدةَ ولا البيت.

ثم وجدتُ القصيدة، وفيها البيتُ محلُّ الاستشهاد، في كتاب عُمارةَ اليمني ذاتِه **النُّكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية**، الذي اعتنى بتصحيحه ونشره المستشرق الفرنسي هَرْتُويغ دِرِنْبرغ (مطبعة مَرْسَو بمدينة شالَوْن/ باريس، ط١/ ١٨٩٧م، ص ٣٢ : ٣٤).

ولا أعلم أن نسخة ديوان عُمارة الدَّنْماركية المخطوطة ـ المشار إليها آنفاً ـ قد طُبعت، على أهميتها، وأهمية عُمارة.. فهو من أشعر من مدح الفاطميين بمصر، وتعصَّب لهم، ورثَى دولتهم. ويبدو أن النسخة التي اعتمد عليها المستشرق هرتويغ درنْبرغ، فيما ألحقه من مختاراتٍ شعرية لعُمارة، الملحَقة بنشرته من **النُّكَت العصرية**.. يبدو أنها غير هذه النسخة الدَّنْماركية. والله أعلم.

ثم: الشاهد في البيت كالذي في البيت السابق، وهو نَصْب المضارع «أَنظِمَها» بـ«أنْ» مضمرة وجوباً بعد «فاء السببية». فضلاً عن إعمال «ليت» الناسخة عمل «إنَّ» وأخواتها. أحمد].

(١) للجاهلي الشهير الـشَّـنْفَـرَى عمرو بن مالك الأَزْدي، العـدَّاء الصعلوك، ويُضرب به المثَل في السرعة، حتى قيل: «أعدَى من الـشَّـنْفَـرَى». وهو ابن أخت «تأبَّط شرًّا». توفي في حدود سنة ٧٠ قبل الهجرة.

ومعنى لقَبه (أو اسمه، فثمة خلافٌ في هذا): عظيمُ الشَّفَة. وقد يكون مأخوذاً من مادة «شنفر»، ومنها: الشِّنْفيرة والشِّنْفارة: نشاط الناقة وحِدَّتُها. والشِّنْفار: الخفيف. وهو تفسير يناسب ما تواتر عن صَعلكته وعَدْوِه. والله أعلم.

ثم: البيت المذكور من لامِـيَّـته الشهيرة، المعروفة بـ«لامِيَّة لعرَب». والشاهد فيه: زيادة «الباء» في «بأعجلهم» الواقع خبراً لـ«أكن» المنفية بـ«لم»، وهذا جائز مع القلة. هذا.. فضلاً عن كونه شاهداً في باب الفعل المبني لِـما لم يُسَمَّ فاعلُه، وباب «أفعل التفضيل» حيث رَجعتْ إضافةُ «أعجل» صَرْفَـه بعد أن كان ممنوعاً منه. [أحمد].

معاذَ الهوى.. ما ذُقْتِ طارقةَ النَّوى ولا خطـرتْ منـكِ الهمـومُ ببـالِ
أيا جارتا.. ما أنصـفَ الدهرُ بيننا تَعالَيْ أُقاسِمْكِ الهمومَ.. تعالِي![1]

هـي الدنيـا تقـولُ بـمِـلءِ فِـيها: حذارِ حذارِ مـن بطشي وفَتْكي
فـلا يَـغْـرُرْكـمُ منـي ابتسـامٌ فقولي مُضحِكٌ والفعلُ مبكي![2]

صَـاحِ.. شَـمِّرْ ولا تَـزَلْ ذاكرَ المو تِ، فنسـيانُـهُ ضـلالٌ مُبِـينُ[3]

رَبِّ وفِّقْني؛ فـلا أَعْــدِلَ عـنْ سَـنَنِ السـاعينَ في خَيْرِ سَنَنْ[4]

---

(١) للأمير الفارس أبي فِراسٍ الـحَمْداني (ت ٣٥٧ هـ)، منافس المتنبي على المنزلة لدى ابن عمه سيف الدولة الـحَمْداني. وهذه الأبيات الثلاثة من قطعةٍ قصيرةٍ قالها أثناء أسره ببلاد الروم، وهي في **ديوانه**، شرح د. خليل الدويهي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط٢/ ١٩٩٤م، ص ٢٨٢.

وقد أورد الأبيات ابنُ هشام الأنصاري، حيث يرى أن أبافراس قد استخدم نطق العامَّة إذ جاء بالفعل «تعالِي» الثانية، في البيت الثالث، مكسورَ اللام حين إسناده لياء المخاطبة. وقد تُعقِّب ابنُ هشام بأن أبافراس لم يستخدم لغة العامة، وإنما كسر اللام من أجل القافية، فضلاً عن أنه قد نقل عن أهل الحجاز أنهم ينطقون اللام مكسورة في هذا الفعل حين إسناده لياء المخاطبة.

انظر: **حاشية السُّجَاعي على قطر الندى لابن هشام**، أحمد السُّجَاعي، المطبعة الأميرية/ القاهرة، ١٢٩٩ هـ ـ ١٨٨١م، ص ٢٠. و: **النحو المصفَّى**، د. محمد عيد، مطبعة دار نشر الثقافة/ القاهرة، د. ط، ١٩٧٥م، ص ١٤. [أحمد].

(٢) لأبي الفرج الساوي، الخطَّاط الشاعر البليغ، من قصيدة يَـرثي فيها فخرالدولة، أنشدها أبومنصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، في: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م، ٣/ ٤٥٨.

والبيت الأول يُؤتَى به مثالاً على التوكيد بالتَّـكرار. [أحمد].

(٣) أطبقتْ المصادر كلُّها، التي راجعتُها، على أنه لا يُعرَف قائلُه!

والشاهد فيه موضعان: «صاحِ» حيث حُذِفت ياؤه ترخيماً، والأصل ألَّا تُـرَخَّم إلا أسماء الأعلام.

والثاني: إعمال «تزال» المتقدِّمِها نهيٌ (عملَ «كان»)، في: «لا تَـزَلْ». [أحمد].

(٤) أيضاً.. أطبقتْ المصادر كلُّها، التي راجعتُها، على أنه لا يُعرَف قائلُه! والشاهد فيه: نَصْبُ المضارع «أَعدِلَ»، بـ«أن» المضمَرة وجوباً بعد «فاء السببية». [أحمد].

و«سَنَن» بفتح السين، وهو الطريق، وهكذا حفظناه فلا نُخطىء فيه بعدُ ونقول: «سُنَن» بضم السين، لأن هذه جمع سُنَّة.. وهذا موضعٌ مما حدَّثتُك عنه من ضوابط الأبنية التي تكتسبها من خلال الشاهد النحوي.

ولا زلت أذكر صورة هذا البيت : «صَاحِ شَمِّـرْ...»، وأن تاء «الموت» تأتي في أول الشطر الثاني، ثم عرفتُ فيما بعد أن ذلك كان يكون لأن البيت من «البحر الخفيف»، وأن تقطيعه يقتضي هذا. وكذلك الميم في قوله: «فلا يغرركمُ» نطقناها منذ الصغر بإشباع ضمتها، ثم عرفنا بعد ذلك أن ذلك حَتْمٌ لازم؛ لأن البيت من «البحر الوافر»... وهكذا استقرت أنغام الشعر وأوزانه في ذلك الوجدان الغضّ، في مَيْعة الصِّبا وأوائل الشباب، من خلال الشاهد النحوي.

[أهمية الشواهد القرآنية]

على أن الأثر الضخم للشاهد التراثي، إنما كان للقرآن الكريم تثبيتاً للقاعدة اللغوية والنحوية، وتمكيناً لها في النفس، فإن القرآن العزيز ـ كما قال مصطفى صادق الرافعي، رحمه الله:ـ «يدفع عن هذه اللغة العربية النسيان الذي لا يُدفَعُ عن شيء، وهذا وحده إعجاز»[(١)].

ونحن ـ معلِّمي النحو ـ نعلم هذه الحقيقة فيما نحاوله مع أبنائنا الطلبة. وعلى سبيل المثال: فهذا «الجارّ والمجرور»[(٢)] يشغل حَـيِّـزاً واسعاً في تركيب الجملة العربية، فهو يأتي متعلِّقاً بالفعل، ومتعلِّقاً بمحذوفٍ خبراً، وصلةً لموصول، وصفةً، وحالاً. ويجد الطلبة شيئاً من الصعوبة في تمثل الجارّ والمجرور صفة وحالاً، ولكنك

---

(١) مقدمة إعجاز القرآن.

(٢) مما لا زلت أذكره ولا أنساه ما تلقيناه في أول محاضرة عن النحو بالسنة الأولى بكلية «دار لعلوم»، من أستاذنا عباس حسن ـ رحمه الله ـ.. فقد تحدث في هذه المحاضرة الأولى حديثاً ضافياً عن معنى تعلّق الجارِّ والمجرور بالفعل.

حين تمثّل للأول بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [غافر: ٢٨]، وللثاني بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ [الحج: ١١]، زالت كل صعوبة، وانكشف كلُّ مُعَمَّى، وصار قولك بعد ذلك موضِّحاً: «قابلت رجلاً من المصريين»، و: «كلمت فلاناً على مَضَض»، مقبولاً سائغاً.

وأيضاً فإنك لو أردت التمثيل لتقدم المفعول على الفاعل بقولك: «قطف الوردةَ طفلٌ»؛ كنت قد أصبْتَ الصواب، ولكن ذلك لا يكون في قوة الاستشهاد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقوله: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء: ٨]، وقوله: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا ﴾ [الحج: ٣٧]، وقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوله ـ ﷺ ـ في الحديث الذي ذكرته من قبل: «ألَا.. لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ، أن يقول بحقٍّ إذا علمه»، وقول جَرير:

جاء الخلافةَ، أو كانت لَهُ قَدَراً ... كما أتى ربَّهُ موسى على قَدَرِ

فأنت مع المثال الأول «قطف الوردةَ طفلٌ» أمام تركيب تمثَّلت فيه القاعدة النحوية، لكنه كالتمثال الأصم، فاز من الوَسامة والقَسامة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنه تمثالٌ جامد فاقدُ الحركة والنطق. أما مع الأمثلة القرآنية والحديثية والشعرية؛ فأنت أمام نماذج تتنغَّش[1] بالحياة وتمور بالحركة، مع ما تعطيه من أُنْسٍ وخبرة بالأبنية والتراكيب والرُّوح العربية وكذلك التمثيل للتوكيد اللفظي بمثل: «جاء جاء زيد»، أو: «جاء زيدٌ زيد».. لا يكون في قوة التمثيل بقول عُروة بن أذينة:

وكلُّ حظِّ امرىءٍ دوني سيأخذُهُ ... لا بُدَّ، لا بُدَّ، أن يحتازَه دُوني[2]

---

(١) في المطبوعة: بالعين المهملة.. وهو خطأ طِباعي. راجع تعليقي السابق ص٦٩. [أحمد].

(٢) سبق التعليق على بيتٍ من قطعته، ص١٣٣. [أحمد].

ومن هنا احتلّت الشواهد التراثية في تقعيد النحو مكانةً عالية، كما حدثتك من قبل، وكان الظفرُ بها والحرصُ عليها باباً واسعاً لمعارف تراثية أخرى تَنْثال انْثيالاً، لا سيما إذا أُتيح لهذه الشواهد المعلِّمُ البصيرُ بالمكتبة العربية، العليمُ بمداخلاتها الحافلة بالغرائب والعجائب، ذلك المعلم القادر على لَمْح الأشباه ورَصْد النظائر. ورحم الله مشايخنا وأساتذتنا الذين كانوا يخوضون بنا اللُجَج، ويركبون معنا الصَّعبَ والذَّلُول، دونَ ضَجَّةٍ أو تفلْسُفٍ أو ادِّعاء!

[ثانياً:] طغيان المناهج الغربية في درس النحو واللغة

أعرف أن هذا مَرْكَبٌ صَعبٌ، وطريقٌ مَخُوفٌ لمن يخوض فيه! ولا يأمن السالكُ فيه والـمُتَـقَحِّمُ عليه من سوء الظنِّ به، والطَّعن عليه، وإلقائه في رَدْغة[1] الـخَبال، وظُلُمات الجهل، وبَيْداء التخلُّف!

وإذا كنا لا نَعبأ بهذا، ولا نُلقي إليه بالاً؛ لشرف المقصِد الذي نقصده، وكمال الغاية التي نتغيَّاها؛ فإننا من جانبٍ آخر نعالج هذا الأمر بكثير من الـخَشية والحذَر؛ لأنه يَمَسُّ أساتذةً لنا كِراماً، جلسنا إليهم يوماً في قاعات الدرس، ولا زلنا نحمل لهم الكثير من الحبّ والوِداد، وتوقيرُ الأشياخ أصلٌ عظيم في تراثنا الأخلاقي، لكننا لا نزال نذكر لبعض هؤلاء الأساتذة مواقف سيئة أيام الطلب، ولا زلت أذكر أحدهم، وكان كثير السُّخْـرِيَة من اللغويين والنحاة العرب، وكنت أضحك مع الضاحكين لغَرارتي وجهلي يومئذ. وقد قلت بعد ذلك في بعض ما كتبتُ: ليتَّقِ اللهَ هؤلاء المعلمون الذين

---

(١) الـرَّدْغَة (بتحريك الدال، وجاءت مسكَّنةً): الطِّين والوحَـل الشديد (وتسكين حاء «الوحل» لغة رديئة). والجمع: رَدْغ، و: رَدَغ، و: رِداغ. و«رَدْغة الـخَبال»: عُصارةُ أهل النار وصَديدُهم، وقد جاءت في الحديث الشريف: «من قال في مؤمنٍ ما ليس فيه؛ حبسه الله في رَدْغَة الـخَبال.. حتى يجيء منها بالمخرَج»، وفي رواية: «حتى يخرج مما قال» (رواه أحمد وغيره، وهو صحيح)، وقد جاء أيضاً في شارب الخمر (رواه أحمد أيضاً وغيره، وهو صحيح). عياذاً بالله تعالى منها، ومما يؤدي إليها من سيء القال والفِعال. [أحمد].

يَبسُطون ألسنتَهم بالسوء إلى تاريخ أمتهم ولغتها، وليَحذروا أن يخرج من تلاميذهم من يمُسِك قلماً ويبسُط [فيهم][١] لساناً.. وإن للبيت ربًّا يحميه![٢].

[طريقتان في دَرْس وتدريس النظريات الغربية]

ومهما يكنْ من أمر.. فقد عاد أبناء العربية المبتعَثون إلى الدول الأجنبية بزادٍ وفير من النظريات الغربية في علم اللغة والتراكيب والصوتيات. ولست هنا بسبيل الحديث عن ملاءمة هذه النظريات للنحو العربي واللغة العربية وعدم ملاءمتها.. فلذلك مكان آخر. لكن الذي أريد أن أقرِّره هنا أن هؤلاء الأساتذة العائدين قد اختلفوا فئتين:

فمنهم طائفة لزمت القصدَ والاعتدال، وكانوا رفقاء بنا في أيام الطلب، فلم يصدمونا بتلك النظريات الغربية دفعة واحدة، وإنما درسوا لنا النحو وَفْقَ المنهج القديم، مع بعض الإضاءات الحديثة، وتركوا أفكارهم الخاصة باللغة والنحو مما درسوه في الخارج إلى مؤلَّفات لم تَنلْها أيدينا في السنوات الجامعية الأربع، فنَجَوْنا ونَجَوا.

ومنهم طائفة قد أَهَمَّتْهم أنفسُهم! فذهبوا يختالون في ثياب الزَّهو والعُجْب، ثم راحوا يضربون ذات اليمين وذات الشمال، هُزْءاً بالنحو العربي وسُخريَةً بأعلامه.. «ولو بُعِث أحدُهم من مرقده، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلم؛ لألجمه العرَقُ؛ ولَصار لسانه مُضغةً لا تتلجلج بين فكَّيه.. من الـهَيْبة وحدَها، لا مِن عِلمه الذي يستخفُّ به ويَهْـزَأ!»[٣].

---

(١) ليست بالمطبوعة. [أحمد].

(٢) من كلمة السيد الجليل عبدالمطلب، جد النبي الأكرم ـ صلوات الله عليه ـ ، لـ«صاحب الفيل» أَبْـرَهة غازي الكعبة الشريفة، في القصة المشهورة. [أحمد].

(٣) من كلام شيخنا محمود محمد شاكر ـ حفظه الله ـ في كتابه الفذِّ المتنبي ص ١٢٣. [هو في نهاية تصدير المتنبي الطويل، الحادثِ في الطبعة الثانية الموسَّعة، الصادرة سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، لا في أصل المتنبي الصادر أولاً في عددٍ خاصٍّ من مجلة المقتطَف: المجلد ٨٨، شوال ١٣٥٤ هـ ـ يناير ١٩٣٦م. أحمد].

وهذه الطائفة، فضلاً عن أنها قد حَجبت عنَّا تراثَنا، وغيَّبْته عنَّا (بل تمادَتْ.. فزهَّدْتنا فيه، وأقامت بيننا وبينه حِجازاً عالياً كثيفاً!).. قد فتحتْ باباً من الشرِّ عظيماً؛ فإن نفراً من الـمُعيدين قد راق لهم هذا المذهبُ فاتَّبعوه، واستهواهم ذلك الطريق فسلكوه، وصار دَيْدَنَهم الطَّعنُ على النحو، والقَدْحُ في النحاة، فيما سموه بـ«نقد الفكر النحوي»! وهؤلاء المعيدون صاروا أساتذةً الآن، ولا يزالون على ما هم عليه، وهم يكتبون في «فلسفة النحو» كلاماً لا تعرف له أعلى من أسفل، كالذي قاله ذلك الأعرابيُّ، وقد حضر مجلس الأَخفَش، ولم يفهم مما سمع شيئاً، فقال: «أراكم تتكلمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس من كلامنا!»[1]. والله المسؤول أن يصرف ذلك عنهم بمَنِّه وكرمه!

[مسألتان في باب نقد علومنا]

على أنه ليس لأحدٍ أن يَحْجُـرَ على أحد، في نقد ما يشاء، وما رَضِيَ المولى ـ عز وجل ـ الكمالَ إلا له وحده ـ تباركت أسماؤه ـ. وليس النحو العربي قرآناً يُتْلَى، أو سنّةً متواترةً عن المعصوم ـ صلي الله عليه وسلم ـ، لا يجوز التعرُّضُ لهما أو نقدُهما.. لكنْ هنا أمران لابدَّ من ذِكرهما:

أولهما: أن الذي يتصدَّى لنقد علم من العلوم ينبغي أن يكون محيطاً به، جامعاً لمصادره، حتى يكون بمأمَنٍ من العِثار، إذ قد يكون هذا الذي رآه خطأً في كتاب جاء على الصواب في كتاب آخر. فإذا علمْتَ سَعة المكتبة النحوية، وأن النحو ليس في كتب النحو فقط كما أخبرتك؛ أيقنتَ بخطورة هذا المسلك، ووُعورةَ السير فيه. وقد قال ابن جِنِّي في علم النحو: «وإنما هو علمٌ منتـزَعٌ من استقراء هذه اللغة، فكلُّ مَن فُـرِق له

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٢/ ١٣٩.

عن علَّةٍ صحيحة، وطريقٍ نَهْجَةٍ[١]؛ كان خليلَ نفسِه، وأباعمرو فكرِه»[٢].

لكنه ذكر أن الإقدامَ على مخالفة الجماعة لا يكون إلا بعد أن يصل إلى مرتبتهم، أو يسبقَهم جمعاً وحفظاً وتحصيلاً.. قال ـ رحمه الله ـ: «إلا أننا، مع هذا الذي رأيناه وسوَّغْنا مُرْتكَبَه[٣]، لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثُها، وتقدَّم نظرُها، وتتالتْ أواخِرَ على أوائل، وأعجازاً على كَلاكِلِ[٤]، والقومِ الذين[٥] لا نشكُّ في أن الله ـ سبحانه وتقدّست أسماؤُه ـ قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجهَ الحكمة في الترجيب[٦] له والتعظيم، وجعله ببركاتهم، وعلى أيدي طاعاتهم، خادماً للكتاب المنـزَّل، وكلام نبيّه المرسَل، وعوناً على فهمها، ومعرفةِ ما أُمِر به، أو نُهِيَ عنه الثَّقَلان منهما، إلا بعد أن يُناهِضَه[٧] إتقاناً، ويُثابتَه[٨] عِرفاناً. ولا يُخْلِدْ

---

(١) أي: بَيِّـنة واضحة. [أحمد].

(٢) يريد الإمامين الجليلين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأباعمرو بن العلاء البصري، أحد القراء السبعة.

(٣) أي: ارتكابَه. [أحمد].

(٤) الكَلْكَل: الصَّدْر من كل شيء. والعَجُز: المؤخِّرة. وقد اجتمعا في قول امرِئ القَيْس، في معلَّقته، يتحدث عن ليله الـمُرخِي عليه أنواعَ الهموم:

فقلتُ له لـمَّا تَمطَّى بِصُلْبِه وأَرْدَفَ أعجازاً، وناءَ بكَلْكَلِ

والاستعارات كلها كنايةٌ عن طول الليل وثِقَل وطأته على نفس امرِئ القَيْس.

وفي معلَّقة لَبِيد:

فالتفَّ منقصفاً، وأضحى نَجْمُه بين التراب وبين حِنْوِ الكَلْكَلِ

هذا.. ومادة «كلكل» مما أُخِلَّ بها في **القاموس المحيط**، وفي استدراكات **تاج العروس** عليه (لم ترد في **التاج** إلا في مادة «ب ر ك») [أحمد].

(٥) في المطبوعة: الذي. وهو خطأ محض، والتصويب من **الخصائص**. [أحمد].

(٦) الترجيب: هو التعظيم أيضاً. يقال: رَجَبَ [و: رَجِب، و: رَجَّب، و: تَرَجَّب] فلانٌ مولاه: أي عظَّمه. ومنه سُمِّي شهر رَجَب؛ لأنه كان يعظَّم.

(٧) أي: يقوم عليه ويخدمه. [أحمد].

(٨) أي: يعرفه حقَّ المعرفة. [أحمد].

إلى سانِح خاطِره، ولا إلى نَزْوةٍ من نَزَوات تفكُّره. فإذا هو حذا على هذا المِثال، وباشر بإنعام تصفُّحِه أحناءَ الحال[١]؛ أمضىَ الرأيَ فيما يُريه الله منه.. غير مُعازٍّ[٢] به، ولا غاضٍّ من السَّلَف ـ رحمهم الله ـ في شيءٍ منه. فإنه إذا فعل ذلك؛ سُدِّد رأيُه، وشُيِّع[٣] خاطرُه، وكان بالصوابِ[٤] مَئِنَّةً[٥]، ومن التوفيق مَظِنَّةً[٦]»[٧].

ثانيهما: أن هذا الذي انتهى إليه بعضُ أساتذة النحو من نقدٍ للفكر النحوي كان ينبغي أن يظلَّ في مَجْثَمه من شهاداتهم الجامعية العليا («الماجستير» و«الدكتوراه»)، أو

(١) جمع «حِنْو»، وهو مُنْعَطَف كل شيءٍ فيه اعوجاج وتعرُّج. وأحناء الأمور: أطرافُها ودواخِلُها ومتشابهاتُها. ومنه قولُ الفَرَزْدَق، يمدح الوليد بن عبدالملك:

لنأتِيَ خيرَ أهلِ الأرض حَيًّا ... تُحَلُّ إليه أَحْنَاءُ الأمورِ

وكلام ابن جِنِّي كنايةٌ عن شدة التتبع والعناية. [أحمد].

(٢) الـمُعازَّة: المغالَبَة. ومنه قوله ـ تعالى ـ [على لسان أحدِ الـخَصْمين، صاحِبَي داوود ـ عليه السلام ـ]: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي غَلَبني.

(٣) هذا من قولهم «شيَّعه على رأيه» و«شايعه»: أي تابعه وقوَّاه.

(٤) في المطبوعة: الصواب. وهو خطأ محض، والتصويب من **الخصائص**. [أحمد].

(٥) أي مَخْلَقةً ومَجْدَرةً. وهي «مَفْعِلَة» [مأخوذةٌ] من «إنَّ» التي للتحقيق والتأكيد. وكل شيءٍ دَلَّ على شيءٍ؛ فهو مَئِنَّةٌ له. **الفائق**، ١/ ٦٣، و: **النهاية**، ٤/ ٤٩٠. [وفي الحديث الشريف الذي رواه مسلمٌ في صحيحه: «إن طول الصلاة وقِصَر الـخُطْبة من مَئِنَّة الرجل». أحمد].

(٦) المَظِنَّة: «مَفْعِلة» أيضاً من «الظن»، وقياسُها فتحُ الظاء، وإنما كُسرتْ لأجل الهاء. ويراد بها موضع الظن ومُـحْتَمَلُه. والجمع: مَظَانّ. ومنه قول مجنون ليلى في صاحبته:

موسومةٌ بالـحُسْن، ذاتُ حواسدٍ ... إنَّ الـحِسانَ مَظِنَّةٌ للـحُسَّدِ!

ومما يتردد في كلام الفقهاء والأصوليين ـ وغيرهم من علمائنا ـ أن «الـمَظِنَّة (أي الظن الراجح) تُنَـزَّل منزلةَ الـمَئِنَّة (أي المؤكَّد الثابت) احتياطاً وتحرُّزاً»، وبعبارةٍ أخرى: «تُعطَى الـمَظِنَّةُ حكمَ الـمَئِنَّة».. كما في اعتبار النوم ناقضاً للطهارة، وإن تُيُقِّنَ ـ بطريقٍ ما ـ أنه لم يخرجْ من النائم ناقضٌ فعلاً.. حيث نُزِّلتْ مَظِنَّةُ الحدَث منزلةَ الناقض المؤكَّد حالَ اليقظة. وثمة تفاصيلُ واجتهاداتٌ واختلافاتٌ في تنزيل القاعدة على فروعها. والله أعلم. [أحمد].

(٧) **الخصائص**، ١/ ١٨٩، ١٩٠.

بحوثهم التي يعدونها لترقياتهم العلمية.. لكنهم يُلْقون آراءَهم هذه على طلبتهم في المرحلة الجامعية الأولى (السنوات الأربع) فـيُحدثون عندهم بَلْبلةً خطيرة. ويحدثنا بعض هؤلاء الطلبة أن أستاذاً يخصص نصف المحاضرة لشرح القاعدة النحوية، ويصرف النصف الآخر لنقد ونقض هذه القاعدة! وبهذا يفرض الأستاذ على طلبته وجهة نظرٍ خاصة ربما لا تثبت أمام النظر الصحيح. وإن الواجب على الأساتذة في هذه المرحلة من التعليم أن يعلِّموا طلبتَهم أصولَ العلم ليس غير.

إن الغاية من تعليم النحو: أن يتكلم الطالبُ كلاماً صحيحاً، ويكتب كتابةً صحيحةً، ثم يكون قادراً على قراءة تراثه وفهمه وتفهيمه. أما [ما][1] وراء ذلك من نقد وتقويم؛ فينبغي ألا يُعاجَ به ولا يؤبَـه له، لا سيما في هذه المرحلة الجامعية الأولى، كما قلتُ.

وإن هذا الذي يحدث في ميدان الدراسات النحوية واللغوية يذكِّرنا بهذه المصيبة التي اجتاحت بعض الشباب المسلم المحبِّ لحديث سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ، ومعرفة السنّة المطهَّرة.. فقد اتجه كثيرٌ منهم هذه الأيام إلى طلب معرفة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وتجريح الرواة وتعديلهم. وهذا بحرٌ لا ساحلَ له! وقد صرفوا في ذلك جهوداً كثيرة، كان ينبغي أن تصرف إلى قراءة صحيحي الإمامين الجليلين: البخاري ومسلم، وبقية الكتب الستة، ثم المسانيد الأخرى. فإذا أتقنوا ذلك؛ كان لهم أن يبحثوا في الضعيف والموضوع. وقد بلغت السَّفاهة ببعضهم أن يقول عن حديث رواه الإمام الجليل أبوعبدالله البخاري: «صحَّحه فلان».. يريد أحدَ العلماء المعاصرين! أفبعدَ إخراج البخاري للحديث، يقال: «صحَّحه فلان»؟!

---

(١) زيادة. ساقطة من المطبوعة. [أحمد].

[نقد النحو قديم]

على أنه مما يجب التنبيه عليه هنا أن نقد النحو قديم؛ لأنه كما قلت: ليس قرآناً يُتْلَى أو سنّةً متواترة. فهذا أبوزيد الأنصاري - وهو أحد شيوخ سِيبَـوَيْـه - يأتي في كلامه ما يدلُّ على أن النحاة كانوا يغيرون الرواية أحياناً ليثبتوا قواعدهم. وذلك أن النحويين يستشهدون على جواز الترخيم في غير النداء، بأبياتٍ، منها قول جرير:

ألا أضحَتْ حِبالُكُمُ رِماماْ   وأضحَتْ منكَ شاسعةً أُماماْ(١)

فقال أبوزيد: «وأنشد هذا البيت أبوالعباس محمد بن يزيد، عن عُمارة:

وَمَـا عَهْـدٌ كَعَهْـدِكِ يَـا أُمَامَـا

على غير ضرورة. وهذا شيء يصنعه النحويُون ليُعرِّفوك كيف مَجراه متى وقع في شعر»(٢).

ومثل هذا يُرْوَى عن الأصمعي أيضاً، فقد أنشد بيت نَهْشَل بن حَرِّيٍّ:

---

(١) هذه رواية كتب اللغة والأدب، ومنها أمالي ابن الشجري (تحقيق الطناحي، ١/ ١٩٢).

ورواية الديوان (ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف/ القاهرة، ط ٣، د. ت، ١/ ٢٢١)، وهي الرواية التي أنشدها أبوالعباس:

أأصبحَ وَصْلُ حَبْلِكمُ رِمَاماْ؟!   وما عَهْدٌ كَعَهْدِكِ يَا أُمَامَا

وفي روايةٍ (ديوان جرير، المطبعة العلمية بمصر، ط ١/ ١٣١٣ هـ-١٨٩٦م، ٢/ ٩١): أصبح، دون استفهام.

وعلى كلٍّ.. فالشاهد في رواية غير الديوان: جواز الترخيم في غير النداء.. حيث حَذَف تاء التأنيث من «أمامة»، وهي مرفوعةٌ بـ«أضحت»، لا مناداة، وأبقى فتحةَ الميم وبعدها ألف الإطلاق. وأما رواية الديوان؛ فجاريةٌ على القياس في ترخيم المنادَى. [أحمد].

(٢) نوادر أبي زيد، ص٢٠٧.

لِـيَبْكِ يزيدَ ضارِعٌ لخصومةٍ ومختبِطٌ ممَّا تُطِيحُ الطَّوائحُ

بفتح الياء[١] وكسر الكاف، بالبناء للفاعل. ولم يُـعرف: «لِـيُبْكَ يزيدُ» بالبناء للمفعول، وقال: «هذا من عمل النحويِّين»[٢].

وهذا ابن قتيبة، خطيبُ أهل السُّنة وقامعُ البدعة، وناصرُ العربية، والذابُّ المنافحُ عن القرآن والحديث.. ينقد النحاة نقداً شديداً، فيقول في بيت الفَرَزْدَق الشهير:

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوانَ لم يَـدَعْ مِنَ المالِ إلا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ

«رَفع آخِرَ البيت ضرورةً، وأتعب أهلَ الإعراب في طلب العِلَّة.. فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يُرْضَى. ومن ذا يَخْفَى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيالٌ وتمويه؟!»[٣].

فلا قداسة لأحد، والكمال لله وحده. وتراثنا كله منقودٌ من داخله، وقد واكبتْ حركةُ النقد حركةَ التأليف من أول الأمر. وعلماؤُنا ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يرجعون عن بعض آرائهم إذا استبان لهم أن الحق بخلاف ما ذهبوا إليه. يقول أبو الفتح عثمان ابن جِنِّي: «ومن الشائع في الرجوع[٤] عنه من المذاهب ما كان أبو العباس (المبـرِّد) تتبَّع به كلام سِيبَـوَيْــه، وسمّاه مسائل الغلط. فحدثني أبو علي (الفارسي) عن أبي بكر (ابن السرَّاج) أن أباالعباس كان يعتذر منه ويقول: هذا شيءٌ كنَّا رأيناه في أيام الحداثة.. فأما الآن؛ فلا»[٥].

---

(١) في المطبوعة: الباء. وهو خطأ.. فالمراد الياء من «ليبك». [أحمد].

(٢) **فعلت وأفعلت**، لأبي حاتم السجستاني، ص١٩١. و: **الخزانة**، ١/ ٣٠٣.

(٣) **الشعر والشعراء**، ص٨٩.

(٤) هكذا في **الخصائص**.. فهل يمكن أن تكون «الـمرجوع»؟ [أحمد].

(٥) **الخصائص**، ١/ ٢٠٦.

وقال أبوالحسن الأخفش: «سمعت أباالعباس المبـرِّد يقول: إن الذي يغلط ثم يرجع لا يُعَدُّ ذلك خطأ؛ لأنه قد خرج منه برجوعه عنه. وإنما الخطأ البيِّن الذي يُصِرُّ على خطئه ولا يرجع عنه، فذاك يُعدُّ كذاباً ملعوناً»[١].

ويقول أبوالحجَّاج الشَّـنْـتَمري معتذراً لأبي عليٍّ الفارسي في بعض ما تعارض فيه قوله: «وليس يُنكَر على العالم أن يرجع عن قولٍ إلى ما هو خيرٌ منه»[٢].

[لا يَحسُن وقوفُ المبتدئين عند نقد العلوم]

على أنه لا يصحُّ بحالٍ أن نكشف لصغار الطلبة، وهم في هذه المرحلة الجامعية الأولى، عن أبواب النقد هذه، وأن ندلِّهم عليها.. فإن مداركهم تقصُر عن إدراك تلك المرامي البعيدة، فضلاً عما يحدثه ذلك في نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تُزَهِّدُهم في العلم كله.

وقد نَـبَّه أهل العلم إلى ذلك من قديم..

فقد ذكر أبوداوود في رسالته إلى أهل مكة: «أنه ضررٌ على العامة أن يُكشَف لهم كلُّ ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث؛ لأن علْم العامة يَـقْصُر عن مثل هذا». قال الحافظ ابن رجبٍ الحنبليُّ: «وهذا كما قال أبوداوود.. فإن العامَّة تقصُر أفهامُهم عن مثل ذلك، وربما ساء ظنُّهم بالحديث جملةً إذا سمعوا ذلك»[٣].

وذكر الحافظ أبوسعد السَّمْعاني من آداب المحدِّث.. قال: «ألّا يرويَ ما لا

---

(١) المزهر، ٢/ ٣٢٠. والأخفش في هذا الخبر: هو الأخفش الأصغر، علي بن سليمان.

(٢) الخزانة، ٨/ ١٣١.

(٣) شرح علل الترمذي، ص٤٦٣.

يحتمله العَوامُّ». وروى بسنده إلى علي بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ .. قال: «أيها الناس.. تحبُّون أن يُكَذَّبَ الله ورسولُه؟! حدِّثُوا الناسَ بما يعرفون، ودَعُوا ما يُنكرون». وروى أيضاً بسنده إلى عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ .. قال: «إن الرجلَ لَيحدِّثُ بالحديث، فيسمعه من لا يبلغ عقلُه فَهْمَ ذلك الحديث.. فيكون عليهم فتنةً!»(١).

وروى ابن عبدالبرّ عن هشام بن عُروة بن الزبير بن العوَّام.. قال: «قال لي أبي: ما حدَّثتَ أحداً بشيء من العلم قطُّ لم يبلغه علمُه؛ إلا كان ضلالاً عليه!». ورَوى عن أبي قِلابة.. قال: «لا تُحدِّثْ بحديثٍ مَن لا يعرفه، فإن مَن لا يعرفه؛ يضُّره ولا ينفعه»(٢).

وقال بدر الدين بن جَماعة، فيما يجب على المعلِّم نحو طلبته: «وكذلك.. لا يُلْقي إليه ما لم يتأهَّلْ له؛ لأن ذلك يُبدِّدُ ذهنه، ويُفرِّق فَهْمَه. فإن سأله الطالبُ شيئاً من ذلك؛ لم يُجِبْه. ويُعرِّفُه أن ذلك يضرُّه ولا ينفعه، وأنَّ مَنْعَه إياه منه لشفقةٍ عليه ولُطفٍ به، لا بُخْلاً عليه. ثم يرغِّبه عند ذلك في الاجتهاد والتحصيل، ليتأهَّل لذلك وغيرِه. وقد رُوِي في تفسير «الرَّبَّـانيّ» أنه الذي يُربِّي الناسَ بصِغار العِلم قبل كِباره».

وقال أيضاً: «ولا يُشير على الطالب بتعليم ما لا يحتمله فَهمُه أو سِنُّه، ولا بكتابٍ يَقْصُرُ ذهنُه عن فهمه»(٣).

وذكر السيوطي من آداب الرواية والتعليم.. قال: «ومن آدابها: الإخلاص، وأن يقصد بذلك نشر العِلم وإحياءَه، والصدقُ في الرواية، والتحرِّي والنصحُ في التعليم، والاقتصارُ على القَدْر الذي تحمله طاقة المتعلم»(٤).

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء، ص٥٩، ٦٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ١/ ١٣٤.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم، ص٥١، ٥٢.

(٤) المزهر، ٢/ ٣٣٠.

[ثالثاً:] الاشتغالُ بالنظرية واجتواءُ التطبيق

وهذا السببُ غايةُ ونتيجةُ السابق. فإن كثرة الحديث عن نقد الفكر النحوي واللغوي قد مهّدت الطريق وعبَّدتْه لهذا القدر الهائل من النظريات، من «الوصفي» و«المعياري».. مع التوقير الشديد لأساتذتنا الكبار الذين كتبوا في ذلك. على أن هؤلاء الأساتذة الكبار حين كتبوا في هذه الاتجاهات كانوا يأوون إلى رُكْنٍ شديد من الوعي التراثي الجيد بالنحو واللغة؛ لأنهم ينتمون إلى جيل الـحَفَظة والمتون، الذي حدثتُك عنه من قبل. لكن الآفة قد جاءت من تلاميذهم الصغار الذين مَدُّوا في هذا الطريق يَداً، واندفعوا فيه اندفاعاً، وتركوا تراثهم وراءهم ظِهْرِيًّا.. ثم كان ما كان من ذلك الحديث الغامض المبهَم عن «منهج البحث العلمي» و«التفكير الموضوعي»، و«المناهج النفسية والتاريخية والاستردادية» («تَرجمةٌ تَرُوق بلا معنًى، واسمٌ يَـهُول بلا جِسم!»)[1]، وعن «البنيوية» و«التحويلية»، وسائر المدارس اللغوية والنحوية، شرقاً وغرباً. وكل أولئك لا بأس به، بل هو مطلوبٌ ومرادٌ، على أن يُوظَّف لخدمة تراثنا اللغويِّ والنحويِّ، وتجليته والكشف عنه، وتيسير التعامل معه والانتفاع منه.. لا أن يكون باباً للثرثرة والادعاء، صارفاً عنه لُبَّ العلم وأصله!

على أن السَّير في هذا الطريق سهلٌ لاحِبٌ[2] لمن أراد أن يسلكه، والشأن فيه قريب؛ لأنه قليل الأعباء، غير مكلِّف! فليس أَيْسَرَ على طالب العلم من حفظ هذه المصطلحات النظرية واستظهارها، ثم استحضارها في كلِّ وقت وحين. أما فقه النصوص، وفهم كلام العرب وتذوّقه، وتوجيهه وتحليله؛ فهو شيءٌ مغيَّبٌ تماماً عند

---

(١) من كلام ابن قتيبة في أدب الكاتب، ص٧.

(٢) الطريق اللاحب: الواضح، الواسع، الذي لا ينقطع. ومثلُه: لَحْب، ومُلَحَّب، ومَلْحوب. تقول العرب: التحب فلانٌ مَحَجَّة الطريق: إذا رَكِبها. [أحمد].

أبناء هذا الجيل.. «والناسُ تَسْتسهِلُ المسالك»![١].

ومن مئات الأمثلة والشواهد على تلك الفجوة بين النظرية والتطبيق: أنك قد تجد طالباً يحدِّثُك بتطلُّق[٢] شديد عن التأليف المعجمي عند العرب، ومدارسه ومذاهبه، ثم لا ينسى أن يحدثك عن «عيوب المعجم العربي».. فإذا سألته عن مفاتيح البحث عن هذه الكلمات في المعجم «تراث»، «ميناء»، «تَتْرَى»؛ حار وأبْلَس![٣].

[الاجتراء على تخطئة النصوص الصحيحة]

على أن أبشع ما في هذه القضية أن يؤدِّي هجرُ كلام العرب وعدمُ فقهه إلى تخطئة النصوص الصحيحة، وأمثلةُ هذا كثيرة جدًّا فيما تسمع وفيما تقرأ، وأجتزىء هنا بمثالين:

سمعت بعضهم يخطىء رواية هذا الحديث: «ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا.. ما أحييتنا، واجعله الوارثَ منا»[٤]. ويقول هذا المُخَطِّىء: كيف يقول: «واجعله» فيُفرد الضمير مع عودته على جَمْع؟ وهذا بابٌ من أبواب الكلام عند العرب معروفٌ

---

(١) الظاهر أن هذا اقتباسٌ؛ لوروده في المطبوعة بين علامات تنصيص. وقد بحثتُ عنه، فلم أجده.. لا في نظمٍ ولا في نثر. والله أعلم. [أحمد].

(٢) فلانٌ طَلِقُ الوجه: ضاحكُه، مستبشِرُه، منبسِطُه. ولسان طَلِقٌ ذَلِقٌ: ذو انطلاقٍ وحِدَّة. [أحمد].

(٣) بل ربما ظن أن «تترى» هذه فِعل، وما دَرَى أنها اسمٌ! والدليل على اسميتها أن أباعمرو وابن كثير قرءا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، بالتنوين «تَـتْـرًى»، ولا يُنَوَّن إلا الاسم. وجاء في حديث أبي هريرة: «لا بأس بقضاء رمضان تَـتْـرًى»، أي متفرقاً غير متتابع. والتاء الأولى منقلبة عن واو، وهو من المواترة.

[أدار الطناحي ـ رحمه الله ـ مقالاً ماتعاً حول هذه الـ «تَـتْـرَى»، نشره في الهلال: ربيع الثاني ١٤١٩ هـ ـ يوليو ١٩٩٨م، وتجده في مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي، القسم الثاني، ص٥٥٢: ٥٦٢. أحمد].

(٤) رواه الترمذي في أبواب الدعاء: **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، ١٣/ ٣٢.

مأنوس، عَرَض له ابن فارس وغيرُه.

وسمعت أحدَهم يستنكر هذه الرواية في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، في كتاب الأذان، وهو حديث الدعاء عند الأذان: «اللهم، ربَّ هذه الدعوةِ التامة والصلاة القائمة.. آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثه مَقاماً محموداً الذي وعدته»[١].. وذلك لتنكير «مقاماً» مع تعريف «الذي». وتوجيهه النحوي سهل.. فإنه على «البدل»، وإبدال المعرفة من النكرة جائز، على حد قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ.. صِراطِ الله﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقيل في إعرابه غير ذلك، على ما ذكر ابن حجر في **فتح الباري**. هذا.. وقد جاء في الرواية أيضاً: «المقام المحمود»، لكن ابن قَـيِّمِ الـجَوْزِيَّة يُقوِّي رواية التنكير، «مقاماً محموداً»، بأدلّةٍ كثيرة[٢].

وهكذا تُستَنكَر التراكيب الفصيحة الصحيحة لجَريانها على غير ما يَعْهَدُه الناسُ في أيامهم هذه! ولو ذهبتُ أذكر كلَّ ما أقرؤه وأسمعه من هذا الباب؛ لطال بي الطريق! والله المستعان، وهو كاشفُ كلِّ بَـلِـيَّة!

[نظرياتٌ بلا تطبيق!]

وقد كتبت كثيراً وحاضرتُ عن هذه الآفَة: آفَة الاشتغال بالنظريات وإهمال التطبيقات، وقلت: إن الغلوّ في هذا السُّلوك قد أنتجَ لنا طائفةً من حَمَلَة «الماجستير» و«الدكتوراه»، ترى أحدَهم فصيحاً لَسِناً جَدِلاً إذا خاض في المناهج وطرق البحث العلمي، ونشأة المدارس الأدبية واللغوية والنحوية، وإذا تكلم في شئ من ذلك؛ ملأ فمه بالحروف ولاك ومَضَغَ، وخلط عربيًّا بعَجَمي، وبَهَر الناس بما يُشبه أُخْذَةَ

---

(١) **فتح الباري**، ٢/ ٩٤.

(٢) **بدائع الفوائد**، ٤/ ١٠٥.

الساحر[١]، وفغَر السامعون أفواههم دَهَشاً لهذا السيل المنهمر، وهو يتلوَّى في منطقه سادراً في لَغوه، نشوانَ.. يسخر من هذا، ويهزأُ بذاك من علمائنا الأكرمين ـ رضي الله عنهم ـ، لا يكاد يردهُّ شيء! فإذا أنت أخذتَه إلى سطرٍ واحدٍ مما كتبه السابقون الأولون؛ سقَط كلُّ قِناع، وانكشف كلُّ خَـبِـيء، وتعرَّى كلُّ زَيْـف، وهَجَم بك علي ما يؤذي سمعَك من مساخر اللحْن الظاهر والخفيِّ، وأضاحيك العُجْمة في صفات الحروف ومخارجها، ثم في نطق الأعلام والأنساب والكُنَى والألقاب، وانتهى بك إلى كلامٍ محرَّفٍ ومُـزَالٍ عن جهته!

وهكذا تمضي الأمور! وحسبنا الله ونعم الوكيل![٢].

هذا ما قلتُه، وسوف أظلُّ أقوله، وقد رضيَ مَن رضي، وسَخِط مَن سَخِط، حتى رأيتُه في كلام بعض أساتذتنا الأكرمين وزملائنا الأفاضل..

يقول الدكتور لطفي عبدالبديع: «وفقه العربية جاز فيه لعهدنا كلُّ شيءٍ إلا أن يكون فقهَ العربية، فقد تحوَّل إلى شَذَرات[٣] من السامِـيَّات والكلام في الأصوات، استحالتْ معها اللغة إلى فقاقيعَ تتطاير في المعاهد والجامعات! وكان هذا العلمُ هو العِلمَ المقدَّمَ عند الأوَّلين، يَـعُدُّونه الأصلَ الذي تُبْـنَى عليه سائر العلوم. وتاريخ البحث فيه يمتدُّ إلى تاريخ جمع اللغة وتدوينها، وما يتصل بذلك من شعور غريب. ثم تتابعت حَلَقات البحث بكتب اللغة والـمُعْجَمات. وما صنَّفه علماءُ العربية في هذا الباب لا يعدِلُه ما صنَّفه غيرُهم من أبناء اللغات الأخرى»[٤].

---

(١) الأُخْـذَة: رُقْية السِّحْر، وما إليها، وما إليه. [أحمد].

(٢) انظر بقيَّة لهذا الكلام في مقدمتي لكتاب الشعر: ص٤٠.

(٣) الـشَّذْرَة: القطعة الصغيرة المتطايرة من الذهب. [أحمد].

(٤) **عبقرية العربية**، ص٥. [عنوانه الكامل: **عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب**، د. لطفي عبدالبديع، مطابع دار البلاد/ جدة، ط١/ ١٩٨٦م. أحمد].

ويقول أستاذنا الدكتور كمال بِشْر: «أضف إلى هذا أن الاستمرار في تقديم النظريات والمبادئ العامة قد يكون مُغْرياً إلى درجة من شأنها أن تفوِّت على الدارس فرصةَ الإسهام في المجال التطبيقي الذي يتَّسم بالصعوبة من بعض نواحيه، والذي يتطلَّب جهوداً صادقةً في سبيل الوصول إلى نتائجَ علميةٍ، يحتاج إليها المتعلمون والباحثون جميعاً»(١).

ويقول الأخ الدكتور محمود الربيعي، ملخِّصاً ما دار في ندوة جمعتْ نفراً من الزملاء، حول موضوع «الأدب المقارن».. قال: «وقد شرَّق الكلام وغرَّب، وترددت مصطلحاتٌ ضخْمةٌ فيه، مثل «الكلاسيكية» و«الرومانتيكية» و«الواقعية» و«الرمزية»، بل.. و«الموضوعية» و«البنيوية» و«التفكيكية». كما ترددت أسماء رجال أجانب صنعوا بأبحاثهم مناهج البحث في الأدب المَقارن... ونُثرت على مسامع السامعين أمثالٌ وحكايات، واختُلِف حول دور طه حسين في الموضوع، كما اختُلِف حولَ ازدهار هذا العِلم في بلاد اليونان الحديثة. ولم يُترَك مما يمكن أن يُقال شيءٌ إلاَّ وقيل. وتأمَّلتُ الموقف من مكان المستمعين، وبدا لي أن أقرب تشبيه يمكن أن يَصْدُق على حالتنا الأدبية، في موضوع «الأدب المقارَن»، أو «المقارِن» ـ بفتح الراء أو كسرها ـ هذا، هو حال المخبز الذي جَلَب كل الآلات المتطورة لينتج خبزاً آليًّا بأعدادٍ هائلة، والحال أنه يفتقر أصلاً للدقيق! وقد طردتُ مثل هذا التشبيه عن خاطري؛ لأنه لا يتلاءم والمناسبةَ الأدبيةَ الرفيعة! ثم جاء إلى ذهني تشبيهٌ آخر، وهو صورة العيادة الطبية التي زُوِّدت بأحدث الآلات، من أجهزة للأشعة المقطعية، وكيماويات للتحاليل الطبية الفورية، ولكنها تخلو من مادة العمل الأساسية التي هي المرضَى! ولكنني قلت لنفسي: إن هذا التشبيه لا يليق بالمناسبة. وحين جاء وقت التعقيبات.. أدليتُ بتعقيب حاولت فيه أن أتفادى التشبيهات على قدر الإمكان، وأن أصف الواقع حولي. وقد

---

(١) علم اللغة العام ـ الأصوات، ص٦٣.

قلت لزملائي: كيف تشتغلون البحث في آلات متقدمة لموضوع الأدب المقارن[١]، وأنتم تعلمون أن خامة الواقع الأساسية التي يبدأ بها العمل غير موجودة أصلاً؟! إن طلاب اللغة العربية لا يُحْسِنون عربيتَهم بالقدر الذي هو مطلوب، وطلاب اللغات الأجنبية لا يُحْسِنون هذه اللغاتِ بالقدر الذي هو مطلوب.. فكيف يُرجى، والحالة هذه، أن نجنيَ ثمرةً من تطوير علم ينهض في أصله على العَلاقات بين الآداب التي هي فنونٌ قَوليةٌ كلامية؟! وقلتُ كذلك: إن تطور[٢] منهجٍ معتمَدٍ في دراسة الأدب القومي أولى بالرعاية من تتبع مناهج الدراسة في آداب أجنبية[٣]. وقلتُ أيضاً: إن تلقين المناهج لطلاب العلم الذين يدرسون في الجامعات لدينا يجعلهم يتحدَّثون عن «أعوص» المناهج الغربية الأجنبية كأنهم أصحابها، فإذا طلبتَ[٤] إليهم أن يقرؤوا، مجرد قراءة، نصًّا إبداعيًّا باللغة التي يُـعَدُّون للتخصص فيها (عربيةً أو أجنبيةً)؛ لم يقيموا النص قراءةً.. فضلاً عن التعمُّق في فهمه بالتحليل والتركيب والتفكيك!»[٥].

---

(١) هكذا بالأصل المطبوع. ولم يظهر لي وجهُ الجملة. كما لم تُتَح لي نسخةُ جريدة **الأهرام** المنشور فيها مقال محمود الربيعي. وقد يكون سياق الكلام هكذا: «كيف تشتغلون بالبحث في آلاتٍ... » إلخ. والله أعلم. [أحمد].

(٢) هكذا بالأصل المطبوع. ولعلها: تطوير. والله أعلم. [أحمد].

(٣) هذا يتفق تماماً مع ما قلته تماماً منذ خمس سنوات في كتابي الصغير **الموجز في مراجع التراجم والبلدان**، ص١٢ وما بعدها.

(٤) وهذا أيضاً تقدَّم في كلامي، وقلته منذ ثلاث سنوات في مقدمة تحقيق كتاب **الشعر**. ولكن الكلام يَثْقُل في مكان ويَخِفُّ في مكان!

(٥) ترتيب الأولويات، مقالة للدكتور محمود الربيعي بجريدة **الأهرام**، بتاريخ ٦/ ٧/ ١٩٩٠م.

وقوله: «الأولويات» يخطِّئه بعضهم، ويرى صوابه: الأوَّليات. وهو الذي في **لسان العرب** مادة «و أ ل».. ففيه عن أبي زيد: «يقال: جاء في أوَّليَّة الناس: إذا جاء في أولهم». وفيه أيضاً: «تقول: هذا أوَّلٌ بَـيِّنُ الأوَّليَّة».

قلت: وقد وجدت «الأولوية» في أسلوب ابن هشام (في **مغني اللبيب**، ص٢٠٧، مبحث «كيف»).. قال: «لإفادة الأولوية بالحكم».

وانظر مصطلح «الأوَّليَّات» في **الكليات** لأبي البقاء الكَفَويّ: ١/ ٤٣١.

أرأيتَ؟

هذا هو كلام أهل العلم، من الذين عاشوا التجربة الجامعية في الدرس اللغوي والأدبي، وخَـبَروا سوادَها وبياضَها!

لكن.. لنا أن نسأل:

من الذي نَـقَب هذا النـَّقْبَ في جدار الدرس الأدبي واللغوي العربي الحديث؟! ومن الذي أغرى الشباب بهذا اللون النظري من البحث اللغوي، وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم النصوص؟!

ألم تخرج هذه الأشياء الـمَـعِيبة الآن من داخل المدرَّج الجامعي؟!

إن الإسراف في النظريات والمناهج هو الذي أضعف إحساس أبنائنا بالعربية الأولى، وهو الذي أورثهم العجز الذي يأخذ بألسنتهم وأقلامهم.. فلا يستطيعون قولاً ولا بياناً!

[رابعاً:] إهمالُ جوانبَ ضروريةٍ في تعليم النحو والعربية

ـ الحَفظ [ليس مقابلاً للفهم!]

يَشيع في أيامنا هذه كلامٌ عجيب، يُبغِّض إلى طالب العربية «الحفظ» ويُزهِّد فيه. بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى تثبيت قاعدة تجعل «الحفظ» مقابلَ «الفهم»، وأن الطالب الذي يحفظ «صَمَّام»[١]، وغير قادر على الفهم والاستيعاب. ونقرأ للمسؤول الأول عن التعليم في مصر قولَه: «... ولابد أن يدرك الطالب أن زمن الحفظ و«الصَّمَّامين» قد انتهى»[٢].

---

(١) سبق التعليق علي «صَمَّام»، وأنها من فِصاح العامِّيَّة، ص٨٤. [أحمد].

(٢) جاء هذا ضمن كلمة في جريدة **الأهرام** بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٩٩٠م، للدكتور محمد علي هديه، بعنوان «طالب العلم بين الهواية والدراية».

وهذا الكلام إن صدق على العلوم الـمَـعْملية والتطبيقية، لا يصدق على علوم العربية من أدب ولغة ونحو؛ وذلك لأن تراثنا كلَّه قائمٌ على الرِّواية والدِّراية، والرواية مقدَّمة، ولذلك قالوا: «الرواية من العشرين، والدراية من الأربعين»[١]. والجوهري، صاحب **الصَّحاح**، يقول في مقدمته: «قد أودعتُ هذا الكتابَ ما صَحَّ عندي من هذه اللغة (...) بعد تحصيلها بالعراق روايةً، وإتقانها درايةً»[٢].

[الحفظ سابقٌ للتدوين]

وقد وصل إلينا تراثنا في أول أمره عن طريق الحفظ والرواية، ثم جاءت حركة التقييد والكتابة في مرحلة تالية، على ما هو مقرَّر ومعروف.

فالحفظ هو الأساس. وقد حَثُّوا عليه ومدحوا أهله.. فرُوِي عن الأصمعي أنه قال: «كلُّ علم لا يدخل معي الحَمَّام فليس بعلم!». ويريد أنه حافظُه ومستحضرُه في كل وقتٍ، وعلى كل حال. وقال محمد بن يسير[٣] (من شعراء الدولة العباسية الأولى):

أَأُشْـهَرُ بالجهـل في مَجلسٍ وعِلْميَ في البيت مُسْتَوْدَعُ؟!
إذا لـم تكـن حافظـاً واعيـاً فجَمْعُكَ للكُتْبِ لا ينفعُ![٤]

---

(١) **المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي**، ص١٨٨. وواضح أن المراد بالرواية هنا رواية الحديث الشريف. أما حفظ القرآن الكريم والشعر.. فقد كان يبدأ عندهم في سنٍّ مبكرة. ومع هذا فقد قيل: «إذا ضبط الإملاء؛ جاز سماعُه، وإن كان دون العشر». وقيل: «إن أهل البصرة يكتبون [الحديث] لعشر سنين، وأهل الكوفة لعشرين، وأهل الشام لثلاثين». **المحدِّث الفاصل**، ص١٨٦، ١٨٧.

(٢) سبق تخريجه. [أحمد].

(٣) في المطبوع: تيسير. وهو خطأ. [أحمد].

(٤) **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** ٢/ ٢٥١، وذكر طائفةً من أخبار الحفظ والحفَّاظ. [وقد سبق لنا التعليق على هذين البيتين، ص٨٥. ويُلاحَظ هنا أن الطناحي أورد أول البيتين: «أأُشْهَرُ» بالراء، في حين أورده في الموضع السابق من هذا الكتاب: «أأُشْهَدُ» بالدال، وهو الموافق لمصادري المذكورة هناك. والظاهر أن ما هنا خطأٌ من الطابع. والله أعلم. أحمد].

وقال بعض أهل العلم:

حِفْظُ اللغات علينا فرضٌ كَفَرْضِ الصلاةِ
فليس يُضْبَطُ دِينٌ إلا بحفظ اللغاتِ[١]

وقالوا: من حفظ حجةٌ على مَنْ لم يحفظ.

ولم يكونوا يَقْصُرون صفة «الحافظ» على حافظ الحديث فقط، كما يظن بعض الناس. قال السيوطي في معرفة آداب اللغوي: «فإذا بلغ الرُّتبةَ المطلوبةَ؛ صار يُدْعَى «الحافظ»، كما أن من بلغ الرتبة العليا من الحديث يسمَّى «الحافظ».. وعلم الحديث واللغة يجريان من وادٍ واحد»[٢].

ولولا أن الحفظ في تاريخنا التراثي لما أمكن لهذه الطائفة من عباقرة العربية العُميان أن يسجِّلوا لنا هذا القَدْرَ الضخمَ من المعارف الإنسانية، كالذي نقرؤه عند أبي العلاء المعريّ (وأبوالعلاء، فوق شاعريته، صاحبُ لغة ونحو وصرف وعَروض)، وابن سِيْدَه (صاحب **الـمُحْكَم والمخصَّص**)، والإمام التِّرْمذي صاحب **السُّنَن**، وغيرهم كثير مما ذكره[٣] صلاح الدين الصَّفَدي في كتابه الطريف **نَكْت الهِمْيان في نُكَت العُميان**[٤]. وحَسْبُك بقُرَّاء القرآن وعلماء القراءات، كالشاطبي صاحب المنظومة الشهيرة في القراءات السبع، المسمَّاة **حِـرْزُ الأماني ووجهُ التهاني**.

[الحفظ يناسب علوم العربية]

إن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظَ كثير من النصوص لتثبيت القواعد والتمكين

---

(١) المزهر ٢/ ٣٠٢. [وقد سبق أيضاً لنا التعليق على هذين البيتين، ص٨٥ أحمد].

(٢) نفسه، ٢/ ٣١٢.

(٣) سبق (ص ٨٦) أن الأقرب: ممن ذكرهم. والله أعلم. [أحمد].

(٤) سبق (ص ٨٦) التعليق على هذا العنوان. [أحمد].

للأبنية والتراكيب في ذهن طالب العلم. وقد قيل: «الحفظُ الإتقانُ»، وذلك ما رواه أيوب بن المتوكل، قال: «سمعت عبدالرحمن بن مهدي يقول: كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم؛ فهو يومُ غنيمته: سأله وتعلَّم منه. وإذا لَقي من هو دونه في العِلم؛ علَّمه وتواضَعَ له. وإذا لقي من هو مثلُه في العلم؛ ذاكَره ودارَسَه». وقال: «لا يكون إماماً في العِلم من أخذ بالشاذِّ من العلم، ولا يكون إماماً في العِلم من رَوَى كلَّ ما سمع، ولا يكون إماماً في العلم من رَوَى عن كلِّ أحد. والحفظُ الإتقان»[1].

ويقول ابن خَلدون: «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويرومُ تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم، الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث، وكلام السَّلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولَّدين أيضاً في سائر فنونهم.. حتى يَتنزَّل، لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور، منزلةَ من نشأ بينهم، ولُـقِّنَ العبارةَ عن المقاصد منهم». ويقول أيضاً: «وتَعلَمُ مما قرَّرناه في هذا الباب أن حصول ملَكةِ اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسمَ في خياله المنوالُ الذي نَسَجُوا عليه تراكيبَهم؛ فينسِجَ هو عليه، ويتنزَّلَ بذلك منزلةَ من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملَكةُ المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم».

ويقول أيضاً عن هذه الملَكة التي تحصُلُ بالحفظ والدُّرْبة: «... فإن الملَكات إذا استقرت ورسَخت في محالِّـها؛ ظهرت كأنها طبيعة وجِبلةٌ لذلك المحلِّ. ولذلك يظنُّ كثيرٌ من المغفَّلين، ممن لم يعرف شأن الملَكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمرٌ طبيعي، ويقول: كانت العربُ تنطق بالطبع! وليس كذلك. وإنما هي ملَكةٌ

---

(١) المحدّث الفاصل ص٢٠٦، والإلماع ص ٢١٥.

لسانية في نَظْم الكلام.. تمكَّنت ورسَخَتْ؛ فظهرَتْ في بادىء الرأي أنها جِـبِلَّـةٌ وطبعٌ. وهذه الملَكةُ ـ كما تقدَّم ـ إنما تحصُل بممارسة كلام العرب وتكرُّرِه على السَّمع، والتفطُّنِ لخواصِّ تراكيبه. وليست تحصُل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك، التي استنبطها أهلُ صناعة اللسان.. فإن هذه القوانين إنما تفيدُ عِلْماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصولَ الملَكة بالفِعل في محلِّها».

ويقرر ابن خَلدون أيضاً أنه «لابدَّ من كثرة الحفظ لمن يَرُوم تَعَلُّمَ اللسان العربي. وعلى قدر جَوْدة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قِلَّته.. تكون جودةُ الملَكة الحاصلة عنه للحافظ»[1].

ويقول القاضي عبدالرحيم بن علي بن شِيْث القُرَشيُّ، في سياق حديثه عن أدوات الكاتب وعُدَّته: «والحَفْظ في ذلك مَـلاكُ الأمر.. فإنه يؤهِّل ويدرِّب، ويُسهِّل المطلوب ويقرِّب»[2].

هذا.. وقد وقعت على نصٍّ خطيرٍ جدًّا، هو خيرُ ردٍّ وأوفاه على هؤلاء الذين يشترطون لِلحفظ الفهمَ، ويقولون: لا تطلبوا من الصبيِّ حِفظَ ما لا يفهم، فإن هذا غيرُ مُجْدٍ في العملية التعليمية[3]..

يقول أبوالفتح عثمان بن جِنِّي: «قال لنا أبوعلي (الفارسي) يوماً: قال لنا أبوبكر (ابن السَّرَّاج): إذا لم تفهموا كلامي؛ فاحفظوه.. فإنكم إذا حفظتموه؛ فهمتموه»[4].

---

(١) مقدمة ابن خَلدون، صفحات ٥٦١، ٥٦٢، ٥٧٨.

(٢) معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص٤٠.

(٣) من الذين ذهبوا إلى هذا الرأي قديمًا أبوبكر بن العربي (المتوفى سنة ٥٤٣هـ). ورأى ابن خَلدون أن طريقته هذه في التعليم غريبة.. انظر المقدمة، ص٥٣٩.

(٤) الخصائص، ١/ ٢١٦.

وهذا كلام صحيح، يصدّقه الواقع وتؤكده التجـرِبة.. فإن الإلحاح بالحفظ الدائم المستمر مما يمهد للفهم لا محالة. وآية ذلك أن صغار التلاميذ في دُور الحضانة والروضة يُردِّدون مع إطلالة كل صباح النشيدَ الوطني لبلادهم، وهم بالقطع لا يعرفون شيئاً عن معاني مفرداته، فضلاً عن تراكيبه، ولكنهم بمرور الأيام يدركون ويفهمون. والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى في اكتساب المهارات وإدراك المعارف. ونحن الذين حفظنا القرآن صغاراً نعرف هذا من أنفسنا.. فما زلنا نذكر ألفاظَ القرآن وتراكيبَه الغريبةَ علينا في مطلع أيامنا، ثم إضاءةَ معانيه في نفوسنا بعد ذلك بالتدريج، وإن كنا لا نُدرك بالضبط متى تَـمَّ هذا، كما لا يدرك الناظرُ في السماء انسلاخَ النهار من الليل إلا حين يغشاه نُورُه ويغمرُه سناه.

[المنظومات العلمية وأهمية حفظها]

وليس أدلَّ على أهمية «الحفظ» في العملية التعليمية في تراثنا، من هذا القَدْر الهائل من المنظومات في اللغة، والنحو، والفرائض (المواريث)، والقراءات، وعلوم الحديث، والأصول، والبلاغة، والمنطق، والعَروض، والميقات، والطِّبّ[١].. وكل ذلك لضبط القواعد وتقييد الأحكام. وما أمرُ **ألفية ابن مالك** ببعيد!

ومع المنظومات المطوَّلة في النحو والصرف كان هناك البيتان والثلاثة؛ لضبط القاعدة وترسيخها.. فهذه جموع القلّة ينظمها أبو الحسن الدَّباج في بيتين[٢]:

بأَفْعُـلٍ ثـم أفعـالٍ وأَفْعِلـةٍ ... وفِعْلةٍ..يُعرف الأدنَى من العددِ
كأَفْلُـسٍ وكأثـوابٍ وأرْغِفةٍ ... وغِلْمةٍ. فاحفظنْها حفظَ مجتهدِ

---

(١) بل، وأيضاً، في الهندسة والرياضيات.. وسائر العلوم الدينية والدُّنيوية تقريباً! [أحمد].

(٢) سبق لنا التعليق على هذين البيتين، ص٩٠ [أحمد].

وجموع الكثرة ينظمها بعضهم في قوله(١):

في السُّفُنِ الشُّهْبِ البُغاةُ صُوَرُ مَرضَى القُلوبِ، والبِحارُ عِبَرُ
غِلْمانُهم للأشقياءِ عَمَلَةْ قُطَّاعُ قُضْبانٍ لأجلِ الفِيَلَةْ
والعقلاءُ شُرَّدٌ، ومُنتهَى جُموعهم في السَّبْعِ والعَشْرِ انتهَى

وترتيب الخليل لمواد المعجم ينظمها بعضهم في قوله(٢):

عن حُزْن هَجْرِ خَريدةٍ غَنَّاجةٍ قلبي كَواه جَوًى شديدُ ضِرارِ
صَحبي سيبتدئون زَجْري طُلَّباً دَهَشي.. تطلَّبَ ظالمٍ ذى ثَارِ
رُغماً لذي نُصحي.. فؤادي بالهوى متلهِّبٌ، وذو(٣) المَلامِ يُماري!

وواضحٌ أن المرادَ الحروفُ الأولى من كلمات هذا النظم.

هذا إلى الضوابط النثرية مثل: «سألتمونيها» لحصر حروف الزيادة، و«سكت.. فحثَّه شخص» لضبط الحروف المهموسة، و«لم أر على ظهر جبل سمكة» لبيان الأسباب والأوتاد والفاصلة في العَروض.

ومن أطرف ما حفظناه من مشايخنا في الصَّغر قولهم: «صُنْ شَمْلَه» رموزاً لأسماء الأنبياء المصروفة المنونة: فالصاد لصالح، والنون لنوح، والشين لشعيب، والميم لسيدنا محمد ـ ﷺ ـ، واللام للوط، والهاء لهود.. عليهم السلام أجمعين. فهذه الأسماء الستة تُنوَّن، وما عداها من أسماء الأنبياء يُمنَع من التنوين.

وكانوا يقولون لنا أيضاً: «لا تكسِر **الصَّحاح**، ولا تفتحِ **الخِزانة**».. يريدون **الصَّحاح** للجوهري وأنه بفتح الصاد(٤)، و**خِزانة الأدب** للبغدادي وأنها بكسر الخاء.

---

(١) سبق أيضاً لنا التعليق على هذه الأبيات، ص٩٠. [أحمد].
(٢) سبق أيضاً لنا التعليق على هذه الأبيات، ص٩١. [أحمد].
(٣) سبق أنها بالمطبوعة: «وذوي»، وأنها خطأ طباعي. [أحمد].
(٤) سبق أيضاً تحرير القول في صاد **الصَّحاح**، ص٧٤. [أحمد].

فبهذه الضوابط الشعرية والنثرية تعلَّم السابقون النحو وفَقِهوه، وتلقينا نحن منهم ذلك؛ لأننا أدركنا معاهد العلم قبل أن يدهمها السَّيْل، ووَرَدْنا الماء صافياً قبل أن تكدِّره الدِّلاء! وإن من واجبنا نحن أن نلقِّن أبناءنا ذلك.

ولا ينبغي أن يُلتفت إلى ما يقال من أن هذا عيث[1] في اللغة العربية: أن تعتمد على الحفظ الأصم الأعمى.. فهذا أمر معروف في كثير من اللغات. يقول العالم الأديب الدكتور عبدالله الطيب: «ومساكين اللغة العربية ينفرون من الحفظ ليكونوا متمدينين! (...) وأشهد على نفسي أني عندما كنت أدرس في الخارج (لندن) كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ يسمِّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سَبُع»! وكانت لهذه المسرحيات القديمة شروح، وقد تكون الأبيات أربعة أسطر في أعلى الصحيفة بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون. فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية؛ نَفِروا منه نفوراً شديداً! ومن عجيب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر، والورق الأصفر لعله ألين على عين القارئ من الورق الناصع الأبيض»[2].

[خطرُ إهمالِ ضَبْطِ أبنية الأسماء والأفعال]

ومن هذه الجوانب الضرورية التي أُهملت: ضبطُ الأبنية من أسماءٍ وأفعال.. فقد أصبح التخليط شديداً في أبنية الأفعال، على وجه الخصوص.

---

(١) العَيْث: الإفساد، والإسراع فيه. والعُثُوُّ: أشد الفساد. وفِعلُه: عاث، يَعيث.. عَيْثاً، وعُيُوثاً، وعَيَثاناً. وقال أبوعمرو بن العلاء: «العَيْث: أن تركب الأمرَ.. لا تبالي عَلامَ وقعتَ!». [أحمد].

(٢) «ملحق التراث» بجريدة المدينة المنورة بالسعودية: ٢١ من ربيع الأول ١٤٠٨هـ ـ ١٢ من نوفمبر ١٩٨٧م

ومعلوم أن المعاني تختلف باختلاف ضبط بِنْيَة الفعل، في مثل:

«حَسَبَ/ يحسُبُ» بفتح السين في الماضي وضمِّها في المضارع: من الحِساب والعَدّ، و«حَسِبَ/ يحسَِبُ» بكسر السين في الماضي وفتحها وكسرها في المضارع: من الظن والحُسْبان.

و «كَبِـرَ/ يَكْبَـرُ» بكسر الباء في الماضي وفتحها في المضارع: في السِّنِّ والعُمْر، و«كَبُـرَ/ يَكْبُـرُ» بضمِّ الباء في الاثنين: بمعنى عظُم يعظُم.

و «لَعَبَ الغلامُ» بفتح العين: بمعنى سال لُعابُه من فمه، و«لَعِبَ» بكسر العين: من اللعب واللهو.

وهَلُمَّ جَـرًّا.

وكان هذا الضبطُ والعنايةُ به مراعًى في العملية التعليمية، وآية ذلك ما حدثتك به قريباً عن الطبعة الخاصة من **المصباح المنير** للمدارس الأميرية.. ورحم الله من أشار بهذا؛ لأن هذا المعجم ـ على صغره ووَجازَته ـ من أنفع المعاجم في ضَبْط عَين الفعل.

وقد بدأ الاستخفاف بمفردات اللغة، دِلالةً[1] ونُطقاً، حين حِيل بين الطلبة والمعاجم العربية، وصارت دراسة المعاجم العربية نظريةً أكثرَ منها تطبيقيةً، كما أشرت إلى ذلك من قبل. ثم ما كان من بعضهم من تحاشي التنبيه على هذه الأخطاء؛ لأنها «من الأمور الشَّكْلية التي لا ينبغي الوقوفُ عندها طويلاً»! ثم ما كان أيضاً من إهمال الضبط في الكتاب المدرسي والكتاب الجامعيِ. ونعم.. قد ترى في بعض الكتب شيئاً من الضبط، ولكنك لن تعدم فيه الضبط على الشائع الدائر على الألسنة، دون مراجعة الأصول للتحري والاستيثاق. ولست هنا بسبيل التمثيل والاستشهاد، لأنه فاشٍ

---

(١) مثلَّثة الـدال.

مستفيض، ولكن حسبي بعض الأمثلة:

يضبطون قولهم: «وقع في رَوْعي كذا» بفتح الراء على الشائع. والصواب بالضم «رُوْعي»؛ لأن «الرَّوْع» بالفتح: الفزَع. قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ [هود: ٧٤]. و«الرُّوْع» بالضم: النَّفْس، وفي الحديث: «إن روُح القدس نَفَث في رُوْعي أن نَفْساً لن تموت حتى تستوفي رزْقَها.. فاتَّقوا الله، وأجْمِلوا في الطَّلب. ولا يحملنَّكم استبطاءُ الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله.. فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته»[1].

ويضبطون الفعل «كَبِـر/ يَكْبَـر»، في السن والعمر، بضم الباء في الفعلين. والصواب بكسر الباء في الماضي وفتحها في المستقبل، كما ذكرت قريباً.

ويضبطون «فعلْتُه حَسْب رأيك» بسكون السّين. والصواب بفتحها، وهو بمعني وَفْق (و«وَفْق» هذه يضبطونها بكسر الواو. والصحيح فتحها). والحَسْب بسكون السين معناه الكِفاية، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي كافيك.

وهكذا دواليك.. إلى ما لا يُحصيه العَدُّ!

ومرةً أخرى: إن ضبط الأبنية بابٌ من أبواب العربية، ينبغي تعهُّده والعنايةُ به، وليس من الأمور الشكلية كما يزعم بعضُ الناس. يقول ابن جِنِّي: «ألا ترى أنك لو سمعتَ إنساناً يقول: كرُم يكرَم بفتح الراء من المضارع؛ لقضيتَ بأنه تاركٌ لكلام العرب؟!»[2]. وقد عَدَّ الجاحظُ الخطأَ في بِنية الفعل ـ مع بقاء المعنى ـ من اللُكنة[3].

---

(١) مجمع الزوائد، ٤/ ٧٢، باب الاقتصاد في طلب الرزق. و: زاد المعاد، ١/ ٧٨.

(٢) المنصف، ١ / ٢.

(٣) البيان والتبيين، ١/ ٧٤، ١٦١.

ـ مَخارِجُ الحروف وصِفاتُها

ومن الجوانب التي أُهملتْ أيضاً في تعليم النحو والعربية: مَخارِجُ الحروف وصِفاتُها.

فقد أصبح التخليطُ شديداً بين حروف الشِّدَّة والرَّخاوة، والـهَمْس والـجَهْر، والترقيق والتفخيم.. فـ«الثورة» صارت تنطق «السَّورة»! وهذا، مع ما فيه من التخليط في صفة الحرف، أدَّى إلى تغيُّر في الدلالة أو المعنى الـمُعْجَم.. فـ«السَّورة»: الغضب، و«الثورة»: الـهِياج والوثوب.

و «الذُّلّ» أصبح «الزُّلّ». و«الفَرَزْدَق» يُنطق «الفَرَزْدَك»![1]

وقد سَرَى هذا التخليط إلى كلام ربنا ـ عز وجل ـ، فيما تسمعه على ألسنة بعض الخطباء وبعض المذيعين..

فأصبحت تسمع قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦] بالضاد في «تردى» هكذا: «فَتَرْضَى».. ويا بُعْدَ ما بينهما!

وكذلك تسمع قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] بالتاء في «فطور»؛ لتصبح «فتور»!

وقد كان الناس قديماً يحتشدون لأداء القرآن الكريم وتلاوته. ومن العجب أن ألسنتهم كانت تُخلِّط أحياناً في صفة الحرف ومَخْرجه إذا جَرَى في كلامهم ومحاوراتهم، نتيجة للقوانين الصوتية من قُرْب المخارج، وإيثار السهولة واختصار الـجُهد، لكنهم إذا نطقوا هذا الحرف في القرآن العزيز أعطَوه حقَّه ومستحقَّه! ذكر صلاح الدين

---

(١) ووصل التردِّي الآن، في عصر «الإنترنت» و«فيس بوك»، أنْ صارت هذه التخليطات الـنُّطْقية تُجاوِز المنطوق إلى المكتوب أيضاً! ومع هذا.. فقد غدا كل من يُحسِن استخدام أصابعه على الحاسوب وأمثاله مفكِّراً وأديباً! «ربِّنا يِـزِيح».. كما كان الطناحي يدعو! [أحمد].

الصَّفَدي في ترجمة أبي حيان النحوي أنه «كان يَعْقِد القاف قريباً من الكاف، على أن ينطق بها في القرآن فَصيحةً»[1]. وقد كنا (نحن.. أبناءَ هذا الجيل) نفعل هذا أيام تلقِّيْنا القرآن الكريم في النشأة الأولى.. نتنبَّه غاية التنبُّه لصفة الحرف ومَخرجه في القرآن الكريم، ثم في جريانه على ألسنتنا في الكلام والمحاورات. ولا زلنا نفعله إلى الآن، ونسأل الله أن يربط على قلوبنا، فإن بعض إخواننا يلوموننا ويسخرون منا حين نتلو القرآن الكريم في بعض الأحاديث الإذاعية، على ما تلقَّيناه عن شيوخنا! ووَفْقاً لقول ابن الـجَزَريّ:

والأخذُ بالتجويدِ حَتْمٌ لازِمُ   مَنْ لم يُجَوِّدِ القُرَانَ؛ آثِمُ[2]

ولا شك أن ضبط مَخارج الحروف ورعاية صِفاتها إنما يكون في النشأة الأولى، وهي مرحلة «الكُتَّاب» والتعليم الابتدائي. لكننا إذا كنا قد فقدنا «الكتاتيبَ» ورعايةَ ذلك في التعليم الابتدائي الآن؛ فلم يبق أمامَنا إلا التعليمُ الثانوي، فيما يسمعه التلاميذ من معلِّمهم مضبوطاً محرَّراً من مخارج الحروف وصفاتها، وفيما ينتهي إليهم من مذيعي «الراديو» و«التلفزيون».

وهؤلاء إنما يأتون من أقسام اللغة العربية بالجامعات!

---

(١) **الوافي بالوفيات** ٥/ ٢٦٨. وممن كان ينطق القاف كافاً أبومسلم الـخُراساني، على ما ذكر الجاحظ في **البيان والتبيين**: ١/ ٧٣. وهذا الذي ذكره الصفَديّ قد رأينا تصديقه في قراءة الأتراك والهنود وغيرهما من المسلمين الذين لا يتقنون العربية، أو لا يعرفونها بالمرّة.

[وكذا في قراءة إخواننا في السودان، وما إليها.. حيث يَعْقِدون القاف قريباً من الغين في كلامهم، فإذا قرأوا القرآن؛ أقاموه على وجهه.

ثم.. تعريف العَقْد هو: نُطْقُ الحرف بصورةٍ مخصوصة. أحمد].

(٢) «القُرَان» هنا غير مهموز، رعايةً للوزن. والبيت هو السابع والعشرون من متن الحافظ الحُجَّة محمد بن محمد بن الجزَري (٧٥١ ـ ٨٣٣ هـ/ ١٣٥٠ ـ ١٤٢٩م)، الشهير بـ **المقدِّمة الجَزَرية** (واسمها الكامل: **منظومة المقدِّمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه**). [أحمد].

إذن.. انتهى الأمرُ إلى الجامعة، وأصبح من المفترض أن يمرَّ الطالب خلال تلك السنوات الجامعية الأربع بمناهج في تدريس اللغة، تربِّي فيه الحِسَّ الصوتي، ومَذاقَ الحروف.

[علم الصوتيات أساسه التلقي والمحاكاة]

ونعم.. إن في الجامعات العربية دَرْساً للصوتيات، يقوم عليه أساتذةٌ على قدْرٍ عالٍ من العلم والمعرفة، ولكنها دراسة يغلِب عليها التجريد، ويقِلُّ فيها التطبيق. فضلاً عن استمدادها من أصولٍ غربيّة(١). وقد أنتجتْ لنا النظريات الصوتية مثل «الصوامت» و«الصوائت»، و«الفونيمات» و«المورفيمات»، و«المماثلة» و«المخالفة»، وتبادل التأثير والتطور اللغوي، ورموز «دانيال جونز». ولكن هذه الطائفة من الدارسين عند إدارة الكلام وتحريك اللسان في جَوْبة الحَنَك(٢).. تَعْجِن الحروف عَجْناً، وتخلِّط تخليطاً شديداً يؤذي سمعك إيذاءً، ويعكِّر عليك تعكيراً! وقد قال أهل العلم: إن الغاية من تعليم النحو واللغة أن تَمضيَ في بيانك وقولك على الجادَّة والسلامة. فإذا انتفى ذلك؛ كان الاشتغال بمثل تلك النظريات ضرباً من العبث واللغو!

---

(١) يقرأ الطالب العربي في الجامعة كثيراً من النظريات الغربية في علم اللغة، ويلتقي بأسماء علماء أجانب كبار، من أمثال: بلومفيلد ـ دي سوسير ـ فيرث ـ دانيال جونز. ثم تأتيه أسماءُ اللغويين العرب في تطامُنٍ وانكسار، في هوامش الكتب، بـ«بنط» صغير وحروف متآكلة! مع أن ما كتبه اللغويون العرب في مجال الصوتيات شيءٌ ضخم جدًّا، ولا زال بعضه مخطوطاً. وقد قلت رأيي في هذه القضية في غير مكان.

ويقول الأستاذ الدكتور أحمد علَم الدين الجندي: «... كما أن انبهارنا بغيرنا في قضايا اللغة حَجَزنا عن النظر في موروثنا اللغوي الضخم، وكدنا نفقد الثقة، وأصبح دورُنا دورَ المتلقي.. حتى كاد العربي يخرج من زمنه معلَّقاً على أفق أزمنةٍ ليست له!». من تراثٍ لغويٍّ مفقود، ص١٢. [بياناته الكاملة: **في القرآن والعربية: من تراثٍ لُغويٍّ مفقودٍ لأبي زكريا الفرَّاء المتوفى ٢٠٧ هـ**، صنعه د. أحمد علَم الدين الجندي، جامعة أم القرى/ مكة المكرمة، د. ط، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م. أحمد]

(٢) سبق التعليق على هذه الصورة البيانية الساحرة، المأخوذة من كلام أبي فِهْر ـ رحمه الله ـ، ص٨٢. [أحمد].

على أن الحقَّ يقتضينا أن نقرِّر أن بعض هذه الكتابات الصوتية الحديثة قد أحسن كاتبوها، حين نزَّلوا هذه النظريات على مُثُلٍ وشواهدَ عربية، فكانت تلك النظريات موظَّفةً توظيفاً جيداً لخدمة موروثنا اللغوي. على حين غلا بعضهم في استعمال المصطلح والمثَل الأجنبي.. فأصبحت كأنك تقرأ كتاباً في علم اللغة وفقهها عند الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان! وأصبح لا يعرف هذه الأشياء إلا كاتبوها، ومن يدورون في فلكهم، ونفرٌ من المعيدين الذين يُعِدُّون أنفسَهم للسَّير في هذا الطريق. أما جمهور الطلبة؛ فلا نَفْعَ لهم منها، ولا صلة لهم بها إلا صلةَ اجتياز الامتحان، ثم يتركونها وراءهم ظِهْرِيًّا!

ولأن هذا العلم ـ علم الصوتيات ـ أساسه التلقي والمحاكاة.. فليت أساتذتَنا الأكرمين وزملاءنا الأفاضلَ يقتطعون وقتاً من هذا المنهج الصوتي للقراءة (أو «المطالعة» كما كانت تسمَّى في أيامنا).. فيأخذَ الأستاذ نصًّا تراثيًّا يعالجه مع طلبته، ويُديره على مَخارج الحروف وأَحيازها[(١)] وصِفاتها، على نحو ما كان يفعل «سَيِّدْنا»[(٢)] في «كُتَّاب» القرية، وسائر محفِّظي القرآن الكريم.. فإن هؤلاء المشايخ البُسطاء كانوا

---

(١) يستخدم علماء التجويد وقراءات القرآن المجيد كلمة «الـمَخْرَج» (جمعها: «الـمَخارِج») اسمًا للموضع الذي ينشأ منه صوتُ الحرف في جهاز الإنسان الصوتي. وبعض قُدامَى اللغويين، كالخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ ـ ٧٨٦م) في **العين**، يستخدمون في التعبير ذاته كلمة «حَيِّز» (جمعها: «أَحْياز»)، وهو جمعٌ سماعيٌّ نادر، والقياس: «حَيائز» و«أحواز» و«حَياوِز»)، ووردت بتخفيف الياء «حَيْز».

انظر، مثلاً: **الجوانب الصوتية في كتُب الاحتجاج للقراءات**، د. عبدالبديع النيرباني، دار الغَوثاني للدراسات القرآنية/ دمشق، ط١/ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م، ص ٥٢ : ٧٣.

مقدمة تحقيق **العين**، د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامُرَّائي، مؤسسة دار الهجرة/ إيران، ط٢/ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م، ١/ ٤٧. [أحمد].

(٢) «سَيِّدْنا» كانت تُطلَق على مُعلِّم الصبيان في مصر. وكان يقال له فيها أيضاً: «الـفِقِي» (بالقاف القاهرية، المحالة همزة)، ومنه اسم العلَم المنتشر في مصر. وقد كادت اللفظتان، لقباً لمعلِّم الصبيان، تنقرضان! [أحمد].

يعالجون هذه الصوتيات مع صغار الصبيان بالتلقي والمحاكاة، ويُجهِدون أنفسهم إجهاداً مع هؤلاء الصغار، ولا يَضْجَرون ولا يَمَلُّون من كثرة التكرير والترديد، حتى يَبلُغُوا من هؤلاء الصبية الصغار من سلامة النطق واستقامة الأداء ما يريدون.

[قُـرَّاءُ القرآن ومُقرئوه.. والصوتيات]

واجلس إلى واحدٍ من هؤلاء المشايخ «الغَلابة»[1]، وتأمل حركةَ فَكَّيه وشَفَتيه، وجَرَيانَ لسانه في إعطاء كل حرفٍ حقَّه ومستحقَّه، كما يقول علماء التجويد.. من الـهَمْس والـجَهْر، والإظهار والإخفاء، أو الفَكِّ والإدغام، والترقيق والتفخيم.. وكيف يخرج من أحدهما إلى الآخر في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].. وانظر كيف يُفخِّم الراء، وإن كان قبلَها كسرٌ (إلا أنه كسرٌ عارِض)، ثم يخرج إلى ترقيق التاء، ثم يعود إلى تفخيم الضاد.. ويمضي في ذلك كله في سهولةٍ ويُسْر، دون استكراهٍ أو إعنات!

ولست أنسى الشيخ محمد وهبة (أحد «الغَلابة».. رحمه الله رحمة واسعة)، وهو يحاول معنا ترقيق اللام بعد تفخيم الضاد في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وحين رأى ذلك علينا شاقًّا عسيراً، جزَّأ الكلمة جزأين (وكانوا يعرفون النِظامَ المقطعيَّ.. تلقِّياً لا مصطلحاً): «أَضْ» «لَلْن»، وأخذ يردّد الجزء الأول: «أَضْ» «أَضْ» «أَضْ»، بترقيق الهمزة ثم تفخيم الضاد، ثم صنع مثل ذلك في الجزء الثاني: «لَلْن»

---

(١) جمع «غَلْبان»، وهو في العامِّية المصرية: الفقير، والرقيق الحال، والمستكين وإن لم يكن فقيراً.

وأسأل: هل يمكن إلحاقُ «غَلْبان» بالفصيح، قياساً على زِنة «فَعْلان» الكثيرة جدًّا في باب الصِّفات، المشبَّهة بالأفعال، وإن خالفتْ «غَلبان» في بعض شروطها؟

فإن جاز؛ فستكون من «الأضداد» (إذا صحَّ أن في الأضداد قياساً): مَن يَغلِب، ومَن يُغلَب. والسبب في هذا أننا ـ في مصر ـ نستخدم «الغَلْبان» بمعنى «المغلوب»، لا «الغلَّاب»، مع إمكانها ـ لو أُجيزت ـ فيه. والله أعلم. [أحمد].

«لَلْن» «لَلْن»، بترقيق اللام.. يصنع ذلك مرَّاتٍ ذواتِ عددٍ، دون ملَلٍ أو سآمة، ثم نطق الكلمة مرة واحدة «أَضْلَلن».. فاستقامت على ألسنتنا، تفخيماً وترقيقاً!

أما الوقوف على بعض الكلمات، أو رؤوس الآي، وما يُتَحرَّى فيها من رعاية جانب المعنى وجانب الصوت؛ فكان هؤلاء المشايخ («الغلابة») يأتون فيها بالعجَب العجيب، مما انتهى إليهم عن مشايخهم بتواتر الأداء الصحيح. وكان سَيِّدُنا وشيخُنا الجليل الشيخ عامر السيد عثمان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يأخذنا إلى تفرقةٍ دقيقةٍ لطيفةٍ في الوقف على الراء من قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ [القمر: ١٦، ٢٣]. فالراء الأولى يوقَف عليها بترقيقٍ لطيفٍ يُشعِر بالياء المحذوفة؛ لأن أصلها «نُذُرِي» (أي إنذاري)، وقرأها كذلك ـ بإثبات الياء[(١)] ـ وَرْشٌ عن نافع. أما الراء الثانية؛ فيوقَف عليها بالتفخيم الخالص؛ لأنها جمع «نذير».

وأما «النـَّبـْر» وهو الضغط على مَقطَعٍ دون غيره في الكلمة.. فمع أن اللغويين القدماء لم يتعرَّضوا له في تصانيفهم (كما يرى المحدَثون[(٢)]).. فقُرَّاء القرآن يتنبَّهون له غاية التنبُّه، وهو عندهم لونٌ من ألوان الأداء الصحيح، لا يعرفونه بالوصف والمصطلح، وإنما بالأداء والتلاوة. على أني أذكر أن شيخنا الشيخ عامر السيد عثمان ـ رحمه الله ـ سمَّاه لي حين ذكرتُ له أمثلتَه، بعدما سمعتُ تصحيحه إياه: «التخليص».. وهو مصطلح جيد لو وجدنا له سَنَداً من كلام الأقدمين.

---

(١) في المطبوع: الراء. وهو خطأ. ويجدُر التنويه إلى أن قراءة وَرْشٍ عن نافعٍ: «نُذُري»، بإثبات الياء، إنما هي في حال الوصل، دون الوَقْف. ويثبتها في الحالين يعقوب (أحد الثلاثة المكملين العشَرة). انظر: **معجم القراءات**، د. عبداللطيف الخطيب، دار سعدالدين/ دمشق، د. ط، د. ت، ٩/ ٢٢٦. [أحمد].

(٢) **الأصوات اللغوية**، لأستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس، ص١٧٢.

ولم يتعرض اللغويون الأوائل لظاهرة «النَّبْر» هذه؛ لأنها من ضرورة الأداء الصحيح. وما خرج عن هذا الأداء الصحيح؛ يُعَدُّ من باب الخطأ الصريح الذي يُرفض ولا يوقَف عنده بتقنينٍ أو تقعيد.. كالذي يَلحَن في كلامه، أو يقرأ شعراً أو يكتبه غيرَ موزون! وإنما تحتاج بعض اللغات الأجنبية للنبر؛ لأن المعنى يختلف به عندهم كما هو معروف.

ومن أمثلة النَّبْر الخاطئ، الذي يتنبّه له قرّاء القرآن، قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤]، فإن بعض المتسرِّعين يقرأ «فسقى» بالضغط على الفاء، فينحرف بالكلمة إلى «الفِسْق»! والضغط الصحيح إنما يكون على السين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، يضغط بعضهم على الفاء فينحرف إلى «الفَقْس»!

ومن أطرف ما أتذكره هنا أن أحدهم قرأ أمام سيدنا الشيخ عامر ـ رحمه الله ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، وخطف هذا القارئ «فلهم» خطفةً واحدةً، ضاغطاً على الفاء، كأنها فعلٌ ماضٍ.. فقال له سيدنا الشيخ: «مَفَلَهُمْش»! يريد ـ رحمه الله ـ أن يقول إنه ليس فعلاً واقعاً عليهم، وأن هذه الكلمة مكونة من جزأين: «الفاء»، ثم «لهم»[1].

وهذا كله يقودنا إلى استثمار علم القراءات، لا سيما الجانبُ الصوتيُّ منه.

[استثمار الجانبِ الصوتيِّ في علم القراءات]

وعلم القراءات علمٌ ضخم من علوم العربية، يقوم جانب «الدراية» فيه بوظائف كثيرة، من أبرزها الاحتجاج للقراءات المتواترة والشاذة. وفي طريق هذا الاحتجاج تُعالَج قضايا نحويةٌ ولُغويةٌ كثيرةٌ على المستويات الأربع المعروفة: الإعراب (التراكيب)، والصرف، والصوتيات[2]، والدلالة. بل إن قدراً ضخمًا من معرفتنا

---

(١) أبدى الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله تحفُّظاً على إطلاق القول في مسألة النبر على هذا النحو الذي يذكره الدكتور الطناحي، وتساءل: .. فماذا ـ مثلاً ـ عن لهجات إخواننا في المغرب العربي التي تميل إلى شيءٍ من مثل النماذج المذكورة، وقد تساعدهم عليه وجوه الأداء على رواية وَرْشٍ عن نافع ـ؟ [أحمد].

(٢) بل إن تأمل بعض هذه الظواهر الصوتية في بعض القراءات السَّبْعية يُصَحِّح بعض العامِّيَّات =

بلغات العرب ـ وهو ما يُعرف الآن بـ«اللهَجات» ـ إنما جاءنا من طريق ما صنَّفه علماء القراءات في الاحتجاج لوجوه القراءة. كما أن الضوابط والحدود التي وضعها علماء التجويد للتلاوة والأداء تُعدُّ الأُنموذجَ المثاليَّ لنطق العربية الفصحي[1].

ويقال: إن بعض المستشرقين الذين عُنُوا بالقراءات القرآنية قد نزل القاهرة وجلس إلى أشهر علماء القراءات آنذاك، وهو الشيخ علي محمد الضَّبَّاع (شيخ المقارئ المصرية في الأربعينيات الميلادية)؛ ليتفقه من طرق الأداء والتلاوة. ويقال: إن هذا المستشرق هو الألماني براجستراسر.

وقد رأيت أنا شيئاً من ذلك في مجلس سيدنا الشيخ عامر السيد عثمان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ ، حين كان يَفِدُ عليه بعض هؤلاء المستشرقين ليَثْقَفُوا[2] منه الأداءَ الصحيحَ لحروف القرآن العزيز. وبعضهم كان يأخذ عنه أصول الرسم العثماني، وكان حجَّةً فيه.

ومعطيات علم القراءات هذه تَنْسَلُّ إلينا انسلالاً وعلى استحياء، من خلال

= الموجودة الآن، كالذي تراه من قراءة الإدغام [«وأَخَتُّم»] في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] قراءةٌ في «وأخذتم». وانظرها في: **الأصول لابن السرَّاج**، ٣/ ٢٧٠. ونحن في عامية مصر ندغم الذال في التاء في مثل ذلك الموضع.

وكذلك ما تسمعه من شيوع الإمالة في بعض قرى الوجه البحري، في نحو: «إيهْ دِهْ».. تراه في قراءة الكِسائي، الذي يُميل ما قبل هاء التأنيث عند الوقف نحو «هُمَزِة لُمَزَةْ». انظر: **النشر في القراءات العشر**، ٢/ ٨٢.

(١) يرى أستاذنا الدكتور كمال بِشْر أن كل الزيادات التي زيدت على أعمال الأوّلين من علماء الأصوات، وكل التفصيلات التي ظهرت فيما بعد، وكل التطبيقات العملية لآثار هؤلاء العلماء إنما يرجع الفضلُ فيها إلى رجال «التجويد» أو علماء «الأداء القرآني».. وهم وحدهم تقريباً الذين حملوا عبء هذه الدراسات، وتولَّوْا رعايتها من بعده. **علم اللغة العام ـ الأصوات**، ص١٦٩.

(٢) ثَقِف الشيءَ، يَثْقَفُه: تعلمه وأخذه في سرعةٍ. [أحمد].

الدرس النحوي واللغوي، حتى لا يكاد يُحِسُّ بها الطالب! وأنت قد تسأل متخرِّجاً في الجامعة، دارساً على مستوى السنوات الأربع، أو على مستوى الدراسات العليا، عن شيءٍ من علم القراءات، فلا تكاد تحظَى بطائل. بل إن كثيراً منهم يُسوِّي بين «القراء السَّبعة»، الذين سَبَّعهم ابن مجاهد، وبين «الأحرف السبعة» التي أُنزل عليها القرآن العزيز![1]

---

(١) هذا مما يَخلِط فيه كثيرٌ ممن ينتسبون إلى العلم بالقرآن المجيد. فكيف بمن سواهم؟!

وخلاصة المسألة أن الإمام أبابكر بن مجاهد (٢٤٥ ـ ٣٢٤ هـ/ ٨٥٩ ـ ٩٣٥م) صنَّف في حدود القرن الرابع الهجري كتابه الشهير **السبعة**، اختار فيه أعلى ما صحَّ لديه من قراءة كبار أهل القرآن، من بين عشَرات القراءات التي كان يُقرَأ بها في عصره. واتفق أن يكون مختاروه سبعةً، وهم: ابن عامر الشامي (٨ ـ ١١٨ هـ/ ٦٢٩ ـ ٧٣٦م)، وعبدالله بن كثير المكي (٤٥ ـ ١٢٠ هـ/ ٦٦٥ ـ ٧٣٧م)، وعاصم الكوفي (ت ١٢٧هـ/ ٧٤٤م)، وأبوعمرو بن العلاء البصري (٦٨ ـ ١٥٤ هـ/ ٦٨٧ ـ ٧٧٠م)، وحمزة الكوفي (٨٠ ـ ١٥٦ هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٧٢م)، ونافع المدني (٧٠ ـ ١٦٩ هـ/ ٦٨٩ ـ ٧٨٥م)، والكِسائي الكوفي (١١٩ ـ ١٨٩ هـ/ ٧٣٧ ـ ٨٠٤م). وهؤلاء هم أبرز أعمدة القراءة في أمصار العلم الكبرى في عصر ابن مجاهد: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام.

وترك ابن مجاهد كثيراً مما وصل إليه من قراءة كبار أهل القراءة، لا لشيءٍ إلا لِما رآه من أن مختاريه السبعة هم الأعلى ـ فيما وصل إليه ـ سنَداً وروايةً. فهي تتقدم ـ في اجتهاده ـ سائرَ القراءات الأخرى، دون أن تُبطِلَها.

ورغم الاستقرار التالي بعد ابن مجاهد على تقديم هؤلاء السبعة المختارين.. فإن صنيعَه هذا لم يَخلُ من انتقاداتٍ شديدةٍ مِن بعض معاصريه ـ فضلاً عَمَّن بعدَهم؛ لسببٍ رئيسٍ، هو الاشتباه الذي حصل عند مَن ظنَّ أن «تسبيع» ابن مجاهد هو طِباقُ «الأحرف السبعة» التي جاءت في الحديث المتواتر. وهو ما لم يَعْنِه ابنُ مجاهد، وإن تسبب فيه صنيعُه! وقد اجتهد العلماء من بعد ابن مجاهد لكسر هذا الاشتباه؛ فأوصلوا القراء المعتَمَدين إلى عشَرة، ثم إلى أربعة عشَر.. مما لا مجال لتلخيصه هنا.

أما عن حقيقة «الأحرف السبعة»؛ فهو مبحثٌ طويلُ الذيل، لا يمكن اختزاله في تعليق كهذا، لكنْ أكتفي بالإحالة إلى مظانِّ هذا المبحث الدقيق في كتب علوم القرآن والقراءات.

وأشير هنا إلى أن أبا فهر أراد أن يبسط القول في هذا المبحث الدقيق، كما أشار إلى هذا في حاشيةٍ له في تفسير الطبري (١٦/ ٤٥٣، ٤٥٤). ولا أدري.. أأنهى ما ذكر أنه بدأه من كتابةٍ حوله (راجع إشارة الطناحي السابقة في هذا الكتاب: ص ١١٤). =

فواجبٌ ـ كلَّ الوجوب ـ أن يأخذ هذا العِلم مكاناً منفرِداً متميِّزاً في الدراسات العربية، وليكن ذلك في السنة التمهيدية المؤهلة لـ«الدراسات العليا». ولتكن «الأستاذية» في تدريسه شركةً بين أساتذة الدراسات العليا الجامعيين المتفقهين في علم الصوتيات الحديث، وبين نفرٍ من هؤلاء المشايخ الحفَظة، للتلقِّي منهم ومشافهتهم. ولنُسْرِعْ.. فإن هذه الطبقة من المشايخ في طريقها للانقراض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم! فقد مات الشيخ عبدالفتاح القاضي.. رحمهم الله أجمعين. وفي حديث عبدالله ابن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يَقبضُ العلم بقَبْض العلماء. حتى إذا لم يُبْقِ عالماً؛ اتَّخذ الناسُ رؤساءَ جُهَّالاً.. فسُئلوا؛ فأفْتَوا بغير عِلم.. فضَلُّوا، وأضَلُّوا»(١).

ـ صعوبةُ النحو وتيسيرُه

ضجَّةٌ كبرى تثور حيناً، وتخمُد حيناً: النحوُ صعبٌ، وطريقُه شائكٌ، وتحصيلُه عَسِرٌ!

وقد اشتدّ اللغَطُ حول هذه القضية في السنوات الأخيرة، و«سَامَها كلُّ مُفْلِسِ!»(٢).. فقرأنا وسمعنا كلاماً عجباً من محُلِّلين ومنظِّرين وفلاسفة، لا يملكون

= وإذ يُذكَر بالشيء الشيءُ.. أشير هنا إلى أن أحد كبار تلامذة شاكر قد «سطا» على جُلِّ ما سمعه منه في مجالسه، وضمَّنه رسالته الجامعية حول القراءات القرآنية وتاريخها، دون إشارةٍ إلى سماعه من أبي فهر؛ مما كان سبباً في جفوة أبي فهرٍ إياه، وإشارته المتألمة لهذا في بعض ما كتب وفي حديثه لمجالسيه! رحم الله الجميع. والله أعلم. [أحمد].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ١/ ٣٦، باب كيف يُقبضُ العلم، من كتاب العلم..

(٢) أخذه من بيت شهير، جارٍ مجرى الأمثال، (ولم ينسبه أحدٌ فيما وقفتُ عليه)، يصف شاةً بائسةً مهزولةً، لا تجد شارياً ـ ولو بأبخس ثمن ـ من شدة هُزالها الذي أبان كُلاها!:

لقد هُزِلَتْ، حتى بدا من هُزالها كُلاها.. وحتى سامها كلُّ مُفْلِسِ! =

من أدوات البحث في النحو واللغة شيئاً، إلا شيئاً لا يُعبأ به!

وكان من أعجب العجب أن تقرأ وتسمع من يعالج قضية صعوبة النحو، ويقترح الحلول لتيسيره وهو يَلْحَن في كلامه لَحناً مستبشعاً، ويخلِّط في نطق حروف العربية تخليطاً مفزِعاً!

وقل: سبحان ربي!

الناس لا تسمح لجاهل بالطبِّ أن يتكلم فيه، بل إنها تحاكمه إذا علَّق على صدره «سمَّاعة»، أو أمسك بيده مِشْـرَطاً. ولا تأذن لدخيلٍ على علم الهندسة أن يُصمِّم بناءً أو يَمُدَّ جسراً. ولك أن تتصور فريقاً لكرة القدم اندسَّ بينه لاعبٌ عاجزٌ، لا يعرف شيئاً من مهارات كرة القدم.. كم من صَيْحاتِ غضبٍ واستنكارٍ تنطلق من مدرَّجات المتفرجين! أو خشبةَ مسرح اعتلاها مغنٍّ أَجشُّ الصوت، جمع بين غِلَظ الصوت والجهل بمقامات الغناء وضروب الموسيقي.. هل يصبر عليه المستمعون؟! أم أنهم يُنزِلونه مشيَّعاً بالصيحات واللعنات؟!

وهكذا.. لا يضبط الشعرَ إلا أهلُه[1].. قانون مطَّردٌ[2] في كل صور النشاط الإنساني: ليس من حق الجاهل أو العاجز في أمرٍ أن يَدُسَّ أنفَه فيه، أو يقول كلمةً عنه.. إلا «النحو»![3] فهو الـمَرْتَـعُ الخِصْبُ والكَلأُ المباح! يتكلم فيه من يعرف ومن

= وقد نَصَّ ابنُ عَلَّان (في **إتحاف الفاضل بالمبنيِّ لغير الفاعل**، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص ١٠٥) على أن الفعل في البيت مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه.

(١) **طبقات فحول الشعراء**، ص٦٠.

(٢) اطَّرَد الأمرُ: تتابَع واستقام. [أحمد].

(٣) الحق أنه ليس النحو وحدَه هو الذي صار مَطِيَّةً لكل مَنْ هَبَّ ودَبَّ، بل هو وكلُّ ما يَمُتُّ للدين والشرع الحنيف واللغة بصلةٍ! صار علم الدين واللغة أهونَ شيءٍ على قوم تُعُبِّدوا بقول الله -تعالى-: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، وبقوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ونُهُوا أن يكونوا كمن ذَمَّ اللهُ -تعالى- في قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، وحذَّرهم نبيُّهم الأكرم -صلوات الله عليه- بقوله: «أجرَؤكم على الـفُتيا؛ أجرَؤكم على النار»، و...، و... !

لا يعرف، بل إن من لا يعرف أكثرهم لَجَاجاً وصَخَباً، وكأنها «العُقَدُ النفسيةُ» التي يتحدث عنها أهل العلم، ويَردُّون إليها كثيراً من الانحرافات والسلوك غير الرشيد، كالذي يَذُمُّ طعاماً لأنه ثقيلٌ على معدته، أو يَعيب طريقاً لأنه لا يقدر على السير فيه! وقد قال ابن جِنّي: «ونعوذ بالله مما يَجْنِيه الضعفُ في هذه اللغة العربية على من لا يعرفها! فإن أكثر من ضلَّ عن القصد، حتى كُبَّ على مِنْخَريه في قَعْر الجحيم، إنما هو لجهله بالكلام الذي خُوطب به، ثم لا يكفيه عظيمُ ما هو عليه ـ وفيه ـ دون أن يَجفُوَها، ويُعرِضَ عما يوضحُه له أهلوها! نعم.. ويقول: ما الحاجةُ إليها؟! وأين وجهُ الضرورة الحاملة عليها؟! نعوذ بالله من التتابع في الجهالة»[1].

وقال: «... ولو كان لهم أُنْسٌ بهذه اللغة الشريفة أو تصرُّفٌ فيها، أو مزاولةٌ لها؛ لَحَمَتْهم السعادةُ بها ما أصارتْهم الشِّقوةُ إليه بالبُعد عنها!»[2].

إن النحو علمٌ، شأنه شأن سائر العلوم.. لابد أن يؤخَذ له أَخْذُه[3]، ويُتَلقَّى بالـجِدِّ والصرامة. وقد قالوا عن العَروض أيضاً إنه علم صعب، وعن علم أصول

والمشتكَى إلى الله تعالى، والمسؤولية على من خوَّلهم الله ـ تعالى ـ أمورَ الناس أو بعضَها؛ إذ يجب على أهل التشريع القانوني (ومَن إليهم من أهل الرأي والمشورة، من أهل «الأزهر الشريف» و«مَـجامَع العربية» ونحوهم) أن يَسُنُّوا القوانينَ المجـرِّمةَ مثلِ هذه التعديات الغَشوم على سُوح العربية وحِياض الدين. والله المستعان.. به ـ وحده ـ يُستدَفَعُ البلاء، وإليه الملْجأُ والـمَعاذ، ولا حول ولا قوة إلا به ـ عز وجل ـ. [أحمد].

(١) **المحتسب**، ٢/ ٢٥٠. وجاء فيه «التتابُع» بالباء الموحَّدة قبل العين، وصوابه: «التتايُع» بالياء التحتية. وهو التهافت في الشَّرِّ واللَّجَاج، ولا يكون إلا في الشرَ. وفي الحديث: «لا تتايَعوا في الكذب.. كما يتتايع الفَراشُ في النار!»: **النهاية**، ١/ ٢٠٢.

[وهذا الحديث رواه ـ بلفظٍ مختلفٍ قليلاً ـ ابنُ جرير الطبري في **تهذيب الآثار** (مسند عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، مطبعة المدني/ القاهرة، د. ط، د. ت)، عن أسماء بنت يزيد بن السَّكَن ـ رضي الله عنها ـ، ولم يعلِّق عليه أبوفِهْر بأي تعليق! (٤/ ١٢٨). كما رواه أيضاً البيهقي وغيره. أحمد].

(٢) **الخصائص**، ٣/ ٢٤٦.

(٣) أي يُتأهَّب لتحصيله بما يَلزَم من احتشادٍ واهتمام. [أحمد].

الفقه إنه عِلمٌ عَسِر، وعن عِلم الصرف إنه علمٌ شاق... وعلومٌ كثيرة لم تسلم من تلك المثالب! أفنضرب عنها الذِّكْرَ صفحاً إنْ[١] كانت صعبةً وعَسِرةً؟! على أن صعوبة هذه العلوم ـ إذا سَّلمنا بها ـ لم تكن صارفةً بعضَ خلق الله عن إتقانِها والظهورِ عليها والتفنُّنِ فيها.

ثم.. لماذا إفرادُ النحو بهذه التهمة العريضة: الغُموض والعُسْر؟!

أليس ما يتلقاه التلاميذ الآن من «الرياضة الحديثة» عَسِراً كلَّ العُسْر؟! وإن بعض تلاميذنا يجدون عنتاً شديداً في تعلُّم اللغات الأجنبية.. ومع هذا لا ترتفع الشكوى من هذا أو ذاك!

وهذه المصطلحات النحوية التي يضيق بها بعض «دعاة التيسير»، ويرون التخفُّفَ منها وإلغاءَ بعضها[٢]، مسطورةٌ مذكورة في كتب التراث الأخرى، لِلذي ذكرتُه لك من أن النحو مُنْداحٌ في مختلِف فنون التراث، وليس في كتبه فقط! فإذا حذفتَ بعض هذه المصطلحات من كتب النحو، فماذا أنت صانعٌ بها في كتب الفنون

---

(١) هكذا في المطبوعة. ولعلها «أن»، جرياً على قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ؟!﴾ [الزخرف: ٥]. والله أعلم. [أحمد].

(٢) لقد تعدَّى [الأمرُ] تغييرَ «المصطلح»، إلى تغيير اسم العلم نفسه! فهذا «العَروض» يسميه كثير من الأساتذة الآن «موسيقى الشعر»! وإنما كان هذا عنوان كتاب لأستاذنا الدكتور إبراهيم أَنيس ـ رحمه الله ـ، وهو لم يَدْعُ إلى إحلاله محلَّ «العَروض». وإذا استمرّ الحال على هذا؛ فستجهل الأجيال القادمة اسم هذا العلم «العَروض»!

[أملاني هنا الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله تعليقاً.. هذا نصُّه: «الحقُّ أن إبراهيم أَنيس أراد ما استبعده عليه الطناحي!فقد حاول في كتابه هذا أن يقيم بناءً جديداً للعَروض مخالفاً للعلم الموروث، بحُجَجٍ فاسدة. ويُرَجع في هذا إلى مقالي القديم في مجلة **المجلة**.. حيث تناولتُ الكتاب بالنقد المفصَّل (نُشر المقال أواخر الستينيات، ولا يحضرني الآن تاريخه بالتعيين)».

وحدثني الأستاذ عبدالمنعم رمضان أنه سمع أحد «كبار» الأدباء، وهو من يحسنون العربية، يضم عين العَروض! وأقول: فما البال بمن لا يكادون يقيمون جملةً عربيةً صحيحة؟! أحمد].

الأخرى؟! وإذا لم يعرف طالب العربية هذه المصطلحات من خلال كتب النحو؛ فكيف يتعامل معها إذا رآها في كتاب من كتب التفسير أو البلاغة؟ على أن بعض هذه المصطلحات إنما هي مُعارَةٌ ومنقولةٌ من علوم أخرى، كبعض المصطلحات والأعراف التي نقلها النحاة من علم الكلام والفقه وأصوله. وكذلك.. فقد نزَّل الفقهاء بعض أحكامهم على مصطلحات النحو وقضاياه. وهكذا.. تَتَقارض العلومُ مصطلحاتِها. والتراث متداخِلُ الأسباب، متواصِلُ الوشائج، كما علمت(١).

وهذه الأبواب التي يدعو بعضهم إلى إغفالها، مثل «باب النُّدْبة»، يراها الطالب في بعض ما انتهى إلينا من تراثنا، ولعل أقرب مثال على ذلك عبارة المستغيثة بالمعتصم الخليفة: «وامُعْتَصِماه»(٢).

وكثيرٌ مما يرادُ حذفُه والتخفُّفُ منه نراه مبثوثاً في كتاب ربنا ـ عز وجل ـ ، والحديث الشريف، وكلام العرب وأشعارها.

---

(١) لم يزل أشياخُنا يُلقِّنوننا (وسمعتُها من الطناحي رحمة الله عليه): «العلم (هكذا، مطلقاً.. شرعيًّا، لُغويًّا، عقليًّا) بِينْضَحْ على بعضُه»! أي تتسرب مسائله وتتداخل فيما بينها، حتى إنك في علوم البلاغة والبيان تحتاج إلى بعض دقائق المعقول، وفي التفسير وأصوله تفتقر إلى العربية وفنونها... وهكذا. [أحمد].

(٢) في فتح عَمُّوريَّة (وهي مدينة كبيرة في هضبة الأناضول، وسط تركيا الآن) سنة ٢٢٣هـ ـ ٨٣٧م، وقد ذُكرت قصتُها بالتفصيل في كتب التاريخ، وخلاصتها أن امرأةً مسلمةً اعتدى عليها بعض الروم في مدينة «زبطرة»، فصرخت: «وامُعْتَصِماه»، فبلغ خبرُها المعتصم في بغداد؛ فأقسم لَـيُلَـبِّيَنَّ نداءها، وسار بنفسه على رأس جيشٍ ضخم، واستولى على عَمُّوريَّة.

وفي هذه الموقعة العظيمة قال أبو تمام قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

السيف أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ ... في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللعِبِ

وقد استحضر الشاعر الكبير عمر أبوريشة الواقعة بعد قرونٍ طويلة (تبدلتْ فيها أحوال، ونهضتْ أمم، وهُزِلت أمم!).. وقال:

رُبَّ «وامُعْتَصِماه» انطلقتْ ... مِـلْءَ أفواه الصَّبايا اليُـتَّـمِ

لامستْ أسماعَهم.. لكنها ... لم تلامسْ نَخوةَ المعتصِمِ! [أحمد]

وإذا جاريناهم في إلغاء «الفاعل الذي يَسُدُّ مَسَدَّ الخبر»؛ فماذا نحن فاعلون في «الحال الذي يَسُدُّ مَسَدَّ الخبر»؟! بل.. ماذا نحن فاعلون في «المبتدأ الذي لا خبرَ له»؟! وماذا؟! وماذا؟! وماذا؟!

إن التعلل بصعوبة هذه الأبواب، وعدم تقبُّل الطلبة لها، كلامٌ منقوضٌ ومردودٌ عليه بأكثرَ من وجه، مما لا مجال له ها هنا.. لكننا نقول: إن هذا التراث النحوي الضخم الذي ضَنِيَ به الأوائل، والذي بقي عالياً شامخاً طوال أربعةَ عشَرَ قرناً من الزمان، لا يصح أن يُلْعَبَ به هذا اللَعِب «وشيءٌ قد أحكمتْه القدماءُ؛ لا يُترَك مراعاةً لجهل الجاهلين! ولن تخلوَ الأرضُ من قائمٍ لله بحُجَّةٍ!».. كما يقول العزّ بن عبدالسلام[1].

وهذا الإعراب الذي تُـرَدُّ إليه كلُّ صعوبة، ويُعْزَى إليه كلُّ تعقيد، ليس من خصائص العربية وحدها. هناك لغاتٌ كثيرةٌ لا تزال تَحيا بيننا، وفيها من ظواهر الإعراب المعقَّد ما يفوق إعرابَ العربية بكثير! فهذه هي اللغة الألمانية مثلاً.. تقسِّم أسماءَها ـ اعتباطاً ـ إلى مذكر ومؤنث وجنسٍ ثالث لا تعرفه العربية وهو «المحايد»، وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة أربعَ حالاتٍ إعرابية![2].

أما الخلاف بين العلماء في قواعد الإعراب وأحكامه؛ فلا ينبغي أن يُفزعنا.. فعلماء الفقه يختلفون، والمذاهب الأدبية تتعارَض، ومدارس الفلسفة تتناكَر، وليس هذا كله بصارفٍ بعضَ الناس عن معرفة قواعد الفقه، ونظريات الأدب، واتجاهات الفلسفة. ونحن في تدريسنا النحو نستصفي القواعدَ، ونختار منها ما يُعين على القراءة الصحيحة والكتابة السليمة؛ لنصل بذلك إلى المقصود الأعظم، وهو أن نَصِلَ الطلابَ بلغة تراثهم، ونردَّهم إلى جذورهم الأولى.

---

(١) البرهان، ١/ ٣٧٩. و: مناهل العرفان، ١/ ٣٨٥.

(٢) فصول في فقه العربية، ص٤١٦. [هو كتاب د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ٣/ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م. أحمد].

ونحن لا نطلب من شادٍ مبتدئ أن يعكُفَ على كتاب **الإنصاف في مسائل الخلاف** لأبي البركات الأنباري.. فهذا وأشباهه إنما يأتي في مرحلة لاحقة، حين يتاح لهذا الطالب أن يسير في طريق الدراسات العليا النحوية. وقد ذكرت في صدر كلمتي أسماء الكتب التي كانت مقرَّرةً علينا في الدَّرْس النحوي، وقد ظهر لك أسلوبُ التدرجُّ فيها(١).

أما «التيسير»؛ فهو أضحوكةُ الأضاحيك! ومهزلة المهازل!

وقد قلت من قبل: إن هذا بابٌ من الشرِّ عظيم، وقد تطاير منه شَرَرٌ كثير، واختلطت هناك مناهجُ، وتدافعت شبهاتٌ، وتداخلت نوايا(٢)!

ولقد مضينا في «التيسير» و«التسهيل» خُطُواتٍ وخُطُوات، حتى انتهينا إلى هذا الذي نشكو منه ونَضيق به، ونسأل الله السلامة منه!

[من مهازل «التيسير»!]

على أن «تيسير» النحو قد سلك دروباً مُظلِمة، وارتاد طُـرُقاً هَزْلية!

فليس من «التيسير» و«التسهيل» أن تدع «زيداً» و«عَمْراً» في التمثيل لتقول: «سمير» و«أشرف»! مع أن «زيداً» في التمثيل النحوي قد صار مثل الرمز الـجَبْري «س»، وبمجرد رؤية التلميذ إياه يُحِسُّ أنه العُمْدة والأساس في التركيب النحوي (مبتدأ ـ اسم كان ـ اسم إنَّ ـ فاعل ـ نائب فاعل).

وليس من «التيسير» و«التسهيل» أن تترك التمثيل على القاعدة النحوية بالشاهد القرآني والحديثي وأشعار العرب وأمثالها؛ لتكتب قصة متكلَّفة عن نزهة في «القناطر

---

(١) راجع ص ٢٠١، ٢٠٢. [أحمد].

(٢) وسبق هناك تعليقٌ مطوَّل (ص ٢٠٦: ٢٠٩) حول هذا الجمع لـ«نية». [أحمد].

الخيرية»، أو زيارة لـ«أهرامات الجيزة»، أو حكاية عن الفلاح في الحقل.. لتستخرج من كل ذلك شواهدَك على القاعدة النحوية والصرفية!

وليس من «التيسير» و«التسهيل» أن تدع مصطلح «المبتدأ» أو «الخبر»، و«الفاعل» و«الفعل»، لتقول: «المسند» و«المسند إليه». وظن بعضهم أن في وجود هذا المصطلح («المسند والمسند إليه») في كتاب سِيبَـوَيْـه[1] مُسَوِّغاً لإحلاله محلَّ المبتدأ والخبر. وما عِلْمُ هذا الظانِّ أن هذا المصطلح لم يَشِعْ شيوعَ «المبتدأ» و«الخبر»، و«الفاعل» و«الفعل»؟! ثم إن لسِيبَـوَيْـه مصطلحاتٍ كثيرة لم تَشِعْ ولم تستمرّ. فهو يُسَمِّي «الحالَ» «خبراً»، ويسمي «التوكيدَ» «صفةً» (ومرةً يسميه «عطفاً»)، ويسمي «العطفَ» «بدَلاً»، و«المقصورَ» «منقوصاً»[2]. وسِيبَـوَيْـه يسمي أيضاً «اسمَ كان» «فاعلًا». وكذلك يفعل أبو عليٍّ الفارسيّ. وهذا (أبو عليٍّ) يسمي «الضميرَ» «الذِّكْر»[3]. فالمعوَّلُ عليه هو ما استقر عليه النحاة جميعاً، وشاع في كتبهم. وقد قلت من قبل: إن هذه المصطلحات النحوية قد انتشرت في كتب التراث الأخرى، فمن الخطر أن نغيِّرها في كتب النحو على حين تظل في كتب التراث الأخرى. وليس من المعقول أن نطاردها في كل كتب العربية، كأنها المجرمُ المعتدي الذي يُراد استئصالُ شَأْفَتِه[4]!

أما ما جاء به «التيسير» من نحو «تكملة بالمفعول به» (أو «تكملة بظرف الزمان

---

(١) الكتاب، ١/ ٢٣، ٢/ ٧٨، ١٢٦.

(٢) فهارس كتاب سيبويه، للشيخ عضيمة، ص٢٠: ٢٢.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب الشعر، ص٥٤.

(٤) الشَّأْفَة: الأصل. ومنه قولهم: «استأصَل اللهُ شَأْفَتَه»، أي: أهلكه الله من أصله حتى لا يبقى منه شيء. ومنه قولُ الكُمَيْت:

ولم نفتـأْ كـذلـك كـلَّ يـوم   لشَـأْفَـة واغـرٍ مستـأصِلينا

وأصلُها: قَرْحةٌ، أو وَرَم، تخرج في أسفل القَدَم، فيكون دواؤها القطعَ أو الكَيَّ حتى تذهب تماماً. [أحمد].

أو المكان»، أو «تكملة لبيان السَّبب»)، مكان «المفعول لأجله»؛ فهو شيء يدعو إلى السُّخْـرِيَة والعَجَب معاً؛ لأن من المتفق عليه أن يكون المصطلح موجَزاً ومحدوداً ما أمكن، ونحن هنا قد زِدْنا على الكلمتين كلمةً!

وهكذا تتهاوَى دعاوَى «التيسير»، ويظهر زَيْفُها، وينكشف عَوارُها!

[أين الخَلَـل ؟]

وتبقى كلمةٌ لا بُدَّ منها..

إن كثيراً من الذين يعالجون قضية ضعف الطلاب في النحو والعربية، يردُّونها إلى الطالب وحده، ويقولون: إنك لا تكاد تظفر بطالبٍ في هذه الأيام محبٍّ للنحو، راغبٍ فيه... هذا إلى كثرة عدد الطلاب في الـمُدَرَّجات، وكثرة الصوارف مثل «التلفزيون» و«كرة القدم».. ونحو ذلك.

ومن قبل ذلك ومن بعده فالطالب يأتي إلى الجامعة خاوي الوِفاض من العربية.. لم يَعْلَقْ بذهنه شيءٌ من المراحل التعليمية الثلاث: الابتدائي والإعدادي (المتوسط) والثانوي[1]..

وهذا كلام من يُمهِّد العذرَ لأستاذ الجامعة، ويُخْلِيه من التَّبِعة والمسؤولية بمرةٍ واحدة!

ولقد نظرت فيما بين أيدي تلاميذ المدارس ـ بمستوياتها الثلاثة ـ من كتب النحو، سواء في ذلك كتبُ الوَزارة، أم الكتبُ المساعِدة («الخارجية»). وأشهد أنها كلَّها على مستوًى جيد، وأنها لا تختلف كثيراً عن كتب الجيل السابق، إذ يقوم على تأليفها أساتذةٌ

(١) الأقرب أن يقال: الابتدائية، والإعدادية (المرحلة المتوسطة)، والثانوية. والله أعلم. [أحمد].

أصحابُ علمٍ وخِبرة، وهم بين معلِّمٍ مُحَنَّكٍ قديم، وأستاذٍ جامعيٍّ خبير. وفي هؤلاء وهؤلاء خيرٌ كثير.. والحمد لله.

لكن الذي يقوم على تدريس هذه الكتب معلِّمٌ ضعيف، لا يقف ضعفُه عند حدود تقصيره في عَرْض المادة وتثبيتها في أذهان التلاميذ، بل يتعدَّى ذلك كلَّه إلى إعطاء المعلومات(١) الخاطئة، والتوجيه المُضَلِّل! وهذه هي المصيبةُ الكبرى. وهذا المعلم الضعيف قادمٌ من الجامعة، وقد قضى فيها أربعَ سنوات كواملَ.. إذن عُدْنا إلى الجامعة مرة أخرى! وقد حدّثُتك من قبلُ عن منهج تعليم النحو فيها: مِن هَجْرِ الكتاب القديم، ونَبْذِ الشاهد التراثي، والاشتغالِ بالنظرية واجتواءِ التطبيق، وغلَبةِ المناهج الغربية، وإهمالِ جوانبَ ضروريةٍ في تعليم العربية.

أما ما يقال عن ضعف الطالب، وسوء الظن به، وتزاحم العِلَل والآفات عليه؛ فمردود عليه بالتجربة المشاهَدة، والحال الواقع.

[تجربةٌ غنيةٌ مع طالبات كلية البنات]

وقد عشتُ هذه التجربة، ورأيتُ ذلك الحال، في العام الماضي (بعد غَيبة أحدَ عشَرَ عاماً عن القاهرة ومعاهدها العلمية).. وذلك حين أُسند إليَّ تدريسُ النحو بالسنة الأولى بقسم اللغة العربية بكلية البنات (جامعة «عين شمس»). وكان فصلاً

(١) يُضعِّف بعضهم هذا التعبير «المعلومات»، ويرى أنه ليس له تاريخٌ في كلام العرب. وقد وجدته في كتاب **الـهَوامِل والشَّوَامِل** لأبي حَيَّان التوحيدي [٣١٠ ـ ٤١٤ هـ/ ٩٢٢ – ١٠٢٣م] ومِسْكَوَيه [ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م] (في القرن الرابع). وانظره فيه ص١١٧.. قال مِسْكَوَيه: «وكما يعرض للنفس في الأموال الشُّحُّ والسَّماحة.. كذلك يعرض لها في المعلومات: فمرةً تسمَح، ومرةً تَضِنُّ. وربما كان الإنسان شحيحاً بعلمه، سَمْحاً بماله. وبالضدّ».

دراسيًّا واحداً، سعدتُ به غاية السعادة؛ إذْ رأيتُ أمارات الجِدِّ لائحةً في هذا الجيل الذي أسأنا الظنَّ به، وأكثرْنا من الحَطِّ عليه! ولقد عشت تجربة سعيدة مع هؤلاء الطالبات؛ إذ قرأت لهن شيئاً من **شذور الذهب** لابن هشام، على خوفٍ مني ووَجَل، لكني استعنتُ الله وخُضتُ بهن لُجَجَه، ولم أدعْ شيئاً مما ذكره ابن هشام إلا وقفتُ عنده، حتى كلام النحاة في توجيه قراءة «إنَّ هذان لساحران»(١) [طه، الآية ٦٣]. وكم كنتُ فَرِحاً مغتبطاً حين عَرَضتُ لاختلاف القُرَّاء وتوجيه هذا الخلاف، ثم حين استطردتُ إلى شرح حديث «إنَّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرفٍ.. كلُّها كافٍ شافٍ»(٢). وقد شجَّعني على المضيِّ والاسترسال استحسانُ الطالباتِ لهذه المباحث، واستزادتُهن منها. بل إن واحدة منهن سألتني برجاءٍ مُلِحٍّ أن أخصِّص ساعةً من الأسبوع للقراءات

---

(١) هذه قراءة نافع وحمزة والكسائي وعاصم (في وجهٍ عنه).. وغيرهم. وقرأ أبوعمرو بن العلاء وحده: «إنَّ هذين». وقرأ حفص عن عاصم وابن كثير.. وغيرهم: «إنْ هذان». وفي توجيه قراءة «إنَّ» المشدَّدة مع رفع «هذان» كلامٌ طويل بين علماء التفسير وعلماء النحو، خلاصته ثلاثة وجوه:

١ . «إنَّ» عاملة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملة «هذان لساحران» خبرها.

٢ . «إنَّ» عاملة، واسمها «هذان» على لغةٍ لبني الحارث بن كعب، وكانت لغةَ الكسائي، حيث يُلزمون المثنى الألِفَ مهما اختلف موقعه الإعرابي.

٣. «إنَّ» ليست عاملة، وهي بمعنى «نعم». و«هذان» مبتدأ، و«لساحران» الخبر.

انظر: **معجم القراءات**، د. عبداللطيف الخطيب، ٥/ ٤٤٨ : ٤٥٣.

و: **كتاب السبعة في القراءات**، ابن مجاهد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة، د. ط. ١٩٧٢م، ص ٤١٩.

أما ما يُثار من لغْطٍ، بخصوص هذه القراءة، ونحوها مما خالف مشتَهر القواعد اللغوية، من أقوال منسوبة إلى بعض الصحابة، مؤدَّاها أن في القرآن أخطاءً ستقيمها العرب.. فإنه منقودٌ سنداً ومتناً، وتفاصيله في كتب التفاسير وعلوم القرآن والانتصار له. ولا يتعلق بمثل هذه الأقوال إلا مَنْ لا بصر له بأصول علم الأمة.. لا من حيث الروايةُ وقوانينُها، ولا من حيث الدرايةُ وقواعدُها! فلا يَهُولنَّك تَردادُها بين فَينةٍ وأخرى، ولا يُرْهبْك عن نقدها وُرودُها. [أحمد].

(٢) سبق بعض الكلام حول «الأحرف السبعة» و«القراءات السبع».. ص٢٥٢، ٢٥٣. [أحمد].

القرآنية: تاريخاً وتوجيهاً. ولست أنسى نظراتِ الرضا والسعادة التي كانت تغمرني من هؤلاء الطالبات، وأنا أستطرد إلى شرح شيءٍ من غريب القرآن والحديث، ومعاني الشعر، والحديث عن تراجم بعض الشعراء.. هذا مع ما ذكرتُه لك من أن هؤلاء الطالبات كُنَّ في السنة الأولى، أي أنهن قريباتُ عهدٍ بـ«الثانوي»!

إن ستين دقيقة ـ زمنَ المحاضرة ـ تتسع لعلمٍ كثير، وتوجيه كثير.. ولكن...

وفي النفسِ أشياءٌ، وفيك فَطانةٌ   سُكوتي بيانٌ عندَها وخطابُ![1]

وإنَّ في شبابنا وشابّاتنا ـ عِلم اللهُ ـ خيراً كثيراً.. وما أصدق تلك الكلمة التي قرأتها للأستاذ طارق البوهي، قال ـ حفظه الله ـ: «لا يجب[2] أن نقسُوَ كثيراً على الشباب، فهم نِتاج البذور التي أُلقيت، والتعليم الذي أُعطي لهم، ومجالات الثقافة التي تلقَّوها»[3].

ومرةً أخرى، بل.. مراتٍ لا تنقضي: إن في شبابنا خيراً كثيراً، وإن من حقِّهم أن يقولوا:

ولو أنَّ قومي أنطقتني رِماحُهم   نطقْتُ. ولكنَّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ[4]

(١) لأبي الطيب المتنبي. [ورواية **الديوان**: وفي النفسِ حاجاتٌ. أحمد].

(٢) سبق (ص ٦٧) التعليق على هذا التعبير، وبيان أنه ليس حسَناً في مثل هذا السياق.. فعدمُ الوجوب يقابله الجواز، أي أن القسوة على الشباب إذ لا تجب؛ قد تجوز! وهو ما لا يقصده المتحدثون غالباً في مثل هذه السياقات. والصحيح أن يقولوا فيها: «يجب ألَّا»، أو: «لا ينبغي»، أو: «لا يجوز».. ونحو هذه. [أحمد].

(٣) جريدة **الأهرام**: ١٧/ ١/ ١٩٨٧م (باب «مجرد رأي»).

(٤) يقال: أجررتُ الفصيلَ: إذا شقَقْتَ لسانه لئلاَّ يرضَع. والبيت لعمرو بن مَعْدِيَكْرِب الزُّبَيْدي. [ويصحُّ: مَعْدِي كَرِب. أحمد].

اللهم أَعِنَّا على معرفة الحق، والقولِ به، والذَّبِّ عنه. وارفع عن أمَّتك الغَواشي، وألهمها رُشْدَها.

وأستغفر الله من كلِّ عَثْرةٍ وزَلَّة، وأَبرأ إليه من كلِّ حولٍ وقوَّة..

سبحانه.. لا رجاء إلا إليه، ولا اتِّكالَ إلا عليه، ولا طمعَ إلا فيما عنده.

والحمد لله في الأولَى والآخِرة.

* * *

لغتُنا المعاصرة.. والثِّقةُ الغائبة[١]

[محافظة العربية على خصائصها]

لغتنا العربية من أقدم اللغات الموجودة على ظهر الدنيا الآن. وهي إلى قِدَمها هذا.. تُعَدُّ اللغة الوحيدة التي حافظت على خصائصها الصوتية والصَّرفية والـمُعْجَمية والدِّلالية. والذين يعرفون تاريخ اللغة الإنجليزية ـ وهي اللغة الأكثر شيوعاً الآن ـ يدركون تماماً الفرق بين الإنجليزية الآن، والإنجليزية التي كتب بها أديبهم الكبير وليم شكسبير (١٥٦٤ـ١٦١٦م). فلغة هذا الشاعر العظيم والكاتب المسرحي الكبير تَخفَى على كثير من الإنجليز المعاصرين، على قُرْب عهده وزمنه، فإن نحو أربعة قرون لا تعدُّ شيئاً مذكوراً في تاريخ اللغات. أما إذا عُدنا إلى أشهر شاعر إنجليزي قبل شكسبير، وهو جيفري تشوسر (١٣٤٠- ١٤٠٠م)؛ فلن نجد من الإنجليز الآن من يدرك لغته ويتذوق شعرَه![٢].

وإنما حافظت هذه اللغة العربية على خصائصها في البِنية والصوت والمعجم؛

---

(١) جُمع في: **في اللُّغةِ والأدَب: دِرَاسَاتٌ وَبُحُوث**، ٢/ ٧٤٣ : ٧٨١. ولم يُذكَر هناك مكانَ نشره أولَ مرة. [أحمد].

(٢) **طرق تنمية الألفاظ**، للدكتور إبراهيم أنيس. نقلًا عن كتاب **من تراث لغوي مفقود** ص١١، للدكتور أحمد علم الدين الجندي، مطبوعات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ـ جامعة أم القرى/ مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.

لأنها لغة عقيدة، ارتبطت بالدين ارتباطاً شديداً، وكان لنزول القرآن الكريم بها (وهو أكبر حدَثٍ في تاريخ المسلمين) أثرٌ ضخمٌ في تثبيتها في عقول الناس وجَرَيانها على ألسنتهم، وبخاصة أن لغة القرآن الكريم لم تكن لغةَ عبادة فقط.. يتلوها المسلمون في صلواتهم، ويهجرونها في حياتهم ومخاطباتهم[1].

ويقول مصطفى صادق الرافعي عن القرآن الكريم: «فهو يَدفع عن هذه اللغة العربية النسيانَ، الذي لا يُدفَع عن شيء، وهو وحده إعجاز!»[2].

والقرآن نزل بلسان عربي مبين، ويستوي في معرفة ذلك اللسان كلُّ من نزل عليهم ذلك الكتاب الحكيم، وحتى هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجاً من غير أبناء ذلك اللسان العربي.. سَرْعان[3] ما نسوا لسانهم الأول، بعد أن اندمجوا في هذا الدين، واتخذوا العربيةَ أداةَ فكرٍ وبيان.

يقول أبوالفتح بن جِنِّي، في سياق كلامه عن لغة العرب ولغة العجم: «... وذلك أنا نسأل علماءَ العربية ممن أصله عَجَميٌّ وقد تدرَّب بلغته قبل استعرابه، عن حال اللغتين؛ فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبُعده في نفسه، وتقدُّمِ لُطْفِ العربية في رأيه وحِسِّه»[4].

---

(١) وعلى هذا.. فليس من الدفاع عن العربية الفصحى أن يقول الأستاذ بدر نشأت: «إن الفصحى بخير، نعيشها وتعيشنا، والله حافظها، وهي تحيا معنا لحظةً بلحظة، فهي لغة قرآننا، ولغة أسلافنا، نؤدِّي بها صلواتِنا الخمسَ اليومية، ونمارس بها كافة مناسكنا الدينية» (مجلة **القاهرة**، يونيو ١٩٩٦م، ص٣٨).. فهذا كلام ينتهي إلى أن لغتنا لغة عبادة ليس غير! فما بالك بالعربي الذي لا يقرأ القرآن ولا يصلِّي؟!

(٢) مقدمة كتاب **إعجاز القرآن**.

(٣) مثلَّثة السين. [أحمد].

(٤) **الخصائص**، ١/ ٢٤٣.

[من عجيب أثر القرآن في ألسنة الناس]

ومن عجيب أثر القرآن في الناس أن ألسنتهم تجري به وَفْق قوانين العربية وصفات حروفها، وإن كان التالي له لا يعطي هذه الحروفَ حقَّها في كلامه الآخر الذي يغدو به بين الناس ويروح. ومن ذلك ما ذكره المترجمون لأبي حيان النحوي الأندلسي (٧٤٥هـ) أنه كان ينطق القاف قريبةً من الكاف (على لهجة أهل الأندلس)، لكنه كان ينطق بها في القرآن فصيحةً، وكان يقول: «مافي هذه البلاد ـ يعني بلاده الأندلس ـ من يعقد حرف القاف!»[1]، أي يعطيه حقَّه الصوتي الذي يفصل بينه وبين الكاف. وقد شاهدتُ أنا من ذلك مَن لا يُحصَى من الناس، في أثناء إقامتي بمكة البلد الأمين، من المسلمين غير العرب الذين يَؤمُّون البيت الحرام، يقرؤون القرآن في يُسْرٍ وسهولة، فإذا أردتَهم على شيء من الكلام العربي الذي يجري بين الناس؛ تعذَّر عليهم ذلك. لكن مما لا شك فيه أن هؤلاء الناس لو وُجدوا في بيئة عربية؛ لكان حفظهم للقرآن أو تلاوته، مُعيناً لهم على معرفة العربية، بل وإجادتها.

[ما حدود قِدَم العربية؟]

وإذا كانت اللغة العربية قديمة، كما يذكر أهل العلم؛ فما هي حدود ذلك القِدم؟

لم يقطع في ذلك أحدٌ برأي. وإن كان علماء المقارنة بين اللغات يَردُّون ذلك إلى القرن الرابع قبل الهجرة. ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «ويرجع [تاريخ اللغة العربية] فيما نعتقد إلى عصر قبل ذلك؛ لأن المقابلة بينها وبين أخواتها السامية يدل على

(١) **الوافي بالوَفَيات**، ٥/ ٢٨١، و**نَكْتُ الهِمْيان في نُكَت العُميان**، ص ٢٦٨ (كلا الكتابين لصلاح الدين الصَّفَدي). و: **نَفْح الطيب من غُصن الأندلس الرَّطيب**، للمَقَّريّ، ٢/ ٥٤١.

تطور لا يتم في بضعة أجيال.. فلابد من أجيال طويلة تمضي قبل أن ينتهي تطور اللغة إلى هذه التفرقة الدقيقة بين أحكام الإعراب، أو بين صِيَغ المشتقَّات، أو بين أوزان الجمع والمثنَّى وجموع الكثرة والقِلَّة في الأوزان السَّماعية، ولابد من فترة طويلة يتم بها تكوين حروف الـجَرّ والعطف وسائر الحروف التي تدخل في تركيب الجملة معانيها المختلِفة»[١].

ولعلّ هؤلاء الذين يَردُّون أوليَّةَ اللغة العربية إلى القرن الرابع قبل الهجرة يستندون فيما يستندون إلى نحو قول أبي العباس أحمد بن يحيى ثَعلب (٢٩١هـ) حين ذكر جملة من قُدامى الشعراء الجاهليين: الـمُهَلْهِل، وذُؤَيْب بن كَعْب بن عمرو بن تميم، وضَمْرة النَّهْشَلِيّ، والأَضْبَط بن قُـرَيْع السَّعْدي، وأنشد لهم أشعاراً، ثم قال: «وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أَربعُمائة سنة».. قال: «وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير»[٢].

ويزيد الشيخ خالدٌ الأزهريّ (٩٠٥هـ) مائة سنة أخرى في تحديد تاريخِ واحدٍ من هؤلاء القُدامى، وهو الأَضْبَط بن قُـرَيْع السَّعْدي، فيقول عنه: «وهو جاهليّ قديم، قبل الإسلام بنحو خَمسِمائة سنة»[٣].

وليس هؤلاء الذين ذكرهم ثعلبٌ هم وحدَهم الشعراء القدماء في الجاهلية. فقد ذكروا أيضاً من قدمائهم: الأفْوَه الأَوْدِيّ.. قال أبوعبيد البكري: «وهو جاهليٌّ قديم. وذكر بعض المؤرخين أنه أدرك المسيح ـ عليه السلام ـ»[٤]. ومن قدمائهم أيضاً:

(١) **اللغة الشاعرة**، ص٥.

(٢) **مجالس ثعلب**، ص٤١١، ٤١٢.

(٣) **شرح التصريح على التوضيح**، ٢/ ٢٠٨ (باب نوني التوكيد).

(٤) **سِمْط اللآلي شرح الأمالي** (أمالي أبي علي القالي)، ص٣٦٥. وراجع الأغاني: ١٢/ ١٦٩ (طبعة دار الكتب المصرية)، وديوان **الأفْوَه الأَوْديّ** (ضمن **الطرائف الأدبية**، ص٣، صنعه عبدالعزيز الميمني الراجكوتي).

جَذِيمةُ الأَبْـرَش، وهو آخر ملوك قُضاعة بالحِيْرة»[١].

على أن وجود هؤلاء الشعراء القدماء، ووجود شعرهم قبل الإسلام بأربعِمائة سنة أو خَمسِمائة سنة، لا يدل على أوَّليَّة اللغة العربية في ذلك الوقت. وهذا أمرٌ بَدَهيٌّ، نُورِده هنا فقط للتذكير بأن بداية اللغة العربية أقدم من ذلك الشعرِ الناضجِ المستوى بكثير.

[القرآن عِماد العربية]

ومهما يكن من أمرٍ.. فقد كان نزول القرآن الكريم بهذه اللغة العربية أكبر حدَث في تاريخها، فقد بسط سلطان العربية على هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجاً. ثم كانت هجرة القبائل العربية في غزوات الفتح الإسلامي إلى خارج الجزيرة العربية[٢] إيذاناً بشروق عصر جديد للغة العربية «.. ففي مدة عشراتٍ من السنين حملتْ قبائلُ البادية في غزوات الفتح، لهجاتِها نحو الشمال إلى فلسطين وسورية وما بين النهرين.. حتى جبل طُوروس وجبال إرْمِينيَة[٣]. ونحو الشرق ـ عبر العراق ـ إلى إيران. ونحو

---

(١) **طبقات فحول الشعراء**، لابن سلّام، ص٣٧، و**خزانة الأدب**، للبغدادي، ١١/ ٤٠٨.

(٢) ثمة دراساتٌ تُثبت سَبْقَ الهجرات العربية، إلى خارج شبه جزيرتهم، موجاتِ غزَوات الفتح الإسلامي بكثير. بل.. سَبْقَها ظهور الرسالة المحمدية ذاتِها. انظر مثلاً: **القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة**، د. عبدالله خورشيد البرّي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٩٩٢م، ص ٥ : ٤٥. وأيضاً: **القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي**، د. محمد عزب دسوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٩٩٨م، ص ٢٧ : ٥٩. [أحمد].

(٣) في المطبوعة: بفتح الهمزة. ونَصَّ صلاح الدين الصَّفَدي (**تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**، تحقيق السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ١/ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م، ص ٩٨) على أنها بكسر الهمزة، وأن فتحها من خطأ العامَّة. ونصَّ **التاج** على أنها بالكسر، لكن فيها الفتح أيضاً (نقلاً عن ياقوت الحمَوي). وأن تسهيل يائها الثانية أكثر من تشديدها. كما نص على أن النسبة إليها بالفتح: أَرْمَنيّ و أَرْمِنيّ (خلافاً للقياس في الجمع). [أحمد].

الغرب ـ عبر شبه جزيرة سيناء ـ إلى مصر وشمال إفريقية. ولم تكد تمضي مائةُ عام على وفاة محمد ـ ﷺ ـ، حتى امتدَّت الدولة إلى سُفوح البرانس في المغرب، وإلى أواسط آسيا على شواطئ نهر الهند في المشرق. وهذا النفوذ الذي بلغته اللغةُ العربية، إلى مناطق كانت تستوطنها لغاتٌ أخرى، لم يكن ليمرَّ عليها دون تأثير أو تغيير...»[١].

فهذه الأمم التي أظلَّتها راية الإسلام نسيت لسانَها القديم، كما قلتُ من قبل، واتخذت العربيةَ أداةَ فكر وبيان. ولم يعد من السائغ ولا من المقبول أن نفرِّق بين العرب والـمَوالي، أو بين العرب والفرس، فيما يتصل بالنشاط الأدبي والفكري.. فالجميع يتكلمون لغةً واحدة، ويكتبون بلغة واحدة. فمن الجهل البيِّن أن يقول قائل: سِيبَـوَيْــه الفارسيّ، أو البخاريُّ الفارسيّ.. ونحو ذلك. فلا فرق بين سِيبَـوَيْــه صاحب الأصل الفارسي، وأستاذه الخليل بن أحمد العربيِّ الصريح. ولا فرق بين البخاريِّ ـ صاحب **الصحيح** ـ المولود ببُخَارى من بلاد العجَم، وأحمد بن حنبل الشيبانيِّ ـ صاحب **المسند** المولود ببغداد. ولا فرق بين أبي عليٍّ الفارسيِّ الأصل، وتلميذه ابن جِنِّي الروميِّ اليونانيِّ الأصل. بل لا فرق بين المسلم وغير المسلم الذي يتكلم العربية، وينتمي إليها فكراً وبياناً.. ألم يكن الأَخْطَلُ النَّصرانيُّ أحدَ الثلاثة الذين اتفق النُّقَّادُ على أنهم أشعر أهل عصرهم: الفَرَزْدَق وجَرِير والأَخْطَل ـ؟ بل إن أباعُبيدة كان يقدِّمه على صاحبيه، فيقول: «شعراء الإسلام: الأَخْطَلُ ثم جَرِير ثم الفَرَزْدَق»[٢].

ومن وراء ذلك كله فقد كان الأَخْطَلُ النَّصرانيُّ من شعراء الاحتجاج، يَحتجّ به المفسِّرون على تفسير كلام الله ـ عز وجل ـ، ويستشهد به النَّحويون واللُّغويون على قواعدهم ومذاهبهم.

(١) **العربية**، تأليف يوهان فك، ترجمة عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي/ القاهرة، ١٩٥١م.
(٢) **الأغاني**، ٨/ ٢٨٦.

[التطوُّر الدِّلالي والأعرافُ اللغوية]

ثم تمضي الأيام بهذه العربية.. يتكلم بها الناس، ويسجِّلون بها خواطرهم ومشاعرهم، ويدوِّنون بها علومَهم ومعارفَهم وألوانَ حضارتهم. ويداول الله الأيامَ بين الناس.. فتتهاوَى عروشٌ، وتقومُ عروشٌ، وتسقطُ دولٌ، وتنهضُ دول! وكان ما كان مما أراده ربُّك من كَبَوات هذه الأمة العربية: سياسةً، وحُكماً، ونفوذاً. ولكنَّ لغتها بقيت حيث هي: موفورةً لم تُنْـتَقَص، عاليةً لم تَنْحَنِ، سليمةً لم تَنْكَسِر. ثم تتعرَّض هذه اللغة (شأنَ سائرِ اللغات، وشأنَ كلِّ كائنٍ) لشيء من التطور، في أصواتها ودِلالتها، وشُيوع بعض التراكيب في وقتٍ، وانحسارِها في وقت.

والتطوُّر الدِّلالي والأعرافُ اللغوية مما تنبَّه له القدماء ونصُّوا عليه. فمن ذلك ما يقوله ابن الشَّجري (٥٤٢هـ): «وجعلوا «التقدُّمَ» ضرباً من التعالي والارتفاع؛ لأن المأمور بالتقدُّم، في أصل وضع هذا الفعل، كأنه كان قاعداً فقيل له: تعالَ، أي ارفعْ شَخصَك بالقيام وتقدَّمْ. واتَّسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي، ويدلُّك على أن التقدم الآن قد صار ضرباً من الارتفاع قولُهم: ارتفع فلانٌ وفلانٌ إلى الحاكم.. أي تَقدَّما إليه»(١). وتأمَّلْ قولَه «الآن»، ثم قولَه «في أصل وضع هذا الفعل»، وقولَه «واتَّسعوا فيه».. فكلُّ أولئك إشاراتٌ واضحةٌ إلى التطور في المعنى الدِّلالي.

ومن ذلك أيضاً ما حكاه الوزير القِفْطِي (٦٤٦هـ) من ذلك الكلام الذي دار بين الإمام الأعظم أبي حنيفة، واللُّغوي الكبير أبي عمرو بن العَلاء.. وكان أبوحنيفة يُتَّهم بالضعف في النحو واللغة، فيقول له أبوعمرو ويردُّ عليه: «هذا كلامٌ بَشِع! فيقول أبو حنيفة: وما بَشِع؟ فيردُّ أبو عمرو: ولا تعرف البَشِعَ أيضاً؟!».. قال الوزير القِفْطِي

---

(١) أمالي ابن الشجري، ١/ ٧١.

يدافع عن أبي حنيفة: «وأما قوله «بَشِع»؛ فليست باللغة المستعملة الشائعة في ذلك الوقت، ولا مما سار على أَلْسُن أهل المَدَر نقلاً عن أهل الوَبَر»(١).

وترى كثيراً من ألوان هذا التطور اللُغوي، من الجِذْر الأصلي للكلمة إلى الاستعمالات المختلِفة، في كتاب **مقاييس اللغة** لابن فارس.

[لم يتغير جوهر بنية العربية]

وقد كتب كثيرٌ من أهل العلم قديماً وحديثاً عن مظاهر ذلك التطور اللغويّ، والتمسوا له أمثلة من التغيّر الصوتي والدلالي(٢). ولكن بعضهم أسرف في ذلك إسرافاً، حتى أَوهَم بكلامه في هذه القضية أن الذي بين أيدينا الآن من لغتنا العربية المكتوبة والمنطوقة، بعيدٌ كل البُعد عن عربية الجاهلية، أو عربية صدر الإسلام، بل إنه يكاد يكون شيئاً آخر! ومن أكبر الغُلاة في هذا الطريق الدكتور لويس عوض(٣)، الذي يلحُّ على هذه القضية في أكثر ما كتب، ومنه ما ذكره في كتابه **ثقافتُنا في مفترَق الطرق** فهو يرى في نهاية مقالته «ثورة اللغة» أن اللغة العربية قد تغيَّرت بِنيتها تغييراً أساسيًّا

(١) **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، ٤/ ١٣٢. وأهل المدَر: هم سكان البيوت المبنية من الطين، وأهل الوبَر: هم سكان الخيام. والمدَر: الطين. والوبَر: الصوف. [وقد سبق (ص ١٨٧) ذِكْرُ الكوثري ودفعه مثل هذه المرويات في كتابه الحافل **تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب**. أحمد].

(٢) وكتبتُ أنا شيئاً من ذلك سميته «جموع التكسير والعرف اللغوي»، تراه في **مجلة مجمع اللغة العربية** بالقاهرة، الجزء الحادي والسبعين، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م. [سبقتْ الإشارةُ إليه مني. أحمد].

(٣) قد يُوهم إيراد الطناحي اسم د. لويس عوض في سياق حديثه عن بعض أهل العلم، الذين أسرفوا في باب «التطور اللغوي»، أنه من هؤلاء ومندرجٌ فيهم. وأقطع أن الطناحي لم يكن ليخطر بعقله مثلُ هذا الوهم.. فليس للويس عوض في باب **العربية** نُوَيقةٌ ولا فَصيل، ولا أدنى من ذلك، حتى «الكتكوت»! وهو ـ ذاتُه ـ رغم ما تنفَّج به في مقالاته السقيمة حول **رسالة الغفران** وأبي العلاء (والتي انتهض لها أبوفِهْر فيما جمعه، بعد نشره منجَّماً، في **أباطيل وأسمار**)، ثم في شَنيعته البَلْقاء **مقدمة في فقه اللغة العربية**. بل إن لويس عوض ـ ذاتَه ـ رغم كل هذا التنفُّج والتطاول، لم يكن ليخطر في بال نفسه مثلُ هذا الزعم! [أحمد].

في القرنين الأخيرين بتأثير الاتصال الثقافي بين العالم العربي والحضارة الأوروبية[١].

والدكتور لويس عوض معذور؛ لأنه لا يعرف العربية المعرفةَ التي تُعينه على معرفة تاريخها، ومحصولُه منها محدودٌ جدًّا!

لكن اللوم يتجه لبعض أساتذتنا وزملائنا الذين نشأوا نشأةً عربيةً صحيحةً، فحفظوا القرآن في صباهم، ثم أخذوا العربية من مَعْدِنها الأصيل، وهو «الأزهر» و«دار العلوم»، فلما أرادوا الـمَثالَةَ[٢] وحُسْنَ الذِّكْر بين الناس؛ انقلبوا على هذه العربية التي أنطقت ألسنتَهم.. يَعيبونها، ويبحثون عن أوجه النقص فيها.. «ومن التمس عيباً؛ وجده، ومن طلب له وَجْهاً؛ لم يَفُتْه» كما قال ابن رشيق![٣].

[الخلط بين العربية المكتوبة والمنطوقة]

وقضية التطور اللغوي من القضايا الشائكة، ولعل أخطر ما فيها هو الخلط بين اللغة العربية المكتوبة واللغة العربية المنطوقة، فالحديث عن التطور في اللغة العربية المنطوقة ينبغي أن يعالج بكثير من الحذر والـحَيْطة؛ لفُقدان التسجيلات الصوتية، وأجهزة التجارِب النُّطْقِيَّة، وسائر ما جاءتنا به الحضارة الحديثة، مما لم يُتَحْ للأقدمين، ولم يَبقَ لنا من معالم اللغة المنطوقة إلا ما احتفظت به كتب اللغة الأولى، من الحديث عن لغات القبائل (لَهَجاتِها)، ثم ما جاء من الحديث عن مَخارج الحروف وصِفاتها،

---

(١) **مجلة القاهرة**، العدد ١٦٣، يونيو ١٩٩٦م، ص١٢٧.

(٢) الـمَثَالة: الفضل. وفعلها: مَثُل. [أحمد].

(٣) هذه كلمةٌ نقلها ابن رشيق عن أبي العباس (ولعله: المبرِّد)، وثمة اختلافٌ في نسخة **العُمْدة**.. حيث فيها: «من طلب عيباً؛ وجده. ومن طلب له مَخْرَجاً؛ لم يَفُتْه». انظر: **العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، أبوالحسن ابن رشيق القَيْروانيّ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، تصوير دار الجيل/ لبنان ـ سورية، ط ٥/ ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م، ٢/ ٢٤٦. [أحمد].

وهو ما اعتنى به علماء التجويد والقراءات (أداءً). وهؤلاء العلماء قد بذلوا غاية الوُسْع والطاقة في إعطاء كل حرفٍ حقَّه ومُسْتَحقَّه من مَخرَجه وصفته اللازمة له، من هَمْسٍ وجَهر، وشدَّةٍ ورَخاوة، وإظهارٍ وإدْغام، وترقيقٍ وتفخيم.. وقد وصلوا في ذلك إلى حدٍّ بعيد من الإتقان والإجادة.

أما ما يقال عن التطور في اللغة المكتوبة؛ فهو أمرٌ غريبٌ حقًّا!

إننا ننظر في عربية الشعر الجاهلي، ثم ننظر في عربيتنا الآن، فلا نجد فرقاً إلا في بعض الغريب، وهو اللفظ الغامض البعيد من الفهم، الذي يُدرَك بالرجوع إلى أقرب مُعجَم.. فحروف الـمَباني هي حروف الـمَباني، وحروف الـمَعاني هي حروف الـمَعاني[1]، وأبنية الأفعال هي هي، وأبنية الأسماء هي هي، والمثنَّى، والجموع بأنواعها الثلاثة، وعلامات التذكير وعلامات التأنيث، والمصادر والظُّروف، وسائر المشتقات، من اسم الفاعل واسم المفعول والصفة الـمُشَبَّهة، واسم التفضيل، واسم الهيئة والـمَرَّة.. كل ذلك واحد لا يختلف في غابر العربية وحديثها.

ثم نقرأ لامرِىء القَيس:

ولو أنها نَفْسٌ تموت جَمِيعةً! ولكنها نَفْسٌ تَساقَطُ أَنْفُسا![2]

---

(١) حروف المباني هي حروف الهجاء المفردة: أ، ب، ت، ث، ج... إلى ي. وحروف المعاني هي الحروف المجتمعة التي تؤدي معانيَ خاصة، مثل: مِن، إلى، عن، على.

(٢) وصدره في رواية أبي سعيد السُّكَّريّ: فلو أنها نفسٌ تموت سَوِيَّةً. وتفسير الطناحي عَجُزَ البيت أولى، وأقرب سياقاً، وأعذب مذاقاً، ممن فسَّره بقوله: «أي: تموت بموتي عدَّةُ نفوس»، ناظراً (أي هذا المفسر) إلى قول عَبْدة بن الطَّبيب في قَيْس بن عاصم:

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ ولكنه بُنيانُ قومٍ تَهَدَّما!

وقد أشار المرزوقي، في **شرح الحماسة** (٢/ ٧٩٢)، إلى هذا التفسير الأدنى (في رأيي). غير أنه اشترط قراءة «تساقط» في بيت امرئ القيس بضم التاء، على المضارَعة أيضاً. لا بفتحها، على أن أصله «تتساقط».

انظر: **ديوان امرئ القيس وملحقاته**، شرح أبي سعيد السُّكَّريّ، تحقيق د. أنور عليان أبوسويلم و د. محمد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ/ أبوظَبي، ط١/ ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠م، ٢/ ٥٥٠. [أحمد].

فنراه شعراً عذْباً صادقاً لشاعر يتعذَّب، وكأنه يعاني من الموت البطيء.. فكأنَّ نَفْسَه تَقسَّمت إلى أنفُس، تموت واحدةً تِلْوَ أخرى، فيقول: لو كانت لي نفسٌ واحدة لهان الأمر، ولكنها أنفسٌ كثيرة!

ثم نقرأ قوله:

أُرانا مُوضِعينَ لأمرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ![1]

فهذا شاعرٌ حكيم، يقول: إننا نُوضِع ـ أي نُسرِع ـ لأمر غريبٍ، وهو الموت الذي نصير إليه جميعاً، وقد غُيِّب عنا وقتُه المحتوم، ومع هذا.. فنحن نُخْدَع ونُلْهَى بمتاع الدنيا من طعام وشراب!

وفي هذه القصيدة يأتي بيتُه الشهير:

وقد طوَّفْتُ بالآفاقِ حتى رضيتُ من الغَنيمة بالإيابِ![2]

فأيُّ فرق بين كلام امرِىء القَيس هذا، الجاهليِّ، وبين كلامنا؟

بل نرجع إلى من هو أعرق من امرِىء القَيس في الجاهلية، وهو الأَضْبَط بن قُـرَيْع السَّعْدي، الذي ذكرت لك من أمره في أول هذا الحديث، وأنه كان قبل الإسلام بنحو خَمسِمائة سنة..

يقول الأَضْبَطُ هذا في قصيدة حكيمة[3]:

لـكلِّ هَـمٍّ مـن الهُموم سَـعَةْ والـمُسْيُ والصُّبحُ لا فَلاحَ مَعَهْ

---

(١) رواية أبي سعيد السُّكَّريّ (٢/ ٥٤٠): أُرانا مُوضِعيَن لـحَتْمِ غَيْبٍ. وهي أعلى. والله أعلم. [أحمد].

(٢) رواية أبي سعيد السُّكَّريّ (٢/ ٥٤٤): فقد طوَّفتُ في الآفاق. [أحمد].

(٣) من قطعةٍ رقيقة، أنشدوها في: **الأمالي** و: **الأغاني** و: **الشعر والشعراء** وغيرها (كما تجد في تعليق الطناحي التالي)، وبينهم اختلافات في الترتيب وفي بعض الكلمات. [أحمد].

فصِلْ حِبالَ البعيدِ إنْ وَصَل الْـ ـحبْلَ، وأقْصِ القريبَ إن قَطعَهْ
وخُـذْ مـن الدَّهرِ ما أتـاكَ به مَـن قَـرَّ عَينـاً بعَيشِـهِ؛ نَفعَـهْ
لا تَحْقِـرَنَّ الفقـيرَ.. عَلَّكَ أَنْ تَركـعَ يومـاً والدهرُ قـد رفعَهْ
قـد يجمـع المـالَ غـيرُ آكِلـهِ ويـأكل المـالَ غـيرُ مَـنْ جمَعَـهْ
قد يَرْقَـعُ الثوبَ غيرُ لابسَـهِ ويلبَـسُ الثوبَ غيرُ مَـنْ رقعَهْ

فهذا شعرٌ شَجِيُّ النَّغْم، عميق الحكمة، يتولَّجُ في القلب تولُّجاً، ويَنْصَبُّ في السَّمْع انصباباً. وليس فيه من اللفظ الغريب علينا، إلا قوله «لا فَلاحَ»، وهي هنا بمعنى البقاء.. يقول: والمساء والصباح رائحان وغاديان، لا يَبْقيان على حال.

وهذا شعرٌ عمره خَمْسُمَائة سنة قبل الإسلام. فإن شككت في عمره، وقلت: إنه مصنوع بعد ذلك؛ قلنا لك: حَسْبُنا أن أباعثمان الجاحظ قد رواه في كتابه الفَذِّ **البيان والتبيين**[1]، والجاحظ كما تعلم توفي سنة ٢٥٥هـ.. فهو شعرٌ عربي قديم، قاله شاعرٌ عربيٌّ قديم، بيننا وبينه على رواية الجاحظ وحده نحو ١٢٠٠ سنة، ثم رواه معاصر الجاحظ أبوحاتم السِّجِسْتاني (٢٥٠هـ) في كتابه **المعمَّرون**، وأبوالعباس ثعلب (٢٩١هـ) في **مجالسه**، وأبوعلي القَالِي (٣٥٦هـ) في **أماليه**، وأبوالفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ أيضاً) في **أغانيه**، وابن الشَّجَري (٥٤٢) في **حماسته**، ورضيُّ الدين الصَّاغاني (٦٥٠هـ) في **تكْمِلته**، وعبدالقادر البغدادي (١٠٩٣هـ) في **خِـزانته**.. وغيرُهم. وكلهم أجمعوا على أنه من الشعر الذي قيل قبل الإسلام بدهرٍ طويل.

فإن أنت اسْتَسْقَطتَ هؤلاء جميعاً، وشَككت فيهم قاطبةً، ورأيتَ أنهم قد تابع بعضُهم بعضاً.. فنسأل الله لك العافية!

---

(١) **البيان والتبين**، ٣/ ٣٤١. و: **المعمَّرون**، ص١١. و: **مجالس ثعلب**، ص ٤١٢. و: **أمالي القالي**، ١/ ١٠٧. و: **الأغاني**، ١٨/ ١٢٩. و: **حماسة ابن الشجري**، ص٤٧٣. و: **التكملة**، للصاغاني، ٤/ ٢٣٦. و: **خزانة الأدب**، ١١/ ٤٥٢.

فهذا من شعر الجاهلية الأولى، ثم الجاهلية القريبة من الإسلام. هل تُحِسّ فيه من وُعُورة؟

وهل تتبَشَّعُ منه شيئاً.. يقف في حَلْقك، ويسُدُّ مجرى نَفَسِك؟

ثم.. هل أنت في حاجة إلى الـمُعجَم عند كل كلمة منه وحرف، كما يزعم الزاعمون؟

ثم.. أليست لغة هذا الشعر هي لغتَنا المعاصرة، في حروفها وأفعالها وأسمائها وجموعها ومصادرها؟

لقد صارت كلمة «الجاهلي» في وصف الشعر مَجْلَبةً للغَمِّ عند النَّشْءِ الصِّغار، تُبغِّضُ إليهم قراءتَه والتلذُّذَ به، بل تكاد تصرفهم عن الشعر العربي جملةً! وصار منه[1] سُخْفُ القول: وصفُ لغة الأوائل بأنها لغة «مِكَرٍّ مِفَرٍّ»[2]! أو لغة «الخيل والليل

---

(١) همَمتُ بتصحيح «منه» إلى «من»، ثم بدا لي أن «منه» صحيحةٌ، وأن الظاهر أن «وصفُ لغة الأوائل...» بدلٌ من «سُخْفُ القول». والله أعلم. [أحمد].

(٢) من معلَّقة امرئ القَيْس، يصف فَرَسَه بالجراءة والصلابة والسرعة:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ، مقبلٍ مدبرٍ.. معاً ... كجُلمود صخرٍ.. حَطَّه السَّيْلُ من عَلِ

و «مِكَرّ» و«مِفَرّ» على زِنة «مِفْعَل»، أي: يعاود الكَرَّ والفَرَّ مراتٍ بعد مرات.. لا يُسْبَق فيهما. فالمبالغة في الوصفين مبالغةٌ في الكمِّ والكيف معاً.

هذا.. ومن أسفٍ أن هذا البيتَ البليغ من تلك المعلَّقة الـمُنْيفة (إحدى أشهر مفاخر العرب البلاغية) هو من أسْيَر ما يُتَهكَّم به على لغة العرب الفصيحة، كما يذكر الطناحي ـ رحمه الله ـ. حتى إن كاتباً مثقَّفاً عارفاً بقيمة هذا الشعر وشرَف هذه اللغة جعل ـ منذ بضع سنواتٍ ـ هذا البيتَ في سياقٍ مُخِلٍّ من «فِلْمٍ كوميدي» كتبه، وجعل من كلمات البيت هُزْءةً ومن أدائه مُسْخةً.. أضحكتا الناسَ في بُلَهْنية الغفلة ونعيم الجهل! ثم استحالت الضَّحْكاتُ اللاهيةُ عند عقلائهم «ضِحْكاً مجروحاً» وغيظاً وألَماً.. أن يصير إرثُهم اللغوي، الذي لا دينَ لهم من غير البصر به، بهذه المهانة! وإذا كان صاحبنا هذا ـ الذي نعرفُ ونحبُّ ـ بهذه المثابة من المعرفة والوعي اللذين ذكرتُ؛ فما البال بصنيع الجاهل الغَشوم؟! بل.. ما البال بمن يريد الـمَساءةَ والـهَدْمَ صريحين؟! =

والبيداء»[(١)]! وما أُتِيَ القوم إلا من الجهل وقِلَّة المعرفة، على ما قال ربنا ـ عز وجل ـ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

[التقسيم الاستشراقي للعربية بين «تراثية» و«معاصِرة»]

إن هذا الصَّدْع في جدار اللغة العربية، وتقسيمَها إلى لغة تراثية ولغة معاصرة، إنما شَقَّه بعض المستشرقين الذين اشتغلوا بتراثنا منذ القرن السابع عشر، أو قبلَه بقليل.. فهم يميزون دائماً بين مستويين للفُصحى، يُسمُّون الأول «العربية القديمة»، ويُسمُّون الثاني «العربية المعاصرة». ثم يتحدثون عن مستوًى ثالثٍ هو «العربية المنطوقة»، ويعنون بها «العامِّـيَّة». وقد اختلفوا في تحديد هذه المستويات اختلافاً كثيراً، وتابعهم في ذلك كثير من أساتذتنا وزملائنا من أبناء جِلْدتنا. وما أحب أن أستطرد إلى ذكر هذه الآراء والردِّ عليها، فهذا بحثٌ آخر[(٢)].

= هنا.. لا بدَّ من أن يكون لمجامع اللغة العربية، ونحوها من مؤسسات الأمة الراشدة، السلطانُ لأن تقترح القوانين الملْزِمةَ الجميعَ باحترام لغتهم وحضارتهم وثقافتهم. ولا سبيلَ إلى شيءٍ من هذا.. إلا بإرادةٍ، سياسيةٍ وتشريعية، مِمَّن وَكَل الله تعالى إليهم أمورَ البلاد العربية.. فإن الله يَـزَع بالسلطان ما لا يَـزَع بالقرآن! وقد سبق بعض هذا الكلام، ومعه احترازٌ مهمٌّ حول هذا الموضوع، في تقديمي تحريرَ هذا الكتاب (ص ١٩ : ٢٠). وقد قلتُ هناك أيضاً في ختامه:

نتمنى ألا تكون هذه الصيحةُ ـ ومثيلاتُها ـ في واد، ولا مصيرها إلى الرماد!

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى! [أحمد].

(١) من بيت أبي الطيب المتنبي المفتخِر بنفسه وشعره:

الخيلُ والليلُ والبَيْداءُ تعرفُني ... والسيفُ والرُّمْحُ والقِرطاسُ والقلمُ!

ويسري عليه ما سبق ذِكرُه في بيت امرئ القيس المنكوب بنكبة الأمة المستهينة!

(٢) وقد عرض لذلك الموضوع عرضاً جيداً الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة، في كتابه **بحوث في الاستشراق واللغة**، دار البشير ومؤسسة الرسالة/ عمان ـ الأردن، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

على أن الذي أحبّ أن أقف عنده هو أن «بعض المستشرقين قد سعى إلى إثبات الفروق الكافية للبرهنة على أن ماضي العربية الفصحى يختلف عن حاضرها»[١].. فهذا هو الذي حرَّكني لكتابة هذا البحث الموجز. فقد خُدع كثير من الناس بهذه القضية.. قضية «التطور اللغوي» و«اللغة المعاصرة»، وظن بعضهم ـ بل أيقن! ـ أن هذه القرونَ المتطاولةَ التي مرَّت على لغتنا العربية قد تَحَيَّفَتْها، وغيَّرتْ منها الطَّعمَ واللونَ والرائحة! وأن هذا الذي بين أيدينا من اللغة المعاصرة إنما هو شيءٌ آخرُ مختلِفٌ عن اللغة القديمة «الكلاسيكية» كما يقولون! فهما لغتان.. يتفقان في الشكل والرسم، ثم يمضي كلٌّ في طريقه، على ما قال الشاعر:

أما الخِيامُ؛ فإنها كخِيامهم وأرى دِيارَ الحيِّ غيرَ دِيارِها![٢]

وكان أخطرَ ما يقال في هذه القضية أن لغتنا العربية لغةُ بَدو وبَداوة، وأنها لغةٌ رَعَويَّة.. فإن «الرعاية» مأخوذة من «رَعْى الغنم»، و«السياسة» من «ساس الغنم» أيضاً، والفعل «باء» بمعنى رجع، إنما هو من «الـمَـبَاءَة» وهو المكان الذي تُناخ فيه الإبل. هكذا سمعت ذلك الكلام من أستاذ جامعي كبير، بحضور نفر من الأساتذة والطلاب!

---

(١) راجع المرجع السابق، ص٣٣٠.. يقول الدكتور عمايرة: «... بيد أن مجمل ما قالوه لا يتجاوز أمثلةً يسيرة. على أن هذه الأمثلة لا تتجاوز ـ في جُلِّها ـ أشكالَ الائتلاف اللغوي القديم الذي تسمح به اللغة أصلاً».

(٢) رواية البيت الشهيرة، والمثبتة: وأرى نساءَ الحي غير نسائها. ولم أجد رواية الطناحي هذه. وهو من شعر أبي بكر الشِّبْلي (٢٤٧ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٦١ ـ ٩٥٥م)، الشاعر المتصوف الكبير. وأقدم من وجدته ينسبه إليه هو ابن عساكر في **تاريخ دمشق**: ٦٦/ ٦٧. ولم يؤكِّد جامع ديوان **الشِّبْلي** نسبة البيت إليه، بل أورده فيما تَـمَثَّل به: **ديوان أبي بكر الشِّبْلي**، جمعه وحققه د. كامل مصطفى الشيبيي، ساعد في طبعه المجمع العلمي العراقي/ بغداد، ط ١/ ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م، ص ١٥٨. [أحمد].

[مقاصدُ عشَرة تَحكم هذا البحث وتُوجِّهه]

وبعد..

فإن العنوان الذي اخترته لهذا البحث هو «لغتُنا المعاصرة.. والثقةُ الغائبة».

وبَدْءةَ ذي بَدْءٍ.. فإني أحب أن أوضح الأمور والمقاصد التي تحكم هذا البحث وتوجِّهه:

أولاً: هذا البحث يتجه إلى القارئ العام، وبخاصة طلبةُ العربية الشُّداة المبتدِئون، من مُعيدي الجامعات. فإلى هؤلاء، ومن على شاكلتهم، يُساق الحديث.

ثانياً: هذا البحث قائمٌ على الوَجازة والاختصار، والتعامل مع النصوص، دون الدخول في مَتاهات التحليل والتنظير والمقارَنات.

ثالثاً: يتغيَّا هذا البحث غايةً واضحةً محددةً، هي إثبات أن هذه اللغة العربية المعاصرة المكتوبة لم تبتعد عن العربيةِ الأولى التي حملها الشعرُ الجاهلي والقرآنُ الكريم، واللغةِ التي سُجِّلت بها معارفُنا وعلومُنا.. في مختلِف الفنون والآداب وألوان الحضارة.

رابعاً: يثبت هذا البحث أن كثيراً من صور الانحرافات في لغتنا المعاصرة عن جادَّة الصواب اللغوي؛ صوتاً وصرفاً ونحواً ودلالة، لها جذورٌ قديمة في لغات القبائل العربية (أي «لَهَجاتها»)، وليس هذا تسويغاً للخطأ، ولكنه تحقيق لكلمة الأصمعي: «من عرف كلام العرب؛ لم يكد يُلحِّنُ أحداً»[١].

خامساً: يؤكد البحث أن بعض الأخطاء اللغوية الحادَّة التي لا سبيل إلى إجازتها، والتي تأتي في لغتنا المعاصرة إنما هي أخطاءٌ قديمة متوارَثة، وليست أخطاءً حديثةً ناشئةً عن الاتصال الثقافي بين العالم العربي والحضارة الأوروبية (كما يرى

---

(١) سبق (ص ١١٠، ١١١) كلامٌ حولها، وسيلي أيضاً بإذن الله (ص ٢٩٦، ٢٩٧). [أحمد].

الدكتور لويس عوض ومَنْ لَفَّ لَفَّه).

سادساً: يقف البحث وَقفةً عند الزعم بأن هناك ألفاظاً قِبطيةً في عربيتنا المعاصرة، وبخاصة في البيئة اللغوية المصرية.

سابعاً: يقف البحث أيضاً وَقفةً عند اللغة المنطوقة التي يراد بها في غالب الأمر «العامِّيَّة»، ويشير إلى أن للُّغة العامِّيَّة مستويين، يُقبَل أحدُهما ويُرفَض الآخر.

ثامناً: يعلم الباحث ـ علمَ اليقين ـ أن هذه القضايا التي يناقشها في قضية التطور اللغوي واللغة المعاصرة، قد عالجها من قبله مَن هم أعلى منه قَدَماً، وأرسخُ ذِهْناً، وأكثرُ جَمْعاً. ولكن الجديد عند الباحث هي تلك الشواهدُ التي انتزعها من كتب العربية المختلِفة في علومها وفنونها المتنوعة[1]. وقد كان من أوجه القصور في دراساتنا اللغوية التعويلُ على كتب اللغة والنحو وحدها. والباحث يرى ـ في كثير مما كَتَب ـ أن مكتبتنا العربية كتابٌ واحد، وأنه ليس بالمعاجم وحدها تحيا اللغة. وسيظهر هذا ـ إن شاء الله ـ بوضوح في تلك التراكيب العربية التي تَشيع في عصرنا، ويُظنُّ أنها مما ولَّده أهلُ زماننا توليداً.

تاسعاً: يُنبِّه الباحث إلى أن معظم النماذج التي يقدِّمها لتأكيد الثقة باللغة المعاصرة (أصواتاً، وصرفاً، ونحواً، ودِلالةً) إنما هي منتزَعةٌ من البيئة اللغوية المصرية. وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن البيئة اللغوية المصرية من أكثر البيئات اللغوية التي تعرَّضت لِشُبَه البُعْد عن العربية التراثية.

---

(١) يرجع هذا إلى أن الباحث قد واتته ظروفٌ حسَنةٌ (بغير حَولٍ منه ولا قوَّة.. وإنما هو فضل الله وحده)، حين اشتغل بالعلم منذ طَراءة الصِّبا وأوائل الشباب، حيث إنه التمس رِزقَه في نَسْخ المخطوطات العربية، فنسخ آلاف الصفحات. ثم مضى في ذلك الطريق التراثي الطويل: ناسخاً ومُفِهْرِساً، وجامعاً لصور المخطوطات. ثم اشتغل بتحقيق النصوص ونشرها في كثير من فروع العربية: في اللغة والنحو، والتاريخ والتراجم الموسوعية. ثم تجمَّعت له من وراء ذلك خِبْراتٌ واسعةٌ جاءته من مجالسة كبار أهل العلم.. فجالَسَهُم، وشافَهَهُم، وتلقَّى عنهم، وبعض ما تلقَّاه منهم مما لا يوجد في كتاب.

وإن كانت البيئات اللغوية في البلدان العربية تتشابه في مظاهرَ كثيرةٍ من الخصائص اللهجية، كالذي نراه مثلاً من اتفاق المصريين والعراقيين الآن في كسر التاء والنون في أول الفعل المضارع، مثل «يِكْتب» و«نِكْتب»، وعدم فكِّ الحرف المشدَّد عند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك، نحو: «شَدِّيت» و«عَدِّيت»، بدلاً من: «شَدَدْتُ» و«عَدَدْتُ»(١). وكذلك اتفاق المصريين والمغاربة في نطق بعض صور حرف «الثاء» «تاءً».

عاشراً: إذا كان الباحث قد أقام بحثه هذا على تأكيد الثقة باللغة العربية المعاصرة، وعدم تجافيها عن الموروث اللغوي إلا قليلاً؛ فإنه يسجِّل بعضَ عيوب هذه اللغة المعاصرة.. وسيأتي هذا في حينه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وبذلك يكون عَمُود الصورة لهذا البحث الموجز قد وَضَح تماماً.

فلنبدأ فيه.. مستعينين بالله وحده، طالبين منه التوفيقَ والهداية.

ـ لغتُنا المعاصِرةُ.. والانحرافاتُ الصوتية [أمثلةٌ ونماذج]

لعلَّ هذه الظاهرة هي أبرز ما تُرمَى به لغتُنا المعاصرة.

وهذه الظاهرة أكثر ما تُرَى في اللغة المنطوقة، وهي تتصل بضبط الأبنية (أبنية الأسماء والأفعال)، والإدغام، والتخفيف والتشديد، والتذكير والتأنيث، وإبدال حرفٍ مكانَ حرف.

فأما ما يتصل بضبط الأبنية..

ـ فمنه أن المصريين المعاصرين يميلون إلى الكَسْر في بعض أبنية الأفعال والأسماء والمصادر والجموع، فيكسِرون أول الفعل المضارع في مثل: «تِكْتِب» و«يِكْتِب»، و«نِكْتِب».

---

(١) انظر: **دراسة اللهجات العربية القديمة**، للدكتور داوود سَلُّوم، ص ١٣٦، ١٣٧، كلية الآداب، جامعة بغداد، نشر عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية/ بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

وتسمَّى هذه الظاهرة «تَلْتلَة بَهْرَاء». و«بَهْرَاء»: قبيلة من «حِمْـيَر»، تسكن في شَمال شبه جزيرة العرب. وقد نطقت بهذه اللهجة عدّة قبائل عربية[١].

ويلاحظ أن كسر أوائل الفعل المضارع ليس مما ينفرد به المصريون، بل يشاركهم فيه الآن أهلُ نجدٍ في قلب المملكة العربية السعودية، وأهلُ العراق. وذلك أثر من آثار مَيْل القبائل البدوية إلى الكَسر[٢].

وكذلك يكسرون سين «يوسِف» ونون «يونِس»، وهو صحيح فصيح. فإن سين «يوسف» ونون «يونس» مُثلَّثة، تُضبَط وتُنطَق بالحركات الثلاث، الفتح والضم والكسر[٣].

ويكسرون أيضا الكاف من «كِلْمة»، وهو صحيح.. قال ابن مالك في **ألفيته**:

وكِـلْمـةٌ بها كـلامٌ قـد يُــؤَمّْ

وفي الكلمة ثلاثُ لغات ـ أي «لهجات» ـ: «كَلِمة» (بفتح الكاف وكسر اللام)، وهي الفصحى، ولغة أهل الحجاز. و«كِلْمة» (بكسر الكاف وسكون اللام). و«كَلْمة» (بفتح الكاف وسكون اللام). وهما لغة تميم[٤].

---

(١) لا أريد التطويل بذكر هذه القبائل. وإذا أردت أن تعرفها؛ فارجع إلى: **مجالس ثعلب**، ص٢٨١. و: **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة، ص٣٩. و: **الصاحبي**، لابن فارس، ص٣٤. و: **كتاب الشعر**، لأبي علي الفارسي، ص١٩٤. و: **الخصائص**، لابن جِنِّي، ٢/ ١١. و: **أمالي ابن الشجري**، ١/ ١٧٠. ثم انظر: **اللهجات العربية في التراث**، للدكتور أحمد علم الدين الجندي، ص٣٨٨.

(٢) راجع: **اللهجات في الكتاب لسيبويه**، للدكتوره صالحة الغنيم ص١٦٢، جامعة أم القرى/ مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

و: **دراسة اللهجات العربية القديمة**، للدكتور داؤود سلوم، المتقدم قريباً.

(٣) راجع: **إكمال الإعلام بتثليث الكلام**، لابن مالك، ١/ ٢٠، تحقيق الدكتور سعد الغامدي، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م. وانظر: **لسان العرب** (أنس ـ أسن).

(٤) **شذور الذهب**، لابن هشام، ص١١.

وكذلك يكسرون التاء من «تِرْكَة» وهو صحيح. وفي هذه الكلمة ثلاثُ لغات أيضاً: «تَرْكة» (بفتح التاء وسكون الراء). و«تَرِكة» (بفتح التاء وكسر الراء) وهي الشائعة في الفصحى. و«تِرْكة» (بكسر التاء وسكون الراء)(١).

ويكسرون العين في «العِيون» فيقولون: «مَجْرَى العِيون» و«طبيب العِيون». و«مَجْرَى العِيون»: هو هذا الحيّ المعروف بـ«فسطاط مصر». والأصل الضمّ، ولكن الكسر صحيح أيضاً. وبه قرأ ابن كثير وابن ذَكْوان وشُعْبة وحَمزة والكِسائي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥](٢).

ويكسرون أوائل «البِيوت» و«الشِّيوخ» و«الـجِيُوب». وعلى لغتهم جاءت القراءات القرآنية الصحيحة المتواترة عن سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ(٣).

ويكسرون نون «النِّمْر»، هذا المفترس، ويسكِّنون مِيمَه. وذلك لغةٌ فيه، والأصل: «النَّمِر»، بفتحٍ بعده كَسر.

ويقولون: «اللِعْب»، بكسر اللام وسكون العين. وهو صحيح، مثل اللَعِب (بفتح اللام وكسر العين) تماماً.

ـ وفي لغتنا المصرية المعاصرة يضمُّون فاء «الفُمّ» ويشددون ميمَه، فيقولون: «اطْعِمْ الفُمّ تِسْتِحي العِين». ويقولون أيضاً: «لولاكْ يا كُمِّي.. ما كَلْت يا فُمِّي».

---

(١) المصباح المنير، للفيومي، مادة «ترك». و: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ١/ ١٨٨.

(٢) راجع الموضع السابق [أظن أن هذا سهوٌ من الطناحي.. فلم يسبق له في هذا البحث نقلٌ عن البحر المحيط. أحمد] من البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٤٥٦. و: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ٢/ ٢٢٦.

(٣) الموضع السابق من النشر. و: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للدمياطي، ١/ ٤٣٢. و: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسَّمين الحلبي، ٧/ ١٦١.

و «الفَمُ» مفتوحُ الفاء مخفَّفُ الميم، ولكنه جاء أيضاً في الفصيح بالضم والتشديد.. قال العُمَاني الراجِز (من شعراء الدولة العباسية، في أيام الرشيد)، ونُسب لـجَرير وللعَجَّاج:

يـا ليتَهـا قـد خَـرَجَتْ مِـن فُمِّـهْ(١)

فضَمَّ الفاءَ وشَدَّد الميم.

ـ يَقلِب المصريون اللامَ ميماً، في قولهم «امْبارِح» مكان «البارِح»، وهي كلمة مقطوعة من «البارحة».

وقَلْبُ لام التعريف ميماً لهجةٌ عربيةٌ قديمة، تُسمَّى «الطَّمْطَمانِيَّة» كقولك مثلاً: «طاب امهواء» و«صفا امجوّ».. تريد: «طاب الهواء»، و«صفا الجوّ». وتُعْزَى هذه الظاهرة إلى حِمْيَر، وقبائل أخرى تسكن جنوب اليمن.

وقد نطق بهذه اللهجة أفصح العرب سيدنا محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ، فيما رواه كعب بن عاصم الأشعري ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ليس من امبرِ امصيامُ في امسفر»(٢)، أي «ليس من البّر الصيامُ في السَّفر». وروى عنه

---

(١) **إصلاح المنطق**، لابن السِّكِّيت، ص٨٤. و: **لسان العرب** «فمم ـ فوه». و: **أمالي ابن الشجري**، ٢/ ٢٢٩.

(٢) **مسند أحمد بن حنبل**، ٥/ ٤٣٤. و: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٣/ ٤٢. و: **شرح الكافية الشافية**، لابن مالك، ص١٦٤.

[وقال السيوطي في جمع الجوامع: «رجال أحمد رجال الصحيح». وحكم بشذوذ هذا اللفظ، المقول إنه على لغة بعض أهل اليمن (الأشعريين)، الألبانيُّ وكتب حوله تعليقاً مفيداً: **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف/ الرياض، ط٢/ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م، ٣/ ٢٦٤، ٢٦٥ (الحديث رقم ١١٣٠). والشاذ في اصطلاح أهل علوم الحديث: ما خالف فيه الثقة من هو أوثق منه. أما لفظ «ليس من البرّ الصيامُ في السَّفر»؛ فقد نصَّ على تواتره الـمُناوي والكَـتَّاني. أحمد].

أيضاً ـ ﷺ ـ أنه قال: «مَن زَنَى من امْبكر؛ فاصْقَعُوه مائة جَلْدة»[١].

وقد جاءت هذه اللغة أيضاً في قول أبي هريرة، وقد دخل على عثمان وهو محصُور، فقال: «طاب امْضَرْبُ»[٢] يريد: «طاب الضَّرْبُ»، أي هذا أوانُ الضرب والقتال.

قلت: ولا زالت هذه اللغة باقية إلى اليوم في مناطقَ من المملكة العربية السعودية[٣].

ـ يحذف المصريون اللام والألف من «علَى» الجارَّة، إذا وَلِيَـها ساكن، فيقولون مثلاً: «ضَع الشيء الفلاني عَ الباب»[٤].. يريدون: «على الباب»، ويقولون: «شُفتُه عَ الشَّاطِئ»، و«تعالَ نُعُوم عَ الـمَـيَّه»[٥].

---

(١) **النهاية**، الموضع السابق.

[اصْقَعُوه: اضْرِبوه. والحديث لم يذكره إلا أهلُ اللغة (وأقدمهم فيما وقفت عليه أبوسليمان الـخَطَّابي، المتوفَّى ٣٨٨ هـ، في **غريب الحديث**)، من كتاب النبي ـ ﷺ ـ إلى وائل بن حُجْر. ولم أجده فيما راجعتُ من كتب الحديث، حتى كتب الضعيف منها! أحمد].

(٢) **كتاب الرِّدَّة والفُتوح**، لسيف بن عمر التميمي، تحقيق الدكتور قاسم السامرائي، ليدن ـ هولندا، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) وأيضاً في مناطق من اليمن، موطن اللغة الأصلي. [أحمد].

(٤) رُسمت (وما سيليها، من أمثلة حذف اللام والألف من «علىَ» الجارَّة إذا وَلِيَـها ساكن) في المطبوعة: «عَلْباب». وأفضِّل رسمَها كلِّها على هذا المثال: «عَ الباب»؛ فهو رسمٌ أوضح، وأبعد عن الاشتباه، وأكثر استخداماً في هذا العصر، لا سيما من كُتَّاب شعر العامِّيَّة في مصر (على الأقل). وهكذا رسمها إحسان عباس في بيت قَطَرِيٍّ بن الفُجَاءة، في: **شعر الخوارج**، جمع وتقديم إحسان عباس، دار الثقافة/ بيروت، ط٢/ ١٩٧٤، ص١٠٦. مع التنويه إلى أن رواية إحسان عباس هكذا:

غَداةَ طَفَتْ عَ الماءِ بَكْرُ بنُ وائلٍ وأُلَّافِـها.. من حِميرٍ وسَليـمِ

وعُجْنا صُدُورَ الخَيلِ نحو تَميمِ ومال الحجازيون نحو بلادهم [أحمد].

(٥) حكى هذين الاستعمالين الدكتور أحمد علَم الدين الجندي، سماعاً.. راجع كتابه: **اللهجات العربية في التراث**، ص٧٠٣.

وهي لغة قديمة لقبيلة بني الحارث بن كَعب، يقولون: «عَ الماءِ بنو فلان».. يريدون: «على الماء».

ومما جاء منه في الشعر قول قَطَرِيٍّ بن الفُجَاءة (٧٨هـ):

غَداةَ طَفَتْ عَ الماءِ بَكْرُ بنُ وائلٍ وعُجْنـا صُدُورَ الخَيلِ نحو تَمِيمِ[١]

يريد: على الماء.

وقول الفَرَزْدَق:

وما سُبِق القَيْسيُّ من ضَعفِ حِيلةٍ ولكـنْ طفَتْ عَ الماءِ قُلْفةُ خالدِ![٢]

ـ من أبرز الظواهر الصوتية في لغة أهل مصر الآن قلبُ القاف همزة، فيقولون: «أُلْت» مكان «قُلْت»، و«أريب» موضع «قريب».. وهكذا.

ويبدو أن هذه الظاهرة قديمة عند بعض المصريين، فقد وجدتها في ترجمة جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز (الحجازي، ثم المليجي، المصري) المولود سنة ٥٥٠هـ، والمتوفى سنة ٦٢٣هـ.. فقد قال الحافظ الذهبي في ترجمته: «وكان شديد الأُدْمة[٣]، يَلثَغ بالقاف همزةً»[٤].

---

(١) من قطعة أوردها المبرِّد في **الكامل**، ٣/ ١٢٢٦ (نشرة د. محمد الدالي، وهي نسخة الطناحي المعتمدة في هذا البحث). [أحمد].

(٢) **الكامل**، للمبرِّد، ص١٢٢٦. و: **أمالي ابن الشجري**، ١/ ١٤٥.

(٣) الأُدْمة: لونٌ مُشْرَبٌ سواداً أو بياضاً. وقيل: هو في الناس: السُّمْرة الشديدة. وفي الظِّباء والإبل: البياض. [أحمد].

(٤) **سير أعلام النبلاء**، ٢٢/ ٢٥٧. و«مليج» من قرى المنوفية الآن. ومن الفوائد هنا للمناسبة أن الهمزة قد أبدلت قافاً، على العكس مما نحن فيه، وهو ما حكاه ابن فارس من قولهم: «الناس زهاق مائة» أي زُهاء (**مقاييس اللغة**، ٣/ ٣٣).

لكن القاف ليست تنطق همزةً دائماً في عامية أهل مصر، فهناك ألفاظ اكتسبت مَناعةً وحَصانةً ثقافيةً، مثل «القاهرة» فلا ينطقها أحدٌ «الآهِرة»(١). غاية ما يمكن أن ينحرف بها إلى الكاف، لقُرب المخرج، فيقول: الكاهرة.

-ينطق المصريون الظاء ضاداً، فيقولون: «ضَهْري بِيوجَعْني» يريدون: «ظَهري».

وهي لغة قديمة.. قال المفضَّل: من العرب من يبدل الظاء ضاداً، فيقولون: قد اشتكى «ضهري» بمعنى «ظهري».

ومنهم من يبدل الضاد ظاء، فيقول: «قد عَظَّت الحربُ بني تميم» (٢). وهذه الصورة الأخيرة شائعة الآن في المملكة العربية السعودية.

والفرق بين الضاد والظاء، كتابةً ونطقاً، من الظواهر اللغوية التي اهتم بها اللغويون قديماً وحديثاً. قال الصاحب بن عبَّاد (وهو من أوائل المؤلفين في هذه الظاهرة): «... إذْ كانا حرفين قد اعتاصَ معرفتُها على عامَّة الكُتَّاب، لتقارُبِ أجناسهما في المسامع، وإشكالِ أصل تأسيس كلِّ واحدٍ منهما، والتباسِ حقيقة كتابتهما» (٣).

---

(١) ومن عجَبٍ أن هذه القاف الـمُحَالةَ همزةً تُسمَّى «القاف القاهرية»! وأما عامِّيَّة إخواننا في لبنان؛ فصارمةٌ في تحويل كل قافٍ (حتى قاف «القاهرة»!) همزةً! [أحمد].

(٢) **تهذيب اللغة**، لأبي منصور الأزهري ١٤/ ٣٧٨.

(٣) **الفرق بين الضاد والظاء**، للصاحب بن عبَّاد، نقلًا عن مقدمة تحقيق كتاب **الاعتماد في نظائر الظاء والضاد**، لابن مالك، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن.

[يفسِّر البعضُ تسمية لغتنا الشريف «لغة الضاد» بالجدل الكبير، والقديم، المتصل بمخرج حرف الضاد والتمييز بينه وبين الظاء!

ومما يتصل بالاختلاف في مخرج الضاد الفتنةُ التي تثور بين حينٍ وآخر في مصر وبعض البلاد العربية، من إبطال بعض الغلاة صلواتِ من يقرأ في الفاتحة «ولا الضالين» بغير ما يرونه تحقيقاً لمخرج الضاد الأدنَى إلى الظاء بحسَبهم، وتحريم الصلاة خلفَهم. وقد عاصرتُ إحدى هذه الفِتَن في القاهرة أوائلَ التسعينيات من القرن الميلادي الفائت، وكانت قد شغلتْ الناس والخطباء أسابيعَ عدداً! وبخصوص إحدى موجات هذه الفتنة، وتوثيق عمل لجنة خاصة بها شكَّلتها وزارة الأوقاف المصرية (سنة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م) =

-يَشيع في نُطق المصريين الآن نُطقُ الذال دالاً، فيقولون: «أَخَدْ»، مكان «أَخَذَ»، و«الحِدِقْ يِفْهَم»، بدلاً من: «الحَذِق يَفْهَم».

وهي ظاهرة لَهْجية قديمة، تُعزَى إلى قبيلة «رَبيعة»، فقد كانوا يُبدلون الذال دالاً في بعض الألفاظ[١].

والمعروف أن «بغداد» يقال فيها: «بغداذ»، بنَقْط الأخيرة[٢].

وإذا كان المصريون يقولون «دَهَب»، لهذا الذي يُتَزَيَّن به، مكان «ذَهَب»، ويقولون: «أبو الدَّهَب»، موضع «أبو الذَّهَب»، و«إبراهيم مَدْكور»، بدل «مَذْكور».. فإنهم إذا قالوا: «ذهب إلى عمله»؛ لا ينطقونها إلا بالذال، وإذا قالوا: «فلان مذكورٌ بالخير»؛ لا يقولونه إلا بالذال. وهذا أيضاً من المواضع التي اكتسبت حصانةً ضد التغيير!

-يقلب المصريون الهمزة ياءً، ويُدْغِمونها في الياء التي بعدها، فيقولون: «الرَّيِّس» مكان «الرئيس»، ويقولون: «ربنا يخَلِّيك لِنا يا رَيِّس».

= من كبار علماء الإقراء في مصر وقتها، انظر: **الجامع في علم التجويد**، نبيل عبدالحميد علي، مطبعة الفاروق الحديثة/ القاهرة، د. ت.

وقد اقتضتْ هذه الفتنةُ بعض أهل العلم بإقراء القرآن في عصورٍ مختلفة، أن يكتبوا فيها وينبهوا إليها، مثلما صنع ابن الجَزَريّ في **النشر**، وكثير من الفقهاء في كتب الفقه في أبواب الصلاة، وحكم صلاة من يخلط بين الضاد والظاء.

وأفردها بالتصنيف من المحدَثين: د. أشرف محمد فؤاد طلعت، في كتابه: **إعلام السادة النُّجَباء أنه لا تشابه بين الضاد والظاء: دراسةٌ تجويديةٌ لُغويةٌ تاريخيةٌ أصولية**. وخالد بن مأمون آل محسوبي، في رسالته: **الظائيون الجُدُد! ردود على شُبُهات**. وثمة مبحث جيد للدكتور غانم قدوري الحمد حول الموضوع في كتابه **أبحاث في علم التجويد**. وغير هذا كثير. أحمد].

(١) **تاريخ اللغة العربية في مصر**، للدكتور أحمد مختار عمر، ص١٣٢.

(٢) **معجم ما استَعْجَم**، للبَكْري.

ويظن بعض الناس أنهم قد أغرقوا في الخطأ واللَحن. وهو نطقٌ فصيحٌ قديم، وقد جاء في شعر الكُمَيْت بن زيدٍ الأسَدي (١٢٦هـ)، وهو مِمَّن يُحتجُّ بشعره في قضايا اللغة والنحو.. قال يمدح محمد بن سليمان الهاشمي:

تَلْقَى الأمانَ على حِياضِ محمدٍ ... ثَـوْلاءُ مُخْـرِفـةٌ، وذِئْـبٌ أطْلَسُ
لا ذِي تَخافُ، ولا لهذا جُرْأةٌ ... تُهْدَى الرَّعِيَّةُ ما استقام الـرَّيِّـسُ[١]

ـ يقلب المصريون اللام نوناً في بعض الكلمات، فيقولون: «إسماعين»، مكان «إسماعيل».

وهي لهجة قديمة، ذكرها ابن السِّكِّيْت (٢٤٤هـ)، وأنشد شاهداً عليها:

قـالتْ،وكنتُ رجلاًفَـطِينـاْ: ... هـذالَـعَمْـرُ اللهِ إسرائـينـا![٢]

تريد: إسرائيل.

ـ ويقول بعضهم: «أعطني عِلْوانك»، و«الجواب بِتْعَرِف من عِلْوانه»، فيبدلون النون لاماً ـ عكس السابق ـ.

وهي لغة صحيحة، يقال: «عَنْوَنْتُ الكتاب» و«عَلْوَنْتُه»، و: «العُنوان» و«العُلوان»[٣].

وهنا فائدة أخرى، وهي أن العين في «العُنوان» حقُّها الضم، لكنها قد تُكْسَر في الفصيح، كما ينطقها المصريون الآن.

والعرب تبدل اللام من النون، يقول النابغة الذبياني:

---

(١) **التنبيه والإيضاح عما وقع في الصِّحاح**، لابن بَـرِّيّ، ٢/ ٢٧٥. والثَّوْلاء: النعجة. والـمُخْرِفة: التي لها خروف يتبعها.

(٢) **الإبدال**، لابن السِّكِّيت، ص٦٨. و: **المخصص**، لابن سِيْدَه، ١٣/ ٢٨٣.

(٣) **لسان العرب**، «علن ـ عنن».

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أسائلُها عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْعِ من أحدِ[١]

على أن أصله «أُصَيْلان»، فأُبدلت النون لاماً. وأصيلان: مُصغَّر جمع «أَصيل»، وهو الوقت المعروف في آخر النهار.

ـ ويقولون: «إيه معناة الكلام ده؟»، ويقول موَّال أدهم الشرقاوي:

مِنينَ اجيب ناسْ لِـمَعناةِ الكَلامْ يِـتْلُوه؟!

وهذا صحيح. قال أبوزيد الأنصاري (٢١٥هـ): «هذا في «معناة» ذاك، وفي «معناه»: سواءٌ». وقال أبوإبراهيم الفارابي اللغوي (٣٥٠هـ): «ومعنى الشيء، ومَعْناتُه: واحدٌ»[٢].

ـ يقلب عامَّةُ المصريين الآن الثاء تاءً في بعض الكلمات، فيقولون: «اتنين» و«تلاتة»، بدل «اثنين» و«ثلاثة». ويقولون: «الولدْ دَهْ غَتيت»، و«فيهْ غَتاتة»، أي: «غثاثة».

والثاء تقلب تاءً في الفصيح، وذلك في صيغة «افتعل» من «الثأر»، يقولون: «اتَّأر»، وأصلها: «اثتأر».. قال الـمُهَلْهِل بن رَبيعة (جاهليٌّ قديم):

فقتلاً بتقتيلٍ، وضَرْباً بضَرْبِكمُ جَزاءَ العُطاسِ! لا ينامُ مَن اتَّأَرْ![٣]

أي: لا ينام من أدرك ثأرَه[٤].

---

(١) ديوانه بشرح ابن السكيت، ص٢. و: شرح شواهد الشافية، للبغدادي، ص٤٨١، و: سر صناعة الإعراب، لابن جِنّي، ص٣٢١.

(٢) ديوان الأدب، ٤/ ٣٤.

(٣) الرواية في البيان والتبيين (٣/ ٣٢٠) والحيوان (٣/ ٤٧٦) والمعاني الكبير في أبيات المعاني (٦/ ١٠١٥):

فقتلاً بتقتيلٍ، وعَقْراً بعَقْركمُ جَزاءَ العُطاسِ! لا يموت من اتَّأر! [أحمد].

(٤) كتاب الشعر، لأبي علي الفارسي، ص٤٨٥. و: سر صناعة الإعراب، لابن جِنّي، ١/ ١٧٢. =

ومن أعجب ما وقفت عليه من موافقة لهجة المصريين الآن للموروث اللغوي القديم قولهم «اتَّـنَى» بمعنى «انْثَنى»! وقد وجدت ذلك في شعر جابر بن حُنَيّ التَّغْلَبِيّ[١]، وهو شاعر جاهلي، كان صديقاً لامرِىء القَيس.. قال:

تناولَـهُ بالرُّمـح، ثـم اتَّنَـى له فَخَـرَّ صريعـاً لليديـن وللفَمِ[٢]

قال أبومحمد الأنباري (٣٠٤هـ): «اتَّـنَى له، أراد: انثنى له، فأَدغم النون في الثاء، ثم أبدلها تاءً»[٣].

ويلاحظ أن الثاء تقلب تاءً الآن أيضاً في شمال إفريقيا، فيقول إخواننا في ليبيا: «التَّورة» مكان «الثَّورة». ويقول إخواننا في المغرب الأقصى: «تَمَّ» بمعنى «ثَمَّ»، ظرفَ مكان بمعنى «هنا» و«هناك».

ـ قاعدة الفعل المضعَّف أنه إذا أُسند إلى ضمائر الرفع المتحركة، يُفَكُّ إدغامه.. تقول في «شَدَّ» و«عَضَّ» و«قَصَّ»: «شَدَدْتُ» و«عَضِضْتُ» و«قَصَصْتُ».

لكننا نقـول في لغتنا المعاصرة المنطوقة والمكتوبة: «شَـدِّيتْ» و«عَـضِّيتْ» و«قَصِّيتْ».

= [ولعل الأقرب، والله أعلم، في معنى بيت الـمُهَلْهِل: لا ينام من طلَب ثأره وسعَى إليه. لا: مَن أدركه؛ إذْ يرتاح ـ غالباً ـ من أدرك ثأرَه. واقترح الأستاذ عبدالمنعم رمضان عليّ أن كلًّا من طالبِ الثأر ومُدْرِكِه لا ينام.. الأول: بحكم الطلَب، والثاني: بحكم أنه صار مَطلوباً من أولياء مقتوله! وربما لهذا قلتُ أنا: «غالباً»! أحمد].

(١) في النسبة إلى «تَغْلِب بنت وائل» (القبيلة العربية الشهيرة): تَغْلَبِيّ، بفتح اللام؛ استيحاشاً من توالي الكسْرتين مع ياء النسَب. وهو قول ابن السَّرَّاج. وكسر اللام هو الأصل، كما في **المصباح المنير**. أفاده في **تاج العروس**، مادة «غ ل ب». [أحمد].

(٢) من قصيدة مفضَّلية: **الـمُفَضَّليَّات**، المفضَّل الضَّبِّي، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف القاهرة، ط ٦/ ١٩٧٩، ص١٢ (القصيدة رقم ٤٣). [أحمد].

(٣) **شرح الـمُفَضَّليَّات**، ص٤٤١.

وقَلْبُ الحرف المشدَّد ياءً معروفٌ في اللهجات العربية القديمة، وقد أورد منه ابن جِنِّي ألفاظاً، ذكر منها: «قَصَّيْتُ أظفاري»(١).

ـ يضاف ضمير الرفع المتحرك إلى الفعل، محرَّكاً بالضم أو الفتح أو الكسر، فيقال: «الولد ضَرَبْتُه أنا»، و«ضَربْتَه أنتَ»، و«ضَرَبْتِه أنتِ».

لكننا نقول في لغتنا المعاصرة: «شِرَبْتِيه»، و«الأكلْ أَكَلْتِيه».. فنَزِيدُ ياءً على ضمير المخاطبة المكسور.

وهو عربي صحيح. قال إمام النحاة سِيبَوَيْـه: «وحدَّثَني الخليلُ أن ناساً يقولون: ضَربْتِيه، فيلحقون الياء. وهذه قليلة»(٢).

ـ نستعمل في لغتنا المعاصرة «بَسْ» بمعنى «يَكفي» أو «كِفاية».

وقد حكى السيوطي أنها في كتاب **العين** للخليل بن أحمد بمعنى «حَسْب»(٣). والـحَسْب (بفتح الحاء وسكون السين): معناه الكفاية.

ـ تقول اللغة المعاصرة: «زوجتي» بالتاء.

ويُخَطِّىء ذلك بعضُهم، محتجًا بلغة القرآن الكريم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥، والأعراف: ١٩].

والحق أن استعمال «زوجة» ـ بالتاء ـ في الأنثى، وإن لم يأتِ في القرآن الكريم،

---

(١) **الخصائص**، ٢/ ٩٠.

(٢) **الكتاب**، لسيبويه، ٤/ ٢٠٠. و: **مجالس ثعلب**، ١/ ١١٧.

(٣) **المزهر في علوم اللغة**، ١/ ٣٠٩.

[يقول الخليل بن أحمد في **العين** (تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامُرَّائي، د. ب): «بَس: زَجرٌ للحمار، تقول منه: بَس بَس» (٧/ ٢٠٤)، وفي **اللسان**: زجرٌ للإبل أيضاً.

ويقول الخليل في موضع آخر: «ويقال: ضُرِب فلانٌ فما قال حَسٍّ ولا بَسٍّ. ومنهم من لا ينوِّن ويَجُرُّ فيقول: حَسِّ. ومنهم من يكسر الحاء» (٣/ ١٥)، وفي **اللسان** كسرُ باء «بس» أيضاً. أحمد].

صحيحٌ فصيح[1]، وبخاصة في لغة تَميم، ....

(١) ها هنا مسألةٌ مهمة..

لا يحسُن ـ فيما أحسِب ـ الاستشهاد على نفي ضبطٍ أو تصريفٍ أو أسلوبٍ لُغويًّا بالكتاب العزيز..

ذلك.. أن من المستقر لدى العلماء بالقرآن المجيد أنه لم يستوعب لغاتِ العرب، فلا يعني عدمُ ورود لغةٍ ـ ضبطاً أو تصريفاً أو أسلوباً ـ عدمَ صحة ما يُظَنُّ عدمُه، بله.. النصَّ على عدمِ وجوده! غايةُ ما في ورود ضبطٍ أو تصريفٍ أو أسلوبٍ في القرآن المجيد أنه عالي الفصاحة، دون وصف غيره بأنه نازلُ الفصاحة، فضلاً عن عدم فصاحته أصلاً.

فإذا أضفتَ إلى هذا الأصل أن كثيراً مما يُوصَف بأنه «الأفصح» أو «الأصح» (فضلاً عن أنه «الفصيح» أو «الصحيح») إنما يجري على رواية حفصٍ عن عاصمٍ ـ على الأغلب ـ، دون انتباهٍ إلى أن ما يُوصَف بأنه «مقابل الأفصح» (فضلاً عن أنه «الضعيف» أو «الباطل») قد يكون مقروءاً به في قراءةٍ أخرى متواترةٍ أو صحيحة! وقد مسَّ الطناحي طَرَفاً من هذه المسألة في مقال «هذه النقطة.. وقضية التصحيف والتحريف»: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، ٢/ ٤٠٤ : ٤٠٧.

ولْأضرب على هذا مثَلاً واحداً شاع وذاع، حتى من بعض كبار أهل زماننا!

ذلك أن كثيرين يقولون في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰٓ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة، ٤٠].. يقولون: إن الوجه «الصحيح» و«البليغ» هو رفعُ «وكلمةُ الله» على الاستئناف، وعدم نصبها عطفاً على «وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى».ويزيدون: «لو قال الله ـ تعالى ـ: «وكلمةَ الله هي العليا»؛ لأوهم أن كلمته ـ تعالى ـ كانت سُفْلَى، ثم جعلها ـ سبحانه ـ عليا. وهذا لا يليق».

أقول: الحق أن هذا القطْعَ كلَّه هو الذي لا يليق!

فباختصارٍ شديد: قرأ يعقوبُ الـحَضْرميُّ البصريّ (أحدُ القُرَّاء الثلاثة الـمُكْمِلين العشَرة، ١١٧ ـ ٢٠٥ هـ) بالوجه الذي لا «يستسيغه» هؤلاء، ويجعلونه مقابل «الصحيح» و«البليغ»! فهل ننفي قرآنيةَ قراءةِ يعقوب؛ لأنهم أوجبوا تفسير الآية على قراءة غيره وحدها؟!

والخلاصة هنا: هذا الذي يفضِّله هؤلاء وجهٌ «بلاغِيٌّ»، قد يَسوغُ في قراءة حفصٍ عن عاصمٍ ومن وافقه، لكن لا يجوز القطعُ بعدم بلاغة غيره حتى وإن لم يَـرِد في قراءةٍ أخرى متواترةٍ أو حتى صحيحة. أما إن ورد غير هذا (أي الوجهَ المدَّعاةَ بلاغتُه دون سواه) في قراءةٍ صحيحةٍ (فضلاً عن أن تكون متواترةً)؛ فقبيحٌ مثلُ هذا الصنيع!

ولولا الإطالة هنا؛ لذكرتُ نماذجَ أخرى مما تجري على ألسُن أنصار «قل ولا تقل» وأقلامهم! ولكن أكتفي بهذا الأصل للتأمل. ولعل المثال الذي ذكره الطناحي هنا هو أيضاً كافٍ ودالٌّ في هذا السياق. وقد

وعليه قول عَبْدَة بن الطيِّب[1] (مُخَضْرَم):

فبَكى بناتي، شَجْوَهُنَّ، وزوجتي والأقربـون إليَّ.. ثم تَصدَّعوا![2]

وقال الراجز:

مِنْ مَنْزِلي قد أخرجَتْنِي زوجتي تَهِرُّ في وجهي هَريرَ الكَلْبَةِ[3]

ـ ويتصل بصحة استعمال «زوجتي» مكان «زوجي» قولُهم في اللغة المعاصرة: «مَرَهْ» و«مَرَتُه».. أي «امرأة» و«امرأته».

وهي صحيحة فصيحة، وتجري على قاعدة تخفيف الهمزة بحذفها ونقل حركتها

سبقت الإشارة، في تعليقاتي بالقسم الأول من هذا الكتاب (ص ١١٠، ١١١)، إلى تناول الطناحي قضية «التصويب اللغوي» وبعض ضوابطها في مقاله «التصحيحُ اللغوي وضرورةُ التحرِّي».

وخلاصةُ خلاصةِ المسألة: أن الأحوط أن يُكتفَى في تعيين العالي الفصاحة والبلاغة، مما ورد في لغة التنزيل وأسلوب بيانه، بجانب الإثبات.. دون النفي. بمعنى أن يختار المتأدِّبُ لنفسه ـ إن شاء ـ الاستخدامَ القرآني مما يتقن من قراءات القرآن المجيد. فإن لم يكن يُحسِن سوى قراءةٍ واحدة؛ كان داعي تَحَوُّطِه أعظم. وأن عليه ألا يجترِئَ على إبطال استخدام أو تضعيفه بمجرد عدم وجوده فيما يُحسِن من قراءةٍ، بل لا بُـدَّ ـ إن لم يكن ثَـمَّـةَ بُدٌّ !ـ من نصٍّ لأحد أئمة اللغة والبيان على الإبطال أو التضعيف.

وفي هذا الباب يَحسُن جدًّا إيرادُ كلام علمائنا الأثبات حول سَعة العربية، من نحو قولهم: «لغة العرب أوسع من أن يحاط بها، ولا نعلمه يحيط بلغة العرب إلا نبيٌّ!» (الشافعي)، و: «من توسَّع في كلام العرب لم يكد يُخطِّئ أحدًا» (الفَـرَّاء، وأبوعمرو بن العلاء)، و: «أنحَى الناس مَنْ لا يُخطِّئ أحداً» (ابن هشامٍ اللَخْميّ). واللغة في مثل هذه السياقات ليست متناً وحسْب، بل تدخل فيه الأبنية والتراكيب والأساليب.

وهذا كله بابٌ. وأما مسألة تخيُّر المرء لنفسه ما يراه الأعلى أو الأفصح؛ فبابٌ آخرُ وَسيعٌ.

والله تعالى أعلى وأعلم. [أحمد].

(١) هكذا. والصحيحُ أنه عَبْدَة ابن الطبيب، و قد أسلم وحسُن إسلامه. وكان أبوه من أطباء الجاهلية المشهورين.

(٢) **الـمُفَضَّليَّات**، ص١٤٨. و: **مجالس العلماء**، للزجَّاجي، ص١٩٥. و: **الخصائص**، ٣/ ٢٩٥. و: **اللهجات العربية في التراث**، ص٦٢٧.

(٣) المراجع السابقة، ما عدا **الـمُفَضَّليَّات**.

إلى الساكن قبلها[١]. وقد ذكرها أبوجعفر الطبري (٣١٠هـ) فقال: «تقول: هي زَوْجتُه، وزَوْجُه، ومَرَتُه»[٢].

وقال الراجز:

تقول عِرْسِي، وهْيَ لي في عَوْمَرَةْ: بئس امْرَءاً.. وإنني بِئْسَ الـمَرَةْ![٣]

ـ لغتنا المعاصرة والانحرافات النحوية [أمثلةٌ ونماذج]

أقام النحاة قواعدَهم على الكثرة والشيوع، وبقيت وراءَ ذلك مجموعةٌ من الاستعمالات النحوية التي خرجت على القاعدة العامة. وقد جاءت هذه التراكيب مسندةً إلى قبائل عربية بعينها، أو على ألسنة علماء مشهودٍ لهم بالعربية والفصاحة. وقد وصف النحاة الـمُقعِّدون هذه الاستعمالاتِ بـ«الشذوذ» أو «القِلَّة» أو «النَّدرة». ولم يكن وصفُها بـ«الشذوذ» ونحوِه صارفاً عنها، أو محقِّراً من شأنها. ولم يُقعِّد النحاة لهذا الذي «شذَّ» و«نَدَر» و«قَلَّ»، حتى لا تتضخَّم القواعد وتتشعَّب. وهم يريدون استقرار النظام النحوي واطِّراده. ولذلك.. جاءت هذه العبارة القديمة المحكَمة، في شأن «الشاذِّ» و«النادر» و«القليل»: «يُحفَظ، ولا يُقاس عليه».

وهذه أمثلةٌ يسيرةٌ مما تتجاوز فيه لغتُنا المعاصرةُ القاعدةَ النحويةَ النَّموذجية، مع التماس وجه صوابها من لهجات القبائل (أي لغاتها)، أو استعمالاتِ العلماء الفُصَحاء.

وأنبِّه إلى أن المقصود من طلب وَجْه الصواب لهذه الاستعمالات هو تأكيدُ عربيَّتِها، وأنها ليست وليدةَ «التطور» النحوي أو اللغوي، و«التأثر بإيقاع الحياة

(١) ونص عليها في **تاج العروس**، مادة «ج ر أ»، و«م ر أ». [أحمد].

(٢) **تهذيب الآثار** (مسند عمر بن الخطاب)، ١/ ٤٣٢.

(٣) **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، ٣/ ٣٢. والعَوْمَرة: الصِّياح والـجَلَبة.

السريع»، و«التأثر بالاتصال الأوروبي». وليس المراد تسويغَ الانحراف، أو تجاوزَ القاعدة الأساسية العامة.

ـ لعل من أبرز المخالفات النحوية في لغتنا المعاصرة: إلحاقَ الفعلِ علامةَ التثنية والجمع، مع ذِكر الفاعل الظاهر بعده، نحو قولهم: «ظلموني الناس».

وهذه لغة قديمة، تكلمت بها قبيلتا طَيِّىء وأَزدْ شَنُوءة، يقولون: ضرباني المحمَّدان، وضربوني المحمَّدون، وأعْرَضْنَ الغواني عنِّي[1].

وجاء على هذه اللغة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقوله ـ ﷺ ـ : «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار».

وقد ذكر النحاة أقوالاً ووجوهاً لإخراج هذا التركيب على سَنَن القواعد النحوية النَّموذجية.. فقالوا: إن الألف والواو والنون في هذا التركيب ضمائر رفع، وليست علامةً لحال الفاعل قبل أن يأتي. قال ابن مالك: «وهذا غير صحيح؛ لأن الأئمة المأخوذَ عنهم هذا الشأن متفقون على أن ذلك[2] لغةٌ لقومٍ مخصوصين من العرب.. فوجب تصديقهم في ذلك، كما نصدقهم في غيره»[3].

ـ يكثر في لغتنا المعاصرة ـ وفي مصر بوجه الخصوص ـ حذف نون الأفعال الخمسة من الفعل المضارع، من غير ناصب ولا جازم، فيقولون: «الرجال يِتْعبُوا» و: «الأولاد يِلْعبُوا». والوجه النحوي المأثور: «يتعبون»، «يلعبون». ولكن هذا صحيح، والحذف هنا للتخفيف، وقد جاء في لغة الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وهو مَن هو

---

(١) وهي المعروفة لدى النحاة بلغة «أكلوني البراغيث». وقد سبق لنا حولها تعليقٌ مسهبٌ بعض الشيء، ص١٩٢، ١٩٣. [أحمد].

(٢) يريد إلحاق علامات التثنية والجمع بنوعيه إلى الفعل، مع وجود الفاعل الظاهر.

(٣) **شرح الكافية الشافية**، ص٥٨٣. و: **اللهجات العربية في التراث**، ص٢٠٦.

في فصاحته والاحتجاج بكلامه في اللغة والنحو، جاء في كتاب **الرسالة**: «وقال نفرٌ من أصحاب النبي: «الأقراء» الحيض، فلا يُحِلُّوا المطلَّقةَ حتى تغتسلَ من الـحَيْضة الثالثة». وجاء في **الرسالة** أيضاً: «ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرَّةً ويتركونه أخرى، ويتفرقوا في بعض ما أخذوا به منهم»[١].

ولا ينبغي أن يُحمَل هذا على خطأ ناسخ مخطوطة **الرسالة**؛ لأن ناسخ هذه المخطوطة هو الربيع بن سليمان، صاحبُ الشافعي وتلميذُه، وعلى النسخة خطُّه سنة ٢٦٥هـ، وهي من أقدم النُّسخ المخطوطة في العالم، وتحتفظ بأصلها «دار الكتب المصرية».

ـ وفي لغة الشافعي أيضاً ما يشهد للغة المعاصرة..

فيكثر في لغتنا المنطوقة الآن حذف الحرف المصدري «أنْ» بين الفعلين.. فنحن نقول: «فلان يحِبّ ياكُل»، و«يعرَفْ يِقرأ»، و«يِفكَّرْ يِسافر».. ونحوَ ذلك.

ويُنكر بعض الناس هذا الاستعمال، ولكنه صحيح فصيح.. قال ابن الأثير: «وهي لغة فاشية في الحجاز، يقولون: «يُريد يَفعل»، أي «أن يفعل».. وما أكثر ما رأيتها واردةً في كلام الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ!»[٢].

ويشهد لذلك كلامُ الشافعي..

قال: «كما عليه يتعلَّم»، وقوله: «قبل تُكْمِلُ الصلاة»، وقوله: «قبلَ يحلُّ عليك».

والأصل في ذلك كله: «كما عليه أن يتعلم»، و: «قبل أن يُكمِلَ الصلاة»، و: «قبل أن يحلَّ عليك»[٣].

---

(١) **الرسالة**، للشافعي، ص٥٦٢، ٥٩٧، وانظر الكلام على لغة الشافعي في كتاب **المواهب الفتحية**، للشيخ حمزة فتح الله، ١/ ٥٤.

(٢) **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٢/ ٢٨٧.

(٣) **الرسالة**، صفحات ٤٩، ٢٦٥، ٥٨٢.

وقال أيضاً: «ودلَّ على أنها فرض على المصلِّي إذا كان يُحسِن يقرؤها»[١]. أي: «يُحسِن أن يقرأها».

وقد جاء ذلك أيضاً في شعر أبي الطيب المتنبي.. قال:

يا حادِيَيْ عِيرِها، وأحسَبُنِي أوجَدُ مَيْتاً قُبَيْل أَفقِدُها![٢]

أي: قُبيل أن أفقدها، وقال أيضاً:

أَقَـرَّ جِـلْـدِي بها عـليَّ فلا أَقْدِرُ حتى المماتِ أَجحَدُها[٣]

فهذه نماذج قليلة مما[٤] يشيع في لغتنا المعاصرة، ويظنه الناس مخالفاً لكلام العرب واستعمالاتها، وإنما هو ماضٍ في طريق العربية، آخذٌ ببعض وجوهها.

وأحبُّ أن أشير هنا إلى أن ما يجيء في لغتنا المنطوقة الآن من خطأ محضٍ (لا سبيل إلى تصويبه، أو التماسِ وجه الصحة فيه)، إنما هو خطأٌ قديم توارثَتْه لغتُنا المعاصرة، وليس مما جاءت به «المعاصَرةُ» و«التأثُّـرُ[٥] الأجنبي».

فمن ذلك أن لغتنا المعاصرة تقول أحياناً: «هذه عَصاتِي»، والفصيح الذي جاء به القرآن الكريم: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٨]. وهذا خطأ قديم جدًّا.. فقد ذكر ابن السِّكِّيت (٢٤٤هـ) عن الفرَّاء (٢٠٧هـ): «أن

---

(١) كتاب الأم، للشافعي، ١/ ٩٣.

(٢) شرح ديوان المتنبي، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي/ بيروت، د. ط، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م، ٢/ ١٨. [أحمد].

(٣) ديوان المتنبي، ١/ ٢٩٦، ٣١٢. [وهي من القصيدة ذاتها، التي منها البيت السابق: شرح البرقوقي، ٢/ ٣٧. أحمد].

(٤) بالمطبوعة: ما. وهي خطأٌ ظاهر. [أحمد].

(٥) هكذا بالمطبوعة. ولعلها: بالتأثير. ورأيُ الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله أن «التأثر»، كما بالمطبوعة، سائغةٌ أيضاً. [أحمد].

أولَ لحن سُمِع بالعراق: هذه عَصاتِي»[١].

ويقول بعض المؤذِّنين الآن: «حيٍّ على الصلاة. حيٍّ على الفلاح» بكسر الياء. والصواب «حَيَّ» بالفتح. وهذا خطأ قديم أيضاً.. حكى الجاحظ (٢٥٥هـ): «أن أول لحن سُمِع بالبادية: هذه عصاتي. وأول لحن سُمِع بالعراق: حيٍّ على الفلاح»[٢].

ـ لغتُنا المعاصرة وتأصيلُ بعض المفردات والتراكيب

يشيع في لغتنا المعاصرة ـ مكتوبةً ومنطوقةً ـ بعض مفرداتٍ وتراكيبَ، يستوحش منها المتشدِّدون؛ لأنهم لا يرونها في النصوص القديمة، أو لم تسجلها المعاجم اللغوية، أو سجلتها ولم[٣] يُلتفَت إليها، فظُنَّتْ من العامِّيَّة. على حين يستمسك بها المتساهلون، ويلتمسون لها أوجهاً من «التأثيرات الأجنبية»، و«إيقاع العصر»، و«التخفف من الموروث وأكفان الموتى»... إلى آخر ما تعرف وأعرف!

ولم يُنصِف أيٌّ من الفريقين اللغةَ العربية!

فهذا الذي يُستوحَش منه، أو يُطلَب له وجهٌ من «التأثيرات الأجنبية»، إنما هو عربيٌّ مُعْرِق!

فإن لم يكن؛ فهو مولَّدٌ.. استحدثته بيئةٌ عربية في زمنٍ بعيدٍ عن متناول أُورُبَّا و«الحضارة الحديثة» و«إيقاع العصر»!

ومنذ أَمَدٍ طويلٍ وأنا أرصد هذه المفردات والتراكيب، وأَضُمُّ بعضها إلى بعض، وقد جمعتها من كتب اللغة ـ غير المعاجم الكبرى ـ، وكتبِ التاريخ والتراجم، والأدب

---

(١) إصلاح المنطق، ص٢٩٧.

(٢) البيان والتبيين، ٢/ ٢١٩. و«حَيَّ» بفتح الياء: اسم فعل أمر، معناه: أَقْبِلْ وأسرِعْ، وهو المراد من الأذان. أما «حَيِّ» بكسر الياء؛ فهو فعل أمر، من التحيّة، مجزوم بحذف الياء.

(٣) بالمطبوعة: أوْ لم. ولعل الصواب ما أثبتُّه. والله أعلم. [أحمد].

والبلاغة، والمعارف العامة. وأحب أن أؤكد مرة أخرى أنه «ليس بالمعاجم وحدها تحيا اللغة!».. فاللغة ينبغي أن تلتمس من كل كتب العربية بفنونها المختلِفة.

وهذه أمثلةٌ مما ذكرتُ، وسأحرص على ذكر زمنِ القائل، أو زمنِ صاحب الكتاب، حتى نكون على بيِّنة من تاريخ هذه المفردات والتراكيب.

وسأكتفي بذكر هذه المفردات والتراكيب، دون تحليل لها وتأويل، فذلك عملٌ آخرُ يأتي في حينه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ـ مَجَّاناً: تشيع هذه الكلمة في زماننا، في لغتنا المكتوبة والمنطوقة، ولكنَّ الكلمة تحيط بها ظلالٌ من العامِّيَّة، أو التعريب[1]، مع أنها ضاربةٌ في القِدَم بعُروقها!

وقد ورد ذِكْرُها في أول معجم عربي، وهو **العين** للخليل بن أحمد (١٧٠هـ).. جاء فيه: «والـمَجَّـان: عطيَّةٌ بلا مِنَّةٍ ولا ثَمَن»[2]. وقال ابن فارس: «والمجَّان: هو عطيَّةُ الرجل بلا ثَمَن»[3].

وقد جاءت أيضاً في الشِّعر..

قال إبراهيم بن العباس الصُّوليُّ الكاتبُ (٢٤٣هـ):

من يشتري منِّي إخاءَ محمدٍ؟ أمْ مَن يريد إخاءَه مجَّاناْ؟!![4]

وقال البُحتري (٢٨٤هـ):

يرجو البخيلُ اغتراري أو مخادعتي حتى أسوق إليه المدحَ مجَّاناْ![5]

---

(١) وقد سألني عنها يوماً الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ وكان أديباً لُغويًّا فصيحاً، ولكنه كان يظن أن هذه الكلمة دخيلة على العربية.

(٢) **العين**، ٦/ ١٥٥.

(٣) **مقاييس اللغة**، ٦/ ٢٩٩.

(٤) **ديوانه**، ص ١٦٥، ضمن: **الطرائف الأدبية**، تحقيق عبدالعزيز الميمني.

(٥) **ديوانه**، ص٢١٥١.

وقال شاعر[١]:

وبقينـا في عُصْبـةٍ مـن قريـشٍ يَشـتهون المديـحَ بالـمَجَّـانِ!

وقد جاءت هذه الكلمة أيضاً في الكلام المنثور.. «قال ابن النجّار: سمعتُ ابن سُكَينة يقول: قلت لابن ناصر (٥٥٠هـ): أريد أن أقرأ عليك **ديوان المتنبي** وشرحه لأبي زكريا التبريزي. فقال: إنك دائماً تقرأ عليّ الحديث مجّاناً، وهذا شِعرٌ، ونحن نحتاج إلى نفقة. قال: فأعطاني أبي خمسةَ دنانير، فدفعتُها إليه، وقرأتُ الكتاب»[٢].

وفي كلام ابن خَلدون، قال: «فليست اللغاتُ ومَـلَكاتُها مَجَّاناً!»[٣].

- **كَسْر**: يشيع في لغتنا المعاصرة تعبير «وِكَسْر» للدلالة على الجزء القليل بعد الكلّ الكثير.

ووجهه الاشتقاقي صحيح.. جاء في اللسان: «والكَسْر: أَخَسُّ القليل. قال ابن

(١) هو الشاعر الأموي مَرْوان بن محمد (١١٢ ـ ٢٠٠ هـ)، وحقُّه التقديم في الذكر هنا على الصُّولي والبُحْتُري، لو رُوعي التأريخ. وكنيتُه أبومحمد، ويُعرَف أكثر بأبي الشَّمَقْمَق (والشَّمَقْمَق هو الطويل الـجَسيم من الرجال، ومثله: الشَّمْشَلِيْق.. وزان: الـزَّنْجَبيل. وقيل في معنى الكلمتين: الرجل الخفيف، ويؤيده أن «الشَّمَق» هو مَـرَحٌ يُشبِه الجنون)، وكان هَزَّالاً هَجَّاءً، وله مع بشَّار بن بُرْدٍ صُحبةٌ وبينهما طرائف. والبيتُ في وصف معيشته البئيسة ببغداد، وقبله:

ليـس فيهـا مـروءةٌ لشـريفٍ غيـر هـذا القِناعِ بالطَّيْلَسانِ!

وهما في **تاريخ بغداد** (وعنوانه الكامل: **تأريخ مدينة السلام وأخبار محدِّثيها وذِكْرُ قُطَّانها العلماء من غير أهلها ووارديها**)، الخطيب البغدادي، نشْرة د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م، ١٥/ ١٨٦.

وهما أيضاً في **ديوان أبي الشَّمَقْمَق** المجموع (جمع وتحقيق د. واضح محمد الصَّمد، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م، ص ٩٠). [أحمد].

(٢) **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، ٢٠/ ٢٦٩.

(٣) **المقدمة**، ص٥٥٧ (الفصل الثامن والثلاثون، في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلّة).

سِيْدَه: أراه من هنا، كأنه كُسِر من الكثير».

وقد جاء هذا التركيب، كما نستعمله نحن الآن، فيما رواه الشافعي عن محمد ابن الحسن الشيباني (١٨٩هـ) قال: «أقمت على باب مالك ثلاث سنين وكَسْراً»[١]. وفي قول يعقوب بن سفيان الفَسَوِيّ (٢٧٧هـ): «كتبت عن ألف شيخ وكَسْر.. كلُّهم ثقات»[٢].

ـ الطَّرِيْحَة: وهذه كلمة دائرة في لغتنا المعاصرة، وتوشك أن تكون في لغة أهل مصر فقط، ويكثر استعمالها لدى طوائف الحِرْفيين والصُّنَّاع، وبخاصة صُنَّاع الأحذية. والطريحة عندهم اثنا عشر زوجاً «دَسْتة»، وقد تكون عشرة أزواج، وهذا يقال للناتج الذي يُوَجَّه للبائع، أما الصانع نفسه؛فيطلق هذا المصطلح على إنتاجه الأسبوعي، دون تحديد لعدد معيَّن، فيقال له: «طَرِيحْتَكْ في الأسبوع كذا»، أي: إنتاجك.

ومن مخالطتي لمختلِف طوائف الحِرْفيين وأصحاب الصناعات لم أجد هذا المصطلح عند غير عُمَّال وصُنَّاع الأحذية[٣].

وأمرٌ آخر.. أن هذا المصطلح يستعمل في الضَّرْب المبرِّح، أو القول اللاذع.. فيقال: «فلان إدَّى فلان طَرِيحه عَال!»، أي ضربه بشدة، أو أغلظ له القول[٤].

ومن العجيب أن هذا المصطلح قديم، وتاريخه يرجع إلى ٩٢٨ سنة! فقد ذكره السيوطي في ترجمة عبدالملك بن سراج بن عبدالله أبي مروان[٥] النحوي، إمام أهل

(١) **تاريخ بغداد**، ٢/ ١٧٣. و: **مناقب الشافعي**، للبيهقي، ١/ ١٨٣.

(٢) **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للمِزِّي، ٣٢/ ٣٣٣. و: **طبقات الشافعية**، للسبكي، ٢/ ٧.

(٣) وذلك في نشأتي وإقامتي الطويلة بحيّ «الدرب الأحمر»، وصُنَّاع الأحذية يتمركزون فيه، وفي حيّ «باب الشعرية».

(٤) حق هذه الفقرة أن تتأخر إلى ما بعدَ بعدِها؛ حيث هي معنًى آخر لـ«الطريحة». والله أعلم. [أحمد].

(٥) في المطبوع: أبومروان. [أحمد].

قرطبة المتوفى سنة ٤٨٩هـ .. قال السيوطي: «وطال عمره مع البحث والتنقير، وكان يقول: طَرِيحتي في كل يوم سبعون ورقة»(١).

قال شيخنا عبدالسلام هارون ـ رحمه الله ـ: «واشتقاقها من الطَّرْح، كأن الشيء يُطرَح أمامه ليعمله، أو كأنه طَرَحه من وراء ظهره بعد أن كان مثقَلاً به»(٢).

ـ فُرْجَـة: هذه لفظة يستعملها الناسُ الآن في مصر، بمعنى الشيء الذي يُسَلِّي ويُبهِج. وجاء في **المعجم الوسيط**، الذي أصدره «مجمع اللغة العربية» في القاهرة: «تفرَّج الرجلُ بكذا، وعليه: تَسلَّى بمشاهدته بطرح هَمِّه (مُحْدَثة)».

قلت: وقد وجدتها في **رحلة ابن بطوطة**، المتوفى سنة ٧٧٩هـ .. قال: «وأهل مصر ذَوُو طرَب وسرور ولهو.. شاهدتُ بها مرَّةً فُرْجةً بسبب بُرْء الملك الناصر من كسر أصاب يده، فزَيَّن كل أهل سُوقٍ سوقَهم، وعلَّقوا بحوانيتهم الحُلَل والحُلِيّ وثيابَ الحرير، وبَقَوا على ذلك أياماً»(٣).

ـ اسْتَفْرَد به: يستعمل هذا الفعل الآن في العامِّيَّة بمعنى انفرد به، ويستعمل غالباً في أفعال الشرّ، ويتجنَّب الفصحاء استعمال ذلك الفعل، لرائحة العامِّيَّة التي تنبعث منه، مع أنه عربي مُعْرِق.

قال ابن السِّكِّيت (٢٤٤هـ): «ويقال: قد استفرد فلانٌ فلاناً: أي انفرد به»(٤).

وجاء في كلام للحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) قال: «... وفي شعبان سنة إحدى

---

(١) **بُغْية الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ٢/ ١١٠.

(٢) **كُنَّاشة النوادر**، ص١٠٢.

(٣) **رحلة ابن بطوطة**، ص٣٧. وانظر: **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، لابن أيبك الدواداري، ص٣٥٣ (حوادث سنة ٧٣٠).. فقد ذكر حادثة كسر يد الملك الناصر هذه، وفي ذلك توثيق لكلام ابن بطوطة، فضلاً عما فيه من تاريخ تلك الحادثة.

(٤) **إصلاح المنطق**، ص٣٦٨.

عشرة (وسبعمائة) وصل النبأ أن الفقيه البكري، أحدَ المبغضين للشيخ (يعني ابن تيمية)، استفرد بالشيخ بمصر، ووثب عليه، ونتش بأطواقه!»[١].

جاء في **البداية والنهاية**، في أثناء حوادث سنة ٧٦٥هـ: «... واستحضر نائب السَّلْطَنة شهودَ الحنابلة بالدرس، واستفرد كلًّا منهم، وسأله كيف شهد في أصل الكتاب».

ـ زَرْجِن: يُستعمل هذا الفعل في عاميِّتنا المصرية بمعنى: غَضِب وأعرض وامتنع.

وقد وجدته بهذا المعنى في شعر الشاعر المصري عمر بن محمد، المعروف بسراج الدين الورَّاق، المتوفى ٦٩٥هـ.. قال من مقطوعة:

فزَرْجَنَتْ، وانثَنتْ، وقالتْ: قومُوا انظُروا عاشقاً بِوَصْلَهْ![٢]

---

(١) **الذيل على طبقات الحنابلة**، لابن رجب، ٢/ ٤٠٠.

(٢) **فوات الوفيات**، لابن شاكر الكُتْبي، ٢/ ٢١٦.[وهذا البيت ضمن أبياتٍ خليعة للشاعر سراج الدين الورَّاق.

وقد فسَّر إحسان عباس في نَشْرته من **فَوات الوفَيَات** (دار صادر/ بيروت، ط ١/ ١٩٧٣و١٩٧٤م، ٣/ ١٤٣) «فزرجَنَتْ» بقوله (والضَّبْطُ لي): «الـزَّرْجَـنة: الـخِبُّ والخَديعة»، ولا أحسب هذا المعنى يناسب سياقَ القطعة، بل الذي يناسبها شرحُ الطناحي ـ رحمه الله ـ.

هذا.. ولم يتبينْ لي معنى «بِوَصْلَهْ» آخر البيت.. فهل يريد «الـوَصْلة» كما نستخدمها في عاميِّتنا المصرية: القطعة الصغيرة التي يُوصَلُ بها الشيء، وتكاد تكون فَضْلةً ممتَهَنةً لا جدوى منها عند انقطاع سبب استخدامها ـ؟

قد يرشِّح هذا المعنى سياقُ الأبيات الخليع! ومن هنا اجتهدتُ في ضبطها هكذا. والله أعلم.

وقد اقترح عليَّ الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله إيرادَ القطعة كلِّها؛ لعل المعنى يتبين من سياقها. فهذه هي:

قـام.. فـلمَّـا دَنـوتُ منهـا نـام! ومـا مثـلُ تـلكَ خَجْلَـةْ!

وكَـلَّ كَـفِّي؛ لِـفَـرْط جَـذْبي لــه.. ومـا لـلجبـانِ حَـمْلَـةْ! =

ـ يَسْتَـجْرِي: يجرى هذا الفعل في لغتنا المنطوقة، في نطاق النفي والتبعيد، وإذا نطقه الفصحاء أو كتبوه؛ جعلوا مكانه «يجرؤ».

وقد رأيته كما ننطقه الآن[1] في كلامٍ لتاج الدين السُّبكي (٧٧١هـ) قال في حق شيخه الذهبي: «... والذي أدركنا عليه المشايخ النهيُ عن النظر في كلامه، وعدمُ اعتبار قوله، ولم يكن يَستَجْري أن يُظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنّه أنه لا ينقل عنه ما يُعاب عليه»[2].

وواضح أن «يَسْتَجْري» بالياء مخفَّف من «يَستَجْرِىء» بالهمز، وهو استعمال من الـجُرْأة، فهو جارٍ على سَنَن العربية.

ـ وقعوا في دُوْكَة: يكثر هذا في لغتنا المعاصرة، ويظنه بعضهم من العامية الخالصة، لقولهم: «ما تَخُدْنِيش في دُوْكَة».

وهو صحيح فصيح، واشتقاقه من الدَّوْك، وهو الاختلاط، وهو بضم الدال وفتحها، كما ذكره الميداني (٥١٨هـ)[3].

ـ ماشِي الحال: هذا التركيب يكثر في لغتنا المنطوقة الآن كثرة ظاهرة، فيقال في الموافقة «ماشي»، وفي الرِّضا والارتياح «ماشي الحال».

وقد رأيته بدلالة قريبة من ذلك الاستعمال المعاصر، في ترجمة العماد الأصبهاني،

= فزَرْجَنَتْ، وانثَنتْ، وقالتْ: قومُوا انظُروا عاشقاً بِــوَصْلَهْ!
فقلـتُ: هـذا؛ لِفَـرْط حُبِّي قالـتْ: دَعِ التُّـرَّهـاتِ بـالله!
قلـتُ: أُقيمُ الـدليلَ؟ قالتْ لو قـام؛ مـا احتجـتَ للأدلَّـةْ! أحمد].

(١) مع مراعاة عادتنا في مصر بكسر أول المضارع: «يِسْتَجْرِي». [أحمد].

(٢) طبقات الشافعية، ٢/ ١٤.

(٣) مجمع الأمثال، ٢/ ٣٦١.

من **وفَيَات الأعيان**.. قال ابن خِلِّكان (٦٨١هـ): «... ولم يزل ماشيَ الحال مدَّةَ حياته»(١).

ورأيته أيضاً في كلام لمحمد بن أبي بكر الرازي، من علماء القرن السابع الهجري، وهو صاحب **مختار الصَّحاح**، قال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥].. قال: «هو مجاز بطريق المشابهة، كما يقال: مشى هذا الأمر، وفلان لا يتمشَّى له، وفلان ماشي الحال»(٢).

وقد استُعمل من هذا التركيب فعلٌ، جاء في كلام للحافظ الذهبي (٧٤٨هـ).. قال في ترجمة أبي داوود (صاحب **السُّنن**)، يذكر الحديث الذي يرفضه البخاري ويقبله مسلم.. قال: «... أو الذي يرغب عنه أبوعبدالله ويُمشِّيه مسلم»(٣).

ويقال: مشَّى الأمر تَمشيةً: أي سوَّغه وأمضاه. وكلُّ مستمرٍّ ماشٍ. يقال: قد مشى هذا الأمر(٤).

وجاء منه اسمُ فاعل.. قال الوزير القِفْطي (٦٤٦هـ) في ترجمة محمد بن إبراهيم ابن عرفة، المعروف بنِفْطَوَيْه: «كان ـ رحمه الله ـ متفنِّناً في العلوم، وكان ينكر الاشتقاق في كلام العرب ويُحيله، وله في ذلك مصنَّف. (...). وكان أبوبكر بن السَّرَّاج في طَرَفٍ آخر في هذا النوع، يتهافت في الاشتقاق وإثباته واستعماله تهافُتاً يُخرجه عن حَدِّ الحقيقة الماشية على أصول من تقدَّم!»(٥).

---

(١) **وفَيَات الأعيان**، ٥/ ١٤٨.

(٢) **مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آيِ التنزيل**، ص ٢٤٢. [وعنوانه: **نموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آيِ التنزيل**. وأبوبكر الرازي هذا (ت ٦٦٦ هـ) غير فخرالدين الرازي صاحب **التفسير الكبير** (ت ٦٠٦ هـ). أحمد].

(٣) **سير أعلام النبلاء**، ١٣/ ٢١٤.

(٤) **أساس البلاغة**. و: **لسان العرب**، مادة «مشى».

(٥) **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، ١/ ١٧٨.

ـ حاشا وكلَّا: يستعمل هذا التركيب كثيراً في لغتنا المعاصرة، في تأكيد النفي.

وقد استعمله الحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) في نقض كلام من يرفع أحداً على عمر ابن الخطاب، في الخَيْريَّة.. يقول: «هذا كلامٌ عجيب! أنَّى يكون خيراً من عمر؟ حاشا وكلَّا!»(١).

ـ وُلُهْ مِنُّهْ وِجَاي، ولَكْ مِنُّهْ وِرَايح: هذا تركيب شائع جدًّا في لغتنا المعاصرة المنطوقة، وبخاصة في تحديد المساحات الزراعية.

وقد رأيته فيما حكاه تاج الدين السبكي، في أثناء سَرْده لأحداث «موقعة التتار» (٦١٦-٦١٨هـ).. يقول فيها: «إن جِنْكِز خان بلغه عنك شدَّةُ بأسك واتِّساعُ باعك. (...). وقد عزم على مصاهرتك والمهادنة معك، على أن يكون نهر جَيْحُون بينكم، وله مِنُّهْ وِجَاي، ولك مِنُّهْ وِرايح»(٢).

ـ على عِيْنَكْ يا تاجِر: هذا تركيب سيَّار في لغتنا المعاصرة المنطوقة، ويُتمثَّل به في الشيء الواضح الظاهر الذي لا يختلف فيه أحد.

وقد رأيته في شعر الفقيه الشاعر عمر بن مظفر، المعروف بابن الوردي، المتوفى ٧٤٩ هـ.. قال:

وتاجرٍ شاهدتُ عُشَّاقَهُ ... والحربُ فيما بينَهم سائرْ
قال: علامَ اقتتلوا هكذا؟ ... قلت: على عَيْنِكَ يا تاجِرْ!(٣)

---

(١) **سير أعلام النبلاء**، ٥/ ١٢٧.

(٢) **طبقات الشافعية**، ١/ ٣٤٠. فإن كان هذا التركيب من كلام أخت السلطان جلال الدين؛ فيكون تاريخ هذا التركيب سنة ٦١٦هـ أو نحوها، وهو زمن اشتعال حروب التتار. وإن كان من تصرف السُّبْكي؛ فيكون تاريخه نحو سنة ٧٧١هـ، وهي سنة وفاة السُّبْكي.

(٣) **فوات الوَفَيات**، لابن شاكر الكُتبي، ٢/ ٢٣٢. [وكنتُ قد ضبطتُ «عِيْنَكَ» في البيت الثاني هكذا، بكسر العين وفتح النون، حكايةً للعامِّـيَّة المصرية الآن.. فأفادني الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله أنها =

ـ كُلِّنا في الهوَى سَوا: وهذا التركيب من الشُّهرة والذُّيوع بمكانٍ.

وقد قرأته في خاتمة مخطوطة كتاب **عجائب المقدور في أخبار تيمور**، لأحمد بن محمد المعروف بابن عَرَبْشَاه، المتوفى سنة ٨٥٤هـ.. قال في خاتمة هذا الكتاب: «لعل الله ـ سبحانه ـ أن يعفو عني وعنهم، مع أنا كلَّنا في الهوَى سَوَى.. وإنما الأعمال النيّات، ولكل امرىء ما نوى»[١].

وهذان تركيبان قديما الاستعمال، وقد يُظنُّ أنهما مما جلَبْته «الحضارة الحديثة.. التي خففت من جفاء العربية وصَحراويتها».. كما يزعم الزاعمون!

ـ في غاية الرَّشاقة: وقد جاء هذا التركيب في تعليق لأبي هلال العَسكري (نحو ٣٩٥هـ) على بيتي ابن الرومي[٢]:

قُـدومُ سـعادةٍ وقُفـولُ يُمْـنِ ... هي الـسَّرَّاءُ تَمْحَقُ كلَّ حُزنِ
أظلَّتْـكَ السَّـلامةُ مـا تَغنَّـتْ ... مُطـوَّقَـةٌ عـلى فَـنَـنٍ تُـغَـنِّي

يقول أبو هلال: «قوله: «أظلَّتْك السلامة» في غاية الرشاقة»[٣].

واشتقاق الكلمة معروف.. فالرشيق من الغِلمان والجواري: الخفيفُ الـحَسَنُ القَدِّ اللَّطيفُه، وتُوصَف به المعاني والمحسوسات.

= بفتح العين؛ لأن كسر العين وفتح النون يكسر بحر السريع. وهذه من فوائد إتقان الـعَروض؛ إذ يُصحِّح الضبط، ويرشِّح الاختيار عند الاشتباه. أحمد].

(١) مخطوطة كتاب **عجائب المقدور**، نسخة مكتوبة سنة ٨٥٢هـ وهي محفوظة بمكتبة أحمد الثالث باستانبول، برقم ٣٠٤٩، ومنها صورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

(٢) رواية **ديوانه** (نشرْة د.حسين نصَّار، ٦/ ٢٤٥٨):

قُـدومُ سعـادةٍ وقُفـولُ يُمْنِ ... هي السَّـرَّاءُ.. تَنْسَخُ كلَّ حُزْنِ
أظـلَّتْـه السَّلامـةُ مـا تَـغنَّـتْ ... مُطـوَّقَـةٌ تَـرَنَّمُ فـوقَ غُـصْـنِ [أحمد].

(٣) **ديوان المعاني**، ٢/ ٢٣٠.

وجاء في كلامٍ للجاحظ (٢٥٥هـ): «كنت أظنُّ أن الرشاقة والحِلْم لا يجتمعان!»[١].

ويقول إمام الحرمين الـجُوَيْنيّ (٤٧٨هـ): «ومن العبارات الرشيقة للشافعي: المذاهب لا تموت بموت أصحابها»[٢].

ويصف تاج الدين السُّبكي (٧٧١هـ) كلامَ وفتاوَى الفقيه الشافعي أبي الطَّيِّب الصُّعلوكي بالرشاقة، فيقول: «ومن رشيق عباراته...»، «ومن رشيق فتاواه...»[٣]. وتأملْ وصفَ الفتاوَى بالرشاقة!

ولا ننسى أن صاحب كتاب **العُمْدَة** هو الحسن بن رَشِيق، المتوفى ٤٦٣هـ.

- يا عزيزي: وهذا نداءٌ عَصريٌّ جدًّا، ولكنه جاء في شعر قديم. أنشده أبو هلال العسكري (نحو ٣٩٥هـ) في وصف الخَلَق من الثياب، المستعصِي على النظافة:

قال غَسَّالِيَ لمَّا   جئتُهُ قولاً صحَيحا
يا عزيزي أنا لا أغـ   ـسِلُ بالصابون رِيْحا[٤]

... ...

فهذه أمثلة مما يشيع في لغتنا المعاصرة، من بعض صور الانحرافات الصوتية والنحوية، ثم بعض المفردات والتراكيب التي تبدو بعيدة عن اللغة الفصحى النموذجية، رددتُها إلى أصولها الفصيحة. وحين أسندتُها إلى مراجعها العربية القديمة، واستخرجتُ لها شهادةَ ميلاد موثَّقةً؛ كنت بذلك قد نفيتُ عنها ما يقال من أنها وليدة

(١) رسائل الجاحظ، ١/ ٢٦٩.
(٢) البرهان في أصول الفقه، ١/ ٧١٥.
(٣) طبقات الشافعية، ٤/ ٣٩٨، ٣٩٩.
(٤) ديوان المعاني، ٢/ ٢٥٠.

العصر الحديث والصحافةِ والترجمةِ والاتصالِ بأُورُبّا «التي أورثتْنا لغاتُها رِقَّةً وسُهولةً خلَّصَتْ لغتَنا العربيةَ الموروثةَ من طابَع البَداوة والحياةِ القاحِلة»![1].

[هل في عربية مصر المعاصرة لغةٌ قبطية؟]

ولم يَبقَ فيما يتصل بهذه القضية إلا ما يقال من أن لغتنا العربية المعاصرة، في مصر بوجه الخصوص، مليئة بمفردات وتراكيب من اللغة القبطية القديمة.

وقد عرض هذه القضية عرضاً جيداً مستوعبا الدكتور أحمد مختار عمر، في كتابه **تاريخ اللغة العربية في مصر**، وذكر آراء المثبتين والنافين، وذكر رأيه هو، ثم عرَض لبعض المفردات التي يُقال بقبطيَّتها، وردَّها إلى العربية الفصحى.. ثم انتهى إلى القول: «والنتيجة النهائية التي نستخلصها من كل هذا أن التأثير القبطيَّ على عربية مصر تأثيرٌ محدود جدًّا، لا يكاد يتجاوز مجال المفردات. وحتى في هذا المجال فالآثار ضئيلة جدًّا، على عكس ما يردّده البعض»[2].

وليس لي من كلمة هنا إلا شيءٌ من التعقيب على ما ذكره الأستاذ بدر نشأت،

---

(١) كان من رأي الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله أن أحذف علامات التنصيص هذه؛ إذْ معناها أن هذا نصٌّ منقولٌ من كتاب.

وقد سمحتُ لنفسي بمخالفته هنا؛ إذ أنني أستخدم هذه العلامة ـ فيما أستخدم ـ عند ذكر قولٍ يُراد التنبيه على أنه ليس مما يُرضَى، وأنه حكايةٌ عن آخرين وإن لم يُذكروا في سياقٍ قريب. وقد يكون قائله غيرَ معيَّنٍ أصلاً.

وظاهرٌ هنا أن الطناحي يتهكَّم بذِكْر هذه الجملة الطويلة الواصفة «أُورُبّا» فيما يزعم الزاعمون من المنبهرين بها! وقد سبقتْ له جملةٌ شبيهةٌ قريباً (ص ٣١١).

وأظهرُ من هذا أن الطناحي لا يرى أن هذه الـ «أُورُبّا» قد أورثتنا لغاتها رِقَّةً وسُهولةً... إلى آخر ما ذكر! والله أعلم. [أحمد].

(٢) **تاريخ اللغة العربية في مصر**، ص١٢٣.

في بحثٍ له طويل، عنوانه «اللغةُ العامِّيَّة المصرية.. ولغةُ الفكر والحياة الحالِيَّة»[١].. وقال فيها قال: «ولعل ما يؤيد استمرار اللغة المصرية القديمة في لغتنا المنطوقة الحالية، هو هذا الكمُّ الهائل من الألفاظ والجُمَل والتراكيب، الذي مازال حيًّا باقياً في لغتنا المنطوقة الحالية».

ثم حشد طائفةً من المفردات والتراكيب، حكَم بمِصريِّتها القديمة. وبعض هذه المفردات مما ردَّه الدكتور أحمد مختار عمر إلى أصله العربي.

ولست أعرض لكل ما أورده الأستاذ بدر نشأت.. فذلك مُحوِجٌ إلى وقت طويل. لكني أقف عند بعض ما ذكره..

ـ أثبت من الألفاظ المصرية القديمة كلمة «كخ».. قال: «فـ«كخ» كلمة قديمة معناها قذارة».

قلت: هذه الكلمة جاءت في حديثٍ صحيح، أخرجه البخاري، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أخذ الحسنُ بن علي ـ رضي الله عنهما ـ تمرةً من تمر الصَّدقة، فجعلها في فِيه، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «كِخْ.. كِخْ»، ليطرحَها.. ثم قال: «أما شعرتَ أنَّا لا نأكل الصدقة؟!»[٢].

قال الزمخشري: «هي كلمة تقال للصبي إذا زُجِر عن تناول شيء، وعند التقذُّر من الشيء أيضاً. وأنشد أبوعمرو:

وعـــادَ وَصْـلُ الغانيـات كَـخَّــا»[٣]

وقال ابن الأثير: «إن الكلمة أعجميَّة عُرِّبتْ»[٤].

(١) مجلة القاهرة، العدد ١٦٣، يونيو ١٩٩٦م.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٤/ ٣٥٤، كتاب الزكاة. و: ٦/ ١٨٤، كتاب الجهاد.
(٣) الفائق في غريب الحديث، ٣/ ٢٤٨.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ١٥٤.

قلت: ولم أجدها في كتب المعرَّبات التي عندي. وعلى فرض أنها غير عربية، فلا دليل على أنها مصريةٌ قديمة، وبخاصة أنها جاءت في لفظ رسول الله ـ ﷺ ـ.. وأنَّى له بالمصرية القديمة؟!(١)

ـ وذكر أن «سَخَّم» كلمة قديمة، معناها: لَوَّثَ، أو غَطَّى بالوحَل.

والكلمة عربية فصيحة، جاء في **لسان العرب**: «السُّخام بالضمِّ: سَوادُ القِدْر. وقد سَخَّم وجهَه: أي سوَّده. وروى الأصمعي عن معتمِر، قال: لقيت حِمْيَريًّا آخر، فقلت: ما معك؟ قال: سُخام. قال: والسُّخام: الفَحْم، ومنه قيل: سَخَّم الله وجْهَه.. أي سَوَّده».

وقد جاء هذا اللفظ في حديثٍ صحيح أيضاً، رواه البخاري، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، قال: أُتي النبيُّ ـ ﷺ ـ برجلٍ وامرأةٍ من اليهود قد زَنَيا، فقال لليهود: «ما تصنعون بهما»؟ قالوا: «نُسَخِّم وجوهَهما ونُخَـزِّيْهما»(٢).

وروُى عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «أنه كان يأمر في شاهد الزُّور أن يُسَخَّم وجهه»(٣).

ـ وذكر من الألفاظ القديمة غير العربية «بَكَّ منه الدم»: سقط أو وقع.

قلت: وجِذْر الكلمة عربيٌّ صحيح.. فمن معاني «البَكّ» في العربية: الدَّفْع. قيل: ومنه سُمِّيت مكة: بكَّة؛ لأن الناس يَدفع بعضُهم بعضاً فيها في الطواف.

ـ وذكر من الكلمات المصرية القديمة «إيشْ، وآشْ لك، في الموضوع؟».. قال:

---

(١) ألَا يمكن أن يكون أخذها سيدُنا النبي ـ صلوات الله عليه ـ من أم ولده إبراهيم السيدة مارية القبطية المصرية؟ [أحمد].

(٢) **فتح الباري**، ١٣/ ٥١٦، كتاب التوحيد. و: **مسند أحمد بن حنبل**، ٢/ ٥.

(٣) **مصنَّف عبدالرزاق**، ٨/ ٣٢٦.

«حرف استفهام، أصله «أخ» بمعنى «ماذا»». لكنه عاد في موضع آخر فتشكك، وقال: «فهل هي من «أيش» المصرية؟ أم «أيُّ شيء» العربية؟».

قلت: والكلمة عربية خالصة، وتنطق بفتح الهمزة، وتنوين الشين المكسورة، وأصلها: «أيُّ شيءٍ؟»، وخُفِّفت بحذف الياء من «أيّ»، وحذف همزة «شيء»، بعد أن نُقلت حركتها إلى الحرف الساكن قبلها، ثم أُعِلّت الكلمة إعلالَ الاسم المنقوص، مثل «قاضٍ» و«غازٍ».

وقد جاءت هذه الكلمة في حوارٍ بين سِيبَـوَيْـه (نحو ١٨٥ هـ) وأحد النُّحاة[١].

وعرض لها بالتفسير الذي ذكرتُه ابن جِنِّي[٢].

وهي كلمة دائرة في كتب العربية.

وقال مجنون بني عامر:

قالت جُنِنْتَ على أَيْشٍ.. فقلتُ لها: الحبُّ أعظمُ ممّا بالمجانينِ!

الأغاني ٢/ ٣٦[٣]

ـ وقال: ««عنتيل» أصلها: «أنتوري»، وهو الشديد القويّ».

قلت: والكلمة عربية خالصة.. قال في **اللسان**: «والعُنْتُل: الصُّلْب الشديد».

وأنشد عليه شعراً.

ـ وقد وقف الأستاذ بدر نشأت عند بعض الاستعمالات اللغوية، ورأى أن العامِّيَّة المصرية قد أعطتها دلالةً خاصة، ليست في أصل وضعها اللغوي..

---

(١) مجالس ثعلب، ص٢٧٥.

(٢) المحتسب، ٢/ ١٧٩.

(٣) هكذا بالمطبوعة. [أحمد].

وذكر من ذلك: «دخل عليها».. ثم قال: «جملة تتوقف دلالتها في الفصحى على فعل الدخول، بينما تنسحب في العامية على ليلة الزواج الفعلية، وما يصاحبها من إجراءات وطقوس يثيرها هذا التركيب البسيط».

قلت: وتخصيص «دخل عليها» بفعل الدخول (الذي هو الزواج الفِعليّ) قديم..

قال الفَيومي: «ودخل بامرأته دخولاً: كِناية عن الجِماع أوَّل مرَّة. وغلب استعماله في الوَطْءِ المباح. والمرأة مَدخولٌ بها»[1].

وقول الفيومي: «أولَ مرَّة»، هي ليلة الزفاف أو «ليلة الدُّخْلة».

واستعمال القرآن الكريم صريحٌ في ذلك، قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣].

وقال الإمام الأعظم أبوحنيفة النعمان بن ثابت: «دَخَلَ، مضافاً إلى النساء بحرف الباء، يراد به الجِماع»[2].

[مجافاة الجمال في عربيتنا المعاصرة]

وبعد..

فإذا كنت قد أقمت بحثي هذا على تأكيد الثقة بلغتنا المعاصرة، وأنها لم تبتعد عن العربية الأصيلة؛ فإن هناك أمرين، لابد من الوقوف عندهما، والتنبيه عليهما، على وجهٍ من السرعة والإيجاز.

الأمر الأول: أن مما يعيب لغتنا المعاصرة المكتوبة الآن: هو تجافيها عن حُسْن

(١) المصباح المنير، مادة «دخل».
(٢) الكليات، لأبي البقاء الكَفَوي، ٢/ ٣٣٧.

البيان، وجمالِ العبارة. فقد زهد كثير من الكُتَّاب الآن في حُسْن البيان، وهَجَروا طريقَه هَجْراً يوشك أن يكون تامًّا، وأصبح الكلام الذي تقرؤه في هذه الأيام كلاماً هزيلاً شاحباً، وأصبح كالعُمْلة الممسوحة لا تعرف له وجهاً من ظهر! تقرأ الكلام وتتجاوزه عينك على عجَل؛ لأنك لا ترى فيه ما يستوقفك، وما يحملك على التأمل والتذوّق والاستمتاع! وأصبحت عباراتنا كلها متشابهة، فكأنها «وتفضلوا بقبول فائق الاحترام»! وقد كتبتُ في ذلك كثيراً[١].

[العامِّيَّة بين الـرُّقِيِّ والسُّوقية]

الأمر الثاني: أنه في مجال لغتنا المعاصرة المنطوقة ينبغي، ونحن نُسوِّغها ونردُّها إلى أصولها العربية الصحيحة، أن نتنبه إلى مستويين من تلك اللغة المعاصرة المنطوقة..

المستوى الأول: هو ما يحافظ على معجم اللغة الفصحى، مع بعض تجاوزاتٍ صوتية أو نحوية، وهو ما تسمعه من لغة المثقَّفين مع بعضهم البعض[٢] في المحاورات اليومية، وتسمعه من كُتَّاب الأغاني الكبار: أحمد رامي وبِيْرَم التُّونْسِي وعبدالفتاح مصطفى وحسين السيد وصلاح جاهين ومرسي جميل عزيز، ثم ما تقرأ للشاعر الكبير فؤاد حدَّاد.

والمستوى الثاني: هو لغة العامَّة، التي يمارسها الحِرْفيُّون والصُّـنَّاع والباعة، ونلجأ إليها (نحن.. المثقفين) أحياناً حين نتعامل مع هذه الفئات. وهذه اللغة ينبغي أن تظل في

---

(١) انظر مثلًا: عددي مجلة **الهلال**، شوال وذوالقَعدة ١٤١٦ هـ/ مارس وإبريل، ١٩٩٥م، «البيان والطريق المهجور». [مقالٌ من جزئين، نُشرا في الهلال، ثم جُمِعا في: **مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي**، القسم الأول، ص ٣٤٦:٣٦٤. وقد سَبَقا معنا في القسم الأول من هذا الكتاب، ص١٠٧ : ١٣٤. أحمد].

(٢) يرى الأستاذ الحسَّاني حسن عبدالله أن الصواب في مثل هذا التعبير أن يقال مثلًا: «لغة المثقَّفين بعضِهم مع بعض»؛ لأن «البعض» الثانية، في مثل تعبير الطناحي، لا محلَّ إعرابيًّا سائغاً لها. [أحمد].

دائرتها المحدودة، لغةَ تعاملٍ وقضاءِ مصالحَ فقط، لا يُحتفَلُ بها ولا يُلتفَتُ إليها.

وإن أردت أن تعرف فَـرْقَ ما بين المستويين؛ فتأملْ قولَ أحمد رامي(١):

سَهـرانْ لِـوَحْـدي.. أنـاجي طِيْفَـكْ السـاري
سابحْ فِ وَجْدي، ودَمْعي عَ الخُدود جاري(٢)

وقولَ بِيْرَم التُّونْسي(٣):

أهـلْ الهـوى، يـا لِـيلْ، فـاتـوا مَضـاجِعْهُـم
واتّـجَمَّعـوا، يـا لِـيلْ، صُحبـةْ وانــا مَـعْهُـم

ثم تأملْ قولَ ذلك المغنِّي السُّوقيّ(٤):

أَزْأَزْ لِــبَّــكْ عَ الـقَـهْـوْه   وخُـشّ في عِـبِّي لَـتِسْتَـهْوَى

والحديث طويلٌ في قضية اللغة العامية الهابطة هذه!

لكني أريد أن أقول هنا: على هؤلاء الذين يجتهدون في تأصيل تلك العامية وتقنينها واستخراج شهادة ميلاد لها موثَّقة (على أنها «لغة الحياة»).. عليهم أن يعلموا أنهم لن يصلوا إلى شيء؛ لأنه «لا سبيل إلى إحداث لغةٍ في لغةٍ مقرَّرةٍ بين أهلها».. كما يقول أبو سعيد السِّيرافيُّ(٥) (٣٦٨هـ).

---

(١) غنتها السيدة أم كلثوم سنة ١٩٥٠م، من ألحان الموسيقي الكبير رياض السنباطي. [أحمد].

(٢) أصلها: «على الخُدود». وقد سبق أنَّ حذف اللام والألف من «على»، [إذا] وَلِيَها ساكنٌ، فصيحٌ قديم. [وقد سبق لنا كلامٌ عن رسم «على» محذوفة اللام والألف، ص٢٨٨. أحمد].

(٣) غنتها أيضاً السيدة أم كلثوم سنة ١٩٤٤م، من ألحان الشيخ الموسيقي الفنان زكريا أحمد. [أحمد].

(٤) بعد بحثٍ وتتبُّع.. لم أقف على اسم هذا «المغني السوقي»، ولا على شيءٍ من خبر هذه الأغنية. [أحمد].

(٥) **الإمتاع والمؤانسة**، لأبي حيان التوحيدي، ١/ ١٢٢.

أما عربيتُنا الفُصحى العاليةُ؛ فلا زالت بخير وعافية، ولن يضرَّها مُناوأةُ المعتدين، وانتقاصُ المنتقصين، وقِلّةُ المدافعين المتعصبين. وما أصدقَ كلمةَ السيّد الجليل الفُضَيل بن عِياض (١٨٧هـ): «لا تَسْتَوحِشْ طُـرُق الهُدَى لِقِلَّة أهلها، ولا تَغترَّنَّ بكثرة الهالكين، ولا يضرَّك قِلَّـةُ السَّالكين»(١).

وأما ما يقال عن صعوبة العربية وتشعُّبِ قواعدها، وضرورةِ العمل على تذليلها لتُساير «إيقاعَ العصر».. فكل ذلك تهاويلُ فارغةٌ من الحقيقة! «وشيءٌ قد أحكمتْه القدماءُ لا يُترك مراعاةً لجهل الجاهلين! ولن تخلو الأرض من قائمٍ لله بحُجَّةٍ»(٢).. كما يقول العِـزُّ بنُ عبدالسلام (٦٦٠هـ).

وقد قضى ربك أن يكون في الناس بقايا خير(٣).. ولله الحمدُ والمِنَّة(٤).

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص٩٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٣٧٩. وآخر هذا الكلام لعلي بن أبي طالب: شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٣٤٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٧/ ٢٥٠.

(٤) يقول محـرِّرُه:

لله الحمدُ والمِنَّة على أن أتمَّ لنا المقصود من جمع هذا الكتاب، وتحريره، والتعليق عليه.

ودعائي إلى الله تعالى أن يُعْظِمَ النفع به، وأن يتجاوز عن كل خطأٍ أو سهوٍ أو نسيان، او اعتداءٍ على ما لا نُحسِن.

وأسأله ـ وهو خير مسؤول ـ أن يكتب للغتنا وبلادنا الخيـرَ والنَّـماء، وأن يُعجِّل الله فـرَجَنا العامَّ والخاصَّ. وأن يُقِرَّ أعينَنا برؤية الإصلاح الشامل والنهضة المتكاملة لبلادنا جميعاً.

وأن يجعل يومَنا خيراً من أمسنا، وغدَنا خيراً من يومنا، وأن يجعل عاقبةَ أمورنا كلها إلى الخير والبركة والعافية التامة.

وأن يأخذ بنواصينا جميعاً إليه.. أخْذَ الكرام عليه. =

....

= كما أسأله ـ تباركت أسماؤه ـ أن يصلح أعمالنا كلَّها، وأن يجعلها كلَّها في موازين حسناتنا، وأن يتغمد أستاذنا الحبيب الدكتور محمود محمد الطناحي بواسع رحمته، وأن يحسِن إليه في دار كرامته.

والحمد لله أولاً وآخراً.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً كما يحب ويرضَى.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكتبه:

أحمد عبدالرحيم

تحريراً، في القاهرة المحروسة بفضل الله

الخميس: ٥ من شهر الله المحرَّم ١٤٣٥هـ

٩ من نوفمبر ٢٠١٣م.

فهارس الكتاب

مصادر التحرير ومراجعه

اختصارات:

ـ د. ن: دون ذكر ناشرٍ.

ـ د. ط: دون ذكر رقم الطبعة.

ـ د. ت: دون ذكر تاريخ النشر.

ـ د. ب: دون بيانات نشرٍ.

أولاً: المصادر

في اللَّغةِ والأدَب: دِرَاسَــاتٌ وَبُحُوث، د. محمود محمد الطَّنَاحي، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط١/ ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢م.

مقالات العَلَّامَةِ الدكتور محمود محمد الطَّنَاحي: صَفَحَاتٌ في التُّراثِ والتَّراجمِ واللغةِ والأَدَب، د. محمود محمد الطَّنَاحي، دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ـ٢٠٠٢م.

ثانياً: المَراجِع

(أ)

أباطيل وأسمار، أبوفِهْر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٣/ ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

إتحاف الفاضل بالمبنيِّ لغير الفاعل، ابنُ عَلَّان، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

إرواء الغليل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، الخالديان أبوبكر محمد بن هاشم الخالدي وأبوعثمان سعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق د. محمد علي دقة، وزارة الثقافة السورية، ط١/ ١٩٩٥.

الإصابة، ابنُ حجر العسقلاني، نشْرة د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجَر/ القاهرة، ط١/ ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م.

إعراب القرآن، أبوالحسن سالم بن الحسن بن إبراهيم الخازمي، نسخة «إلكترونية»، بضميمة «المكتبة الشاملة».

أمالي ابن الشجري، هبة الله الحسَني العلوي ابن الشجَري، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط١/ ١٩٩٢م.

الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي، نشْرة أحمد أمين وأحمد الزين، تصوير دار ومكتبة الحياة، د. ط، د. ت.

الأمثال، أبوعُبيد القاسم بن سلَّام، تحقيق د. عبدالمجيد قطامش، جامعة الملك عبد العزيز/ مكة المكرمة ودار المأمون للتراث/ دمشق - بيروت، ط ١/ ١٩٨٠م.

الأمثال العاميَّة، أحمد تيمور، لجنة نشر المؤلفات التيمورية/ القاهرة، ط ٢/ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م.

(ب)

البداية والنهاية، ابن كثير، نشْرة د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجَر/ القاهرة، ط١/ ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

البصائر النصيرية في علم المنطق، زين الدين ابن سهلان الساوي، تعليق محمد عبده، عناية د. رفيق العجم، دار الفكر اللبناني/ بيروت، ط١/ ١٩٩٣م.

(ت)

تاج العروس من جواهر القاموس، السيد المُرتضَى الزَّبيديّ، تحقيق عدد من المحققين طوال نحو أربعين عاماً، وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية (صارت بعدُ: وزارة الإعلام)، صدر الجزء الأول عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م عن وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية، والجزء الأربعون (الأخير) عام ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١م عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت.

تاريخ الإسلام ووفَيات المشاهير والأعلام، الحافظ الذهبي، نشرة د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

تاريخ الإسلام ووفَيات المشاهير والأعلام، الحافظ الذهبي، نشرة د. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط ١/ ١٤١٧-١٩٩٧م.

تاريخ بغداد (تأريخ مدينة السلام وأخبار محدِّثيها وذِكْرُ قُطَّانها العلماء من غير أهلها وواردِيها)، الخطيب البغدادي، نشْرة د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

تاريخ الحكماء، أبوالحسن جمال الدين القِفْطي، تحقيق يوليوس ليبرت، ليبسك، د. ط، ١٩٠٣م.

تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر/ بيروت، ط ١/ ١٩٩٥م.

تاريخ الرسل والملوك، أبوجعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف/ القاهرة، ط ٢/ ١٣٨٧ هـ-١٩٦٧م.

تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب، محمد زاهد الكوثري، تعليق أحمد خيري، د. ن، د. ط، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م.

التحقيق النحوي ما بين عبدالسلام هارون ومحمد محيي الدين عبدالحميد، جمال نمر محمد إبراهيم، رسالة ماجستير غير مطبوعة، كلية الدراسات العليا/ قسم اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية/ نابلس ـ فلسطين، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م.

تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب، عبدالسلام هارون، جامعة الملك عبدالعزيز/ مكة المكرمة، ط ١/ ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٩م.

تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، صلاح الدين الصَّفَدي، تحقيق السيد الشرقاوي ومراجعة د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط١/ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

تصحيح لسان العرب، أحمد تيمور، (القسم الأول)، مطبعة الجمَّالية/ القاهرة، ط ١/ ١٣٣٤ هـ ـ ١٩١٥م.

تصحيح لسان العرب من إفادات إبراهيم اليازجي وأحمد تيمور وغيرهما، د. محمد نعمان خان، د. ن، دِلْهي ـ الهند، ط ١/ ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م.

تقويم البُلدان، أبوالفداء عمادالدين الحلبي، د. ن، باريس، د. ط، ١٢٥٦ هـ ـ ١٨٤٠م.

التمهيد في علم المنطق، علي شيرواني، مؤسسة انتشارات ـ دار العلم/ طهران، د. ط، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م.

تهذيب الآثار (مسند عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه)، ابن جرير الطبري، قرأه أبوفِهْر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/ القاهرة، د. ط، د. ت.

التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية، محمد مختار باشا، دراسة وتحقيق وإكمال د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت، ط١/ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.

(ج)

جمهرة الأمثال، أبوهلال العسكري، دار الفكر/ بيروت، د. ط، د. ت.

الجَنَى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم الـمُرادي (ت ٧٤٩ هـ)، تحقيق فخرالدين قباوه ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٩٩٢م.

الجوانب الصوتية في كُتُب الاحتجاج للقراءات، د. عبدالبديع النيرباني، دار الغَوثاني للدراسات القرآنية/ دمشق، ط١/ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م

(ح)

الحصائل في علوم العربية وتراثها: بحوثٌ ودراساتٌ ومقالاتٌ ونصوصٌ محقَّقة، د. محمد أحمد الدالي، دار النوادر/ دمشق ـ الكويت، ط١/ ٢٠١١م.

حِلْية الأولياء، الحافظ أبونعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١/ ١٩٨٨م.

الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/ القاهرة، ط ٢/ ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥م.

(خ)

خزانة الأدب ولُبُّ لُباب لسان العرب، عبدالقادر البغدادي، نشرة عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٣/ ١٩٩٦م.

الخصائص، أبوالفتح عثمان بن جِنِّي، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط ١/ ١٩٥٧م.

(د)

دراسات لأسلوب القرآن الكريم محمد عبدالخالق عِـضِيْمَة، تقديم محمود شاكر، دار الحديث: القاهرة، د. ط، د. ت.

الدروس النحوية، حفني بك ناصف ومحمد أفندي دياب والشيخ مصطفى طموم ومحمد أفندي صالح ومحمود عمر، دار إيلاف الدولية/ الكويت، ط١ / ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م.

ديوان أبي بكر الشِّبْلي، جمعه وحققه د. كامل مصطفى الشيبي، ساعد في طبعه المجمع العلمي العراقي/ بغداد، ط ١/ ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م.

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف/ القاهرة، سلسلة «ذخائر العرب» ـ رقم ٥، ط ٥/ ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

ديوان أبي الشَّمَقْمَق، جمع وتحقيق د. واضح محمد الصَّمد، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

ديوان جرير، المطبعة العلمية بمصر، ط ١/ ١٣١٣ هـ ـ ١٨٩٦م.

ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف/ القاهرة، ط ٣، د. ت.

ديوان الحُطَيْئة برواية وشرح ابن السِّكِّيْت، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ١/ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

ديوان أبي العتاهية، تحقيق د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، د. ط، ١٩٦٥م.

ديوان أبي فراس، شرح د. خليل الدويهي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط٢/ ١٩٩٤م.

ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصَّار، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط ٣/ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

ديوان المتنبي، شرح عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي/ بيروت، د. ط، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

ديوان امرئ القيس وملحقاته، شرح أبي سعيد السُّكَّريّ، تحقيق د. أنور عليان أبوسويلم و د. محمد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ/ أبوظبي، ط١/ ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م.

ديوان عروة بن أُذَينة، جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري، دار القلم/ الكويت، ط ٢/ ١٩٨١م.

(ذ)

ذكريات، علي الطنطاوي، دار المنارة/ جدة، ط ٣/ ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.

(ر)

ربيع الأبرار، جار الله الزمخشري، تحقيق عبدالأمير مهنا، دار الأعظمي للمطبوعات/ بيروت، ط١/ ١٩٩٢م.

رَصْفُ المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبدالنور المالقيّ، تحقيق أحمد محمد الخرَّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية/ دمشق، د.ط، د.ت.

(س)

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف/ الرياض، ط٢/ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

سير أعلام النبلاء، الحافظ الذهبي، أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١١/ ١٩٩٦م.

(ش)

شرح ديوان أبي تمام، أبوبكر الصُّولي، تحقيق د. خلَف رشيد نعمان، وزارة الثقافة والإعلام/ العراق، سلسلة دراسات ـ رقم ١١٣، ط/ ١، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٢م.

شرح ديوان الحماسة، أبوعلي المرزوقي، نشرة عبدالسلام هارون وأحمد أمين، تصوير دار الجيل/ بيروت، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.

شرح ديوان الـهُذَليين، أبوسعيد الحسن السُّكَّريّ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مراجعة محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة/ القاهرة، ط١/ ١٩٦٥م.

شعر الخوارج، جمع وتقديم د. إحسان عباس، دار الثقافة/ بيروت، ط٢/ ١٩٧٤م.

شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، شهابُ الدين الخفاجي، تصحيح نصر الـهُوريني، المطبعة الأميرية/ القاهرة، د. ط، ١٢٨٢ هــ ١٨٦٥م.

(ص)

الصَّحاح، أبونصر إسماعيل بن حـمَّاد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين/ بيروت، ط٤/ ١٤١٠ هــ ١٩٩٠م.

(ط)

طبقات فحول الشعراء، محمد بن سَلّام الجُمَحي، قرأه أبوفِهْر محمود محمد شاكر، دار المدني/ جدة، تصوير ط ٢، د. ت.

(ع)

عالم صوفي: رواية حول تاريخ الفلسفة، جوستاين غاردر، ترجمة حياة الحويك عطية، دار الـمُنَى/ الأردن، د. ط، د. ت.

عربي بين ثقافتين، د. زكي نجيب محمود، دار الشروق/ القاهرة، ط ٢/ ١٩٩٣م.

العربيةُ وطرائقُ اكتسابها، د. محمد حسَّان الطَّيَّان، تحرير أحمد عبدالرحيم، منتدى النهضة والتواصل الحضاري/ الخرطوم ـ السودان، ط١/ ١٤٣١ هــ ٢٠١٠م.

علم اللغة: مقدمةٌ للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار الفكر العربي/ القاهرة، ط ٢/ ١٩٩٧م.

عِـلَل الحديث، ابن أبي حاتم، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف وعناية د. سعد بن عبدالله الحميد و د. خالد بن عبدالرحمن الجريسي، مطابع الحميضي / الرياض، ط١/ ١٤٢٧ هــ ٢٠٠٦م.

العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبوالحسن ابن رشيق القَيْروانيّ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، تصوير دار الجيل/ لبنان ـ سورية، ط ٥/ ١٤٠١ هــ ١٩٨١م.

العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامُرَّائي، د. ب.

(ف)

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، نشْرة عبدالقادر شيبة الحمَد، د.ن، ط١/ ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م.

الـفَـسْـر: شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، أبوالفتح ابن جني، تحقيق د. رضا رجب: دار الينابيع/ دمشق، ط ١/ ٢٠٠٤م.

فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبوعبيد البكري الأندلسي، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١/ ١٩٧١م.

(ق)

قاموس رد العامِّيّ إلى الفصيح، أحمد رضا، دار الرائد العربي/ بيروت، ط٢/ ١٩٨١.

الفِهْرست، أبوالفرج محمد بن إسحاق النديم، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي/ لندن، ط١/ ٢٠٠٩م.

فوات الوَفَيات، محمد بن شاكر الكُتْبيّ، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر/ بيروت، ط ١/ ١٩٧٣، ١٩٧٤م.

القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، د. محمود أحمد الصغير، دار الفكر/ دمشق، ط١/ ١٩٩٩م.

القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، د. محمد عزب دسوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٩٩٨م.

القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، د. عبدالله خورشيد البرِّي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٩٩٢م.

القضايا الأساسية في علم اللغة، كلاوس هيشن، ترجمة د. حسن بحيري، مؤسسة المختار/ القاهرة، ط ١/ ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م.

قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث، عبدالسلام هارون، مكتبة السنة/ القاهرة، ط١/ ١٩٨٨م.

(ك)

الكامل، المبرِّد، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٣/ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م.

الكتاب، سيبويه عمرو بن عثمان بن قَـنْـبَـر، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ٣/ ١٩٨٨م.

كتاب السبعة في القراءات، ابن مجاهد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة، د. ط. ١٩٧٢م.

الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبوالبقاء أيوب بن موسى الحسيني الكَفَوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٢/ ١٩٩٨م.

(ل)

لسان العرب، ابن منظور، طبعة بولاق الأولى، صدرت خلال السنوات ١٣٠٠ ـ ١٣٠٧ هـ/ ١٨٨٣ ـ ١٨٨٩م.

لغة الجرائد، إبراهيم ناصيف اليازجي، مطبعة مطر/ القاهرة، ط ١، د. ت.

(م)

مجالس ثعلب، أبوالحسن أحمد بن يحيى ثعلبٌ الشيبانيُّ ولاءً، شرح وتحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف/ القاهرة، سلسلة «ذخائر العرب» - ١، النشرة الثانية، ط ١/ ١٩٦٠م.

مجالس العلماء، أبوالقاسم الزَّجَّاجي، تحقيق عبدالسلام هارون، وزارة الإعلام/ الكويت، ط ٢/ ١٩٨٤م.

مجمع الأمثال، أبوالفضل النيسابوري الميداني، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة، د. ط، ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥م.

مجموع أشعار العرب، المستشرق الألماني وليم بن الوَرْد البروسيّ، د. ن، ليبسيغ ـ ألمانيا، د. ط، ١٣٢١ هـ ـ ١٩٠٣م.

محيط المحيط: قاموسٌ مطوَّلٌ للغة العربية، بطرس البستاني، د. ن، بيروت، د. ط، ١٢٨٣ ـ ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٧ ـ ١٨٧٠م.

مَدْخلٌ إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ١/ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤م.

المدهش، ابن الجوزي، نسخة د. مروان قَبَّاني، دار الكتب العلمية/ بيروت، د. ط، د. ت.

المزهر في علوم العربية وأنواعها، السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جادالمولى ومحمد أبوالفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار التراث/ القاهرة، ط ٣، د. ت.

مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيُّـن للجاحظ، د. الشاهد البوشيخي، دار القلم/ الكويت، ط٢/ ١٩٩٥م.

معاني القرآن، أبوزكريا يحيى بن زياد الفرَّاء، الجزء الأول بتحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط ١/ ٤٧٣١ هـ ـ ١٩٥٥م.

معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ط١/ ١٩٩٣م.

معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، محمد العدناني، مكتبة لبنان/ بيروت، ط ١/ ١٩٨٩م.

معجم فِصاح العامية، هشام النحَّاس، مكتبة لبنان/ بيروت، ط١/ ١٩٧٧م.

معجم القراءات، د. عبداللطيف الخطيب، دار سعدالدين/ دمشق، د. ط، د. ت.

معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب/ القاهرة، ط ١/ ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م.

معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط ١/ ١٩٩٣.

معجم مقاييس اللغة، أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر/ بيروت، د. ط، ١٩٧٩م.

الـمُفَضَّليَّات، المفضَّل الضَّبِّي، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف القاهرة، ط ٦/ ١٩٧٩.

المقدمة (مقدمة كتابُ العِبَر، وديوانُ المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، عبدالرحمن ابن خَلدون، تحقيق د. عبدالسلام الشدَّادي، خِزانة ابن خَلدون - بيت الفنون والعلوم والآداب/ الدار البيضاء، ط١/ ٢٠٠٥م.

المنطق، محمد رضا المظفَّر، دار التعارف للمطبوعات/ بيروت، د. ط، ١٤٠٧ هـ - ٢٠٠٦م.

المنطق، مرتضى المطَهَّري، دار الولاء/ بيروت، ط ٢/ ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

الموجز في مراجع التراجم والبُلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط ١/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

(ن)

النحو المصفَّى، محمد عيد، مكتبة الشباب/ القاهرة، د. ط، د. ت.

النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة عبداللطيف، دار الشروق/ القاهرة، ٢٠٠٠م.

نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، تحقيق د. أبي محمد عبدالرحمن بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط١/ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

النُّكَت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، عُمارةَ اليمني، اعتنى بتصحيحه ونشره المستشرق هَرْتُويغ دِرِنْبرغ، مطبعة مَرْسَو بمدينة شالَوْن/ باريس، ط ١/ ١٣١٥ هـ - ١٨٩٧م.

نَكْتُ الهِمْيان في نُكَت العُميان، صلاح الدين الصَّفَدي، نشْرة أحمد زكي باشا، المكتبة التجارية/ القاهرة، ط ١/ ١٣٢٩هـ - ١٩١١م.

النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، دار القلم/ دمشق، ط١/ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

النويري وكتابه نهاية الأَرَب في فنون الأدب: مصادره الأدبية وآراؤه النقدية، د. أمينة محمد جمال الدين، دار ثابت/ القاهرة، ط ١/ ١٩٨٤م.

(و)

وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خِلِّكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر/ بيروت، ط ١/ ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م.

(ي)

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبومنصور الثعالبي، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.

ثالثاً: الإصدارات والموسوعات «الإلكترونية»

المكتبة الشاملة.

الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي/ أبوظبي، الإصدار الثالث، ٢٠٠٦م.

الموسوعة الشعرية، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/ دُبَـيّ، الإصدار الأول، ٢٠٠٩م.

* * *

فِـهْـرِس فوائد التحريـر(١)

(١) هذا الفهرس لتعليقات المحرِّر التي فيها نوعُ استطراد، دون التي اقتصر الكلام فيها على شرح كلمة أو تخريجٍ أو تنبيهٍ.. وما إلى هذه.

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

* * *

الفِهْرس المفصَّل

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

القسم الثاني

الأبحاث

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

* * *


مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الفِهْرِس العامّ

الموضوع **الصفحة**

القسم الأول: المقالات

(٦١: ١٧٩)

* * *

التعريف بالمحــرِّر

أحمد عبدالرحيم

- كاتب وباحث مصري.
- ولد في القاهرة: ٢٣/ ٥/ ١٣٩٧ هـ ـ ١٣/ ٥/ ١٩٧٧م.
- تخرج في كلية أصول الدين/ جامعة الأزهر بالقاهرة، قسم التفسير وعلوم القرآن، عام ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م.
- سجَّل لنيل درجة التخصص («الماجستير») برسالة عنوانها «الشيخ عبدالحميد الفراهي مفسِّراً»، عام ٢٠٠٤م.
- عمل، منذ بدايات دراسته الجامعية، باحثاً ومحرراً مع عدد من العلماء والمفكرين المصريين والعرب (١٤١٦ ـ ١٤٢٧هـ/ ١٩٩٥ ـ ٢٠٠٦م).
- عمل محـرِّراً ومدقِّقاً بمؤسسة الأهرام الصحفية بالقاهرة أربع سنوات (١٩٩٨ ـ ٢٠٠٢م).
- شارك في تأسيس وإدارة **«المركز العالمي للوسطية»** بدولة الكويت (١٤٢٩ ـ ١٤٣١هـ/ ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٩م).
- شارك في تأسيس وإدارة **«منتدى النهضة والتواصل الحضاري»** بالخرطوم/ جمهورية السودان (١٤٣١ ـ ١٤٣٤ هـ = ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٢م).
- كتـب العديـد مـن الـمقالات والأبحـاث بعددٍ من الـمجلات والصحـف والإصدارات، المصرية والعربية، منذ عام ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م.

ـ كتب «سيناريو» عدد من الأفلام الوثائقية، وشارك في صناعتها.

ـ البريد الإلكتروني:

araaheem@gmail.com

facebook.com /araaheem

مما صدر له:

ـ **حربُ المصطلحات**، مطبوعات اتحاد الصحفيين العرب، القاهرة، ط ١/ ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م. (تحرير ومشاركة وتقديم).

ـ **الحِكَمُ العطائية** للشيخ المربِّي ابن عطاءالله السَّكَنْدِري الشاذلي، دار البصائر، القاهرة، ط ١/ ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤م. (قراءةٌ وتقديم).

ـ **موسوعة الـفِـرَق الإسلامـيـة**، إشراف الأستاذ الدكتور **حسن محمود عبداللطيف الشافعي**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ط١/ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م، ط٢/ ١٤٣١ هـ ـ ٢٠٠٩م. (مشاركة).

ـ **العربية وطرائق اكتسابها**، تأليف د. محمد حسان الطيان، منتدى النهضة والتواصل الحضاري/ السودان، ط ١/ ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١٠م. (تحرير وتقديم وتعليق).

ـ **شَذَرات: قضايا وشخصيات**، منتدى النهضة والتواصل الحضاري/ السودان، ط ١/ ١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٢م. (تأليف).

ـ **التشيُّع في مصر** (كتاب جماعي)، «كتاب المسبار» السابع والسبعون، ط ١/ رجب ١٤٣٥ هـ ـ مايو ٢٠١٣، مركز المسبار للدراسات والبحوث/ دبي (مشاركة).

قِيْد الطبع:

- فوقَ المتوَقَّع.. دون المستَحَق! الأزهر الشريف منذ ثورة ٢٥ يناير: دراسةٌ تحليليةٌ نقدية (تأليف).

- الأزهر والتشيُّع: من لحظة التأسيس.. إلى مغادرة «نـَجَّـاد»! (تأليف).

- الحَشَّاشون: موجةٌ صاخبةٌ في محيط التاريخ الإسلامي (تأليف).

* * *